



صُورٌ مِنْ حَيَاةِ النَّابِعِينَ

٣٧ صُورَةٌ

«طَبْعَةٌ مَزِيدَةٌ وَمُنْقَحَةٌ»

الدكتور عبد الرحمن أفيت الباشا



وَصُورُ مَنْ جِيَاةِ النَّابِعِينَ

صُورٌ مِنْ حَيَاةِ النَّابِعِينَ

٣٧ صُورَةٌ

الدكتور عبد الرحمن أف الباشا

الطبعة الخامسة عشرة
«طبعة مزيّدة ومُنقحة»

١٩٩٧م - ١٤١٨هـ

دارُ الأديبِ
للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ إِنِّي أَهْبَيْتُ الصُّفُوءَ الْمُخْتَارَةَ مِنْ ثَقَاتِ التَّابِعِينَ
هُبًّا لَا يَفُوقُهُ إِلَّا هُبِّي لِصَحَابَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ
اللَّهُمَّ فَزِّبْنِي يَوْمَ الْفَرَجِ الْأَكْبَرِ الَّذِي مِنْ هَوْلَاءِ أَوْ هَوْلَاءِ
فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَيُّ مَا أَهْبَيْتُهُمْ إِلَّا فِيكَ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ

عبد المطلب

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وآله وأصحابه ، والذين اتبعوهم واقتدوا بهم قولاً ، وفعلأً ، وعدلاً ، وإحساناً ، وبعد ...

فها نحن ندخل في رحاب كتاب « صور من حياة التابعين » الذين عاشوا قريباً من عصر النبوة ، وتلمذوا على أيدي رجال المدرسة المحمدية الأولى ... فإذا هم صورة لصحابة رسول الله ﷺ في رسوخ الإيمان ، والتعالي عن عَرَض الدنيا ، والتفاني في مرضاة الله ...

وكانوا حلقة مُحكمة مؤثرة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم وجيل أئمة المذاهب ومن جاء بعدهم .

وقد قسمهم علماء الحديث إلى طبقات ، أولهم مَنْ لَحِقَ العشرة المبشرين بالجنة ، وآخرهم مَنْ لَقِيَ صغار الصَّحابة أو مَنْ تأخرت وفاتهم .

إن هذا الكتاب بطبعته الجديدة ؛ جُمعت به الكتب الستة التي سبق نشرها متضمنةً إضافاتٍ ، وتنقيحاتٍ ، تركها المؤلف - رحمه الله - ونشر للمرة الأولى ... آمليْن من العلي القدير أن يعيننا على إصدار بقية ما تركه المؤلف - رحمه الله - من صورٍ جديدةٍ تنشر للمرة الأولى .

ولا يفوتنا أن ننبه القارئ الكريم إلى أننا أصحاب الحق الوحيدون لنشر ، وطباعة ، وتوزيع جميع كتب الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا .

كما نشكر قارئنا الكريم على اختيار أحد منشوراتنا ونطلب منه العون في
إبداء الرأي والإشارة لأي خطأ قد يرد لكي تعم الفائدة ...
والله من وراء القصد .

الناشر

دار الأدب الإسلامي

يمان عبد الرحمن رأفت الباشا

رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

عَطَاؤُ بْنُ أَبِي رَسَاحٍ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُرِيدُ بِالْعِلْمِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
غَيْرَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ : عَطَاءٌ ... وَطَاوُسٌ ... وَمُجَاهِدٌ »

[سَلَمَةُ بْنُ كَهَيْلٍ]

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ شَهْرِ « ذِي الْحِجَّةِ » سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ
لِلْهِجْرَةِ ... وَهَذَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ يَمْوُجُ بِالْوَافِدِينَ عَلَى اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ (١).
مُشَاءً وَرُكْبَانًا .

وَشُيُوخًا وَشُبَّانًا ، وَرِجَالًا وَنِسَاءً .

فِيهِمُ الْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ .

وَالْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ .

وَالسَّيِّدُ وَالْمَسْهُودُ ...

لَقَدْ قَدِمُوا جَمِيعًا عَلَى مَلِكِ النَّاسِ مُحِبِّينَ (٢) مُلْبِّينَ ، رَاجِينَ مُؤْمِلِينَ .
وَهَذَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (٣) خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَعْظَمُ مُلُوكِ الْأَرْضِ
يُطَوِّفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ حَاسِرَ (٤) الرَّأْسِ حَافِي الْقَدَمَيْنِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارٌ وَرِدَاءٌ ...
شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ كَشَّانٍ بَقِيَّةَ رَعَايَاهُ مِنْ إِخْوَتِهِ فِي اللَّهِ .
وَكَانَ مِنْ خَلْفِهِ وَلَدَاهُ .

(١) من كل فج : من كل طريق .

(٢) مُحِبِّينَ : متخشعين لله .

(٣) سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : أحد كبار خلفاء بني أمية ، أخرج الخلافة من أولاده وعهد بها للخليفة الراهب عُثْمَرُ
ابن عَبد العزيز .

(٤) حاسر الرأس : مكشوف الرأس .

وَهُمَا غُلَامَانِ كَطَلْعَةِ الْبَذْرِ بَهَاءَ وَرُوءَاءَ، وَكَأَكْمَامٍ^(١) الْوَرْدِ نَضَارَةً
وَطَبِيباً .

وَمَا أَنْ اِنْتَهَى مِنْ طَوَافِهِ حَتَّى مَالَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ خَاصَّتِيهِ وَقَالَ :
أَيْنَ صَاحِبُكُمْ ؟ .

فَقَالَ : إِنَّهُ هُنَاكَ قَائِمٌ يُصَلِّي ...

وَأَشَارَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

فَاتَّبَعَهُ الْخَلِيفَةُ وَمِنْ وَرَائِهِ وَلَدَاهُ إِلَى حَيْثُ أُشِيرَ إِلَيْهِ ...

وَهُمْ رِجَالُ الْحَاشِيَّةِ^(٢) بِأَنْ يَتَّبِعُوا الْخَلِيفَةَ لِيَفْسَحُوا لَهُ الطَّرِيقَ ، وَيَدْفَعُوا
عَنْهُ أَدْلَى الزُّحَامِ^(٣) ؛ فَتَنَاهُمْ^(٤) عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ :

هَذَا مَقَامٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُلُوكُ وَالشُّوْقَةُ ...

وَلَا يُفْضَلُ فِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا بِالْقَبُولِ وَالتَّقْوَى ...

وَرُبَّ أَسْعَثَ أَغْبَرٍ^(٤) قَدِمَ عَلَى اللَّهِ ؛ فَتَقَبَّلَهُ بِمَا لَمْ يَتَقَبَّلْ بِهِ الْمُلُوكُ .

ثُمَّ مَضَى نَحْوَ الرَّجُلِ ؛ فَوَجَدَهُ مَا يَزَالُ دَاخِلًا فِي صَلَاتِهِ ، غَارِقًا فِي
رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ .

وَالنَّاسُ جُلُوسٌ وَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ...

فَجَلَسَ حَيْثُ اِنْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ ...

وَأَجْلَسَ مَعَهُ وَلَدَيْهِ ...

(١) أكمام الورد : ما يغلّف الورد من أوراق خضر أول تفتحته .

(٢) حاشية الخليفة : خاصته ومعاونوه .

(٣) تناهم عن ذلك : ردهم عن ذلك . (٤) الأسعث : المتلبّد الشعر ، والأغبر : الذي تكاثر عليه الغبار .

وَطَفِقَ الْفَتَيَانِ « الْقُرَشِيَّانِ » يَتَأَمَّلَانِ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قَصَدَهُ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ، وَجَلَسَ مَعَ عَامَّةِ النَّاسِ يَنْتَظِرُ فَرَاغَهُ مِنْ صَلَاتِهِ .

فَإِذَا هُوَ شَيْخٌ « حَبَشِيٌّ »، أَسْوَدُ الْبَشَرَةِ، مُقْلَقُلٌ^(١) الشَّعْرِ، أَفْطُسٌ^(٢)
الْأَنْفِ، إِذَا جَلَسَ بَدَأَ كَالْغُرَابِ الْأَسْوَدِ .

* * *

وَلَمَّا انْتَهَى الرَّجُلُ مِنْ صَلَاتِهِ ؛ مَالَ بِشِقِّهِ^(٣) عُلَى الْجِهَةِ الَّتِي فِيهَا
الْخَلِيفَةُ فَحَيَّاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِمِثْلِهَا .

وَهُنَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ، وَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ مَنَاسِكِ^(٤) الْحَجِّ مَنْسَكًا
مَنْسَكًا وَهُوَ يَفِيضُ بِالْإِجَابَةِ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ ...

وَيُفْصِّلُ الْقَوْلَ فِيهَا تَفْصِيلاً لَا يَدْعُ سَبِيلاً لِمُسْتَرِيدٍ ...

وَيُسْنِدُ كُلَّ قَوْلٍ يَقُولُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَلَمَّا انْتَهَى الْخَلِيفَةُ مِنْ مُسَاءَلَتِهِ جَزَّاهُ^(٥) خَيْرًا، وَقَالَ لَوْلَدَيْهِ :

قُومًا، فَقَامَا ... وَمَضَى الثَّلَاثَةُ نَحْوَ الْمَسْعَى .

وَفِيمَا هُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ؛ سَمِعَ الْفَتَيَانِ
الْمُنَادِينَ يُنَادُونَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

لَا يُفْتِي النَّاسَ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَّا عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ...

فَإِنْ لَمْ يُوْجَدْ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ .

فَالْتَفَتَ أَحَدُ الْغُلَامَيْنِ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ :

(١) مقفل الشَّعْرُ : شديد تجميد الشعر .

(٢) أفطس الأنف : شديد انخفاض قَصْبَةِ الأنف .

(٤) مناسك الحج : عبادات الحج .

(٥) جزَّاه خيرًا : قَالَ لَهُ : جزاك الله خيرًا .

(٣) مال بشقه : مال بطرفه .

كَيْفَ يَأْمُرُ عَامِلٌ^(١) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ النَّاسَ بِأَلَّا يَسْتَفْتُوا أَحَدًا غَيْرَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَصَاحِبِهِ ...

ثُمَّ جِئْنَا نَحْنُ نَسْتَفْتِي هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي لَمْ يَأْبَهُ^(٢) لِلْخَلِيفَةِ ، وَلَمْ يُوفِّهِ حَقَّهُ مِنَ التَّعْظِيمِ !! .

فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِوَلَدِهِ :

هَذَا الَّذِي رَأَيْتَهُ - يَا بُنَيَّ - وَرَأَيْتَ ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ صَاحِبُ الْفُتْنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...

وَوَارِثُ « عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ » فِي هَذَا الْمَنْصِبِ الْكَبِيرِ .

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ : يَا بُنَيَّ ... تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ...

فَبِالْعِلْمِ يَشْرَفُ الْوَضِيعُ ...

وَيَنْبُتُ الْخَامِلُ ...

وَيَعْلُو الْأَرْقَاءُ عَلَى مَرَاتِبِ الْمُلُوكِ ...

* * *

لَمْ يَكُنْ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مُبَالِغًا فِيمَا قَالَهُ لِابْنِهِ فِي شَأْنِ الْعِلْمِ .

فَقَدْ كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي صِغَرِهِ عَبْدًا مَمْلُوكًا لِامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ .

غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَكْرَمَ الْغُلَامَ « الْحَبَشِيِّ » بِأَنْ وَضَعَ قَدَمَيْهِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ^(٣) فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ ، فَقَسَّمْ وَقْتَهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً :

(١) عامل الخليفة : من يلي له عملاً كالوالي ونحوه .

(٢) لم يأبه للخليفة : لم يهتم به .

(٣) نعومة أظفاره : أي منذ طفولته .

قَسِمْتُ جَعَلَهُ لِسَيِّدَتِهِ ؛ يَخْدُمُهَا فِيهِ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ الْخِدْمَةُ ، وَيُؤَدِّي لَهَا حُقُوقَهَا عَلَيْهِ أَكْمَلَ مَا تُؤَدَّى الْحُقُوقُ .

وَقَسِمْتُ جَعَلَهُ لِرَبِّهِ ؛ يَفْرُغُ فِيهِ لِعِبَادَتِهِ أَصْفَى مَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ وَأَخْلَصَهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَسِمْتُ جَعَلَهُ لَطَلَبِ الْعِلْمِ ؛ حَيْثُ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَطَفِقَ يَنْهَلُ مِنْ مَنَاهِلِهِمُ الثَّرَّةَ ^(١) الصَّافِيَةَ .

فَأَخَذَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ ^(٢) ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَ صَدْرُهُ عِلْمًا وَفَقْهًا وَرِوَايَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَلَمَّا رَأَتْ السَّيِّدَةُ الْمَكِّيَّةُ أَنَّ غُلَامَهَا قَدْ بَاعَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ... وَوَقَفَ حَيَاتُهُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ...

تَحَلَّتْ عَنْ حَقِّهَا فِيهِ ، وَأَعْتَقَتْ رَقَبَتَهُ تَقَرُّبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ ...

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ اتَّخَذَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَجَاحٍ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَقَامًا لَهُ ...

فَجَعَلَهُ دَارَهُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا ...

وَمَدْرَسَتَهُ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا ...

وَمُصَلَّاهُ الَّذِي يَتَقَرَّبُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ بِالتَّقْوَى وَالطَّاعَةِ .

(١) الثَّرَّةُ : الغزيرة .

(٢) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

حَتَّى قَالَ الْمُؤَرِّخُونَ : كَانَ الْمَسْجِدُ فِرَاشَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ نَحْواً مِنْ عَشْرِينَ عَاماً ...

* * *

وَقَدْ بَلَغَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ مَنَزِلَةً فِي الْعِلْمِ ؛ فَاقَتْ كُلُّ تَقْدِيرٍ ...

وَسَمَّا إِلَى مَرْتَبَةٍ لَمْ يَنْلُهَا إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْ مُعَاصِرِيهِ ...
فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ، أَمَّ « مَكَّةَ » مُعْتَمِراً^(١) ...

فَاقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ وَيَسْتَفْتُونَهُ ، فَقَالَ :

إِنِّي لِأَعْجَبُ لَكُمْ يَا أَهْلَ « مَكَّةَ » ...

أَتَجْمَعُونَ لِي الْمَسَائِلَ لِتَسْأَلُونِي عَنْهَا وَفِيكُمْ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ؟ !

* * *

وَقَدْ وَصَلَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَةٍ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ بِخَصْلَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ :

أَوَّلَاهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمَ سُلْطَانُهُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ فَلَمْ يَدْعَ لَهَا سَبِيلاً لِتَرْتَعَ^(٢) فِيمَا لَا يَنْفَعُ ...

وَتَانِيَتُهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمَ سُلْطَانُهُ عَلَى وَقْتِهِ ؛ فَلَمْ يَهْدِرْهُ فِي فُضُولِ^(٣) الْكَلَامِ وَالْعَمَلِ ...

حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ سُوقَةَ^(٤) جَمَاعَةً مِنْ زُؤَارِهِ قَالَ :

(٣) فضول الكلام : الزائد عن الحاجة من الكلام .

(٤) مُحَمَّدُ بْنُ سُوقَةَ : أَحَدُ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ وَعُبَادِهَا .

(١) أُمُّ مَكَّةَ مُقْتَصِراً : جَاءَ مَكَّةَ لِأَدَاءِ الْعِمْرَةِ .

(٢) لَتَرْتَعَ : لِتَلْزُدْ وَتَتَنَمَّ .

أَلَا أَسْمِعُكُمْ حَدِيثًا لَعَلَّهُ يَنْفَعُكُمْ كَمَا نَفَعَنِي ؟ .

قَالُوا : بَلَى .

قَالَ : نَصَحَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِبَاحٍ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَقَالَ : يَا بَنَ أَخِي ...

إِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا كَانُوا يَكْرَهُونَ فَضُولَ الْكَلَامِ .

فَقُلْتُ : وَمَا فَضُولُ الْكَلَامِ عِنْدَهُمْ ؟ .

فَقَالَ : كَانُوا يُعْثِدُونَ كُلَّ كَلَامٍ فَضُولًا مَا عَدَا كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُقْرَأَ

وَيُفْهَمَ ...

وَحَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُزَوَّى وَيُذَرَّى^(١) ...

أَوْ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ ...

أَوْ عِلْمًا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ...

أَوْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحَاجَتِكَ وَمَعِيشَتِكَ الَّتِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا .

ثُمَّ حَدَّقَ^(٢) إِلَى وَجْهِهِ وَقَالَ :

أَتُنْكَرُونَ ﴿ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾^(٣) ؟^(٤) ...

وَأَنَّ مَعَ كُلِّ مِنْكُمْ مَلَكَ يَنْصِتُ ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾^(٥) * مَا يَلْفِظُ

مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^(٦) ؟^(٧)

(١) يُذَرَّى : يَفْهَمُ .

(٢) حَدَّقَ إِلَى وَجْهِهِ : حَدَّدَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ .

(٣) الْحَافِظُونَ الْكَاتِبُونَ : الْوُقَّاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَنَا وَيَكْتُبُونَ أَقْوَالَنَا .

(٤) سُورَةُ الْانْفِطَارِ : مِنَ الْآيَةِ ١٠ - ١١ .

(٥) قَعِيدٌ : قَاعِدَانِ .

(٦) رَقِيبٌ عَتِيدٌ : رَقِيبٌ حَاضِرٌ .

(٧) سُورَةُ ق : مِنَ الْآيَةِ ١٧ - ١٨ .

ثُمَّ قَالَ : أَمَا يَسْتَحْيِي أَحَدُنَا لَوْ نُشِرَتْ عَلَيْهِ صَحِيفَتُهُ الَّتِي أَمْلَاهَا صَدْرُ^(١)
نَهَارِهِ ؛ فَوَجَدَ أَكْثَرَ مَا فِيهَا لَيْسَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، وَلَا أَمْرِ دُنْيَاهُ ...

* * *

وَلَقَدْ نَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِلَعْمِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ :
مِنْهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمُتَخَصِّصُونَ .
وَمِنْهُمْ أَرْبَابُ الصَّنَاعَاتِ الْمُخْتَرِفُونَ .
وَمِنْهُمْ غَيْرُ ذَلِكَ ...

حَدَّثَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ^(٢) عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :
أَخْطَأْتُ فِي خَمْسَةِ أَبْوَابٍ مِنَ الْمَنَاسِكِ بِمَكَّةَ فَعَلَّمَنِيهَا حَجَّامٌ^(٣) ...
وَذَلِكَ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَخْلِقَ لِأَخْرُجَ مِنَ الْإِحْرَامِ ، فَأَتَيْتُ حَلَّاقًا ، وَقُلْتُ :
بِكُمْ تَخْلِقُ لِي رَأْسِي ؟ .
فَقَالَ : هَذَاكَ اللَّهُ ...

الثُّلُكُ^(٤) لَا يُشَارِطُ فِيهِ ، إِنْ جَلَسَ وَأَعْطَى مَا يَتَيَسَّرُ لَكَ .
فَخَجَلْتُ وَجَلَسْتُ .
غَيْرَ أَنِّي جَلَسْتُ مُنْحَرِفًا عَنِ الْقِبْلَةِ .
فَأَوَّمًا إِلَيَّ بِأَنْ أَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ ؛ فَفَعَلْتُ ، وَازْدَدْتُ خَجَلًا عَلَى خَجَلِي .
ثُمَّ أُعْطِيَتْهُ رَأْسِي مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ لِيُحْلِقَهُ ، فَقَالَ :
أَدِرْ شِقْلَكَ الْأَيْمَنَ ؛ فَأَدَرْتُهُ .

(٣) المراد بالحجام هنا الحلاق .

(٤) الثُّلُكُ : العبادة .

(١) صدر نهاره : أول نهاره .

(٢) أبو حنيفة النعمان : انظره ص ٤٨٤ ، ٤٩٤ .

وَجَعَلَ يَخْلُقُ رَأْسِي وَأَنَا سَاكِتٌ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَعْجَبُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي :
مَا لِي أَرَاكَ سَاكِتاً ؟ ...

كَبِيرٌ ...

فَجَعَلْتُ أَكْبُرُ حَتَّى قُمْتُ لِأَذْهَبَ .

فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ .

فَقُلْتُ : أُرِيدُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى رَحْلي .

فَقَالَ : صَلِّ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ امْضِ إِلَى حَيْثُ تَشَاءُ .

فَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ مِثْلُ هَذَا مِنْ حَجَّامٍ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَا عِلْمٍ .

فَقُلْتُ لَهُ :

مِنْ أَيْنَ لَكَ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنَ الْمَنَاسِكِ ؟ .

فَقَالَ : لِلَّهِ أَنْتَ ...

لَقَدْ رَأَيْتُ عَطَاءَ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ يَفْعَلُهُ ، فَأَخَذْتُهُ عَنْهُ ، وَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ النَّاسَ .

* * *

وَلَقَدْ أَقْبَلْتُ الدُّنْيَا عَلَى عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فَأَعْرَضَ ^(١) عَنْهَا أَشَدَّ

الْإِعْرَاضِ ، وَأَبَاهَا أَعْظَمَ الْإِبَاءِ ... وَعَاشَ عُمرُهُ كُلَّهُ يَلْبَسُ قَمِيصاً لَا يَزِيدُ ثَمَنُهُ
عَلَى خَمْسَةِ دَرَاهِمٍ .

وَلَقَدْ دَعَاهُ الْخُلَفَاءُ إِلَى مُصَاحَبَتِهِمْ ... فَلَمْ يُجِبْ دَعْوَتَهُمْ ؛ لِحَشِيَّتِهِ

(١) أَعْرَضَ عَنْهَا : صَدَّ عَنْهَا ، وَلَمْ يَبْعَا بِهَا .

عَلَى دِينِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ ، لِكِنَّهُ - مَعَ ذَلِكَ - كَانَ يَفِدُ عَلَيْهِمْ ؛ إِذَا وَجَدَ فِي ذَلِكَ فَائِدَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، أَوْ خَيْرًا لِلْإِسْلَامِ .

مِنْ ذَلِكَ مَا حَدَّثَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيُّ قَالَ :

انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي نُزَيْدٍ هِشَامَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا غَدَوْنَا قَرِيبًا مِنْ « دِمَشْقٍ » ؛ إِذَا نَحْنُ بِشَيْخٍ عَلَى حِمَارٍ أَسْوَدَ عَلَيْهِ قَمِيصٌ صَفِيقٌ ^(١) وَجُبَّةٌ بَالِيَةٌ ، وَقَلَنْسُوءَةٌ ^(٢) لَا زِقَّةَ بِرَأْسِهِ ، وَرِكَابَاهُ مِنْ خَشَبٍ .

فَصَحَحْتُ مِنْهُ ، وَقُلْتُ لِأَبِي :

مَنْ هَذَا ؟ .

فَقَالَ : اسْكُتْ ، هَذَا سَيِّدُ فُقَهَاءِ الْحِجَازِ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ...

فَلَمَّا قَرُبَ مِنَّا نَزَلَ أَبِي عَنْ بَعْلَتِهِ ، وَنَزَلَ هُوَ عَنْ حِمَارِهِ ، فَاعْتَنَقَا وَتَسَاءَلَا ^(٣) ، ثُمَّ عَادَا فَرَكِبَا ، وَانْطَلَقَا حَتَّى وَقَفَا عَلَى بَابِ قَصْرِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَمَا أَنْ اسْتَقَرَّ بِهِمَا الْجُلُوسُ حَتَّى أَذِنَ لَهُمَا ، فَلَمَّا خَرَجَ أَبِي قُلْتُ لَهُ :

حَدَّثَنِي بِمَا كَانَ مِنْكُمَا ، فَقَالَ :

لَمَّا عَلِمَ هِشَامُ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ بِالْبَابِ ؛ بَادَرَ ^(٤) فَأَذِنَ لَهُ - وَوَاللَّهِ مَا دَخَلْتُ إِلَّا بِسَبَبِهِ - فَلَمَّا رَأَاهُ هِشَامُ قَالَ :

مَرْحَبًا مَرْحَبًا ...

هَهُنَا هَهُنَا ... وَلَا زَالَ يَقُولُ لَهُ :

(١) قميص صفيق : قميص خفيف كفيف النسيج .

(٣) تساءلا : جعل كل منهما يسأل صاحبه .

(٤) بادر : سارع .

(٢) القلنسوة : غطاء الرأس .

هَهُنَا هَهُنَا ...

حَتَّى أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ، وَمَسَّ بِرُكْبَتِهِ رُكْبَتَهُ ...
وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ أَشْرَافُ النَّاسِ ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَسَكَتُوا .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ هِشَامٌ وَقَالَ :
مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ ... أَهْلُ اللَّهِ وَجِيرَانُ رَسُولِهِ ؛ تُقَسِّمُ
عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ وَأَعْطِيَايَهُمْ ...
فَقَالَ : نَعَمْ ...

يَا غُلَامُ اكْتُبْ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ بَعْطَايَاهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ لِسَنَةِ .
ثُمَّ قَالَ : هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .
فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ الْحِجَازِ وَأَهْلُ « نَجْدٍ » أَصْلُ الْعَرَبِ ،
وَقَادَةُ الْإِسْلَامِ ؛ تَرُدُّ فِيهِمْ فُضُولَ صَدَقَاتِهِمْ ...
فَقَالَ : نَعَمْ ... يَا غُلَامُ اكْتُبْ بِأَنْ تَرُدَّ فِيهِمْ فُضُولَ صَدَقَاتِهِمْ .
هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِ ذَلِكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .
قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

أَهْلُ الثُّغُورِ ^(١) يَقِفُونَ فِي وُجُوهِ عَدُوِّكُمْ ، وَيَقْتُلُونَ مَنْ رَامَ ^(٢) الْمُسْلِمِينَ
بِشَرٍّ ؛ تُجْرِي عَلَيْهِمْ أَرْزَاقًا تَدْرِهَا عَلَيْهِمْ ...
فَإِنَّهُمْ إِنْ هَلَكُوا ضَاعَتِ الثُّغُورُ ...

(١) أهل الثُّغُور : المرابطون عَلَى تخوم البلاد في مواجهة العدو .

(٢) رَامَ المسلمین بشرًا : قَصَدَهُمْ بِشَرٍّ .

فَقَالَ : نَعَمْ ... يَا غُلَامُ اكْتُبْ بِحَمْلِ أَرْزَاقِهِمْ إِلَيْهِمْ ...

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ ذِمَّتِكُمْ ^(١) لَا يُكَلَّفُونَ مَا لَا يُطِيقُونَ ، فَإِنَّ مَا تَجِبُونَهُ مِنْهُمْ مَعُونَةٌ لَكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

فَقَالَ : يَا غُلَامُ اكْتُبْ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ بِأَلَّا يُكَلَّفُوا مَا لَا يُطِيقُونَ .

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟

قَالَ :

نَعَمْ ... اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَأَعْلَمْ أَنَّكَ خُلِقْتَ وَخَدَكَ ...

وَتَمُوتُ وَخَدَكَ ...

وَتُخْشَرُ وَخَدَكَ ...

وَتُحَاسِبُ وَخَدَكَ ... وَلَا وَاللَّهِ مَا مَعَكَ مِمَّنْ تَرَى أَحَدًا .

فَأَكْبَّ هِشَامٌ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ يَنْكِي ...

فَقَامَ عَطَاءٌ ، فَقُمْتُ مَعَهُ .

فَلَمَّا صِرْنَا عِنْدَ الْبَابِ ، إِذَا رَجُلٌ قَدْ تَبِعَهُ بِكَيْسٍ لَا أَذْرِي مَا فِيهِ وَقَالَ لَهُ :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَ لَكَ بِهِذَا ...

فَقَالَ : هَيْهَاتَ ^(٢) ...

(١) أهل الذِّمَّة : من عاهدهم المسلمون من اليهود والنصارى ونحوهم على حمايتهم .

(٢) هيهات : اسم فعل بمعنى بُعِدَ [أي إن قبول ذلك بعيد] .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فَوَاللَّهِ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ ... وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ... وَلَمْ يَشْرَبْ قَطْرَةً
مَاءٍ ...

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ عُمِّرَ^(٢) عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَجَاحٍ حَتَّى بَلَغَ مِائَةَ عَامٍ ...

مَلَأَهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ...

وَأَثَرَعَهَا^(٣) بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ...

وَزَكَّاهَا بِالزَّهَادَةِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَالرَّغْبَةَ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ...

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ^(٤) وَجَدَهُ خَفِيفَ الْحِمْلِ مِنْ أَثْقَالِ الدُّنْيَا ...

كَثِيرَ الزَّادِ مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ ...

وَمَعَهُ فَوْقَ ذَلِكَ ...

سَبْعُونَ حَبَّةً ...

وَقَفَّ خِلَالَهَا سَبْعِينَ مَرَّةً عَلَى « عَرَفَاتٍ » ...

وَهُوَ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى رِضَاهُ وَالْجَنَّةَ ...

وَيَسْتَعِيدُّ بِهِ مِنْ سَخَطِهِ وَالتَّارِ (*) ...

(١) سورة الشعراء : ١٠٩ .

(٢) عُمِّرَ : طَالَ عَمْرُهُ .

(٣) أَثَرَعَهَا : مَلَأَهَا .

(٤) الْيَقِينُ : الْمَوْتُ .

(*) للاستزادة من أخبار عطاء بن أبي رباح انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٨٦/٢ .

٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣١٠/٣ .

٣ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢١١/٢ .

٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢٦١/٣ .

٥ - غرر الخصائص : ١١٧ .

٦ - طبقات الشيرازي : الورقة ١٧ .

٧ - نكت الهميان : ١٩٩ .

٨ - ميزان الاعتدال : ١٩٧/٢ .

٩ - تذكرة الحفاظ : ٩٢/١ .

١٠ - تهذيب التهذيب : ١٩٩/٧ .

١١ - نزهة الخاطر : ٨٥/١ .

عَامِرُ بْنُ عَبَّادٍ التَّمِيمِيُّ

« انْتَهَى الزُّهْدُ إِلَى ثَمَانِيَةِ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ عَامِرُ بْنُ عَبَّادٍ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ »

[عُلْقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ لِلْهَجْرَةِ .

وَهَا هُمْ أَوْلَاءِ الْهُدَاةِ الْبَنَاءُ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ ؛ يَخْتَطُّونَ ^(١) مَدِينَةَ « الْبَصْرَةِ » بِأَمْرِ مِنْ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَلَقَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ مُعَسَّكَراً لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْعَازِيَةِ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » ...

وَقَاعِدَةً ^(٢) لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَمَنَارَةً لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ ...

وَهَا هِيَ ذِي جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ ؛ تَزْحَلُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْفَتِيَّةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ :

مِنْ نَجْدٍ ... مِنَ الْحِجَازِ ... مِنَ الْيَمَنِ ...

لِيَكُونُوا عَلَى ثَغْرِ ^(٣) مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ « نَجْدٍ » فَتَى مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » يُدْعَى عَامِرُ بْنُ عَبَّادٍ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ الْعَنْبَرِيُّ .

* * *

(١) يَخْتَطُّونَ مَدِينَةَ الْبَصْرَةِ : يَرْسُمُونَ حَدُودَهَا .

(٣) الثَّغَرُ : الْمَكَانُ الَّذِي يَخَافُ أَنْ يَهْجَمَ مِنْهُ الْعَدُو .

(٢) قَاعِدَةٌ لِلدَّعْوَةِ : مَنَاطِقُ لِلدَّعْوَةِ .

كَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُؤَمِّدُ فَتَى فِي بَوَاكِرِ^(١) الصَّبَا ، غَضَّ الْإِهَابِ^(٢)
رَيَّانَ الشَّبَابِ ، وَضِيءَ الْوَجْهِ ، زَكِيَّ النَّفْسِ ، تَقَيَّ الْقَلْبِ ...
وَكَانَتْ « الْبَصْرَةُ » عَلَى حَدَائِثِهَا مِنْ أَعْنَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ غَنَى ، وَأَوْفَرِهَا
ثُرْوَةً ؛ لِمَا كَانَ يَتَدَفَّقُ عَلَيْهَا مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ ، وَيَنْصَبُ فِيهَا مِنَ الذَّهَبِ
النُّضَارِ^(٣) ...

لِكِنَّ الْفَتَى التَّمِيمِيَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَرْبٌ^(٤) فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ...
فَلَقَدْ كَانَ زَهَاداً يَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، رَغَاباً يَمَّا عِنْدَ اللَّهِ ...
مُعْرِضاً عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، مُقْبِلاً عَلَى اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ ...

* * *

وَكَانَ رَجُلٌ « الْبَصْرَةُ » وَمُقَدَّمَهَا يُؤَمِّدُ الصَّحَابِيَّ الْجَلِيلَ أَبُو مُوسَى
الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَنَصَّرَ فِي الْجَنَّةِ وَجْهَهُ .
فَهُوَ وَالِي الْمَدِينَةِ الزَّاهِرَةِ ...

وَهُوَ قَائِدُ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُنْطَلِقَةِ مِنْهَا فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ...
وَهُوَ إِمَامٌ أَهْلِهَا ، وَمُعَلِّمُهُمْ ، وَمُرْشِدُهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

* * *

لَزِمَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ فِي سِلْمِهِ وَحَزْبِهِ ...
وَصَحِبَهُ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ...

فَأَخَذَ عَنْهُ كِتَابَ اللَّهِ رَطْباً طَرِيّاً كَمَا نَزَلَ عَلَى فُؤَادِ مُحَمَّدٍ ...
وَرَوَى عَنْهُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَحِيحاً مُؤْضِلاً بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ...

(١) بواكير الصَّبَا : أوائل الصَّبَا .

(٢) غَضَّ الْإِهَابِ : طري الجلد [كناية عن صباه] . (٤) الأرب : الغاية والحاجة .

وَتَفَقَّهَ عَلَى يَدَيْهِ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

فَلَمَّا اكْتَمَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الْعِلْمِ ؛ جَعَلَ حَيَاتَهُ أَقْسَاماً ثَلَاثَةً :

فَسَطَّرَ^(١) فِي حَلَقَاتِ الذِّكْرِ ؛ يُقْرَأُ فِيهِ النَّاسُ الْقُرْآنَ فِي مَسْجِدِ

« الْبَصْرَةِ » ...

وَسَطَّرَ فِي خَلَوَاتِ الْعِبَادَةِ ؛ يَنْتَصِبُ فِيهِ قَائِماً بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ حَتَّى تَكِلَّ

قَدَمَاهُ ...

وَسَطَّرَ فِي سَاحَاتِ الْجِهَادِ ؛ يَسْلُ فِيهِ سَيْفَهُ غَارِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَلَمْ يَتْرُكْ فِي حَيَاتِهِ مَوْضِعاً لِشَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ أَبَداً ... حَتَّى دُعِيَ بِعَابِدِ

« الْبَصْرَةِ » وَزَاهِدَهَا ...

* * *

وَكَانَ مِنْ أَحْبَابِ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَا حَدَّثَ بِهِ أَحَدُ أَبْنَاءِ « الْبَصْرَةِ » قَالَ :

سَافَرْتُ فِي قَافِلَةٍ فِيهَا عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا اللَّيْلُ ؛ نَزَلْنَا

بِغَيْضَةٍ^(٢) ...

فَجَمَعَ عَامِرٌ مَتَاعَهُ ، وَرَبَطَ فَرَسَهُ بِشَجَرَةٍ ، وَطَوَّلَ لَهُ زِمَامَهُ^(٣) ، وَجَمَعَ لَهُ

مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ مَا يُشْبِعُهُ وَطَرَحَهُ أَمَامَهُ ... ثُمَّ دَخَلَ الْغَيْضَةَ وَأَوْغَلَ^(٤) فِيهَا

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

وَاللَّهِ لَا تُبْعَثُهُ ، وَلَا تُنْظَرَنَّ مَا يَصْنَعُ فِي أَعْمَاقِ الْغَيْضَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ .

فَمَضَى حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَابِيَةٍ مُلْتَقَّةِ الشَّجَرِ ، مَسْتُورَةٍ عَنِ الْأَعْيُنِ ...

(١) الشطر : القسم .

(٢) الغيضة : مجتمع الشجر في مغيض الماء .

(٣) الزمام : الرسن ، وهو الحبل الذي تقاد به الدابة . (٤) أوغل فيها : أبعد وتوازى .

فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، وَانْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي ...
فَمَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ صَلَاتِهِ وَلَا أَكْمَلَ وَلَا أَخْشَعَ .
فَلَمَّا صَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ، طَفِقَ ^(١) يَدْعُو اللَّهَ وَيُنَاجِيهِ ، فَكَانَ مِمَّا
قَالَهُ :

« إِلَهِي لَقَدْ خَلَقْتَنِي بِأَمْرِكَ ، وَأَقَمْتَنِي فِي بَلَايَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَشِيئَتِكَ ، ثُمَّ
قُلْتَ لِي : اسْتَمْسِكْ ^(٢) ...

فَكَيْفَ اسْتَمْسِكُ إِنْ لَمْ تُمْسِكْنِي بِلُطْفِكَ يَا قَوِيَّ يَا مَتِينُ ؟ .
إِلَهِي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ، ثُمَّ طَلَبْتَ مِنِّي
مَرْضَاةً لَكَ ؛ لَوْ هَبْتُهَا لِطَالِبِهَا ...

فَهَبْ لِي نَفْسِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ...
إِلَهِي إِنِّي أَحْبَبْتُكَ حُبًّا سَهَّلَ عَلَيَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ ، وَرَضَّانِي بِكُلِّ قَضَاءٍ ...
فَمَا أَبَالِي مَعَ حُبِّي لَكَ مَا أَصْبَحْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا أُمْسَيْتُ فِيهِ ...

* * *

قَالَ الرَّجُلُ الْبَصْرِيُّ :
ثُمَّ إِنَّهُ غَلَبَنِي الثُّعَاسُ ، فَأَسْلَمْتُ جَفَنِي إِلَى الْكَرَى ^(٣) ...
ثُمَّ مَازِلْتُ أَنَامُ وَأَسْتَيْقِظُ ، وَعَامِرٌ مُنْتَصِبٌ فِي مَوْقِفِهِ ، مَاضٍ فِي صَلَاتِهِ
وَمُنَاجَاتِهِ ، حَتَّى تَنْفَسَ ^(٤) الصُّبْحُ .
فَلَمَّا بَدَأَ لَهُ الْفَجْرُ أَدَّى الْمَكْتُوبَةَ ^(٥) ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَدْعُو فَقَالَ :

(١) طفق يدعو : أخذ يدعو .

(٢) استمسك : اضبط نفسك .

(٣) الكرَى : النوم .

(٤) تنفس الصبح : تَبَلَّج الصبح وظهر .

(٥) المكتوبة : الصلاة .

اللَّهُمَّ هَا قَدْ أَصْبَحَ الصُّبْحُ ، وَطَفِقَ النَّاسُ يَغْدُونَ وَيَزُوحُونَ ؛ يَسْتَعُونَ مِنْ
فَضْلِكَ ...

وَإِنَّ لِكُلِّ مِنْهُمْ حَاجَةً ...

وَإِنَّ حَاجَةَ عَامِرٍ عِنْدَكَ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ ...

اللَّهُمَّ فَاقْضِ حَاجَتِي وَحَاجَاتِهِمْ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ ...

اللَّهُمَّ إِنِّي سَأَلْتُكَ ثَلَاثًا ؛ فَأَعْطَيْتَنِي اثْنَتَيْنِ ، وَمَنْعْتَنِي وَاحِدَةً ...

اللَّهُمَّ فَأَعْطِينِيهَا حَتَّى أَعْبُدَكَ كَمَا أُحِبُّ وَأُرِيدُ ...

ثُمَّ نَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ ... فَعَلِمَ بِمَكَانِي مِنْهُ فِي تِلْكَ
الَّيْلَةِ ، فَجَزِعَ (١) لِذَلِكَ أَشَدَّ الْجَزَعِ ، وَقَالَ لِي فِي أَسَى (٢) :

أَرَاكَ كُنْتَ تَرْقُبُنِي اللَّيْلَةَ يَا أَخَا « الْبَصْرَةِ » !؟ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ : اسْتُرْ مَا رَأَيْتَ مِنِّي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَتُحَدِّثَنِي بِهِذِهِ الثَّلَاثِ الَّتِي سَأَلْتُهَا رَبَّكَ ، أَوْ لِأُخْبِرَنَّ النَّاسَ
بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْكَ .

فَقَالَ :

وَيَحَكَ (٣) لَا تَفْعَلْ .

فَقُلْتُ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ...

فَلَمَّا رَأَى إِصْرَارِي قَالَ :

(١) جزع : خاف واغتم .

(٢) في أسى : في حزن .

(٣) ويح : كلمة ترجم وتوَجَّع .

أَحَدُكَ عَلَى أَنْ تُعْطِيَنِي عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ إِلَّا تُخْبِرَ بِذَلِكَ أَحَدًا .
فَقُلْتُ : لَكَ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ وَمِيثَاقِهِ إِلَّا أَفْشِي لَكَ سِرًّا مَا دُمْتَ حَيًّا .
فَقَالَ :

لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَخَوْفُ عَلَيَّ فِي دِينِي مِنَ النِّسَاءِ ، فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَنْزِعَ مِنْ
قَلْبِي حُبَّهُنَّ ، فَاسْتَجَابَ لِي حَتَّى صِرْتُ مَا أَبَالِي ^(١) امْرَأَةً رَأَيْتُ أُمَّ جِدَارًا ...
فَقُلْتُ : هَذِهِ وَاحِدَةٌ ؛ فَمَا الثَّانِيَةُ ؟ .

فَقَالَ : الثَّانِيَةُ أَنِّي سَأَلْتُ رَبِّي إِلَّا أَخَافُ أَحَدًا غَيْرَهُ ، فَاسْتَجَابَ لِي حَتَّى
أَنِّي وَاللَّهِ مَا أَرْهَبُ شَيْئًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ سِوَاهُ .
قُلْتُ : فَمَا الثَّالِثَةُ ؟ .

فَقَالَ : سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُذْهِبَ عَنِّي النَّوْمَ حَتَّى أَعْبُدَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَمَا
أُرِيدُ فَمَتَعَنِي هَذِهِ الثَّالِثَةُ ...
فَلَمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ ذَلِكَ قُلْتُ لَهُ :

رِفْقًا بِنَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي لَيْلَكَ قَائِمًا ، وَتَقْطَعُ نَهَارَكَ صَائِمًا ...
وَلِإِنَّ الْجَنَّةَ تُدْرِكُ بِأَقْلٍ مِمَّا تَصْنَعُ ...
وَلِإِنَّ النَّارَ تُنْتَقَى بِأَقْلٍ مِمَّا تُعَانِي .
فَقَالَ :

إِنِّي لِأَخْشَى أَنْ أُنْذَمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ ...
وَاللَّهِ لِأَجْتَهِدَنَّ فِي الْعِبَادَةِ مَا وَجَدْتُ إِلَى الْاجْتِهَادِ سَبِيلًا ...

(١) ما أبالي : ما أهتم وما أكره .

فَإِنْ نَجَوْتُ ؛ فَبِرَحْمَةِ اللَّهِ ...

وَإِنْ دَخَلْتُ النَّارَ ؛ فَبِتَقْصِيرِي ...

* * *

غَيْرَ أَنَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ رَاهِباً مِنْ رُهْبَانِ^(١) اللَّيْلِ فَحَسِبُ ، وَإِنَّمَا
كَانَ فَارِساً مِنْ فُرْسَانِ النَّهَارِ أَيْضاً ...

فَمَا أَدْنَى مُؤَدِّنِ لِلْجِهَادِ^(٢) فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ يُجِيبُ
نِدَاءَهُ .

وَكَانَ إِذَا نَهَدَ^(٣) لِعَزْوَةِ مِنَ الْعَزَوَاتِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ، وَقَفَ يَتَوَسَّمُ^(٤)
النَّاسَ لِيُخْتَارَ رِفَاقُهُ .

فَإِذَا وَقَعَ عَلَى رِفْقَةٍ تُوَافِقُهُ ؛ قَالَ لَهُمْ :
يَا هَؤُلَاءِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكُمْ عَلَى أَنْ تُعْطُونِي مِنْ أَنْفُسِكُمْ ثَلَاثَ
خِلَالٍ^(٥) ...

فَيَقُولُونَ : مَا هُنَّ ؟ .
فَيَقُولُ : أُولَاهُنَّ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ خَادِماً ؛ فَلَا يُتَارِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي
الْخِدْمَةِ أَبَداً .

وَالثَّانِيَةُ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ مُؤَدِّناً ؛ فَلَا يُتَارِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ النَّدَاءَ لِلصَّلَاةِ .
وَالثَّالِثَةُ أَنْ أَنْفِقَ عَلَيْكُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِي ...

فَإِنْ قَالُوا : نَعَمْ ، انْضَمَّ إِلَيْهِمْ ...

(١) الراهب : من يهرب الله وينقطع لعبادته .

(٢) أَدْنَى مُؤَدِّنِ الجهاد : دعا داعي الجهاد .

(٣) نهدي لغزوة : أشرع لغزوة .

(٤) يتوسم الناس : يتفرس الناس ويتعرفونهم .

(٥) خلال : خصال .

وَإِذَا نَارَعَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ رَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عَامِرٌ مِنْ أَوْلِيكَ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرَزِ^(١) ،
وَيَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ^(٢) ...

فَهُوَ يَعْشَى^(٣) الْوَعَى كَمَا لَا يَعْشَاهَا أَحَدٌ سِوَاهُ ...
وَلَكِنَّهُ يَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ كَمَا لَا يَعْفُ عَنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ .

* * *

فَهَذَا « سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ »^(٤) يَنْزِلُ بَعْدَ « الْقَادِسِيَّةِ »^(٥) فِي إِيْوَانَ^(٦) « كِشْرَى » :

وَيَأْمُرُ « عَمْرُو بْنُ مُقَرِّنٍ » بِأَنْ يَجْمَعَ الْعَنَائِمَ وَيُخْصِيَهَا ؛ لِئُرْسِلَ خُمْسُهَا
إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَقْسِمَ بَاقِيَهَا عَلَى الْمُجَاهِدِينَ ... فَاجْتَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْلَاقِ^(٧) وَالنَّفَائِسِ مَا يَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَيَعِزُّ عَلَى الْحَضَرِ ...
فَهُنَا سِلَالٌ كَبِيرَةٌ مُحْتَمَّةٌ بِالرِّصَاصِ مَمْلُوءَةٌ بِأَيَّةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ كَانَ
يَأْكُلُ بِهَا مُلُوكُ فَارِسَ ...

وَهُنَاكَ صَنَادِيقُ مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ كُدِّسَتْ فِيهَا ثِيَابُ « كِشْرَى »
وَأَوْشَحْتُهُ^(٨) وَدُرُوعُهُ الْمُحَلَّلَةُ بِالْجَوْهَرِ وَالْدُرِّ ...

(١) عند الفَزَعِ : عند الخوف والحاجة إلى النجدة .

(٢) عند الطَّمَعِ : عند اقتسام الغنائم .

(٣) يَعْشَى الْوَعَى : يخوض الحرب .

(٤) سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ : أحد العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة وقائد المسلمين في القادسية ، انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٥) القادسية : ناحية في العراق وقعت فيها معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون على الفرس نصراً مؤزراً .

(٦) إِيْوَانُ كِشْرَى : قصر كِشْرَى .

(٧) الْعِلَقُ : بكسر العين كل شيء ثمين نفيس ، وجمعه أَعْلَاقُ .

(٨) الْوُشَاحُ : بضم الواو ، شبه قلادة من نسيج عريض يُرْصَع بالجواهر .

وَهَذِهِ أَسْفَاطُ^(١) مَمْلُوءَةٌ بِنَفَائِسِ الْحُلِيِّ وَرَوَائِعِ الْمُقْتَنِيَّاتِ ...
وَتِلْكَ أَعْمَادُ فِيهَا سُيُوفُ مُلُوكِ الْفُرْسِ مِلْكَاءَ بَعْدَ مِلْكِ ...
وَسُيُوفُ الْمُلُوكِ وَالْقُوَادِ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلْفُرْسِ خِلَالَ التَّارِيخِ ...

* * *

وَفِيمَا كَانَ الْعُمَالُ يُحْضُونَ هَذِهِ الْعَنَائِمَ عَلَى مَرَأَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ
وَمَسْمَعٍ ... أَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ^(٢)، وَمَعَهُ حُقٌّ^(٣) كَبِيرُ الْحَجْمِ
ثَقِيلُ الْوِزْنِ ؛ حَمَلَهُ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا ...
فَتَأَمَّلُوهُ ؛ فَإِذَا هُوَ حُقٌّ لَمْ تَقَعْ عُيُونُهُمْ عَلَى مِثْلِهِ قَطُّ ، وَلَا وَجَدُوا فِيهَا
جَمْعُوهُ شَيْئًا يَغْدِلُهُ أَوْ يُقَارِبُهُ

فَنَظَرُوا فِي دَاخِلِهِ ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ مُلِئَ بِرَوَائِعِ الدُّرِّ وَالْجَوْهَرِ ...
فَقَالُوا لِلرَّجُلِ :

أَيْنَ أَصَبْتَ هَذَا الْكَنْزَ الثَّمِينَ ؟ !

فَقَالَ : غَنِمْتُهُ فِي مَعْرَكَةٍ كَذَا ... فِي مَكَانٍ كَذَا ...

فَقَالُوا : وَهَلْ أَخَذْتَ مِنْهُ شَيْئًا ؟

فَقَالَ : هَذَا كُمْ اللَّهُ ...

وَاللَّهُ إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ، وَجَمِيعَ مَا مَلَكَتْهُ مُلُوكُ « فَارِسَ » لَا يَغْدِلُ عِنْدِي
قَلَامَةً ظَفَرٍ^(٤) ...

(١) السفط : وعاء يوضع فيه الطيب ، وما أشبه من زينة النساء وحليتهن .

(٢) الأشعث : الملبّد الشعر ، والأغبر : الذي علاه الغبار .

(٣) الحُقّ : وعاء الطيب ونحوه من النفائس .

(٤) قلامة الظفر : ما سقط من طرفه ، ويضرب بها المثل في الشيء الخسيس الحقير .

وَلَوْلَا حَقُّ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ^(١) فِيهِ مَا رَفَعْتُهُ مِنْ أَرْضِهِ ...
وَلَا أَتَيْتُكُمْ بِهِ .

فَقَالُوا : مَنْ أَنْتَ أَكْرَمَكَ اللَّهُ !؟ .

فَقَالَ :

لَا وَاللَّهِ لَا أَخْبِرُكُمْ لِتَحْمَدُونِي ، وَلَا أَخْبِرُ غَيْرَكُمْ لِيَقْرَظُونِي^(٢) ...
وَلَكِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَرْجُو ثَوَابَهُ .

ثُمَّ تَرَكَهُمْ ، وَمَضَى ...

فَأَمَرُوا رَجُلًا مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعَهُ ، وَأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِخَبَرِهِ .

فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَمْضِي وَرَاءَهُ - وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِهِ - حَتَّى بَلَغَ أَصْحَابَهُ ، فَلَمَّا
سَأَلَهُمْ عَنْهُ قَالُوا :

أَلَا تَعْرِفُهُ !؟ .

إِنَّهُ زَاهِدٌ « الْبَصْرَةِ » ... عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ .

* * *

لَكِنَّ حَيَاةَ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا عَرَفَتْ مِنْ أَمْرِهِ - لَمْ تَحُلْ
مِنَ الْمُنْغَصَّاتِ^(٣) ، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ أَذَى النَّاسِ ...

فَلَقَدْ تَعَرَّضَ لِمَا يَلْقَاهُ الصَّادِعُونَ^(٤) بِكَلِمَةِ الْحَقِّ ، الْمُتَكِبُونَ لِلْمُنْكَرِ ،
الْعَامِلُونَ عَلَى إِزَالَتِهِ ...

وَكَانَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ فِيمَا لَحِقَ بِهِ مِنْ أَذَى ... أَنَّهُ أَبْصَرَ رَجُلًا مِنْ أَعْوَانِ

(١) جعل الإسلام خمس غنائم الحرب لبيت مال المسلمين والباقي للمجاهدين .

(٢) ليقرظوني : لينبؤوا عليّ .

(٣) المنغصات : المكدرات .

(٤) الصادعون بكلمة الحق : المجاهرون بكلمة الحق .

صَاحِبِ شُرْطٍ^(١) «البَصْرَةَ» وَقَدْ أَمْسَكَ بِخِنَاقٍ^(٢) رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ^(٣)،
وَجَعَلَ يَجْرُهُ جَرًّا...

وَالذِّمِّيُّ يَسْتَعِثُّ النَّاسَ وَيَقُولُ :

أَجِيرُونِي أَجَارَكُمُ اللَّهُ ...

أَجِيرُوا ذِمَّةَ نَبِيِّكُمْ^(٤) يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَأَقْبَلَ عَامِرٌ عَلَيْهِ وَقَالَ :

هَلْ أَدَّيْتَ جِرَّتَكَ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ ، أَدَّيْتُهَا .

فَالْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ الْمُسْلِكِ بِخِنَاقِهِ وَقَالَ :

مَا تُرِيدُ مِنْهُ ؟ !

فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ مَعِيَ لِيَكْسَحَ^(٥) حَدِيقَةَ صَاحِبِ الشَّرْطِ ...

فَقَالَ لِلذِّمِّيِّ : أَتَطِيبُ نَفْسُكَ بِهَذَا الْعَمَلِ ؟

فَقَالَ : كَلَّا ...

فَذَلِكَ يَهْدُ قُورَايَ ، وَيَشْغَلُنِي عَنْ كَسْبِ قُوتٍ عِيَالِي ...

فَالْتَفَتَ عَامِرٌ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ : دَعُهُ^(٦) ...

فَقَالَ : لَا أَدَعُهُ ...

(١) صاحب الشرط : مدير الشرط ، والشرط جمع مفردة شرطة وشرطي .

(٢) الخناق : العنق .

(٣) أهل الذمة : من دخل في عهد المسلمين وحمايتهم من اليهود والنصارى وغيرهم .

(٤) أجيروا ذمة نبيكم : احموا من دخل في ذمة نبيكم .

(٥) يكسح الحديقة : ينظفها .

(٦) دعه : اتركه .

فَمَا كَانَ مِنْ عَامِرٍ إِلَّا أَنْ أَلْقَى رِذَاءَهُ عَلَى الذَّمِّ وَقَالَ :
وَاللَّهِ ، لَا تُخْفَرُ (١) ذِمَّةُ مُحَمَّدٍ وَأَنَا حَيٌّ ...

ثُمَّ تَجَمَّعَ النَّاسُ ، وَأَعَانُوا عَامِرًا عَلَى الرَّجْلِ ، وَخَلَصُوا الذَّمَّ بِالْقُوَّةِ ...
فَمَا كَانَ مِنْ أَعْوَانِ صَاحِبِ الشَّرْطِ إِلَّا أَنْ اتَّهَمُوا عَامِرًا بِتَبَذِّ (٢) الطَّاعَةِ ...

وَرَمَوْهُ بِالْخُرُوجِ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ...

وَقَالُوا : إِنَّهُ أَمْرُو لَا يَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ...

وَلَا يَأْكُلُ لَحْمَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْبَنَاهَا ...

وَيَتَعَالَى عَلَى غُشْيَانِ (٣) مَجَالِسِ الْوَلَاةِ ...

وَرَفَعُوا أَمْرَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ » (٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

* * *

أَمَرَ الْخَلِيفَةُ وَالْيَهُ عَلَى « الْبَصْرَةِ » بِأَنْ يَدْعُوا عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى مَجْلِسِهِ ،
وَأَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ ...

وَأَنْ يَرْفَعَ لَهُ خَبْرَهُ ...

فَاسْتَدْعَى وَالِي « الْبَصْرَةِ » عَامِرًا وَقَالَ :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - أَمَرَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ أُمُورٍ نُسِبَتْ
إِلَيْكَ ...

(١) لَا تَخْفَرُ ذِمَّةُ مُحَمَّدٍ : لَا يُتَقَضُّ عَهْدُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

(٢) نَبَذَ الطَّاعَةَ : تَرَكَ الطَّاعَةَ .

(٣) غُشْيَانِ مَجَالِسِ الْوَلَاةِ : شُهُودِ مَجَالِسِ الْوَلَاةِ .

(٤) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انْظُرْهُ فِي كِتَابِ « صُورُ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاظِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الطَّبَعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

فَقَالَ : سَلْ عَمَّا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : مَا لَكَ تَعْرِفُ (١) عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَأْتِي أَنْ تَتَزَوَّجَ !؟ .

فَقَالَ : مَا تَرَكْتُ الزَّوْاجَ عُزُوفاً عَنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا رَهْبَانِيَّةَ (٢) فِي الْإِسْلَامِ ...

وَلِنَّمَا أَنَا أَمْرُؤُ رَأَى أَنَّ لَهُ نَفْساً وَاحِدَةً ؛ فَجَعَلَهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَشِيَ أَنْ تَغْلِبَهُ الرُّوحَةُ عَلَيْهَا ...

فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ اللَّحْمَ !؟ .

فَقَالَ : بَلْ أَكَلْتُهُ إِذَا اسْتَهَيْتُهُ وَوَجَدْتُهُ ...

أَمَّا إِذَا لَمْ أَشْتَهِهِ ، أَوْ اسْتَهَيْتُهُ وَلَمْ أَجِدْهُ فَإِنِّي لَا أَكَلْتُهُ ...

فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ الْجُبْنَ !؟ .

فَقَالَ : إِنَّا بِمِنْطَقَةٍ فِيهَا « مَجُوسٌ » (٣) يَصْنَعُونَ الْجُبْنَ ...

وَهُمْ قَوْمٌ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَيْتَةِ وَالْمَذْبُوحَةِ ...

وَلِإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ تَكُونَ الْمِنْفَعَةُ (٤) الَّتِي صُنِعَ بِهَا الْجُبْنُ مِنْ شَاةٍ غَيْرِ

مُذَكَّاةٍ (٥) ، فَمَا شَهِدَ شَاهِدَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُ جُبْنٌ صُنِعَ بِمِنْفَعَةٍ شَاةٍ

مَذْبُوحَةٍ أَكَلْتُهُ ...

فَقَالَ : وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَأْتِيَ الْوَلَاةَ ، وَتَشْهَدَ مَجَالِسَهُمْ !؟ .

(١) تعرف : تزهد وتميل .

(٢) لا رهبانية : لا امتناع عن الزواج .

(٣) المجوس : طائفة تعبد الشمس أو النار .

(٤) المنفعة : مادة تُسْتَخْرَجُ من بطن الجدي الصغير وتوضع في الحليب فيصير جبناً .

(٥) غير مذكاة : غير مذبوحة .

فَقَالَ : إِنَّ فِي أَبْوَابِكُمْ كَثِيراً مِنْ طُلَّابِ الْحَاجَاتِ ؛ فَادْعُوهُمْ إِلَيْكُمْ ...
وَاقْضُوا حَوَائِجَهُمْ لَدَيْكُمْ ...

وَاثْرُكُوا مَنْ لَا حَاجَةَ لَهُ عِنْدَكُمْ ...

* * *

رُفِعَتْ أَقْوَالُ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» ؛ فَلَمْ
يَجِدْ فِيهَا نَبْذاً لِلطَّاعَةِ ... أَوْ خُرُوجاً عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ...
غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُطْفِئِ نَارَ الشَّرِّ ...

وَكَثُرَ الْقِيلُ وَالْقَالَ حَوْلَ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ...

وَكَادَتْ تَكُونُ فِتْنَةً بَيْنَ أَنْصَارِ الرَّجُلِ وَخُصُومِهِ ...

فَأَمَرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَسْيِيرِهِ ^(١) إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، وَاتَّخَذَهَا دَارَ إِقَامَةٍ
لَهُ ... وَأَوْصَى وَإِلَيْهِ عَلَى الشَّامِ «مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ» أَنْ يُحْسِنَ اسْتِقْبَالَهُ ،
وَأَنْ يَرْعَى حُرْمَتَهُ .

* * *

وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الرَّحِيلِ عَنِ «الْبَصْرَةِ»
خَرَجَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ إِخْوَانِهِ وَتَلَامِيذِهِ ؛ لِيُودَاعِهِ .

وَشَيَعُوهُ ^(٢) حَتَّى بَلَّغُوا مَعَهُ ظَاهِرَ «الْمَرْبَدِ» ^(٣) ...

وَهُنَاكَ قَالَ لَهُمْ : إِنِّي دَاعٍ فَأَمُّنُوا عَلَيَّ دُعَائِي ...

فَاشْرَأَبْتُ ^(٤) إِلَيْهِ أَعْنَاقَ النَّاسِ ، وَسَكَنْتُ حَرَكَتَهُمْ ، وَتَعَلَّقْتُ بِهِ عُيُونُهُمْ .

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ :

(١) أمر بتسييره : أمر بترحيله .

(٢) شيعوه : خرجوا معه لوداعه .

(٣) المرید : محلة في ظاهر البصرة .

(٤) اشرأبت إليه الأعناق : امتدت إليه الأعناق لتراه .

اللَّهُمَّ مَنْ وَشَىٰ بِي وَكَذَّبَ عَلَيَّ ، وَكَانَ سَبَباً فِي إِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي ،
وَالْتَفْرِيقِ بَيْنِي وَبَيْنَ صَاحِبِي ... اللَّهُمَّ إِنِّي صَفَحْتُ عَنْهُ فَاصْفَحْ عَنْهُ ...
وَهَبْهُ الْعَافِيَةَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ...

وَتَعَمَّدَنِي وَإِيَّاهُ وَسَائِرَ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ وَعَفْوِكَ وَإِحْسَانِكَ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ .

ثُمَّ وَجَّهَ مَطِيَّتَهُ^(١) نَحْوَ دِيَارِ الشَّامِ ، وَمَضَىٰ لِسَبِيلِهِ ...

* * *

قَضَىٰ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .
وَاخْتَارَ « بَيْتَ الْمَقْدِسِ » دَاراً لِإِقَامَتِهِ ... وَنَالَ مِنْ بِرِّ أَمِيرِ الشَّامِ « مُعَاوِيَةَ
ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ » وَإِجْلَالِهِ وَتَكْرِيمِهِ مَا هُوَ جَدِيدٌ بِهِ .

فَلَمَّا مَرَضَ مَرَضَ الْمَوْتِ دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ؛ فَوَجَدُوهُ يَتَكَبَّرُ .
فَقَالُوا : مَا يُتَكَبَّرُكَ ، وَقَدْ كُنْتَ ... وَكُنْتَ^(٢) !؟ ...

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَبْكِي حِرْصاً عَلَى الدُّنْيَا ... أَوْ جَزَعاً^(٣) مِنَ الْمَوْتِ .
وَإِنَّمَا أَبْكِي لِطُولِ السَّفَرِ وَقَلَّةِ الزَّادِ .

وَلَقَدْ أَمْسَيْتُ بَيْنَ صُوعُدٍ وَهُبُوطٍ ...

إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ... وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ...

فَلَا أَذْري إِلَى أَيِّهِمَا أَصِيرُ ...

ثُمَّ لَفَظَ أَنْفَاسَهُ ، وَلِسَانُهُ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللَّهِ ...

(١) مطيئته : راحلته .

(٢) وقد كنت وكنت : إشارة إلى ما كان عليه من التقى والصلاح . (٣) جزعاً : خوفاً .

وَهُنَاكَ ...

هُنَاكَ ... فِي أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ^(١) ...

وَتَالِثِ الْحَرَمَيْنِ^(٢) ...

وَمَسْرَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

ثَوَى^(٣) عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ ...

* * *

نَوَّرَ اللَّهُ لِعَامِرٍ فِي قَبْرِهِ ...

وَنَصَّرَ فِي جَنَاتِ الْخُلْدِ وَجْهَهُ^(*) ...

(١) أولَى القبلتين: كناية عن بيت المقدس، لأن المسلمين كانوا يستقبلونه في الصلاة قبل أن يؤمروا بالتوجه إلى الكعبة العظيمة.

(٢) ثالث الحرمين: كناية عن بيت المقدس أيضاً.

(٣) ثوى: أقام في المكان.

(*) للاستزادة من أخبار عامر بن عبد الله التميمي انظر:

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٠٣/٧ - ١١٢ (وانظر الفهارس في المجلد الأخير).
- ٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي (طبعة حلب): ٢٠١/٣ - ٢١١.
- ٣ - حلية الأولياء للأصبهاني: ٨٧ - ٩٥.
- ٤ - تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري: ١٩/٤، ٨٥، ٣٠٢، ٣٢٧، ٣٣٣.
- ٥ - البيان والتبيين للجاحظ: ٨٣/١، ٢٣١ - ٢٣٧، ٣٥٩ - ٣٦٣ و ١٩٦/٢ و ١٤٣/٣، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٩٣ و ٢٩٩/٤.
- ٦ - العقد الفريد لابن عبد ربه (تحقيق العريان): ٨٦/٣، ١٠٥، ١٠٧، ٢٦٤، ٣٢٧ و ٣٣/٥.
- ٧ - المعارف لابن قتيبة: ٤٣٨.
- ٨ - تهذيب التهذيب لابن حجر: ٧٧/٥.
- ٩ - رغبة الأمل في شرح الكامل للمرصفي: ٣٧/٢.
- ١٠ - كرامات الأولياء: ٥١/٢.

عُرْوَةُ بْنُ الرُّبَيْرِ

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى عُرْوَةَ بْنِ الرُّبَيْرِ »

[عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ]

مَا كَادَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ ^(١) تُلْمَلِمُ خُيُوطَهَا الذَّهَبِيَّةَ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَتَأْذُنُ لِلنَّسَمَاتِ النَّدِيَّةِ بِأَنْ تَتَرَدَّدَ فِي رَحَابِهِ الطَّاهِرَةِ ... حَتَّى شَرَعَ الطَّائِفُونَ بِالْبَيْتِ مِنْ بَقَايَا صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ ؛ يُعْطِرُونَ الْأَجْوَاءَ بِالتَّهْلِيلِ ^(٢) وَالتَّكْبِيرِ ، وَيُثْرِغُونَ ^(٣) الْأَرْجَاءَ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ .

وَحَتَّى أَخَذَ النَّاسُ يَتَحَلَّقُونَ ^(٤) زُمَرًا زُمَرًا حَوْلَ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ ، الرَّابِضَةِ ^(٥) وَسَطَ الْبَيْتِ فِي مَهَابَةِ وَجَلَالِ .

وَيَمْلَأُونَ عُيُونَهُمْ مِنْ بَهَائِهَا الْأَسْنَى ، وَيُدِيرُونَ بَيْنَهُمْ أَحَادِيثَ لَا لَعُوفِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ .

وَبِالْقُرْبِ مِنَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ ^(٦) جَلَسَ أَرْبَعَةُ فِتْيَانٍ صِبَاغِ الْوُجُوهِ ، كِرَامِ الْأَحْسَابِ ^(٧) ، مُعْطِرِي الْأُرْدَانِ ^(٨) ... كَانَتْهُمْ بَعْضُ حَمَامَاتِ الْمَسْجِدِ نَصَاعَةً أَثْوَابٍ ، وَأُلْفَةً قُلُوبٍ .

هُمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرُّبَيْرِ ، وَأَخُوهُ مُضْعَبُ بْنُ الرُّبَيْرِ ، وَأَخُوهُمَا عُرْوَةُ بْنُ الرُّبَيْرِ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ .

* * *

(١) الأصيل : بين العصر والمغرب .

(٢) التهليل : قول لا إله إلا الله .

(٣) يثرعون : يملأون .

(٤) يتحلقون : يجلسون على هيئة الحلقة .

(٥) الرابضة : المستقرة .

(٦) الركن اليماني : أحد أركان الكعبة المعظمة .

(٧) الأحساب : الأنساب .

(٨) الردن : طرف الكم الواسع ، وجمعه أردان .

وَدَارَ الْحَدِيثِ رَهْوَ^(١) يَبْنَ الْفَيْئَةِ الْأَبْرَارِ ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ :
لِيَتَمَنَّ كُلُّ مِنَّا عَلَى اللَّهِ مَا يُحِبُّ ...

فَانْطَلَقَتْ أَخْبِلَتُهُمْ تُحَلِّقُ فِي عَالَمِ الْعَيْبِ الرَّحْبِ ، وَمَضَتْ أَحْلَامُهُمْ
تَطُوفُ فِي رِيَاضِ الْأَمَانِيِّ الْخَضِرِ ، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ :
« أُمْنِيَّتِي أَنْ أَمْلِكَ » الْحِجَازَ ، وَأَنْ أَنَالَ الْخِلَافَةَ ...
وَقَالَ أَخُوهُ مُصْعَبٌ :

أَمَّا أَنَا فَاتَمَنَّيْتُ أَنْ أَمْلِكَ « الْعِرَاقِينَ »^(٢) ، فَلَا يُتَازَعُنِي فِيهِمَا مُنَازِعٌ .
وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ :

إِذَا كُنْتُمَا تَقْنَعَانِ بِذَاكَ ، فَأَنَا لَا أَقْنَعُ إِلَّا بِأَنْ أَمْلِكَ الْأَرْضَ كُلَّهَا ... وَأَنْ
أَنَالَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ...
وَسَكَتَ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ... فَالْتَفَتُوا إِلَيْهِ ، وَقَالُوا :
وَأَنْتَ مَاذَا تَتَمَنَّيَ يَا عُزْوَةُ ؟

فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ فِيمَا تَمَنَيْتُمْ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ ...
أَمَّا أَنَا فَاتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ عَالِمًا عَامِلًا ؛ يَأْخُذُ النَّاسُ عَنِّي كِتَابَ رَبِّهِمْ وَسُنَّةَ
نَبِيِّهِمْ ، وَأَحْكَامَ دِينِهِمْ ... وَأَنْ أَفُوزَ فِي الْآخِرَةِ بِرِضَى اللَّهِ ، وَأَحْظَى بِجَنَّتِهِ ...

* * *

ثُمَّ دَارَتْ الْأَيَّامُ دَوْرَئَهَا ؛ فَإِذَا بَعْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ يُبَايِعُ لَهُ بِالْخِلَافَةِ عَقِبَ
مَوْتِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ^(٣) فَيَحْكُمُ الْحِجَازَ ، وَمِصْرَ ، وَالْيَمَنَ ، وَخُرَاسَانَ ،
وَالْعِرَاقَ ...

(١) رهوا : ليناً هادئاً . (٢) العراقيين : الكوفة والبصرة . (٣) يزيد بن معاوية : ثاني خلفاء بني أمية .

ثُمَّ يُقْتَلُ عِنْدَ الْكُفَّةِ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي تَمَنَّى فِيهِ مَا تَمَنَّى .
وَإِذَا بِمُضْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ يَتَوَلَّى إِمْرَةً « الْعِرَاقِ » مِنْ قَبْلِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ ،
وَيُقْتَلُ هُوَ الْآخِرُ دُونَ^(١) وَلَايَتِهِ أَيْضاً .

وَإِذَا بِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ تَوُولُ^(٢) إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ،
وَتَجْتَمِعُ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَقْتَلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَأَخِيهِ مُضْعَبٍ عَلَى
أَيْدِي جُنُودِهِ ... ثُمَّ يَغْدُو^(٣) أَعْظَمَ مُلُوكِ الدُّنْيَا فِي زَمَانِهِ .

فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عُزْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ؟ ...

تَعَالَوْا نَبْدَأْ قِصَّتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا .

* * *

وُلِدَ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ لِسِتَّةِ وَاحِدَةٍ بَقِيَتْ مِنْ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ
فِي بَيْتٍ مِنْ أَعَزِّ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ شَأْنًا ، وَأَرْفَعَهَا مَقَامًا .

فَأَبُوهُ ، هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ حَوَارِيُّ^(٤) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَلَّ
سَيْفًا فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ .

وَأُمُّهُ ، هِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الْمُلَقَّبَةُ بِذَاتِ النُّطَاقَيْنِ^(٥) .

وَجَدُّهُ لِأُمِّهِ ، هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَصَاحِبُهُ فِي

الْغَارِ .

وَجَدَّتُهُ لِأَبِيهِ ، هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٦) عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

(١) يقتل دون ولايته : يقتل دفاعاً عن ولايته .

(٢) تَوُولُ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ : تصير إليه الخلافة .

(٣) يغدو : يصبح .

(٤) حواريو الرُّسُل : الْخَاصَّةُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ .

(٥) ذَاتِ النُّطَاقَيْنِ : لَقِبَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا شَقَتْ نَطَاقَهَا يَوْمَ الْهَجْرَةِ شَقَيْنِ لَتَرْبُطَ بِأَحَدِهِمَا مَزُودَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وبالثاني سقاءه ... انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٦) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

وَحَالَتُهُ، هِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ عَلَيْهَا رِضْوَانُ اللَّهِ .
فَقَدْ نَزَلَ إِلَى قَبْرِهَا حِينَ دُفِنَتْ بِنَفْسِهِ ، وَسَوَّى عَلَيْهَا لَحْدَهَا بِيَدَيْهِ .
أَفْتَضَّلُ أَنْ بَعْدَ هَذَا الْحَسَبِ حَسَباً ...
وَأَنَّ فَوْقَ هَذَا الشَّرَفِ شَرْفاً غَيْرَ شَرَفِ الْإِيمَانِ وَعِزَّةِ الْإِسْلَامِ ؟ .

* * *

وَلَكِنِّي يُحَقِّقُ غُرُوءَهُ أُمْنِيَّتُهُ الَّتِي تَمَنَّاها عَلَى اللَّهِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ
أَكْبَ (١) عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَانْقِطَعَ لَهُ ، وَاعْتَنَمَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ ... فَطَفِقَ يَوْمُ (٢) يُيُوتُهُمْ ، وَيُصَلِّي خَلْفَهُمْ ، وَيَتَّبِعُ مَجَالِسَهُمْ ، حَتَّى
رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَأَبِي
أُثُوبٍ الْأَنْصَارِيِّ ...

وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَسَعِيدَ بْنِ زَيْدٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ،
وَالثُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ...

وَأَخَذَ كَثِيراً عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى غَدَا أَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ
السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَفْزَعُ (٣) إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ .
وَيَسْتَعِينُ بِهِمُ الْوُلَاةُ الصَّالِحُونَ عَلَى مَا اسْتَوْعَاهُمُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ أَمْرِ
الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ (٤) حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَالْيَا عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ
الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ جَاءَهُ النَّاسُ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ... فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ دَعَا عَشْرَةَ
مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ غُرُوءَهُ بْنُ الزُّبَيْرِ ...

(١) أكب على طلب العلم : عكف على طلب العلم ، وانقطع له .

(٢) يوم يوتهم : يأتي بيوتهم .

(٣) يَفْزَعُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ : يُلْجَأُونَ إِلَيْهِ ، وَيُلْوِذُونَ بِهِ . (٤) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

فَلَمَّا صَارُوا عِنْدَهُ رَحَّبَ بِهِمْ ، وَأَكْرَمَ مَجَالِسَهُمْ ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ
وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ :

إِنِّي دَعَوْتُكُمْ لِأَمْرِ تُوجِزُونَ عَلَيْهِ وَتَكُونُونَ لِي فِيهِ أَغْوَانًا عَلَى الْحَقِّ ...
فَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ أَمْرًا إِلَّا بِرَأْيِكُمْ ، أَوْ بِرَأْيِ مَنْ حَضَرَ مِنْكُمْ .
فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا يَتَعَدَّى عَلَى أَحَدٍ ، أَوْ بَلَعَكُمْ عَنْ عَامِلٍ لِي مَظْلَمَةٌ
فَأَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تُبْلِغُونِي ذَلِكَ .

فَدَعَا لَهُ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِخَيْرٍ ، وَرَجَا لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّدَادَ^(١) وَالرَّشَادَ .

* * *

وَقَدْ جَمَعَ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ الْعِلْمَ إِلَى الْعَمَلِ ، فَقَدْ كَانَ صَوَّامًا فِي
الْهَوَاجِرِ^(٢) ... قَوَّامًا فِي الْعَتَمَاتِ ، رَطَّبَ اللِّسَانَ دَائِمًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ خَدِينًا^(٣) لِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، عَاكِفًا عَلَى تِلَاوَتِهِ ...
فَكَانَ يَقْرَأُ رُبْعَ الْقُرْآنِ كُلَّ نَهَارٍ نَظْرًا فِي الْمُصْحَفِ ...

ثُمَّ يَقُومُ بِهِ اللَّيْلَ تِلَاوَةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ...

وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ مُنْذُ صَدْرِ^(٤) شَبَابِهِ إِلَى يَوْمِ وَفَاتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ
وَاحِدَةٍ لِحَظَبِ نَزَلَ بِهِ سَيِّئَتِكَ نَبُوهُ بَعْدَ قَلِيلٍ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يَجِدُ فِي الصَّلَاةِ رَاحَةً نَفْسِيَّةً ، وَفُرَّةَ عَيْنَيْهِ ، وَجَنَّتُهُ
عَلَى الْأَرْضِ ، فَيُحْسِنُهَا كُلَّ الْإِحْسَانِ ، وَيُتَقِنُ شَعَائِرَهَا أَتَمَّ الْإِتْقَانِ ، وَيُطِيلُهَا
غَايَةَ الطُّولِ ...

(٣) خدِينًا : مصاحباً .

(٤) صدر شبابه : أول شبابه .

(١) السداد : الصواب والاستقامة .

(٢) الهاجرة : شدة القبط ، والجمع هواجير .

رُوي عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يُصَلِّي صَلَاةً خَفِيفَةً ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ دَعَاهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : يَا بَنَ أَخِي ، أَمَا كَانَتْ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ جَلٌّ وَعِزٌّ حَاجَةٌ ؟! ...
وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صَلَاتِي كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْمِلْحَ .

* * *

وَقَدْ كَانَ عُزْرَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ سَخِيٌّ الْيَدِ سَمَحًا جَوَادًا ...
وَمِمَّا أَثَرَ عَنْ جُودِهِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بُسْتَانٌ مِنْ أَعْظَمِ بَسَاتِينِ الْمَدِينَةِ ...
عَذْبُ الْمِيَاهِ ، ظَلِيلُ الْأَشْجَارِ ، بَاسِقُ النَّخِيلِ ...

وَكَانَ يُسَوِّرُ^(١) بُسْتَانَهُ طَوَالَ الْعَامِ ؛ لِحِمَايَةِ أَشْجَارِهِ مِنْ أَذَى الْمَاشِيَةِ
وَعَبَثِ الصَّبْيَةِ ، حَتَّى إِذَا آنَ أَوَانُ الرُّطَبِ^(٢) وَأَيْتَعَتِ الثَّمَارُ وَطَابَتْ ، وَاشْتَهَتْهَا
النُّفُوسُ ... كَسَرَ حَائِطَ بُسْتَانِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ جِهَةٍ لِيَجِيزَ لِلنَّاسِ دُخُولَهُ ...
فَكَانُوا يُلْمُونَ^(٣) بِهِ ذَاهِبِينَ آيِينَ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِ مَا لَذَّ لَهُمُ الْأَكْلُ ،
وَيَحْمِلُونَ مِنْهُ مَا طَابَ لَهُمُ الْحَمْلُ .

وَكَانَ كُلَّمَا دَخَلَ بُسْتَانَهُ هَذَا رَدَّدَ قَوْلَهُ جَلٌّ وَعِزٌّ :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(٤) .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ مِنْ خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ^(٥) شَاءَ اللَّهُ جَلٌّ وَعِزٌّ أَنْ
يَمْتَحِنَ عُزْرَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ امْتِحَانًا لَا يَنْبُتُ لَهُ إِلَّا ذُرُؤُ الْأَفِيدَةِ الَّتِي عَمَرَهَا الْإِيمَانُ
وَأُثْرَعَهَا^(٦) الْيَقِينُ .

(١) يسور بستانه : يجعل لبستانه سوراً .

(٢) الرطب : ثمر النخيل قبل أن يصير تمراً .

(٣) يلْمون به : يدخلونه .

(٤) سورة الكهف : آية ٣٩ .

(٥) الوليد بن عبد الملك : سادس خلفاء بني أمية

وقد بلغت دولة الإسلام في عهده أوج عزمها .

(٦) أترعها : ملأها .

فَلَقَدْ دَعَا خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ عُزُورَةَ بَنَ الزُّبَيْرِ لِزِيَارَتِهِ فِي « دِمَشْقَ » ؛ فَلَبَّى
دَعْوَتَهُ ، وَصَحِبَ مَعَهُ أَكْبَرَ بَنِيهِ ... وَلَمَّا قَدِمَ عَلَى الْخَلِيفَةِ رَحَّبَ بِمَقْدَمِهِ أَعْظَمَ
التَّوْحِيْبِ ، وَأَكْرَمَ وَفَادَتَهُ أَوْفَى الْإِكْرَامِ ، وَبَالَغَ فِي الْحَفَاوَةِ بِهِ .

ثُمَّ سَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ تَجْرِيَ الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَسْتَهِي السُّفُنُ .

ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ عُزُورَةَ دَخَلَ عَلَى إِصْطَبِلٍ ^(١) الْوَلِيدِ لِيَتَفَرَّجَ عَلَى جِوَادِهِ
الصَّافِنَاتِ ^(٢) ، فَرَمَحَتْهُ ^(٣) دَابَّةٌ رَمْحَةً قَاضِيَةً أَوْدَتْ بِحَيَاتِهِ .

وَلَمْ يَكِدِ الْأَبُ الْمَفْجُوعُ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ قَبْرِ وَلَدِهِ ، حَتَّى أَصَابَتْ
إِخْدَى قَدَمَيْهِ « الْآكِلَةُ » ^(٤) .

فَتَوَرَّمَتْ سَافُهُ ، وَجَعَلَ الْوَرَمُ يَشْتَدُّ وَيَمْتَدُّ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ .

فَاسْتَدْعَى الْخَلِيفَةُ لِصَيفِهِ الْأَطْبَاءَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ...

وَحَضَّوهُمْ عَلَى مُعَالَجَتِهِ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ ...

لَكِنَّ الْأَطْبَاءَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَا مَنْدُوحَةَ ^(٥) مِنْ بَثْرِ سَاقِ عُزُورَةَ قَبْلَ أَنْ
يَسْرِيَ الْوَرَمُ إِلَى جَسَدِهِ كُلِّهِ ، وَيَكُونَ سَبَباً فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِ ...
فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْإِذْعَانِ لِذَلِكَ .

وَلَمَّا حَضَرَ الْجُرَاحُ لِبَثْرِ السَّاقِ ، وَأَحْضَرَ مَعَهُ مَبَاضِعُهُ ^(٦) لِشَقِّ اللَّحْمِ ،
وَمَنَاشِيرُهُ لِتَشْرِ الْعَظْمِ ، قَالَ الطَّبِيبُ لِعُزُورَةَ :

أَرَأَيْ أَنْ تُسْقِيكَ جُرُوعَةً مِنْ مُسْكِرٍ لِكَيْ لَا تَشْعُرَ بِآلَامِ الْبَثْرِ الْمُبَرِّحَةِ .

(١) الإصطبل : مربوط الخيل ونحوها من الدواب .

(٢) الجياد الصافنات : الجياد التي تقف على ثلاث وترفع الرابعة ، وهي صفة من صفات الجياد الكريمة .

(٣) رمحته : رفته .

(٤) الآكلة : داء يصيب العضو فيأكل منه .

(٥) لا مندوحة : لا بُدَّ وَلَا مَقَرَّ .

(٦) المبضع : آلة يشق بها الطبيب الجلد .

فَقَالَ : هَيْهَاتَ ^(١) ... لَا أَسْتَعِينُ بِحَرَامٍ عَلَى مَا أَرْجُوهُ مِنَ الْعَافِيَةِ .

فَقَالَ لَهُ : إِذْنٌ نَسْقِيكَ الْمُخَدَّرَ ، فَقَالَ :

مَا أَحِبُّ أَنْ أُسَلِّبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِي دُونَ أَنْ أَشْعُرَ بِأَلَمِهِ ، وَأُحْتَسِبَ ^(٢) ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ .

وَلَمَّا هَمَّ الْجِرَاحُ بِقَطْعِ السَّاقِ ، تَقَدَّمَ نَحْوَ عُرْوَةِ طَائِفَةٍ مِنَ الرِّجَالِ فَقَالَ :
مَا هَؤُلَاءِ ؟ ... فَقِيلَ لَهُ :

لَقَدْ جِيءَ بِهِمْ لِيُمْسِكُوكَ ، فَلَرَبَّمَا اسْتَدَّ عَلَيْكَ الْأَلَمُ ؛ فَجَذَبْتَ قَدَمَكَ
جَذَبَةً أَضَرَّتْ بِكَ .

فَقَالَ : رُدُّوهُمْ ...

لَا حَاجَةَ لِي بِهِمْ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ^(٣) ذَلِكَ بِالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ ...
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الطَّبِيبُ ؛ فَقَطَعَ اللَّحْمَ بِالْمِبْضَعِ ... وَلَمَّا بَلَغَ الْعَظْمَ ، وَضَعَ
عَلَيْهِ الْمِنْشَارَ وَطَفِقَ يَنْشُرُهُ بِهِ ، وَعُرْوَةٌ يَقُولُ :
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ .

وَمَا فَتِيَ الْجِرَاحُ يَنْشُرُ ، وَعُرْوَةٌ يُهْلَلُ وَيُكَبَّرُ حَتَّى يُبْرِتِ السَّاقُ بِنَرٍّ .
ثُمَّ أَغْلِي ^(٤) الرِّيثُ فِي مَغَارِفِ الْحَدِيدِ ، وَغُمِسَتْ بِهِ سَاقُ عُرْوَةٍ لِإِقَافِ
تَدْفِقِ الدَّمَاءِ ، وَحَسَمَ الْجِرَاحُ ، فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ إِعْمَاءَةٌ طَوِيلَةٌ حَالَتْ دُونَهُ وَدُونَ أَنْ
يَقْرَأَ حِصَّتَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

وَكَانَتِ الْمَرَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي فَاتَهُ فِيهَا ذَلِكَ الْخَيْرُ مُنْذُ صَدَرَ شَبَابِهِ .

(١) هيهات : اسم فعل بمعنى بَعْدَ ، [أي لَا أَفْعَلُ] . (٣) أَكْفِيكُمْ ذَلِكَ : أَغْنِيكُمْ عَنْ ذَلِكَ .

(٢) اخْتَسَبَ الشَّيْءَ : تَوَكَّلَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ . (٤) أَغْلِي الزَّيْتُ : حُمِي الزَّيْتُ عَلَى النَّارِ .

وَلَمَّا صَحَا عُرْوَةً ، دَعَا بِقَدَمِهِ الْمَبْتُورَةَ ، فَنَاقَلُوهُ إِثَّاهَا ...

فَجَعَلَ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ : أَمَّا وَالَّذِي حَمَلَنِي عَلَيْكَ فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ
إِلَى الْمَسَاجِدِ ؛ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّي مَا مَشَيْتُ بِكَ إِلَى حَرَامٍ قَطُّ ...
ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَيَّاتِ « لِمَعْنِ بْنِ أَوْسٍ » ^(١) يَقُولُ فِيهَا :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّي لِرِيَّةِ ^(٢) وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي
وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصْرِي لَهَا وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي
وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِيبْنِي مُصِيبَةٌ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتَى قَبْلِي

* * *

وَقَدْ شَقَّ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَا نَزَلَ بِضَيْفِهِ الْكَبِيرِ مِنَ التَّوَازِلِ ...
فَقَدْ احْتَسَبَ ابْنَهُ ، وَفَقَدَ سَاقَهُ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ فَجَعَلَ يَحْتَالُ لِتَغْرِيبِهِ
وَتَضْيِيرِهِ عَلَى مَا أَصَابَهُ .

وَصَادَفَ أَنْ نَزَلَ بِدَارِ الْخِلَافَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي « عَبْسٍ » فِيهِمْ رَجُلٌ
ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ سَبَبِ كَفِّ بَصَرِهِ ، فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي « عَبْسٍ » رَجُلٌ أَوْفَرُ مِنِّي مَالًا ، وَلَا أَكْثَرُ
أَهْلًا وَوَلَدًا .

فَنَزَلْتُ مَعَ مَالِي وَعِيَالِي فِي بَطْنِ وَادٍ مِنْ مَنَازِلِ قَوْمِي ، فَطَرَقَنَا سَيْلٌ لَمْ نَرَ
مِثْلَهُ قَطُّ ...

فَذَهَبَ السَّيْلُ بِمَا كَانَ لِي مِنْ مَالٍ ، وَأَهْلٍ ، وَوَلَدٍ ...
وَلَمْ يَتْرُكْ لِي غَيْرَ بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، وَطِفْلٍ صَغِيرٍ حَدِيثِ الْوِلَادَةِ .

(١) مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ : شَاعِرٌ مُحَضَّرٌ مِنْ بَنِي مَزِينَةَ . (٢) الرِّبَاةُ : الشُّكُّ وَالنُّهْمَةُ .

وَكَانَ الْبَعِيرُ صَغْبًا^(١) فَتَدَّ^(٢) مِنِّي ...

فَتَرَكْتُ الصَّبِيَّ عَلَى الْأَرْضِ وَلَحِقْتُ بِالْبَعِيرِ ...

فَلَمْ أَجَاوِزْ مَكَانِي قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَوْبَةَ الطُّفْلِ ...

فَالْتَفَتْتُ ... فَإِذَا رَأْسُهُ فِي فَمِ الذُّئْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ...

فَبَادَرْتُ إِلَيْهِ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْتَطِيعَ إِنْقَاذَهُ إِذْ كَانَ قَدْ أَتَى عَلَيْهِ ...

فَلَحِقْتُ بِالْبَعِيرِ فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ ؛ رَمَانِي بِرِجْلِهِ عَلَى وَجْهِي رَمِيَةً حَطَّمَتْ

جَبِينِي ، وَذَهَبَتْ بِبَصَرِي ...

وَهَكَذَا وَجَدْتُ نَفْسِي قَدْ غَدَوْتُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلٍ ، وَلَا وَلَدٍ ،

وَلَا مَالٍ ، وَلَا بَصَرٍ ... فَقَالَ الْوَلِيدُ لِحَاجِبِهِ :

انْطَلِقْ بِهَذَا الرَّجُلِ إِلَى صَیْفِنَا عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَلْيَقْصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ؛ لِيَعْلَمَ

أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بَلَاءً .

* * *

وَلَمَّا حُمِلَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأُذْخِلَ عَلَى أَهْلِهِ ، بَادَرَهُمْ قَائِلًا :

لَا يَهْوِلَنَّكُمْ مَا تَرَوْنَ ... فَلَقَدْ وَهَبَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْبَنِينَ ، ثُمَّ

أَخَذَ مِنْهُمْ وَاحِدًا وَأَبْقَى لِي ثَلَاثَةً ...

فَلَهُ الْحَمْدُ .

وَأَعْطَانِي أَرْبَعَةً مِنَ الْأَطْرَافِ ، ثُمَّ أَخَذَ مِنْهَا وَاحِدًا وَأَبْقَى لِي ثَلَاثَةً ...

فَلَهُ الْحَمْدُ ...

وَأَيُّكُمْ^(٣) اللَّهُ ، لَعْنُ أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي قَلِيلًا ، فَلَقَدْ أَبْقَى لِي كَثِيرًا ...

(٣) أُمُّ اللَّهِ : أَحْلَفَ بِاللَّهِ .

(٢) نَدَّدَ : شَرَدَ .

(١) الْبَعِيرُ الصَّغْبُ : الْجَمَلُ الْعَبِيرُ .

وَلَمَّا ابْتَلَانِي مَرَّةً ، فَلَطَلَمَا عَافَانِي مَرَاتٍ ...

* * *

وَلَمَّا عَرَفَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بَوْصُولَ إِمَامِهِمْ وَعَالِمِهِمْ عُزُورَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ
تَسَايَلُوا^(١) عَلَى بَيْتِهِ لِيُؤَاوِسُوا وَيُعْزُّوا ...

فَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا عَزَّيَ بِهِ كَلِمَةُ «إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ طَلْحَةَ» ، حَيْثُ
قَالَ لَهُ :

أَبِشْرُ - يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ - فَقَدْ سَبَقَكَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِكَ ، وَوَلَدٌ مِنْ أُنْتَائِكَ
إِلَى الْجَنَّةِ ...

وَالْكُلُّ يَتَّبِعُ الْبَعْضَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ...

وَلَقَدْ أَتَقَى اللَّهُ لَنَا مِنْكَ مَا نَحْنُ إِلَيْهِ فَقَرَأَ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ مِنْ عِلْمِكَ ،
وَفَقْهِكَ ، وَرَأْيِكَ ... نَفَعَكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا بِهِ ...

وَاللَّهُ وَلِيُّ نَوَابِكَ ، وَالضَّمِينُ بِحُسْنِ حِسَابِكَ .

* * *

ظَلَّ عُزُورَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ لِلْمُسْلِمِينَ مَنَارَةً هُدًى ، وَذَلِيلَ فَلَاحٍ ، وَدَاعِيَةَ خَيْرٍ
طَوَالَ حَيَاتِهِ ...

وَلَقَدْ اِهْتَمَّ أَكْثَرُ مَا اِهْتَمَّ بِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِ خَاصَّةً ، وَسَائِرِ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ
عَامَّةً ؛ فَلَمْ يَتْرُكْ فُرْصَةً لِيُوجِّهِيهِمْ إِلَّا اِغْتَنَمَهَا ، وَلَمْ يَدَعْ سَانِحَةً^(٢) لِيُضْحِيَهُمْ
إِلَّا أَفَادَ مِنْهَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَأَبَ عَلَى حَضِّ^(٣) بَنِيهِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، إِذْ كَانَ يَقُولُ
لَهُمْ :

(١) تسايلاوا على بيته : تواردوا عليه من كل جهة .

(٢) لم يدع سانحة : لم يترك فرصة .

(٣) حض بنيه : حث أولاده .

يَا بَنِي تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَابْذُلُوا لَهُ حَقَّهُ ...

فَإِنَّكُمْ إِنْ تَكُونُوا صِغَارَ قَوْمٍ ؛ فَعَسَى أَنْ يَجْعَلَ كُمْ اللَّهُ بِالْعِلْمِ كِبَرَاءَهُمْ .
ثُمَّ يَقُولُ : وَاسْأَلْتَاهُ^(١) ، هَلْ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ أَفْبَحُ مِنْ شَيْخٍ جَاهِلٍ ؟!! .

* * *

وَكَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَدِّ الصَّدَقَةِ هَدِيَّةً تُهْدَى لِلَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، فَيَقُولُ :
يَا بَنِي ، لَا يُهْدَيْنَ أَحَدُكُمْ إِلَى رَبِّهِ مَا يَسْتَحْيِي أَنْ يُهْدِيَهُ إِلَى عَزِيزِ قَوْمِهِ ...
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعَزُّ الْأَعْزَاءِ ، وَأَكْرَمُ الْكُرَمَاءِ ، وَأَحَقُّ مَنْ يُخْتَارُ لَهُ .

* * *

وَكَانَ يُبَصِّرُهُم بِالنَّاسِ ، وَيَنْفُذُ بِهِمْ إِلَى جَوْهَرِهِمْ فَيَقُولُ :
يَا بَنِي إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ رَجُلٍ فَعَلَّةٌ خَيْرٌ رَائِعَةً فَأَمْلُوا بِهِ خَيْرًا ، وَلَوْ كَانَ فِي نَظَرِ
النَّاسِ رَجُلٌ سُوءٍ ؛ فَإِنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ ...
وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ رَجُلٍ فَعَلَّةٌ شَرٌّ فَطَبِيعَةً فَاحْذَرُوهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَظَرِ النَّاسِ
رَجُلٌ خَيْرٍ ؛ فَإِنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ أَيْضًا .
وَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَسَنَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا ...
وَأَنَّ السَّيِّئَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا أَيْضًا .

* * *

وَكَانَ يُوصِيهِمْ يَلِينِ^(٢) الْجَانِبِ ، وَطَيِّبِ الْكَلَامِ ، وَبَشْرِ^(٣) الْوَجْهِ
فَيَقُولُ :

يَا بَنِي ، مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ ، « لَتَكُنْ كَلِمَتُكَ طَيِّبَةً ، وَلَتَكُنْ وَجْهُكَ

(١) واسأَلْتَاهُ : أسلوب يستعمل لإستفهام الأمر .

(٢) يَلِينِ : بَشْرِ الوجه : طلاقة الوجه ، وبشاشته .

(٣) لِينِ الجانب : سهولة المعاشرة .

طَلَقًا ، تَكُنْ أَحَبَّ إِلَيَّ النَّاسِ مِمَّنْ يَبْذُلُ لَهُمُ الْعَطَاءَ » .

* * *

وَكَانَ إِذَا رَأَى النَّاسَ يَجْنَحُونَ^(١) إِلَى التَّرَفِ ، وَيَسْتَمِرُّونَ^(٢) النَّعِيمَ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شَطَفِ الْعَيْشِ ، وَخُشُونَةِ الْحَيَاةِ .

مِنْ ذَلِكَ مَا حَكَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنِّكِيرِ^(٣) قَالَ :

لَقِيتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ فَأَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .
فَقُلْتُ : لَبَّيْكَ .

فَقَالَ : دَخَلْتُ عَلَى أُمِّي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ :

يَا بُنَيَّ ...

فَقُلْتُ : لَبَّيْكَ .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا^(٤) لَنَمُكُّ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً مَا نُوقِدُ فِي بَيْتِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ نَارًا مُضْبَاحًا وَلَا غَيْرَهُ .

فَقُلْتُ : يَا أُمَّهُ ، فِيمَ كُنْتُمْ تَعِيشُونَ ؟ !

فَقَالَتْ : بِالْأَسْوَدَيْنِ ... التَّمْرِ وَالْمَاءِ .

* * *

وَبَعْدُ ... فَقَدْ عَاشَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَاحِدًا وَسَبْعِينَ عَامًا مُتْرَعَةً^(٥) بِالْخَيْرِ ،
حَافِلَةً بِالْبَرِّ ، مُكَلَّلَةً بِالتَّقَى .

فَلَمَّا جَاءَهُ الْأَجَلُ الْمَحْتُمُ أَذْرَكَهُ وَهُوَ صَائِمٌ ...

(١) يَجْنَحُونَ : يَمِيلُونَ .

(٢) يَسْتَمِرُّونَ النَّعِيمَ : يَسْتَطِيبُونَ النَّعِيمَ .

(٣) مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنِّكِيرِ : تَابِعِي مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تُوفِيَ سَنَةَ ١٣٠ هـ .

(٥) مُتْرَعَةٌ : مَمْلُوءَةٌ .

وَلَقَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ أَهْلُهُ أَنْ يُفْطِرَ فَأَبَى ...
لَقَدْ أَبَى ، لِأَنَّهُ كَانَ يَرُجُو أَنْ يَكُونَ فِطْرُهُ عَلَى شُرْبَةِ مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ (١) ...
فِي قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ...
بِأَيْدِي الْحُورِ الْعَيْنِ (*) ...

(١) نَهْرُ الْكَوْثَرِ: نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ.

- (*) للاستزادة من أخبار عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ انظر:
- ١ - الطبقات الكبرى لأبْنِ سَعْدٍ: ٤٠٦/١ و ٣٨٢/٢، ٣٨٧ و ١٠٠/٣ و ١٦٧/٤ و ٣٣٤/٥ و ١٠٢/٨.
 - ٢ - حلية الأولياء لأبْنِي نَعِيمٍ: ١٧٦/٢.
 - ٣ - صفة الصفوة لابْنِ الْجَوْزِيِّ: ٨٧/٢.
 - ٤ - وفيات الأعيان لابْنِ خَلِّكَانٍ: ٢٥٥/٣.
 - ٥ - أنساب الأشراف للبلاذري: (انظر الفهارس).
 - ٦ - جمهرة أنساب العرب لابْنِ حَزَمٍ: (انظر الفهارس).

الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ

« يَا أَبَا يَزِيدَ ؛ لَوْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَحَبَّكَ »

[عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ]

قَالَ هِلَالٌ^(١) بْنُ إِسَافٍ لِضَيْفِهِ مُنْذِرٌ^(٢) الثَّوْرِيُّ :

أَلَا أَمْضِي بِكَ يَا مُنْذِرُ إِلَى الشَّيْخِ لَعَلَّنَا نَوْمُ سَاعَةٍ^(٣) ؟ !

فَقَالَ مُنْذِرٌ : بَلَى ...

فَوَاللَّهِ مَا أَقْدَمَنِي « الْكُوفَةُ » إِلَّا الرَّغْبَةُ فِي لِقَاءِ شَيْخِكَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ ،
وَالْحَيْنُ لِلْعَيْشِ سَاعَةً فِي رَحَابِ إِيْمَانِهِ .

وَلَكِنْ هَلْ اسْتَأْذَنْتَ لَنَا عَلَيْهِ ؟ ...

فَقَدْ قِيلَ لِي : إِنَّهُ مُنْذُ أُصِيبَ بِالْفَالِجِ^(٤) لَزِمَ بَيْتَهُ ، وَانْصَرَفَ إِلَى رَبِّهِ ...
وَعَزَفَ^(٥) عَنْ لِقَاءِ النَّاسِ .

فَقَالَ هِلَالٌ : إِنَّهُ لَكَذَلِكَ مُنْذُ عَرَفْتُهُ « الْكُوفَةُ » ، وَإِنَّ الْمَرَضَ لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهُ
شَيْئًا .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : لَا بَأْسَ ...

وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ الْأَشْيَاخِ^(٦) أَمْزِجَةً^(٧) رَقِيقَةً ؛ فَهَلْ تَرَى أَنْ نُبَادِرَ
الشَّيْخَ فَنَسْأَلَهُ عَمَّا نُرِيدُ ؟ ...

(١) هِلَالُ بْنُ إِسَافٍ : هُوَ هِلَالُ بْنُ إِسَافٍ « بِالْيَاءِ » أَوْ هِلَالُ بْنُ إِسَافٍ « بِالْهَمْزَةِ » الْأَشْجَمِيُّ ، أَحَدُ ثَقَاتِ الثَّابِعِينَ وَمُقَدِّمِهِمْ .

(٢) مُنْذِرُ الثَّوْرِيُّ : هُوَ الْمُنْذَرُ بْنُ يَعْلَى الثَّوْرِيُّ أَحَدُ مُتَأَخَّرِي الثَّابِعِينَ .

(٣) لَعَلَّنَا نَوْمُ سَاعَةٍ : لَعَلَّنَا نَتَعَطَّ فَلَا نَشْغَلُ أَنْفُسَنَا إِلَّا بِالْإِيْمَانِ .

(٤) الْفَالِجُ : مَرَضٌ ، هُوَ مَا يُعْرِفُ الْآنَ بِالشَّلَلِ النَّصْفِيِّ . (٦) الْأَشْيَاخُ : جَمْعٌ مَفْرَدُهُ شَيْخٌ .

(٥) عَزَفَ عَنْ لِقَاءِ النَّاسِ : زَهَدٌ فِي لِقَاءِ النَّاسِ وَمَلُّ مِنْهُ . (٧) أَمْزِجَةٌ : طِبَاعٌ وَأَحْوَالٌ .

أَمْ نَلْتَزِمَ الصَّمْتَ فَنَسْمَعَ مِنْهُ مَا يُرِيدُ ؟ ...
فَقَالَ هِلَالٌ : لَوْ جَلَسْتَ مَعَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ عَاماً بِأَكْمَلِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُكَلِّمُكَ
إِذَا لَمْ تُكَلِّمَهُ ...

وَلَا يُبَادِرُكَ إِذَا لَمْ تَسْأَلْهُ ...
فَهُوَ قَدْ جَعَلَ كَلَامَهُ ذِكْراً ، وَصَمْتَهُ فِكْراً .
فَقَالَ مُنْذِرٌ : فَلْتَمَضِ إِلَيْهِ إِذَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ .
ثُمَّ مَضِيَا إِلَى الشَّيْخِ ... فَلَمَّا صَارَا عِنْدَهُ سَلَّمَا وَقَالَا :
كَيْفَ أَصْبَحَ الشَّيْخُ ؟ .

فَقَالَ : أَصْبَحَ ضَعِيفاً مُذْنِياً ، يَأْكُلُ رِزْقَهُ ...
وَيَنْتَظِرُ أَجَلَهُ .
فَقَالَ لَهُ هِلَالٌ :

لَقَدْ أَمَّ^(١) « الْكُوفَةَ » طَيِّبٌ حَازِقٌ ، أَفْتَادُنُ بِأَنْ أَدْعُوهُ لَكَ ؟ .
فَقَالَ : يَا هِلَالُ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوَاءَ حَقٌّ ...
وَلَكِنِّي تَأَمَّلْتُ عَاداً وَثُمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ^(٢) وَفَرُّونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ...
وَنَظَرْتُ فِي حِرْصِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا ، وَرَغْبَتِهِمْ فِي مَتَاعِهَا ...
وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنَّا بَأْساً^(٣) ، وَأَعْظَمَ قُدْرَةً ...
وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءٌ ...

(١) أَمَّ الْكُوفَةَ : جَاءَ الْكُوفَةَ .

(٢) غَاد ، وَثُمُود ، وَأَصْحَابَ الرُّسِّ : مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الَّتِي كَانَ لَهَا شَأْنٌ .

(٣) بَأْساً : قُوَّةً .

وَفِيهِمْ مَرَضَى ...

فَلَا الْمُدَاوِي بَقِيَ وَلَا الْمُدَاوَى !! .

ثُمَّ تَنَهَّدَ تَنَهَّدًا عَمِيقًا وَقَالَ :

وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الدَّاءُ لَتَدَاوَيْنَا مِنْهُ .

فَاسْتَأْذَنَ مُنْذِرٌ وَقَالَ :

فَمَا الدَّاءُ إِذَا يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ ؟ ! .

فَقَالَ : الدَّاءُ الذُّنُوبُ ...

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَمَا الدَّوَاءُ ؟ ! .

فَقَالَ : الدَّوَاءُ الاسْتِغْفَارُ .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَكَيْفَ يَكُونُ الشِّفَاءُ ؟ .

فَقَالَ : بِأَنْ تَتُوبَ ثُمَّ لَا تَعُودَ ...

ثُمَّ حَدِّقْ فِينَا وَقَالَ : السَّرَائِرُ ... السَّرَائِرُ ...

عَلَيْكُمْ بِالسَّرَائِرِ اللَّاتِي تَحْفَى عَلَى النَّاسِ ؛ وَهُنَّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

بَوَائِدُ (١) ...

الْتَمِسُوا دَوَاءَهُنَّ .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَمَا دَوَاؤُهُنَّ ؟ .

فَقَالَ الشَّيْخُ : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ (٢) ...

(١) بوايد : ظاهرة .

(٢) التوبة النصوح : التوبة الصادقة المقترنة بالعزم على عدم العودة .

ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَثَ دُمُوعُهُ لِحَيْتَهُ .
فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : أَتَبْكِي وَأَنْتِ أَنْتِ (١) ؟ !
فَقَالَ : هَيْهَاتَ (٢) ...

لِمَ لَا أَبْكِي ؟ ! ... وَقَدْ أَذْرَكْتُ قَوْمًا نَحْنُ فِي جَنْبِهِمْ (٣) لُصُوصٌ [يُرِيدُ
الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ] .
قَالَ هِلَالٌ :

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا ابْنُ الشَّيْخِ ، فَحَيَّا وَقَالَ :
يَا أَبَتِ إِنَّ أُمِّي قَدْ صَنَعَتْ لَكَ خَبِيصًا (٤) وَجَوْدَتُهُ ...
وَأِنَّهُ لَيَجْبِرُ قَلْبَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ ، فَهَلْ آتَيْكَ بِهِ ؟ .
فَقَالَ : هَاتِيهِ .

فَلَمَّا خَرَجَ لِيُحْضِرُهُ ... طَرَقَ الْبَابَ سَائِلٌ ، فَقَالَ : أَذْخِلُوهُ .
فَلَمَّا صَارَ فِي صَحْنِ (٥) الدَّارِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ ؛ فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ كَهْلٌ مُمَزَّقُ
الثِّيَابِ قَدْ سَالَ لُعَابُهُ عَلَى ذَقْنِهِ ، وَبَدَأَ مِنْ مَلَامِحٍ وَجْهَهُ أَنَّهُ مَعْتَوَةٌ .
فَمَا كِدْتُ أَرْفَعُ بَصَرِي عَنْهُ حَتَّى أَقْبَلَ ابْنُ الشَّيْخِ بِصُحْفَةٍ (٦) الْخَبِيصِ ؛
فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَبَوُهُ : أَنْ ضَعُهَا بَيْنَ يَدَيِ السَّائِلِ .
فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الرَّجُلُ ، وَجَعَلَ يَلْتَهُمُ مَا فِيهَا التَّيْهَامَ ...

(١) وأنتِ أنت : إشارة إلى ما عُرف من صلاحه وعبادته وزهادته .

(٢) هيهات : اسم فعل معناه لقد أَبْعَدَتْ .

(٣) نحن في جنبهم : نحن بالنسبة إليهم . (٥) صحن الدار : بائحتها .

(٤) الخبيص : لون من الخلوى . (٦) الصُّحْفَةُ : وعاء منبسط يشعب الخمسة ، وجمعه صِحَافٌ .

وَلُعَابُهُ يَسِيلُ فَوْقَهَا ...

فَمَا زَالَ يَأْكُلُ حَتَّى أَتَى عَلَى مَا فِي الصَّحْفَةِ كُلِّهِ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ :

رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَتِ ، لَقَدْ تَكَلَّفْتُ أُمِّي وَصَنَعْتُ لَكَ هَذَا الْخَبِيصَ ...

وَكُنَّا نَسْتَهْيِي أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ ...

فَأَطَعَمْتُهُ لِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَاذَا أَكَلَ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ...

إِذَا كَانَ هُوَ لَا يَدْرِي ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْرِي ... ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(١) .

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ ؛ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ وَقَالَ :

يَا أَبَا يَزِيدَ ، قُبِلَ الْحُسَيْنُ^(٢) بِنُ فَاطِمَةَ^(٣) عَلَيْهِ وَعَلَى أُمِّهِ السَّلَامِ .

فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ...

ثُمَّ تَلَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ^(٤) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ

(١) سورة آل عمران : آية ٩٢ .

(٢) هو الحسين بن علي بن أبي طالب سبط الرسول صلوات الله عليه ، قتله جنود بني أمية وهو في طريقه إلى الكوفة .

(٣) فاطمة الزهراء : ابنة الرسول ﷺ ، وزوج علي بن أبي طالب ... انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » ، للمؤلف .

(٤) فاطر السموات والأرض : مُبدع السموات والأرض .

تَحْكُمَ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾ .

لَكِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَشْفِهِ كَلَامُهُ ، فَقَالَ لَهُ :

مَا تَقُولُ فِي قَتْلِهِ ؟ .

فَقَالَ : أَقُولُ إِلَى اللَّهِ إِيَابُهُمْ ، وَعَلَى اللَّهِ حِسَابُهُمْ .

قَالَ هَلَالٌ :

ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ وَقْتَ الظُّهْرِ قَدْ اقْتَرَبَ ، فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ : أَوْصِنِي .

فَقَالَ : لَا يَغُرُّكَ - يَا هَلَالٌ - كَثْرَةُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ

مِنْكَ إِلَّا ظَاهِرَكَ ...

وَأَعْلَمَ أَنَّكَ صَائِرٌ إِلَى عَمَلِكَ ...

وَأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَا يُفْتَعَلُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ يَضْمَحِلُّ (٢) .

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : وَأَوْصِنِي أَنَا أَيْضاً جُزَيْتَ خَيْراً .

فَقَالَ : يَا مُنْذِرُ ، اتَّقِ اللَّهَ فِيمَا عَلِمْتَ ... وَمَا اسْتَشْؤُرَ (٣) عَلَيْكَ بِعَلَمِهِ ؛

فَكَلِمَةُ إِلَى عَالِمِهِ ...

يَا مُنْذِرُ ، لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُ ، فَتَكُونَ

كِدْبَةً ...

وَلَكِنْ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيَّ ، فَيَكُونَ دُعَاءً .

وَأَعْلَمَ يَا مُنْذِرُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي كَلَامٍ إِلَّا فِي تَهْلِيلِ اللَّهِ (٤) ...

(١) سورة الزُّمَر : آية ٤٦ .

(٢) يَضْمَحِلُّ : يَتَلَاشَى .

(٣) مَا اسْتَشْؤُرَ عَلَيْكَ بِعَلَمِهِ : مَا أَخْفَى عَنْكَ عِلْمُهُ . (٤) تَهْلِيلُ اللَّهِ : قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَتَحْمِيدِ اللَّهِ ...

وَتَكْبِيرِ اللَّهِ ...

وَتَسْبِيحِ اللَّهِ ...

وَسُؤَالِكَ مِنَ الْخَيْرِ ...

وَتَعَوُّذِكَ مِنَ الشَّرِّ ...

وَأَمْرِكَ بِالْمَعْرُوفِ ...

وَنَهْيِكَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...

وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ...

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : لَقَدْ جَالَسْنَاكَ فَمَا سَمِعْنَاكَ تَتَمَثَّلُ بِالشُّعْرِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ أَصْحَابِكَ يَتَمَثَّلُونَ بِهِ .

فَقَالَ : مَا مِنْ شَيْءٍ تَقُولُهُ هُنَا إِلَّا كُتِبَ وَقُرِئَ عَلَيْكَ هُنَاكَ (١) ...

وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَجِدَ فِي كِتَابِي بَيْتَ شِعْرِ يُقْرَأُ عَلَيَّ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ .

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْنَا جَمِيعاً وَقَالَ :

أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ ؛ فَهُوَ غَايِبُكُمْ الْمُرْتَقِبُ ...

وَلِإِنَّ الْغَائِبَ إِذَا طَالَتْ غَيْبَتُهُ أَوْشَكَتْ (٢) أَوْبَتُهُ ، وَتَرَقَّبَهُ ذَوُوهُ .

ثُمَّ اسْتَعْبَرَ (٣) وَقَالَ :

(١) هنا : إشارة إلى الدنيا ، وهناك : إشارة إلى الآخرة .

(٢) أَوْشَكَتْ أَوْبَتُهُ : قَرَبَتْ عَوْدَتُهُ .

(٣) استعبر : بكى وسالت عبراته .

مَاذَا نَصْنَعُ غَدًا ﴿۱﴾ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ...

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴿۲﴾ !؟ .

قَالَ هَلَلٌ :

وَمَا كَادَ الرَّيُّعُ يَنْتَهِي مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى أَذِنَ لِلظُّهْرِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى ابْنِهِ وَقَالَ :
هَيَّا نَحْبُ دَاعِيَ اللَّهِ ...

فَقَالَ لَنَا ابْنُهُ :

أَعِينُونِي عَلَى حَمْلِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ جُرَيْتُمْ خَيْرًا .

فَرَفَعْنَاهُ ، فَوَضَعَ يُمْنَاهُ عَلَى كَتِفِ ابْنِهِ وَيُسْرَاهُ عَلَى كَتِفِي ، وَجَعَلَ
يَتَهَادَى ^(۳) بَيْنَنَا ، وَرِجْلَاهُ تَخْطَانِ عَلَى الْأَرْضِ خَطًّا .

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : يَا أَبَا يَزِيدَ ، لَقَدْ رَخَّصَ اللَّهُ لَكَ فَلَوْ صَلَّيْتَ فِي بَيْتِكَ !! .
فَقَالَ : إِنَّهُ كَمَا تَقُولُ ...

وَلَكِنِّي سَمِعْتُ الْمُنَادِيَ يُنَادِي : حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ^(۴) ...

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ...

فَمَنْ سَمِعَ مِنْكُمُ الْمُنَادِيَ يَدْعُوهُ إِلَى الْفَلَاحِ ؛ فَلْيُجِبْهُ وَلَوْ حَبْوًا ^(۵) .

* * *

وَبَعْدُ ... فَمَنْ الرَّيُّعُ بْنُ خُثَيْمٍ هَذَا ؟! .

(۱) دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا : زلزلت الأرض وانهدم كل بناء عليها .

(۲) سورة الفجر : من الآية ۲۱ - ۲۳ .

(۳) يتهادى : يقال جاء فلان يتهادى بين اثنين أي مشى وهو يعتمد عليهما في مشيه .

(۴) حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ : أَقْبِلُوا عَلَى الْقَوْزِ وَالنَّجَاةِ . (۵) حَبْوًا : زحفاً على اليدين والبطن .

إِنَّهُ عَلَّمَ مِنْ أَعْلَامِ التَّابِعِينَ ...

وَأَحَدُ الثَّمَانِيَةِ الَّذِينَ انْتَهَى إِلَيْهِمُ الزُّهْدُ فِي عَصْرِهِمْ .

عَرَبِيُّ الْأَصْلِ ...

مُضَرِّي الْأُرُومَةِ^(١) ...

يَلْتَقِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي جَدِّيهِ إِيَّاسٍ وَمُضَرَ .

نَشَأَ مِنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ...

وَقَطَمَ نَفْسَهُ مِنْذُ حَدَائِثِهَا عَلَى تَقْوَاهُ ...

كَانَتْ أُمُّهُ تَنَامُ فِي اللَّيْلِ ثُمَّ تَصْحُو ، فَتَجِدُ ابْنَهَا الْيَافِعَ^(٢) مَا زَالَ صَافًا فِي

مِحْرَابِهِ ...

سَابِحًا فِي مُنَاجَاتِهِ ...

مُسْتَعْرِقًا فِي صَلَاتِهِ ...

فَتَنَادِيهِ وَتَقُولُ :

يَا بُنَيَّ - يَا رَبِيعُ - أَلَا تَنَامُ ؟!

فَيَقُولُ : كَيْفَ يَسْتَطِيعُ النَّوْمَ مَنْ جَنَّ^(٣) عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، وَهُوَ يَخْشَى

الْبَيَاتَ^(٤) ؟!

فَتَتَحَدَّرُ الدُّمُوعُ عَلَى خَدَّيِ الشَّيْخَةِ الْعَجُوزِ وَتَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ .

وَلَمَّا شَبَّ الرَّبِيعُ وَنَمَا ؛ شَبَّ مَعَهُ وَرَعُهُ وَنَمَتْ بِنُموِهِ خَشْيَتُهُ مِنَ اللَّهِ ...

(١) الأرومة : الأصل ، ومضري الأرومة : أي إن أصله ينتهي إلى مضر أحد أجداد رسول الله ﷺ .

(٢) اليافع : من قارب البلوغ .

(٣) جَنَّ عليه الليل : غشاه الليل وأظلم عليه .

(٤) البيات : هجوم الخصوم .

وَلَقَدْ أَرْقَ أُمُّهُ كَثْرَةَ تَضَرُّعِهِ ، وَشِدَّةَ نَحْيِهِ فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامٍ
حَتَّى ظَنَّتْ بِهِ الظُّنُونُ ...

فَصَارَتْ تُنَادِيهِ قَائِلَةً :

مَا الَّذِي أَصَابَكَ يَا بُنَيَّ !؟ ...

لَعَلَّكَ أَتَيْتَ جُرْماً ...

لَعَلَّكَ قَتَلْتَ نَفْساً .

فَقَالَ : نَعَمْ يَا أُمُّهُ ، لَقَدْ قَتَلْتُ نَفْساً .

فَقَالَتْ فِي لَهْفَةٍ : وَمَنْ هَذَا الْقَتِيلُ - يَا بُنَيَّ - حَتَّى نَجْعَلَ النَّاسَ يَسْعَوْنَ إِلَى
أَهْلِهِ لَعَلَّهُمْ يَغْفُونَ عَنْكَ ؟ ...

وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ أَهْلُ الْقَتِيلِ مَا تُعَانِي مِنَ الْبُكَاءِ ، وَمَا تُكَابِدُ مِنَ السَّهَرِ
لَرَجِمُوكَ .

فَقَالَ : لَا تُكَلِّمِي أَحَداً ...

فَإِنَّمَا قَتَلْتُ نَفْسِي ...

لَقَدْ قَتَلْتُهَا بِالدُّنُوبِ ...

* * *

وَلَقَدْ تَتَلَّمَذَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ^(١) صَاحِبِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَأَقْرَبِ الصَّحَابَةِ هَدِيًّا وَسَمْتًا ^(٢) مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقَدْ تَعَلَّقَ الرَّبِيعُ بِأُسْتَاذِهِ تَعَلُّقَ الْوَلِيدِ بِأُمِّهِ ...

وَأَحَبَّ الْأُسْتَاذُ تَلْمِيذَهُ حُبَّ الْأَبِ لِوَحِيدِهِ .

(١) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) سمناً : هيئة .

فَكَانَ الرَّيْبُ يُدْخِلُ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ ، فَإِذَا صَارَ عِنْدَهُ لَمْ يُؤْذَنْ
لِأَحَدٍ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ حَتَّى يُخْرِجَ الرَّيْبُ .

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَرَى مِنْ صَفَاءِ نَفْسِ الرَّيْبِ ، وَإِحْلَاصِ قَلْبِهِ ، وَإِحْسَانِ
عِبَادَتِهِ مَا يَمْلَأُ فُؤَادَهُ أَسَى عَلَى تَأْخِيرِ زَمَانِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَحِرْزَمَانِهِ
مِنْ صُحْبَتِهِ ...

وَكَانَ يَقُولُ لَهُ :

يَا أَبَا يَزِيدَ ، لَوْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِأَحَبِّكَ .

كَمَا كَانَ يَقُولُ لَهُ :

مَا رَأَيْتُكَ مَرَّةً إِلَّا ذَكَرْتُ الْمُخْبِتِينَ^(١) ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مُعَالِيًا فِي ذَلِكَ .

فَقَدْ بَلَغَ الرَّيْبُ بْنُ خُثَيْمٍ مِنَ الْحَشِيَّةِ ، وَالْوَرَعِ ، وَالتَّقْوَى مَبْلَغًا قَلَمًا سَمَا
إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ طَبَقَتِهِ .

وَأَثَرَتْ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ مَا تَزَالُ تَرْهُو بِهَا صَفَحَاتُ التَّارِيخِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ :

صَحِبْتُ الرَّيْبَ بْنَ خُثَيْمٍ عَشْرِينَ سَنَةً ؛ فَمَا سَمِعْتُهُ يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِكَلِمَةٍ
تَضَعُ ... وَتَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿إِلَيْهِ يَضَعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٢) .

وَأَخْبَرَ عَنْهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَجْلَانَ قَالَ :

(٢) سورة فاطر : آية ١٠ .

(١) المختون : الخاشعون .

بِثُّ عِنْدَ الرَّبِّعِ لَيْلَةً ؛ فَلَمَّا أَتَقَنَ أَنِّي دَخَلْتُ فِي النَّوْمِ قَامَ يُصَلِّي ، فَقَرَأَ قَوْلَهُ
جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا ^(١) السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ^(٢) .

فَمَكَثَ لَيْلَتُهُ يُصَلِّي بِهَا ...

يَبْدُوهَا وَيُعِيدُهَا حَتَّى طَلَعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ ...

وَعَيْنَاهُ تَسْحَانِ الدُّمُوعَ سَحًا .

* * *

وَلِلرَّبِّعِ فِي خَوْفِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالُوا :

خَرَجْنَا يَوْمًا بِصُحْبَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَمَعَنَا الرَّبِّيعُ بْنُ خُثَيْمٍ ، فَلَمَّا صِرْنَا
عَلَى شَاطِئِ « الْفَرَاتِ » ... مَرَرْنَا بِأَثُونٍ ^(٣) كَبِيرٍ قَدْ سَعَرَتْ نَارُهُ ...

فَتَطَايَرَ شَرَرُهَا ...

وَتَصَاعَدَتْ أَلْسِنَةُ لَهَبِهَا ...

وَسَمِعَ زَفِيرُهَا ...

وَقَدْ أُلْقِيَتْ فِي الْأَثُونِ الْحِجَارَةُ لِتَحْتَرِقَ حَتَّى تُصْبِحَ كِلْسًا .

فَلَمَّا رَأَى الرَّبِّيعُ النَّارَ تَوَقَّفَ فِي مَكَانِهِ ...

وَعَزَّتْهُ ^(٤) رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ ...

(٣) الأثون : موقد تحرق فيه الحجارة حتى تصير كِلْسًا .

(٤) عَزَّتْهُ : أَصَابَتْهُ .

(١) اجتروحوا : ارتكبوا واكتسبوا .

(٢) سورة الجاثية : آية ٢١ .

وَتَلَا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ^(١) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا ^(٢) وَزَفِيرًا ^(٣) *
وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ^(٤) دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ^(٥) ﴾ ^(٦) .
ثُمَّ سَقَطَ مَعْشِيًا عَلَيْهِ .

فَرَابَطْنَا مَعَهُ حَتَّى أَفَاقَ مِنْ غَشِيَّتِهِ ، وَمَضَيْنَا بِهِ إِلَى يَتِيَّتِهِ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ ظَلَّ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ حَيَاتَهُ كُلَّهَا يَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ وَيَسْتَعِدُّ لِلِقَائِهِ .

فَلَمَّا احْتَضَرَ ؛ جَعَلَتْ بِنْتُهُ تَبْكِي ، فَقَالَ :

مَا يُنْكِيكَ يَا بِنْتِي وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيَّ أَيْلِكَ الْحَيَرُ ؟ ! ...

ثُمَّ أَسْلَمَ رُوحَهُ إِلَى بَارِيئِهَا (*) ...

(١) إِذَا رَأَتْهُمْ : الضمير في رأتهم يعود عَلَى نار السعير .

(٢) تَغَيُّظًا : غلياناً كغليان صدر الغضبان .

(٣) زَفِيرًا : صوتاً شديداً .

(٤) مَقْرَنِينَ : مُضْعَدِينَ [أي جمعت أيديهم إِلَى أعناقهم بالأغلال] .

(٥) ثُبُورًا : هلاكاً .

(٦) سورة الفرقان : من الآية ١٢ - ١٣ .

(*) للاستزادة من أخبار الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ انظر :

١ - تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٤٢/٣ .

٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم : ١٠٥/٢ - ١١٨ .

٣ - صفة الصفوة : ٥٩/٣ - ٦٨ .

٤ - كتاب الزهد لأحمد بن حنبل : ٣٣٦ وما بعدها .

٥ - العقد الفريد : (انظر الفهارس في الثامن) .

٦ - المعارف لابن قتيبة طبعة دار المعارف : (انظر الفهارس) .

٧ - جمهرة أنساب العرب : ٢٠١ .

٨ - الطبقات الكبرى : ١٠/٦ (وانظر الفهرس) .

إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمَرْزِيُّ

« إِفْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ
فِي جِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذِكَايَ إِيَّاسٍ »

[أَبُو تَمَّامٍ]

بَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ^(١) لَيْلَتُهُ تِلْكَ أَرْقًا ^(٢) مُسْتَهْدًا لَمْ
يَعْتَمِضْ لَهُ جَفْنٌ ، وَلَمْ يَطْمِئَنَّ لَهُ جَنْبٌ ^(٣) .

فَلَقَدْ كَانَ يَشْغَلُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ مِنْ لِيَالِي « دِمَشَقَ » أَمْرُ اخْتِيَارِ
قَاضٍ « لِلْبَصْرَةِ » ^(٤) يُقِيمُ بَيْنَ النَّاسِ مَوَازِينَ الْعَدْلِ ، وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ،
وَلَا تَأْخُذُهُ فِي الْحَقِّ رَهْبَةٌ وَلَا رَغْبَةٌ .

وَلَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى رَجُلَيْنِ اثْنَيْنِ كَانَا كَفَرَسِي ^(٥) رِهَانٍ :

فَقَهَا فِي الدِّينِ ، وَصَلَابَةً فِي الْحَقِّ ...

وَوَضَاءَةً ^(٦) فِي الْفِكْرِ ...

وَتُقُوبًا فِي النَّظَرِ ^(٧) ...

وَكَانَ كُلُّمَا وَجَدَ فِي أَحَدِهِمَا مَزِيَّةً تُرْجِّحُهُ عَلَى صَاحِبِهِ ، أَلْفَى ^(٨) فِي

الْآخِرِ مَا يُقَابِلُ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ .

(١) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

(٢) أَرْقًا مُسْتَهْدًا : أَي دَهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ .

(٣) لَمْ يَطْمِئَنَّ لَهُ جَنْبٌ : كَنَاءَةٌ عَنْ الْقَلَقِ وَشُغْلِ الْبَالِ .

(٤) الْبَصْرَةُ : مَدِينَةُ اخْتِطَاطِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ فَتْحِ الْعِرَاقِ .

(٥) كَفَرَسِي رِهَانٍ : مَثَلٌ يَضْرِبُ لِلْمُتَسَاوِينَ الْمُتَقَارِبِينَ فِي الْفَضْلِ وَغَيْرِهِ ، أَوْ لِلْمُتَسَابِقِينَ فِي الْمَجَارَةِ .

(٦) وَضَاءَةٌ فِي الْفِكْرِ : نُورًا فِي الْفِكْرِ .

(٧) تُقُوبًا فِي النَّظَرِ : حِدَّةٌ فِي النَّظَرِ ، وَعُمُقًا فِي الْفَهْمِ .

(٨) أَلْفَى فِي الْآخِرِ : وَجَدَ فِي الْآخِرِ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَا وَاليَهُ عَلَى « الْعِرَاقِ » عَدِيَّ بْنَ أَرْطَاةَ - وَكَانَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَهُ فِي « دِمَشَقَ » - وَقَالَ لَهُ :
يَا عَدِيَّ ...

اجْمَعْ بَيْنَ إِيَّاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيِّ ، وَالْقَاسِمِ بْنِ رِبِيعَةَ الْحَارِثِيِّ ...
وَكَلَّمَهُمَا فِي أَمْرِ قَضَاءِ « الْبَصْرَةِ » ، وَوَلَّ أَحَدَهُمَا عَلَيْهِ .
فَقَالَ : سَمِعَا وَطَاعَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

جَمَعَ عَدِيَّ بْنَ أَرْطَاةَ بَيْنَ « إِيَّاسِ » وَ« الْقَاسِمِ » وَقَالَ :
إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - أَمَرَنِي أَنْ أُولِّي أَحَدَكُمَا قَضَاءَ
« الْبَصْرَةِ » ...

فَمَاذَا تَرَيَانِ ؟

فَقَالَ كُلُّ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ : أَنَّهُ أُولَى مِنْهُ بِهَذَا الْمُنْصِبِ ...
وَذَكَرَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَعِلْمِهِ ، وَفَقْهِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَ .
فَقَالَ عَدِيَّ : لَنْ تَخْرُجَا مِنْ مَجْلِسِي هَذَا حَتَّى تَحْسِمَا ^(١) هَذَا الْأَمْرَ .
فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ :

أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، سَلْ عَنِّي وَعَنِ « الْقَاسِمِ » فَقِيهِي « الْعِرَاقِ » : الْحَسَنَ
الْبَصْرِيَّ ^(٢) ، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ ^(٣) ... فَهُمَا أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَنَا .
وَكَانَ « الْقَاسِمُ » يَزُورُهُمَا وَيُزَوِّرَانِهِ ، وَ« إِيَّاسُ » لَا تَرْبِطُهُ بِهِمَا رَابِطَةٌ .

(١) حَسَمَ الْأَمْرَ : قَطَعَهُ .

(٢) الحسن البصري : انظره ص ٩٥ .

(٣) محمد بن سيرين : انظره ص ١٢٤ .

فَعَلِمَ « الْقَاسِمُ » أَنَّ « إِيَّاسًا » أَرَادَ أَنْ يُورِّطَهُ ...
وَأَنَّ الْأَمِيرَ إِذَا اسْتَشَارَهُمَا أَشَارَا بِهِ دُونَ صَاحِبِهِ ...
فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ التَفَّتْ إِلَى الْأَمِيرِ ، وَقَالَ :
لَا تَسَلْ أَحَدًا عَنِّي وَلَا عَنْهُ - أَيُّهَا الْأَمِير - فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّ
« إِيَّاسًا » أَفْقَهُ مِنِّي فِي دِينِ اللَّهِ ...
وَأَعْلَمَ بِالْقَضَاءِ ...
فَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فِي قَسَمِي هَذَا ؛ فَمَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُؤَلِّتَنِي الْقَضَاءَ وَأَنَا
أُقْتَرِفُ^(١) الْكَذِبَ ...
وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا ؛ فَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَعْدِلَ^(٢) عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى
الْمَفْضُولِ^(٣) ...
فَالْتَفَّتْ « إِيَّاسٌ » إِلَى الْأَمِيرِ ، وَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...
إِنَّكَ جِئْتَ بِرَجُلٍ وَدَعَوْتَهُ إِلَى الْقَضَاءِ ؛ فَأَوْفَقْتُهُ عَلَى شَفِيرِ^(٤) جَهَنَّمَ ،
فَنَجَّيْ نَفْسَهُ مِنْهَا ، يَمِينِ كَاذِبَةٍ ؛ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ مِنْهَا ، وَيَنْجُو بِنَفْسِهِ
مِمَّا يَخَافُ .
فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ :

إِنَّ مَنْ يَفْهَمُ مِثْلَ فَهْمِكَ هَذَا لَجَدِيرٌ بِالْقَضَاءِ ، حَرِيٌّ^(٥) بِهِ .
ثُمَّ وَلَّاهُ قَضَاءَ « الْبَصْرَةِ » .

* * *

(١) أُقْتَرِفَ الْكَذِبُ : أُخْتَلِقَ الْكَذِبُ . (٣) الْمَفْضُولُ : الْأَقْلُ فَضْلًا .
(٢) عَدَلَ عَنِ الْأَمْرِ : مَالَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ . (٤) شَفِيرُ جَهَنَّمَ : حَافَةُ جَهَنَّمَ .
(٥) حَرِيٌّ بِهِ : أَهْلٌ لَهُ .

فَمَنْ هَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ الْخَلِيفَةُ الرَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَاضِياً لَهُ عَلَى
«البَصْرَةِ» ؟ .

مَنْ ذَلِكَ الَّذِي ضُرِبَتْ بِذَكَائِهِ وَفُطِنَتْهُ وَبَدِيهَتْهُ ^(١) الْأُمَثَالُ ؛ كَمَا ضُرِبَتْ
الْأُمَثَالُ بِجُودِ حَاتِمِ الطَّائِي ...

وَحِلْمِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ^(٢) ...

وِإِقْدَامِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ^(٣) ...

حَتَّى قَالَ أَبُو تَمَّامٍ ^(٤) فِي مَدْحِ أَحْمَدَ بْنِ الْمُغْتَصِمِ :

إِقْدَامُ عَمْرِو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَخْنَفٍ فِي ذَكَاءِ إِيَّاسٍ
تَعَالَى نَبْدًا قِصَّةَ حَيَاةِ الرَّجُلِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

فَلِلرَّجُلِ سِيرَةٌ مُثِيرَةٌ فَذَّةٌ ^(٥) مِنْ رَوَائِعِ السَّيْرِ .

* * *

وُلِدَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ الْمُزَنِيِّ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ فِي مَنطَقَةِ
«الْيَمَامَةِ» فِي «نَجْدٍ» .

وَأَنْتَقَلَ مَعَ أُسْرَتِهِ إِلَى «البَصْرَةِ» وَفِيهَا نَشَأَ وَتَعَلَّمَ ...

وَتَرَدَّدَ عَلَى «دِمَشْقٍ» فِي يَفَاعَتِهِ ^(٦) ، وَأَخَذَ عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْ بَقَايَا الصَّحَابَةِ
الْكِرَامِ ، وَجَلَّةٍ ^(٧) التَّابِعِينَ .

(١) البديهة : شَوْعَةُ الْفَهْمِ .

(٢) الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : تَابِعِي جَلِيل ، وَقَائِدٌ عَظِيمٌ ، وَخَطِيبٌ مَفْرُوهٌ سَادَ قَوْمَهُ بَنِي تَمِيمٍ ، وَضُرِبَ الْمَثَلُ بِجَلِيلِهِ ، تُوفِي
سَنَةَ ٥٧٢ هـ ... انظره : ص ٤٥٧ ، ٤٦٨ .

(٣) عَمْرِو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ : أَحَدُ شَجْعَانَ الْعَرَبِ الْمَشْهُورِينَ ، كُنَّ يُقَالُ لِكُلِّ فَارِسٍ مِنَ الْعَرَبِ فَارِسُ بَنِي فَلَانٍ
إِلَّا هُوَ فَكَانَ يُقَالُ لَهُ فَارِسُ الْعَرَبِ جَمِيعاً ، تُوفِي فِي الْقَادِسِيَةِ عَطِشاً .

(٤) أَبُو تَمَّامٍ : هُوَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِي (٧٨٨ - ٨٤٥) شَاعِرٌ عَبَّاسِيٌّ ، اشتهر بمدحه الخلفاء ، له ديوان مشهور .

(٥) فَذَّةٌ : فَرِيدَةٌ ، نَادِرَةٌ . (٦) الْيَفَاعَةُ : أَوَائِلُ الصُّبَا . (٧) جَلَّةُ التَّابِعِينَ : أَكْبَارُ التَّابِعِينَ .

وَلَقَدْ ظَهَرْتُ عَلَى الْغُلَامِ الْمُزْنِيِّ عَلَائِمَ النَّجَابَةِ وَأَمَارَاتُ^(١) الذِّكَايِ مِنْذُ
نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ^(٢) ...

وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَنَاقَلُونَ أَخْبَارَهُ وَنَوَادِرَهُ وَهُوَ مَا زَالَ صَبِيًّا صَغِيرًا ...

* * *

رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَلَّمُ الْحِسَابَ فِي كُتَّابٍ^(٣) لِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ مِنْ أَهْلِ
الذِّمَّةِ^(٤) ... فَاجْتَمَعَ عِنْدَ الْمُعَلِّمِ أَصْحَابُهُ مِنَ الْيَهُودِ ، وَجَعَلُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي أُمُورِ
الدِّينِ وَهُوَ يُنْصِتُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَذُرُونَ ...

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ لِأَصْحَابِهِ :

أَلَا تَعْجَبُونَ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي الْجَنَّةِ
وَلَا يَتَغَوَّطُونَ^(٥) !! .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ إِيَّاسُ وَقَالَ :

أَتَأْذُنُ لِي يَا مُعَلِّمُ بِالْكَلامِ فِيمَا تَخُوضُونَ^(٦) فِيهِ ؟ .

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : نَعَمْ .

فَقَالَ الْفَتَى : أَكُلُّ مَا يُؤْكَلُ فِي الدُّنْيَا يَخْرُجُ غَائِطًا ؟ .

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : لَا .

فَقَالَ الْفَتَى : فَأَيْنَ يَذْهَبُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ ؟ .

(١) أمارات الذكاء : علامات الذكاء .

(٢) منذ نعومة أظفاره : كناية عن صغر السن .

(٣) الكُتَّاب : مكان التعليم ، وجمعه كتابات .

(٤) أهل الذِّمَّة : من دَخَلَ فِي عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَاتِيَّتِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ .

(٥) لَا يَتَغَوَّطُونَ : لَا يَقْضُونَ الْحَاجَةَ وَلَا يَتَبَرَّزُونَ .

(٦) تخوضون فيه : تتناقشون فيه وتبادلون الآراء .

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : يَذْهَبُ فِي غِذَاءِ الْجِسْمِ .

فَقَالَ الْفَتَى : فَمَا وَجْهُ الِاسْتِنْكَارِ مِنْكُمْ إِذَا كَانَ يَذْهَبُ بَعْضُ مَا نَأْكُلُهُ فِي الدُّنْيَا غِذَاءً ، أَنْ يَذْهَبَ كُلُّهُ فِي الْجَنَّةِ فِي الْغِذَاءِ ؟ .
فَأَلْوَى الْمُعَلِّمُ يَدَهُ وَقَالَ لَهُ : قَاتِلَكَ اللَّهُ مِنْ فَتَى .

* * *

وَيَتَقَدَّمُ الْغُلَامُ فِي السَّنِّ سَنَةً فَسَنَةً ...

وَتَتَقَدَّمُ مَعَهُ أَحْبَارُ ذَكَائِهِ أَيُّنَمَا حَلَّ .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ دَخَلَ « دِمَشْقَ » وَهُوَ مَا يَزَالُ غُلَامًا ، فَاخْتَلَفَ مَعَ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ « دِمَشْقَ » فِي حَقِّ مِنَ الْحُقُوقِ ، وَلَمَّا يَبُتَّ مِنْ إِقْنَاعِهِ بِالْحُجَّةِ ؛ دَعَاهُ إِلَى الْقَضَاءِ ...

فَلَمَّا صَارَا بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي ، اخْتَدَّ إِيَّاسٌ وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَى خَصْمِهِ ...

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : اخْفِضْ صَوْتَكَ يَا غُلَامُ ...

فَإِنَّ خَصْمَكَ شَيْخٌ كَبِيرُ السَّنِّ وَالْقَدْرِ .

فَقَالَ إِيَّاسٌ : وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَكْبَرُ مِنْهُ .

فَغَضِبَ الْقَاضِي وَقَالَ : اسْكُتْ ...

فَقَالَ الْفَتَى : وَمَنْ يَنْطِقُ بِحُجَّتِي إِذَا سَكَتُ ؟ ! .

فَارْذَادَ الْقَاضِي غَضَبًا وَقَالَ :

مَا أَرَاكَ تَقُولُ مُنْذُ دَخَلْتَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ إِلَّا بَاطِلًا .

فَقَالَ إِيَّاسٌ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...

أَحَقُّ هَذَا أَمْ بَاطِلٌ ؟ .

فَهَذَا الْقَاضِي وَقَالَ :

حَقٌّ ... وَرَبُّ الْكَعْبَةِ حَقٌّ ...

* * *

وَأَكْبَ (١) الْفَتَى الْمُزْنِي عَلَى الْعِلْمِ ، وَنَهَلَ (٢) مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَلَ
حَتَّى بَلَغَ فِيهِ مَبْلَغًا جَعَلَ الشُّيُوخَ يَخْضَعُونَ لَهُ ، وَيَأْتُمُونَ بِهِ ، وَيَسْتَلْمَذُونَ عَلَى
يَدَيْهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ .

فَفِي ذَاتِ سَنَةٍ ، زَارَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ « الْبَصْرَةَ » قَبْلَ أَنْ يَلِيَ
الْخِلَافَةَ ، فَرَأَى إِيَّاسًا وَكَانَ يَوْمَئِذٍ فَتًى يَافِعًا (٣) لَمْ يَطُرْ شَارِبُهُ (٤) بَعْدُ ...
وَرَأَى خَلْفَهُ أَرْبَعَةً مِنَ الْقُرَّاءِ مِنْ ذَوِي اللَّحَى فِي طَيَالِسَتِهِمْ (٥) الْخُضِرِ ،
وَهُوَ يَتَقَدَّمُهُمْ ...

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفْ لِأَصْحَابِ هَذِهِ اللَّحَى ...

أَمَّا فِيهِمْ شَيْخٌ يَتَقَدَّمُهُمْ ؛ فَقَدَّمُوا هَذَا الْعُلَامَ ؟ !

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى إِيَّاسٍ وَقَالَ : كَمْ سِنَّكَ يَا فَتَى ؟

فَقَالَ إِيَّاسٌ : سِنِّي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَمِيرِ - كَسِنُّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ (٦) حِينَ
وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا فِيهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ (٧) .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : تَقَدَّمْ يَا فَتَى ... تَقَدَّمْ ...

(١) أَكْبَ عَلَى الْعِلْمِ : عَكَفَ عَلَيْهِ وَانْقَطَعَ لَهُ .

(٢) نَهَلَ مِنْهُ : شَرَبَ مِنْهُ .

(٣) فَتًى يَافِعًا : فَتًى فِي بَوَاكِرِ الصَّبَا .

(٤) لَمْ يَطُرْ شَارِبُهُ : لَمْ يَظْهَرْ شَعْرُ شَارِبِهِ [كَنَايَةٌ عَنْ حَدَاثَةِ السِّنِّ] .

(٥) الطَيَالِسَانُ : كِسَاءٌ أَخْضَرُ يَلْبِسُهُ الْمَشَايخُ ، وَجَمْعُهُ : طَيَالِسَةٌ .

(٦) أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ : انْظُرْهُ فِي كِتَابِ « صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الصُّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاشِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الطَّبَعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

(٧) كَانَتْ سِنُّ أُسَامَةَ يَوْمَئِذٍ دُونَ الْعِشْرِينَ .

بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ خَرَجَ النَّاسُ يَلْتَمِسُونَ^(١) هِلَالَ رَمَضَانَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ
الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ^(٢) ...

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ قَارَبَ الْمِائَةَ ...

فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى السَّمَاءِ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا .

لَكِنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ جَعَلَ يُحَدِّثُ فِي السَّمَاءِ وَيَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ الْهِلَالَ ... هَا هُوَ ذَا ...

وَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْهِ بِيَدِهِ ... فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ .

عِنْدَ ذَلِكَ نَظَرَ إِيَّاسُ إِلَى أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَإِذَا شَعْرَةٌ طَوِيلَةٌ فِي حَاجِبِهِ
قَدْ انْتَشَتْ حَتَّى غَدَتْ قُبَالَةَ^(٣) عَيْنِهِ .

فَاسْتَأْذَنَهُ فِي آدَبٍ ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى الشَّعْرَةِ فَمَسَحَهَا وَسَوَّاهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

أَتَرَى الْهِلَالَ الْآنَ أَيْضًا يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ؟ .

فَجَعَلَ أَنَسُ يَنْظُرُ وَيَقُولُ :

كَلَّا مَا أَرَاهُ ، كَلَّا مَا أَرَاهُ .

* * *

وَشَاعَتْ أَخْبَارُ ذِكَاةِ إِيَّاسٍ وَذَاعَتْ ، وَصَارَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ مِنْ كُلِّ

(١) يَلْتَمِسُونَ الْهِلَالَ : يَتَحَرَّوْنَ رُؤْيَاهُ .

(٢) أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ : انْظُرْهُ فِي كِتَابِ « صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاظِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ،
الطَّبْعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

(٣) قُبَالَةَ عَيْنِهِ : أَمَامَ عَيْنِهِ .

صَوَّبُ^(١) وَيُلْقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَغْتَرِضُهُمْ مِنْ مُشْكِلَاتٍ فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ ...
بَعْضُهُمْ يُرِيدُ الْمَعْرِفَةَ ...

وَبَعْضُهُمْ الْآخَرُ يَتَّبِعِي التَّعْجِيزَ وَالْمُمَارَاةَ^(٢) بِالْبَاطِلِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَيْ أَنَّهُ دُهِقَانًا^(٣) أَتَى مَجْلِسَهُ فَقَالَ :

يَا أَبَا وَائِلَةَ ... مَا تَقُولُ فِي الْمُسْكِرِ ؟ .

قَالَ : حَرَامٌ .

قَالَ : وَمَا وَجْهُ حُرْمَتِهِ ، وَهُوَ لَا يَزِيدُ عَنْ كَوْنِهِ ثَمَرًا وَمَاءً غُلِيًّا عَلَى النَّارِ ،
وَكُلُّ ذَلِكَ مُبْتَاحٌ لَا شَيْءَ فِيهِ .

فَقَالَ : أَفَرَعْتَ مِنْ قَوْلِكَ يَا دُهِقَانُ أَمْ بَقِيَ لَدَيْكَ مَا تَقُولُهُ ؟ .

فَقَالَ : بَلْ فَرَعْتُ .

فَقَالَ : لَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ مَاءٍ وَضَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : لَا .

فَقَالَ : وَلَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَضَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : لَا .

فَقَالَ : وَلَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ تِبْنٍ فَضَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : لَا .

فَقَالَ : فَلَوْ أَخَذْتُ التُّرَابَ ثُمَّ طَرَحْتُ عَلَيْهِ التِّبْنَ ، وَصَبَبْتُ فَوْقَهُمَا الْمَاءَ

(١) الصَّوَّبُ : الجهة .

(٢) المُمَارَاةُ بِالْبَاطِلِ : المجادلة بالباطل .

(٣) الدُّهِقَانُ : كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم وغيره .

ثُمَّ مَرَجَّيْهَا مَرْجاً ، ثُمَّ جَعَلْتُ الْكُثْلَةَ فِي الشَّمْسِ ، حَتَّى يَبْسُتَ ، ثُمَّ ضَرَبْتُكَ بِهَا
أَكَانَتْ تُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ ... وَقَدْ تَقْتُلُنِي .

فَقَالَ : هَكَذَا شَأْنُ الْخَمْرِ ، فَهُوَ حِينَ جُمِعَتْ أَجْزَاؤُهُ وَخُمِّرَ ؛ حَرُمَ .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ إِيَّاسُ الْقَضَاءَ ظَهَرَتْ لَهُ فِيهِ مَوَاقِفُ تَذُلٍّ عَلَى فَرْطِ ذِكَايِهِ ،
وَسَعَةِ حِيلَتِهِ ، وَقُدْرَتِهِ الْفَدَّةِ فِي الْكُشْفِ عَنِ الْحَقَائِقِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلَيْنِ تَقَاضَيَا عِنْدَهُ ، فَادَّعَى أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أُوْدِعَ لَدَى صَاحِبِهِ
مَالاً ، فَلَمَّا طَلَبَهُ مِنْهُ بَحَّهْدَهُ^(١) .

فَسَأَلَ إِيَّاسُ الرَّجُلَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ عَنْ أَمْرِ الْوَدِيعَةِ ، فَأَنْكَرَهَا وَقَالَ :

إِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِي بَيِّنَةٌ^(٢) فَلْيَأْتِ بِهَا ...

وَالْإِلَّا فَلَيْسَ لَهُ عَلَيَّ إِلَّا الْيَمِينُ .

فَلَمَّا خَافَ إِيَّاسُ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ الْمَالَ يَمِينِهِ ، التَفَتَ إِلَى الْمُودِعِ وَقَالَ
لَهُ : فِي أَيِّ مَكَانٍ أُوْدِعْتُهُ الْمَالَ ؟ .

قَالَ : فِي مَكَانٍ كَذَا ...

فَقَالَ : وَمَاذَا يُوجَدُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ؟ .

فَقَالَ : شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ جَلَسْنَا تَحْتَهَا ، وَتَنَاوَلْنَا الطَّعَامَ مَعاً فِي ظِلِّهَا ...

وَلَمَّا هَمَمْنَا بِالْانْصِرَافِ دَفَعْتُ إِلَيْهِ الْمَالَ .

فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ :

(٢) بَيِّنَةٌ : دَلِيلٌ وَحُجَّةٌ .

(١) بَحَّهْدَهُ : أَنْكَرَهُ .

انْطَلِقْ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ الشَّجَرَةُ ؛ فَلَعَلَّكَ إِذَا أَتَيْتَهَا ذَكَرْتُكَ أَيْنَ
وَضَعْتَ مَالَكَ ، وَنَبَّهْتُكَ إِلَى مَا فَعَلْتُهُ بِهِ ...

ثُمَّ عُدْتُ إِلَيَّ لِتُخْبِرَنِي بِمَا رَأَيْتَ .

فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَكَانِ ، وَقَالَ إِيَّاسُ لِلْمُدَّعَى عَلَيْهِ :

اجْلِسْ إِلَيَّ أَنْ يَجِيءَ صَاحِبُكَ ... فَجَلَسَ .

ثُمَّ التَفَتَ إِيَّاسُ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَقَاضِينَ ، وَطَفِقَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ، وَهُوَ
يَرْقُبُ الرَّجُلَ بِطَرْفٍ خَفِيٍّ ...

حَتَّى إِذَا رَأَاهُ قَدْ سَكَنَ وَاطْمَأَنَّ ، التَفَتَ إِلَيْهِ وَبَادَرَهُ^(١) قَائِلًا :

أَتَقَدَّرُ أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ بَلَغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَوْدَعَكَ فِيهِ الْمَالُ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ^(٢) : كَلَّا ...

إِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ هُنَا .

فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ :

يَا عَدُوَّ اللَّهِ تَجْحَدُ الْمَالَ ، وَتَعْرِفُ الْمَكَانَ الَّذِي أَخَذْتَهُ فِيهِ !؟ ...

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَائِنٌ .

فَبُهِتَ^(٣) الرَّجُلُ ، وَأَقَرَّ بِخِيَانَتِهِ ... فَحَبَسَهُ حَتَّى جَاءَ صَاحِبُهُ ، وَأَمَرَهُ بِرَدِّ

وَدِيعَتِهِ إِلَيْهِ .

* * *

(١) بادره : عاجله وفاجاه .

(٢) من غير رويّة : من غير تفكير .

(٣) فَبُهِتَ : دهش وسكت متحيراً .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَيْهِ فِي قَطِيفَتَيْنِ (١) مِمَّا يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ وَيُسَدَّلُ عَلَى الْكَتِفَيْنِ ...

إِخْدَاهُمَا خَضِرَاءُ جَدِيدَةٌ ثَمِينَةٌ، وَالْأُخْرَى حُمْرَاءُ بَالِيَةٌ .

فَقَالَ الْمُدَّعِي: نَزَلْتُ إِلَى الْحَوْضِ لِأُعْتَسِلَ، وَوَضَعْتُ قَطِيفَتِي الْخَضِرَاءَ مَعَ ثِيَابِي عَلَى حَاقَةِ الْحَوْضِ، وَجَاءَ خَصْمِي فَوَضَعَ قَطِيفَتَهُ الْحُمْرَاءَ إِلَى جَانِبِ قَطِيفَتِي، وَنَزَلَ إِلَى الْحَوْضِ، وَخَرَجَ قَبْلِي ... فَلَيْسَ ثِيَابُهُ وَأَخَذَ قَطِيفَتِي، فَأَلْقَاهَا عَلَى رَأْسِهِ وَكَتَفَيْهِ وَمَضَى بِهَا .

فَخَرَجْتُ عَلَى إِثَرِهِ وَتَبِعْتُهُ، وَطَالَبْتُهُ بِقَطِيفَتِي، فَرَعَمَ أَنَّهَا لَهُ ...

فَقَالَ إِيَّاسٌ لِلرَّجُلِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ :

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ ؟ ! .

فَقَالَ : هِيَ قَطِيفَتِي وَفِي يَدِي .

فَقَالَ إِيَّاسٌ لِلرَّجُلِ الْمُدَّعَى : أَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ ؟ .

فَقَالَ : كَلَّا .

فَقَالَ لِحَاجِبِهِ (٢) : أَحْضِرْ لِي مِشْطاً ، فَأَحْضَرَ لَهُ ...

فَمَشَطَ شَعْرَ رَأْسِ الرَّجُلَيْنِ ، فَخَرَجَ مِنْ رَأْسِ أَحَدِهِمَا زَغَبٌ (٣) أَحْمَرٌ مِنْ نُثَارِ (٤) صُوفِ الْقَطِيفَةِ ، وَخَرَجَ مِنْ رَأْسِ الْآخَرِ زَغَبٌ أَحْضَرٌ ... فَقَضَى

(١) القطيفة : قطعة من المخمل يلقيها المرء على نفسه .

(٢) الحاجب : البواب الذي يقف بأبواب الخلفاء والوزراء ونحوهم .

(٣) الزغب : صغار الريش والشعر .

(٤) النثار : ما يتناثر من الشيء إذا تثرته .

بِالْقَطِيفَةِ الْحُمْرَاءِ لِصَاحِبِ الرِّغَبِ الْأَحْمَرِ ، وَبِالْقَطِيفَةِ الْخَضْرَاءِ لِصَاحِبِ
الرِّغَبِ الْأَخْضَرِ .

* * *

وَمِنْ أَحْبَارِ فِطْنَتِهِ وَذَكَائِهِ أَيْضاً أَنَّهُ كَانَ فِي « الْكُوفَةِ » رَجُلٌ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ
الصَّلَاحَ ، وَيُبْدِي لَهُمُ الْوَرَعَ وَالْتَقَى ... حَتَّى كَثُرَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ، وَاتَّخَذَهُ بَعْضُ
النَّاسِ أَمِيناً لَهُمْ يَأْتِمِنُونَهُ عَلَى مَالِهِمْ إِذَا سَافَرُوا ...

وَيَجْعَلُونَهُ وَصِيّاً عَلَى أَوْلَادِهِمْ إِذَا أَحْسُوا بِدُنُوِّ الْأَجْلِ .
فَأَتَاهُ رَجُلٌ وَاسْتَوْدَعَهُ مَالاً ، وَلَمَّا احتَاجَ الرَّجُلُ إِلَى مَالِهِ طَلَبَهُ مِنْهُ فَأَنْكَرَهُ .
فَمَضَى إِلَى إِيَّاسٍ وَشَكَاهُ الرَّجُلَ ، فَقَالَ لِلْمُسْتَكِي :
أَعْلِمَ صَاحِبُكَ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟
قَالَ : كَلَّا .

فَقَالَ لَهُ : انصَرِفْ وَعُدْ إِلَيَّ غَداً ...
ثُمَّ أَرْسَلَ إِيَّاسٌ إِلَى الرَّجُلِ الْمُؤْتَمَنِ ، وَقَالَ لَهُ :
لَقَدْ اجْتَمَعَ لَدَيَّ مَالٌ كَثِيرٌ لِأَيْتَامٍ لَا كَافِلَ لَهُمْ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أُوْدِعَهُ
لَدَيْكَ ، وَأَنْ أَجْعَلَكَ وَصِيّاً عَلَيْهِمْ ، فَهَلْ مِنْزِلُكَ حَصِينٌ وَوَقْتُكَ مُتَسِعٌ ؟
فَقَالَ : نَعَمْ أَيُّهَا الْقَاضِي .

فَقَالَ : تَعَالَ إِلَيَّ بَعْدَ غَدٍ ، وَأَعِدْ مَوْضِعاً لِلْمَالِ ...
وَأَخْضِرْ مَعَكَ حَمَّالِينَ يَحْمِلُونَهُ ...
وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي جَاءَ الرَّجُلُ الْمُسْتَكِي ؛ فَقَالَ لَهُ إِيَّاسٌ :
انْطَلِقْ إِلَى صَاحِبِكَ وَاطْلُبْ مِنْهُ الْمَالَ ، فَإِنْ أَنْكَرَهُ فَقُلْ لَهُ :

أَشْكُوكَ إِلَى الْقَاضِي .

فَأَتَاهُ الرَّجُلُ فَطَلَبَ مِنْهُ مَالَهُ ، فَاُمْتَنَعَ عَنْ إِعْطَائِهِ لَهُ وَجَحَدَهُ .

فَقَالَ لَهُ : إِذْنُ أَشْكُوكَ إِلَى الْقَاضِي .

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ دَفَعَ إِلَيْهِ الْمَالَ ، وَطَيَّبَ خَاطِرَهُ .

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى إِيَّاسٍ وَقَالَ :

لَقَدْ أَعْطَانِي صَاحِبِي حَقِّي وَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا .

ثُمَّ جَاءَ الرَّجُلُ الْمُؤْتَمَنُ إِلَى إِيَّاسٍ فِي مَوْعِدِهِ وَمَعَهُ الْحَمَّالُونَ ، فَرَجَرَهُ وَأَشْهَرَهُ^(١) وَقَالَ لَهُ :

يَسُّ الرَّجُلُ أَنْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، لَقَدْ جَعَلْتَ الدِّينَ مَضِيدَةً لِلدُّنْيَا ...

* * *

لَكِنَّ إِيَّاسًا عَلَى شِدَّةِ ذِكَايِهِ ، وَقُوَّةِ عَارِضَتِهِ^(٢) وَشُرُوعَةِ بَدِيهِتِهِ ... رُبَّمَا صَادَفَ مَنْ يُقَارِعُهُ الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ ، وَيَقْطَعُ عَلَيْهِ سُبُلَ الْكَلَامِ وَيُفْجِئُهُ^(٣) ...

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

مَا غَلَبَنِي أَحَدٌ قَطُّ سِوَى رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ « بِالْبَصْرَةِ » فَدَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ ، فَشَهِدَ عِنْدِي أَنَّ الْبُسْتَانَ الْفُلَانِيَّ هُوَ مِلْكُ فُلَانٍ ، وَحَدَّدَهُ لِي ...

فَارْذْتُ أَنْ أُمْتَحِنَ شَهَادَتَهُ .

فَقُلْتُ لَهُ : وَكَمْ عَدَدُ شَجَرِ الْبُسْتَانِ ؟

فَأَطْرَقَ قَلِيلًا ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :

(١) أَشْهَرَهُ : فَضَحَهُ . (٢) قُوَّةُ عَارِضَتِهِ : قُوَّةُ تَفْكِيرِهِ . (٣) يُفْجِئُهُ : يَسْكِنُهُ بِالْحُجَّةِ .

مُنْذُ كَمْ يَحْكُمُ سَيِّدُنَا الْقَاضِي فِي هَذَا الْمَجْلِسِ ؟ .
فَقُلْتُ : مُنْذُ كَذَا سَنَةً .

فَقَالَ : كَمْ عَدَدُ خَشَبٍ سَقَفِ هَذَا الْمَجْلِسِ ؟ .
فَلَمْ أَعْرِفْ ، وَقُلْتُ : الْحَقُّ مَعَكَ ...
ثُمَّ أَجَزْتُ شَهَادَتَهُ ...

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ السَّادِسَةَ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، رَأَى نَفْسَهُ وَأَبَاهُ
فِي الْمَنَامِ رَاكِبَيْنِ عَلَى فَرَسَيْنِ ، فَجَرَّيَا مَعًا ... فَلَمْ يَسْبِقْ أَبَاهُ وَلَمْ يَسْبِقْهُ أَبُوهُ ،
وَكَانَ وَالِدُهُ قَدْ مَاتَ عَنْ سِتِّ وَسَبْعِينَ سَنَةً .

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ أَوَى إِيَّاسٌ إِلَى فِرَاشِهِ وَقَالَ لِأَهْلِهِ :
أَتَذَرُونِ أَيَّ لَيْلَةٍ هَذِهِ ؟ .
قَالُوا : كَلَّا .

قَالَ : فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ اسْتَكْمَلَ أَبِي عُمُرُهُ .
فَلَمَّا أَصْبَحُوا ، وَجَدُوهُ مَيِّتًا .

* * *

رَحِمَ اللَّهُ إِيَّاسَ الْقَاضِي ، فَقَدْ كَانَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الزَّمَانِ ، وَأَعْجُوبَةً مِنْ
أَعْجَابِ الدَّهْرِ فِي الْفِطْنَةِ وَالذِّكَاةِ ، وَالْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار إِيَّاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْمُرِّيِّ انظر :

- ١ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢٤٧/١ وما بعدها .
- ٢ - البيان والتبيين للجاحظ : ٥٦/١ (انظر الفهارس) .
- ٣ - شرح المقامات للشريشي : ١١٣/١ - ١١٥ .
- ٤ - العقد الفريد لابن عبد ربه : (انظر الفهارس) .
- ٥ - حلية الأولياء : ١٢٣/٣ وما بعدها .
- ٦ - أخبار القضاة لوكيع : ٣١٢ - ٣٧٤ .
- ٧ - ثمار القلوب للثعالبي : ٩٢ - ٩٤ .
- ٨ - تهذيب التهذيب : ٣٩٠/١ .

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَبْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ

« أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ نَجِيًّا ... وَأَنَّ نَجِيبَ بَنِي أُمَيَّةَ
عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَأَنَّهُ يُنْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ »

[مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ]

مَا كَادَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ
تُرَابِ قَبْرِ سَلَفِهِ ^(١) سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، حَتَّى سَمِعَ لِلْأَرْضِ - مِنْ حَوْلِهِ -
رَجَّةً .

فَقَالَ : مَا هَذِهِ !؟ .

فَقَالُوا : هَذِهِ مَرَائِبُ الْخِلَافَةِ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ أُعِدَّتْ لَكَ
لِتَرْكِبَهَا ... فَنَظَرَ إِلَيْهَا عُمَرُ بِطَرْفٍ عَيْنِهِ ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الْمُتَهَدِّجِ ^(٢) الَّذِي
نَهَكَهُ ^(٣) التَّعَبُ ، وَأَذْبَلَهُ الشَّهَرُ : مَا لِي وَلَهَا !؟ ...
نَحْوَهَا عَنِّي بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ...

وَقَرَّبُوا لِي بَغْلَتِي ؛ فَإِنَّ لِي فِيهَا بَلَاغاً ^(٤) .

ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَوِي عَلَى ظَهْرِ الْبَغْلَةِ حَتَّى جَاءَ صَاحِبُ الشَّرْطِ ^(٥) ؛
لِيَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ ... وَمَعَهُ ثَلَاثَةٌ ^(٦) مِنْ رِجَالِهِ اضْطَفُّوا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ .
وَفِي أَيْدِيهِمْ حِرَابُهُمُ اللَّامِعَةُ .

(١) سَلَفُهُ : الْخَلِيفَةُ الَّذِي قَبْلَهُ .

(٢) الْمُتَهَدِّجُ : الْمُرْتَعِشُ الْمُتَقَطِّعُ .

(٣) نَهَكَهُ : أَضْنَاهُ .

(٤) بَلَاغاً : كِفَايَةً .

(٥) صَاحِبُ الشَّرْطِ : رَئِيسُ الشَّرْطِ وَمَدِيرُهُمْ .

(٦) ثَلَاثَةٌ : جَمَاعَةٌ .

فَالْتَمَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا لِي بِكَ وَبِهِمْ حَاجَةٌ ...
فَمَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ...
أَعْدُو كَمَا يَغْدُونَ ، وَأَرْوَحُ كَمَا يَزُوحُونَ .
ثُمَّ سَارَ وَسَارَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ :
الصَّلَاةَ جَامِعَةً ... الصَّلَاةَ جَامِعَةً ...
فَتَسَايَلَ النَّاسُ عَلَى الْمَسْجِدِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ .
فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ جُمُوعُهُمْ ، قَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا .
فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ، ثُمَّ قَالَ :
أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ ابْتُلِيتُ بِهَذَا الْأَمْرِ^(١) عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ^(٢) مِنِّي فِيهِ ...
وَلَا طَلَبَ لَهُ ...
وَلَا مَشُورَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(٣) ...
وَلِإِنِّي خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ يَبْعَتِي^(٤) ...
فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ خَلِيفَةً تَرْضُونَهُ ...
فَصَاحَ النَّاسُ صَوْتًا وَاحِدَةً :
قَدْ اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَضِينَا بِكَ ...
فَلِ^(٥) أَمَرْنَا بِالْيَمِينِ وَالْبَرَكَاتِ .

(١) بهذا الأمر : أي بالخلافة .

(٢) عَلَى غير رأي مني : إشارة إلى أنه لم يكن طالباً للخلافة ، أو عارفاً بأن سلفه عهد بها إليه .

(٣) ولا مشورة المسلمين : إشارة إلى أن سلفه أخذ البيعة له دون أن يُسميه ... انظر خبر البيعة لعمر بن عبد العزيز

في رجاء بن حيوة ص ١٥٥ .

(٤) ولِإِنِّي خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ يَبْعَتِي : جعلتكم في جِلٍّ منها . (٥) قُلِ أَمَرْنَا : قَتُولُ أَمَرْنَا .

فَلَمَّا رَأَى أَنَّ الْأَصْوَاتَ قَدْ هَدَأَتْ ، وَالْقُلُوبَ قَدْ اطمأنَّتْ ، حَمِدَ اللَّهَ
كَرَّةً^(١) أُخْرَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى وَسَلَّم عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ .

وَطَفِقَ يَحْضُ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى ...

وَيُرْهِدُهُمْ فِي الدُّنْيَا ...

وَيُرْغِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ...

وَيَذَكِّرُهُمْ بِالْمَوْتِ بِلَهْجَةٍ تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ، وَتَسْتَدِيرُ الدُّمُوعَ
الْعَاصِيَةَ ، وَتَخْرُجُ مِنْ فُؤَادِ صَاحِبِهَا فَتَسْتَقِرُّ فِي أَفئِدَةِ السَّامِعِينَ .

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ الْمُتَعَبَ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ ...

وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لَهُ عَلَى أَحَدٍ ...

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ فِيكُمْ ...

فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ .

ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ ، وَاتَّجَهَ إِلَى بَيْتِهِ ، وَأَوَى إِلَى حُجْرَتِهِ .

فَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي أَنْ يُصِيبَ سَاعَةً مِنَ الرَّاحَةِ ؛ بَعْدَ ذَلِكَ الْجُهْدِ الْجَاهِدِ^(٢)
الَّذِي كَانَ فِيهِ مُنْذُ وِفَاةِ الْخَلِيفَةِ .

* * *

لَكِنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَا كَادَ يُسَلِّمُ جَنْبَهُ إِلَى مَضْجَعِهِ ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْهِ
ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ - وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَتَّجُهُ نَحْوُ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ - وَقَالَ :

مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !!؟ .

(٢) الجهد الجاهد : العناء الشديد .

(١) كَرَّةٌ أُخْرَى : مرَّةٌ ثانية .

فَقَالَ : أَيُّ بُنَيَّ ^(١) ، أَرِيدُ أَنْ أَعْفُو ^(٢) قَلِيلًا ؛ فَلَمْ تَبْقَ فِي جَسَدِي طَاقَةٌ ^(٣) .
فَقَالَ : اتَّعَفُو قَبْلَ أَنْ تَرُدَّ الْمَظَالِمَ ^(٤) إِلَى أَهْلِهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !! ؟ .
فَقَالَ : أَيُّ بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ سَهَرْتُ الْبَارِحَةَ ^(٥) فِي عَمَلِكَ سُلَيْمَانَ ...
وَإِنِّي إِذَا حَانَ الظُّهْرُ صَلَّيْتُ فِي النَّاسِ ، وَرَدَدْتُ الْمَظَالِمَ إِلَى أَهْلِهَا إِنْ شَاءَ
اللَّهُ .

فَقَالَ : وَمَنْ لَكَ ^(٦) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ تَعِيشَ إِلَى الظُّهْرِ !! ؟ .
فَأَلْهَبْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَزِيمَةً عُمَرَ ...

وَأَطَارَتِ النَّوْمُ مِنْ عَيْنَيْهِ ...

وَبَعَثَتِ الْقُوَّةُ وَالْعَزَمُ فِي جَسَدِهِ الْمُتْعَبِ ، وَقَالَ :

أَذُنُ مِنِّي أَيُّ بُنَيَّ .

فَدَنَا مِنْهُ ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِي ^(٧) مَنْ يُعِينُنِي عَلَى دِينِي .

ثُمَّ قَامَ ، وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى فِي النَّاسِ :

أَلَا مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ ^(٨) فَلْيَرْفَعْهَا ...

* * *

فَمَنْ عَبْدُ الْمَلِكِ هَذَا !! ؟ .

(١) أَيُّ بُنَيَّ : يَا بُنَيَّ .

(٢) أَعْفُو : أَنْامَ نَوْمَةً خَفِيفَةً .

(٣) طَاقَةٌ : قُوَّةٌ

(٤) الْمَظَالِمُ : جَمْعُ مَظْلَمَةٍ ، وَهِيَ مَا أُخِذَ مِنْ مَالِ النَّاسِ ظُلْمًا .

(٥) الْبَارِحَةُ : اللَّيْلَةُ السَّابِقَةُ .

(٦) وَمَنْ لَكَ : وَمَنْ يُضَمُّ لَكَ .

(٧) مِنْ صُلْبِي : مِنْ نَسْلِي .

(٨) الْمَظْلَمَةُ : مَا أُخِذَ ظُلْمًا .

مَا خَبِرَ هَذَا الْفَتَى الَّذِي قَالَ عَنْهُ النَّاسُ :

إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ أَبَاهُ فِي الْعِبَادَةِ ...

وَسَلَكَهُ مَسْلَكَ الرَّهَادَةِ ...

تَعَالَوْا نُلِمَّ بِقِصَّةِ هَذَا الْفَتَى الصَّالِحِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

كَانَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ خَمْسَةٌ عَشَرَ وَلَدًا فِيهِمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ...

وَكَانُوا جَمِيعًا عَلَى حَظٍّ مَوْفُورٍ مِنَ الثَّقَلَى ، وَمَقَامٍ كَبِيرٍ مِنَ الصَّلَاحِ ...

لِكِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ كَانَ وَاسِطَةً عِقْدٍ^(١) إِخْوَتِهِ ، وَكَوْنَهُمُ الْمُتَأَلِّقَ ...

لَقَدْ كَانَ أَدِيبًا أَرِيئًا^(٢) ... لَهُ سِتُّ الْفَتَيَانِ ، وَعَقْلُ الْكُهُولِ .

ثُمَّ إِنَّهُ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ مُنْذُ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ ؛ فَكَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ

سَمْتًا^(٣) إِلَى آلِ الْخَطَّابِ عَامَّةً ، وَأَشْبَهُهُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ خَاصَّةً فِي تَقْوَاهُ

لِلَّهِ ، وَتَخَوُّفِهِ مِنْ مَعَاصِيهِ ، وَتَقَرُّبِهِ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ .

* * *

حَدَّثَ ابْنُ عَمِّهِ عَاصِمٌ^(٤) قَالَ :

وَفَدْتُ عَلَى « دِمَشْقَ » ، فَتَزَلْتُ عَلَى ابْنِ عَمِّي عَبْدَ الْمَلِكِ وَهُوَ عَزَبٌ^(٥)

فَصَلَّيْنَا الْعِشَاءَ ، وَأَوَى كُلُّ مَنَا إِلَى فِرَاشِهِ .

فَقَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْمِصْبَاحِ فَأَطْفَأَهُ .

وَأَسْلَمَ كُلُّ مَنَا جَفْنَيْهِ إِلَى الْكَرَى^(٦) ...

(١) الْعَقْدُ : الْقِلَادَةُ .

(٢) أَرِيئًا : غَرَبَ : غَيْرَ مُتَزَوِّجٍ .

(٣) سَمْتًا : مَاهِرًا فَطِنًا .

(٤) عَاصِمٌ : هُوَ عَاصِمُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ وَهُوَ ابْنُ أَخِي عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

(٥) عَزَبٌ : هَيْبَةٌ .

(٦) الْكَرَى : النِّعَاسُ .

ثُمَّ إِنِّي اسْتَيْقَظْتُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذَا عَبْدُ الْمَلِكِ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْعَتَمَةِ
وَهُوَ يَقْرَأُ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ (١).

فَمَا رَاعَنِي مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُرَدِّدُ الْآيَةَ وَيَنْشِجُ (٢) نَشِجاً مَكْبُوتاً ؛ يُقَطِّعُ
نِيَاطَ الْقُلُوبِ (٣) ...

وَكَانَ كُلَّمَا فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ عَادَ إِلَيْهَا ، حَتَّى قُلْتُ : سَيَقْتُلُهُ الْبُكَاءُ .
فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ :
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَيْقِظُ مِنَ النَّوْمِ ؛ لِأَقْطَعَ عَلَيْهِ الْبُكَاءُ .
فَلَمَّا سَمِعَنِي سَكَتَ ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ حِسّاً ...

* * *

وَقَدْ تَتَلَمَذَ الْقَتْلَى الْعُمَرِيُّ عَلَى أَكَابِرِ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ حَتَّى تَمَلَّى (٤) مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ ...

وَتَضَلَّعَ (٥) بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ ...

فَعَدَا عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ ؛ يُزَاحِمُ الطَّبَقَةَ الْأُولَى مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الشَّامِ فِي زَمَانِهِ .

(١) سورة الشعراء : من الآية ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(٢) ينشج : يغصُّ بالبكاء من غير انتخاب .

(٣) نياطُ القلوب : العروق التي تتعلَّقُ بها القلوب .

(٤) تملَّى من كتاب الله : استغنى بالقرآن الكريم .

(٥) تَضَلَّعَ : امتلأ شبعاً ورياً ، وتَضَلَّعَ من العلوم : نال منها حظاً وافراً .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَمَعَ قُرَاءَ الشَّامِ وَفُقَهَاءَهَا وَقَالَ :
إِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ لِأَمْرِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ الَّتِي فِي أَيْدِي أَهْلِ بَيْتِي ؛ فَمَا تَرَوْنَ
فِيهَا ؟ .

فَقَالُوا :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ كَانَ فِي غَيْرِ وَلَا يَتِكَ ...

وَأَنَّ وَزَرَ^(١) هَذِهِ الْمَظَالِمِ عَلَى مَنْ غَضَبَهَا .

فَلَمْ يَزْتَخْ إِلَى مَا قَالُوهُ ؟ ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَرَى غَيْرَ رَأْيِهِمْ ، وَقَالَ :

ابْعَثْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِدُونِ مَنْ دَعَوْتَ عِلْمًا ،
أَوْ فِقْهًا ، أَوْ عَقْلًا .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ عُمَرُ :

مَا تَرَى فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي أَخَذَهَا بَنُو عَمَّتَا مِنْ النَّاسِ ظُلْمًا ؟ ...

وَقَدْ حَضَرَ أَصْحَابُهَا وَجَعَلُوا يَطْلُبُونَهَا ، وَقَدْ عَرَفْنَا حَقَّهُمْ فِيهَا ؟ ! .

فَقَالَ : أَرَى أَنَّ تَرُدُّهَا إِلَى أَصْحَابِهَا مَا دُمْتَ قَدْ عَرَفْتَ أَمْرَهَا ...

وَأَنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ؛ كُنْتَ شَرِيكًا لِلَّذِينَ أَخَذُوهَا ظُلْمًا .

فَانْبَسَطَتْ^(٢) أَسَارِيرُ عُمَرَ ، وَارْتَاخَتْ نَفْسُهُ ، وَزَالَ عَنْهُ مَا أَهَمَّهُ .

* * *

(١) وزرها : إثمها .

(٢) انْبَسَطَتْ : انْشَرَحَتْ .

وَلَقَدْ آثَرَ الْفَتَى الْعُمَرِيُّ الْمُرَابِطَةَ عَلَى الثُّغُورِ^(١) وَالْإِقَامَةَ فِي إِحْدَى الْمُدُنِ
الْقَرِيبَةِ مِنْهَا عَلَى الْبَقَاءِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

فَمَضَى إِلَيْهَا ... وَخَلَفَ وَرَاءَهُ « دِمَشْق » ذَاتَ الرِّيَاضِ النَّصِيرَةِ ، وَالظَّلَالِ
الظَّلِيلَةِ ، وَالْأَنْهَارِ السَّبْعَةِ .

وَكَانَ أَبُوهُ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا عَرَفَهُ مِنْ صَلَاحِهِ وَتُقَاهُ - شَدِيدَ
الْخَوْفِ عَلَيْهِ مِنْ نَزَعَاتِ^(٢) الشَّيْطَانِ ، كَثِيرَ الْإِسْفَاقِ عَلَيْهِ مِنْ نَزَوَاتِ^(٣)
الشَّبَابِ ، حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَعْلَمَ مِنْ أَمْرِهِ كُلِّ مَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ...
وَكَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْ ذَلِكَ أَبَداً ، وَلَا يُهْمِلُهُ .

* * *

حَدَّثَ مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ وَزِيرُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَاضِيهِ وَمُسْتَشَارُهُ ،
قَالَ :

دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَوَجَدْتُهُ يَكْتُبُ رِسَالَةً إِلَى ابْنِهِ عَبْدِ
الْمَلِكِ يَعْظُمُهُ فِيهَا وَيَنْصَحُهُ ، وَيُبَصِّرُهُ وَيُحَذِّرُهُ ، وَيُنْذِرُهُ وَيُبَشِّرُهُ ...
وَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ وَعَى عَنِّي وَفَهِمَ قَوْلِي لَأَنْتَ .
وَإِنَّ اللَّهَ - وَلَهُ الْحَمْدُ - قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا فِي صَغِيرِ الْأَمْرِ وَكَبِيرِهِ .
فَاذْكُرُوا يَا بُنَيَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَيْكَ .
وَإِيَّاكَ وَالْكِبَرِ^(٤) وَالْعَظَمَةَ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

(١) الثُّغُورُ : جَمْعُ ثَغْرٍ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَهْجُمُ مِنْهُ الْأَعْدَاءُ .

(٢) نَزَعَاتُ الشَّيْطَانِ : وَسَاوَسُهُ وَمَا يَحْمِلُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَلَى الْمَعَاصِي .

(٣) نَزَوَاتُ الشَّبَابِ : وَثَبَاتُ الشَّبَابِ .

(٤) الْكِبَرُ : التَّجَبُّرُ .

وَهُوَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَدُوٌّ مُبِينٌ ...

وَاعْلَمْ أَنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ بِكِتَابِي هَذَا لِأَمْرِ بَلَّغْنِي عَنْكَ ؛ فَمَا عَرَفْتُ مِنْ
أَمْرِكَ إِلَّا خَيْرًا ...

غَيْرَ أَنَّهُ بَلَّغْنِي عَنْكَ شَيْءٌ مِنْ إِعْجَابِكَ بِنَفْسِكَ ...

وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْإِعْجَابَ خَرَجَ بِكَ إِلَيَّ مَا أَكْرَهُ ، لَرَأَيْتُ مِنِّي مَا تَكْرَهُ .
قَالَ مَيْمُونُ :

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ عُمَرُ وَقَالَ :

يَا مَيْمُونُ ، إِنَّ ابْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ قَدْ زُرِّنَ فِي عَيْنِي ، وَإِنِّي أَتَيْتُهُمْ نَفْسِي فِي
ذَلِكَ ، وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ حُبِّي لَهُ قَدْ غَلَبَ عَلَى عِلْمِي بِهِ ... وَأَذَرَكْنِي مَا يُدْرِكُ
الْآبَاءَ مِنَ الْعَمَلِ عَنْ عُيُوبِ أَوْلَادِهِمْ ...

فَسِرَ إِلَيْهِ ، وَاسْبِرْ غَوْرَهُ^(١) ، وَانْظُرْ هَلْ تَرَى فِيهِ مَا يُشْبِهُ الْكِبَرَ وَالْفَخْرَ ...
فَإِنَّهُ غُلَامٌ حَدَثٌ ، وَلَا آمَنْ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ .

قَالَ مَيْمُونُ :

فَشَدَدْتُ الرَّحَالَ^(٢) إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنْتُ
وَدَخَلْتُ ، فَإِذَا غُلَامٌ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ ... رَيَّانُ الشَّبَابِ ، بَهِيَّ الطَّلَعَةِ ، جَمٌّ^(٣)
التَّوَاضِعِ ، قَدْ جَلَسَ عَلَى حَشِيَّةٍ^(٤) بَيْضَاءَ فَوْقَ بَسَاطٍ مِنْ شَعْرِ .
فَرَحَّبَ بِي ، ثُمَّ قَالَ :

(١) اسْبِرْ غَوْرَهُ : اختبر حقيقته وانفذ إلى خفاياه .

(٢) شددت الرحال : سافرت .

(٣) جَمٌّ التَّوَاضِعِ : شديد التواضع .

(٤) الْحَشِيَّةُ : الفراش المَحْشُو .

لَقَدْ سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَنْفَعَ
اللَّهُ بِكَ .

فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ تَجِدُ نَفْسَكَ ؟ .

فَقَالَ : بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَنِعْمَةٍ ...

غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ قَدْ غَرَّنِي حُسْنُ ظَنِّ وَالِدِي بِي ، وَأَنَا لَمْ أَبْلُغْ مِنَ
الْفَضْلِ كُلِّ مَا يَظُنُّ ...

وَإِنِّي لَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ حُبُّهُ لِي قَدْ غَلَبَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِي ...
فَأَكُونُ آفَةً عَلَيْهِ .

فَعَجِبْتُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا ... ثُمَّ قُلْتُ لَهُ :

أَعْلَمْنِي مِنْ أَيْنَ مَعِيشَتُكَ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ غَلَّةِ أَرْضٍ اشْتَرَيْتُهَا مِنْ وَرَثَتِهَا عَنْ أَبِيهِ ، وَدَفَعْتُ ثَمَنَهَا مِنْ مَالٍ
لَا شُبْهَةَ^(١) فِيهِ ، فَاسْتَعْنَيْتُ بِذَلِكَ عَنْ فِيءٍ^(٢) الْمُسْلِمِينَ .

قُلْتُ : فَمَا طَعَامُكَ ؟ .

فَقَالَ : لَيْلَةٌ لَحْمٌ ... وَلَيْلَةٌ عَدَسٌ وَزَيْتٌ ... وَلَيْلَةٌ خَلٌّ وَزَيْتٌ ...

وَفِي هَذَا بَلَاغٌ^(٣) .

فَقُلْتُ لَهُ : أَفَمَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ؟ .

فَقَالَ : قَدْ كَانَ فِيَّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ...

(١) الشُّبْهَةُ : كُلُّ مَا يَلْتَبِسُ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَالْحَلَالُ بِالْحَرَامِ .

(٢) الْفِيءُ : الْحَرَجُ .

(٣) وَفِي هَذَا بَلَاغٌ : وَفِي هَذَا مَا يَكْفِي مِنَ الْعَيْشِ .

فَلَمَّا وَعَظَنِي أَبِي بَصَّرَنِي بِحَقِيقَةِ نَفْسِي ، وَصَغَّرَهَا عِنْدِي ، وَحَطَّ مِنْ
قَدْرِهَا فِي عَيْنِي ...

فَنَفَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ ، فَجَزَاهُ اللَّهُ مِنْ وَالِدٍ خَيْرًا .
فَقَعَدْتُ سَاعَةً أُحَدِّثُهُ ، وَأَسْتَمْتِعُ بِمَنْطِقِهِ ، فَلَمْ أَرَفْتِي كَانَ أَجْمَلَ
وَجْهًا ...

وَلَا أَكْمَلَ عَقْلاً ...

وَلَا أَحْسَنَ أَدَبًا مِنْهُ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ ، وَقِلَّةِ تَجَرِبَتِهِ .

فَلَمَّا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ ، أَنَاهُ غُلَامٌ فَقَالَ :

أُضْلَحَكَ اللَّهُ قَدْ فَرَعْنَا ...

فَسَكَتَ ...

فَقُلْتُ : مَا هَذَا الَّذِي فَرَعُوا مِنْهُ ؟!

قَالَ : الْحَمَامُ .

قُلْتُ : وَكَيْفَ ؟

قَالَ : أَخْلَوْهُ لِي مِنَ النَّاسِ .

فَقُلْتُ : لَقَدْ كُنْتُ وَقَعْتُ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعًا عَظِيمًا حَتَّى سَمِعْتُ هَذَا ...

فَدُعِرَ^(١) وَاسْتَرْجَعَ^(٢) وَقَالَ :

وَمَا فِي ذَلِكَ يَا عَمُّ يَزُحْمُكَ اللَّهُ ؟!

قُلْتُ : الْحَمَامُ لَكَ ؟!

(٢) اسْتَرْجَعَ : قَالَ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(١) دُعِرَ : خَافَ .

قَالَ : لَا ...

قُلْتُ : فَمَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ تُخْرِجَ مِنْهُ النَّاسَ !؟ ...

كَأَنَّكَ تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ تَرْفَعَ نَفْسَكَ فَوْقَهُمْ ، وَأَنْ تَجْعَلَ لَهَا قَدْرًا يَغْلُو عَلَى أَقْدَارِهِمْ ...

ثُمَّ إِنَّكَ تُؤْذِي صَاحِبَ الْحَمَّامِ فِي غَلَّةٍ ^(١) يَوْمِهِ ، وَتُرْجِعُ مَنْ أَتَى حَمَّامَهُ خَائِبًا .

قَالَ : أَمَّا صَاحِبُ الْحَمَّامِ فَأَنَا أَرْضِيهِ وَأُعْطِيهِ غَلَّةَ يَوْمِهِ .

قُلْتُ : هَذِهِ نَفَقَةٌ سَرَفٍ خَالَطَهَا كِبَرٌ ...

وَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَمَّامَ مَعَ النَّاسِ ، وَأَنْتَ كَأَحَدِهِمْ !؟ .

قَالَ :

يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ رَعَايِ النَّاسِ ^(٢) يَدْخُلُونَ الْحَمَّامَ بِغَيْرِ أَزْرِ ^(٣) فَأَكْرَهُ رُؤْيَا عَوْرَاتِهِمْ ...

وَأَكْرَهُ أَنْ أُجِيرَهُمْ عَلَى وَضْعِ الْأَزْرِ ، فَيَأْخُذُوا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ اقْتِدَارٌ مِنِّي عَلَيْهِمْ بِالسُّلْطَانِ الَّذِي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَنَا مِنْهُ كَفَافًا لَا عَلَيْنَا وَلَا لَنَا ...

فَعِظْنِي رَحِمَكَ اللَّهُ عِظَةً أَنْتَفِعَ بِهَا ...

وَاجْعَلْ لِي مَخْرَجًا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .

فَقُلْتُ :

انْتَظِرْ حَتَّى يَخْرُجَ النَّاسُ مِنَ الْحَمَّامِ لَيْلًا وَيَعُودُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ ثُمَّ ادْخُلْهُ ...

(١) الغَلَّةُ : الدُّخْلُ مِنْ كِرَاءِ دَارٍ وَفَائِدَةِ أَرْضٍ وَدَكَانٍ وَغَيْرِهِمَا .
(٢) رَعَايِ النَّاسِ : سَفَلَةُ النَّاسِ .
(٣) الْأَزْرُ : الْأَسْتَاذُ .

قَالَ : لَا جَزَمَ^(١) ...

لَا أَذْخُلُهُ نَهَاراً أَبَداً بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَلَوْلَا شِدَّةُ بَرْدِ هَذِهِ الْبِلَادِ مَا دَخَلْتُهُ أَبَداً .
وَأَطْرَقَ قَلِيلاً كَأَنَّمَا يُفَكِّرُ فِي أَمْرٍ .

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ :

أَقَسَمْتُ عَلَيْكَ لَتَطْوِيَنَّ هَذَا الْخَبَرَ^(٢) عَنْ أَبِي ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَظْلَّ سَاخِطاً
عَلَيَّ ...

وَإِنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَحُولَ الْأَجَلُ دُونَ الرِّضَا مِنْهُ .

قَالَ مَيِّمُونُ :

فَأَرَدْتُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ أُسِيرَ عَقْلَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِنْ سَأَلَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : هَلْ رَأَيْتُ مِنْكَ شَيْئاً ؟ ... فَهَلْ تَرْضَى لِي أَنْ
أَكْذِبَ عَلَيْهِ ؟ !

فَقَالَ : لَا ... مَعَاذَ اللَّهِ ... وَلَكِنْ قُلْ لَهُ :

رَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئاً فَوَعِظْتُهُ وَكَبَّرْتُهُ فِي عَيْنِهِ ، فَسَارَعَ إِلَى الرَّجُوعِ عَنْهُ ، فَإِنَّ
أَبِي لَا يَسْأَلُكَ عَنْ كَشْفِ مَا لَمْ تُظْهِرْهُ لَهُ .

لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ أَعَادَهُ مِنَ الْبَحْثِ عَمَّا اسْتَرَّ .

قَالَ مَيِّمُونُ : فَلَمْ أَرِ وَالِدًا قَطُّ وَلَا وَلِداً مِثْلَهُمَا يَرْحَمُهُمَا اللَّهُ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ خَامِسِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَرْضَاهُ ...

(١) لَا جَزَمَ : أَعَاهِدُ وَأُقْسِمُ .
(٢) لَتَطْوِيَنَّ هَذَا الْخَبَرَ : لَتَكْتُمَنَّ هَذَا الْخَبَرَ .

وَنَضَّرَ ضَرِيحَهُ وَضَرِيحَ ابْنِهِ وَفَلَذَهُ كَبِدِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ ...
 وَسَلَامٌ عَلَيْهِمَا يَوْمَ لَحِقَا بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ...
 وَسَلَامٌ عَلَيْهِمَا يَوْمَ يُنْعَثَانِ مَعَ الْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ (*) ...

-
- (*) للاستزادة من أخبار عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وولده عَبْدِ الْمَلِكِ انظر:
- ١ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لابن الجوزي .
 - ٢ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لابن عبد الحكم .
 - ٣ - الطبقات الكبرى لابن سعد ، المجلدات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، وانظر المجلد الخاص بالفهارس للوقوف على أرقام الصفحات في كل مجلد .
 - ٤ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ١١٣/٢ - ١٢٦ ، وفي ص ١٢٧ وما يليها ترجمة خاصة بابنه عبد الملك .
 - ٥ - حلية الأولياء للأصبهاني : ٣٠٢/٥ - ٣٥٣ ، وفي ص ٣٥٣ وما يليها ترجمة خاصة بابنه عبد الملك .
 - ٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : المجلدات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، (وانظر المجلد الخاص بالفهارس) .
 - ٧ - تاريخ الطبري : (انظر الفهارس بالجزء العاشر) .
 - ٨ - العقد الفريد لابن عبد ربه : (انظر الفهارس بالجزء الثامن) .
 - ٩ - البيان والتبيين للجاحظ : انظر فهارس الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
 - ١٠ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : ١١٥/٢ - ١٢٧ .
 - ١١ - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ٤٧٥/٧ - ٤٧٨ .

الحسن البصري

« كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ؟ »

[مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ]

جَاءَ الْبَشِيرُ يُبَشِّرُ زَوْجَ النَّبِيِّ « أُمُّ سَلَمَةَ » ^(١) بِأَنَّ مَوْلَاتَهَا ^(٢) « خَيْرَةَ » قَدْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا وَوَلَدَتْ غُلَامًا .

فَعَمَرَتْ الْفَرْحَةَ فُوَادُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَطَفَحَ الْبَشَرُ ^(٣) عَلَى مُحْيَاهَا ^(٤) النَّبِيلِ الْوَقُورِ .

وَبَادَرَتْ فَأَرْسَلَتْ رَسُولًا لِيَحْمِلَ إِلَيْهَا الْوَالِدَةَ وَمَوْلُودَهَا ، لِتَقْضِيَ فِتْرَةَ النَّفَاسِ فِي بَيْتِهَا .

فَقَدْ كَانَتْ « خَيْرَةُ » أَثِيرَةً ^(٥) لَدَى أُمِّ سَلَمَةَ ، حَبِيبَةً إِلَى قَلْبِهَا ... وَكَانَ بِهَا لَهْفَةٌ وَتَشَوُّقٌ ؛ لِرُؤْيَا وَلِيدِهَا الْبَكْرِ ...

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَتْ « خَيْرَةُ » تَحْمِلُ طِفْلَهَا عَلَى يَدَيْهَا ... فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنَا أُمِّ سَلَمَةَ عَلَى الطِّفْلِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهَا أَنْسَاءً بِهِ ، وَارْتِيحًا لَهُ ...

فَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ الصَّغِيرُ قَسِيمًا وَسِيمًا ^(٦) ، بَهِيَّ الطَّلَعَةِ ، تَامَ الْخِلْقَةِ ؛ يَمْلَأُ عَيْنَ مُجْتَئِلِهِ ^(٧) ، وَيَأْسِرُ فُوَادَ رَائِيهِ ^(٨) .

(١) أُمُّ سَلَمَةَ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٢) مولاتها : أمتها .

(٣) طفح البشر : فاض السرور .

(٤) المحيا : الوجه .

(٥) أثيرة : عزيزة مكرمة .

(٦) قسيمًا وسيمًا : جميلًا حسن الوجه .

(٧) يملأ عين مجتليه : يسر الناظر إليه .

(٨) يأسر فواد رائيهِ : يملك قلب رائيهِ .

ثُمَّ التَّمَتَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى مَوْلَاتِهَا وَقَالَتْ :

أَسَمَّيْتُ غُلَامَكَ يَا « خَيْرَةُ » ؟ .

فَقَالَتْ : كَلَّا يَا أُمَّاؤُ ...

لَقَدْ تَرَكْتُ ذَلِكَ لَكَ ؛ لِتُخْتَارِيَ لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا تَشَائِنَ .

فَقَالَتْ : نُسَمِّيهِ - عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ - الْحَسَنَ .

ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْهَا وَدَعَتْ لَهُ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ .

* * *

لَكِنَّ الْفَرْحَةَ بِالْحَسَنِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى بَيْتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا شَارَكَهَا فِيهَا بَيْتُ آخَرُ مِنْ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ .

هُوَ بَيْتُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ^(١) كَاتِبِ وَخِي رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ .

ذَلِكَ أَنَّ « يَسَاراً » وَالِدَ الصَّبِيِّ كَانَ مَوْلَى لَهُ أَيْضاً ...

وَكَانَ مِنْ آثِرِ ^(٢) النَّاسِ عِنْدَهُ ، وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ .

* * *

دَرَجَ ^(٣) الْحَسَنُ بْنُ يَسَارٍ [الَّذِي عُرِفَ فِيمَا بَعْدُ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ] فِي
بَيْتِ مِنْ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَرُبِّيَ فِي حِجْرِ زَوْجَةٍ مِنْ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ « هِنْدُ بِنْتُ سُهَيْلٍ »
الْمَعْرُوفَةُ بِأُمِّ سَلَمَةَ .

(١) زيد بن ثابت : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٢) من آثر الناس عنده : من أعزُّ الناس وأكرمهم عنده . (٣) درج : نشأ وترعرع .

وَأُمُّ سَلَمَةَ - إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ - كَانَتْ مِنْ أَكْمَلِ نِسَاءِ الْعَرَبِ عَقْلاً،
وَأَوْفَرِهِنَّ^(١)، فَضْلاً، وَأَشَدَّهُنَّ حَزْماً.

كَمَا كَانَتْ مِنْ أَوْسَعِ زَوَاجَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ عِلْماً، وَأَكْثَرِهِنَّ
رَوَايَةً عَنْهُ ...

حَيْثُ رَوَتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَثَمَانِينَ حَدِيثاً ...
وَكَانَتْ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ النِّسَاءِ الْقَلِيلَاتِ النَّادِرَاتِ اللَّوَاتِي يَكْتُبْنَ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ ...

وَلَمْ تَقِفْ صِلَةَ الصَّبِيِّ الْمَحْظُوظِ بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ «أُمِّ سَلَمَةَ» عِنْدَ هَذَا
الْحَدِّ ...

وَلِنَّمَا امْتَدَّتْ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ ...

فَكَثِيراً مَا كَانَتْ «خَيْرُهُ» أُمُّ الْحَسَنِ تَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ لِقَضَاءِ بَعْضِ
حَاجَاتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ الطِّفْلُ الرِّضِيعُ يَنِيكِي مِنْ جُوعِهِ، وَيَسْتَدُّ بِكَأْوِهِ
فَتَأْخُذُهُ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى حَجَرِهَا، وَتُلْقِمُهُ^(٢) ثَدْيِهَا؛ لِتَصْبِرَهُ بِهِ وَتَعْلَلَهُ^(٣) عَنْ غِيَابِ
أُمِّهِ ...

فَكَانَتْ لِشِدَّةِ حُبِّهَا إِيَّاهُ يَدُرُّ ثَدْيُهَا لَبَناً سَائِغاً فِي فَمِهِ فَيَرْضَعُهُ الصَّبِيُّ
وَيَسْكُتُ عَلَيْهِ.

وَبِذَلِكَ غَدَتْ أُمُّ سَلَمَةَ أُمًّا لِلْحَسَنِ مِنْ جِهَتَيْنِ :

فَهِيَ أُمُّهُ بِوَصْفِهِ أَحَدَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَهِيَ أُمُّهُ مِنَ الرِّضَاعِ أَيْضاً ...

* * *

(١) أوفرهن: أكثرهن. (٢) تلقمه ثديها: تضع ثديها في فمه. (٣) تعلله: تشغله.

وَقَدْ أَتَا حَتِ الصَّلَاتِ الْوَاشِحَةُ^(١) يَنْ أُمّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقُرْبُ بُيُوتِ
بَعْضِهِنَّ مِنْ بَعْضٍ لِلْغَلَامِ السَّعِيدِ أَنْ يَتَرَدَّدَ عَلَى هَذِهِ الْبُيُوتِ كُلِّهَا ...
وَأَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ رَبَّانِيهَا^(٢) جَمِيعاً ...
وَأَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِنَّ ...

وَقَدْ كَانَ - كَمَا يُحَدِّثُ عَنْ نَفْسِهِ - يَمْلَأُ هَذِهِ الْبُيُوتِ بِحَرَكَاتِهِ الدَّائِيَّةِ ،
وَيُتَرَعِّقُهَا بِلَعْبِهِ النَّشِيطِ ...

حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَنَالُ سُقُوفَ بُيُوتِ أُمّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِيَدَيْهِ وَهُوَ يَقْفِزُ فِيهَا
قَفْزاً .

* * *

ظَلَّ الْحَسَنُ يَتَقَلَّبُ فِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْعَبَقَةِ^(٣) بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ ، الْمُتَأَلِّقَةِ^(٤)
بِسَنَاهَا ...

وَيَنْهَلُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَارِدِ الْعَذِيَّةِ الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا بُيُوتُ أُمّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ...
وَيَتَنَلَّمُ عَلَى أَيْدِي كِبَارِ الصَّحَابَةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
حَيْثُ رَوَى عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَبِي مُوسَى
الْأَشْعَرِيِّ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَغَيْرِهِمْ
وَعَيْرِهِمْ^(٥) ...

(١) الصلوات الواشحة : الصلوات الوثيقة المتينة .

(٢) رَبَّانِيهَا : صاحباتها .

(٣) العبقة : العطرة .

(٤) المتألقة : الملتصقة .

(٥) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : انظرهم في
كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

لَكِنَّهُ أَوْلَعَ أَكْثَرَ مَا أَوْلَعَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
فَقَدْ رَاعَهُ مِنْهُ صَلَابَتُهُ فِي دِينِهِ ، وَإِحْسَانُهُ لِعِبَادَتِهِ ، وَزَهَادَتُهُ بِرِيئَةِ الدُّنْيَا
وَزُخْرُفِهَا ...

وَحَلَبَهُ^(١) مِنْهُ بَيَانُهُ الْمُشْرِقُ ، وَحِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ ، وَأَقْوَالُهُ الْجَامِعَةُ ، وَعِظَاتُهُ
الَّتِي تَهْزُ الْقُلُوبَ هَذَا .

فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ فِي التَّقَى وَالْعِبَادَةِ ...

وَنَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ^(٢) فِي الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ ...

وَلَمَّا بَلَغَ الْحَسَنُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ ربيعاً مِنْ عُمْرِهِ ، وَدَخَلَ فِي مَدَاحِلِ الرِّجَالِ
انْتَقَلَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى « الْبَصْرَةِ » وَاسْتَقَرَّ فِيهَا مَعَ أُسْرَتِهِ .

وَمِنْ هُنَا تُسَبِّحُ الْحَسَنُ إِلَى « الْبَصْرَةِ » ...

وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ...

* * *

كَانَتْ « الْبَصْرَةُ » يَوْمَ أُمِّهَا الْحَسَنُ ؛ قَلْعَةً مِنْ أَكْبَرِ قِلَاعِ الْعِلْمِ فِي دَوْلَةِ
الْإِسْلَامِ ...

وَكَانَ مَسْجِدُهَا الْعَظِيمُ ؛ يَمْوُجُ بِمِنْ أَرْتَحَلَ إِلَيْهَا مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ ،
وَجِلَّةِ التَّابِعِينَ ...

وَكَانَتْ حَلَقَاتُ الْعِلْمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا ؛ تَعْمُرُ بَاحَاتِ الْمَسْجِدِ
وَمُصَلَّاهُ .

وَقَدْ لَزِمَ الْحَسَنُ الْمَسْجِدَ ، وَانْقَطَعَ إِلَى حَلَقَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ خَبِيرِ أُمَّةٍ

(١) خَلَبَهُ : فَتَنَهُ وَسَحَرَهُ .

(٢) نَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ : سَارَ عَلَى طَرِيقَتِهِ .

مُحَمَّدٍ^(١)، وَأَخَذَ عَنْهُ التَّفْسِيرَ وَالْحَدِيثَ وَالْقِرَاءَاتِ .

كَمَا أَخَذَ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ الْفِقْهَ ، وَاللُّغَةَ ، وَالْأَدَبَ ، وَغَيْرَهَا وَغَيْرَهَا ...
حَتَّى غَدَا عَالِمًا جَامِعًا فِقْهِهَا ثِقَةً^(٢) .

فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ الْغَزِيرِ ...
وَالْتَفُتُوا حَوْلَهُ يُصِیْخُونَ^(٣) إِلَى مَوَاعِظِهِ الَّتِي تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ،
وَتَسْتَدِيرُ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ .

وَيَعُونَ^(٤) حِكْمَتَهُ الَّتِي تَحْلِبُ الْأَلْبَابَ ...
وَيَتَأَسُّونَ بِسِيرَتِهِ الَّتِي كَانَتْ أَطْيَبَ مِنْ نَشْرِ الْمِسْكِ^(٥) ...
وَلَقَدْ انْتَشَرَ أَمْرُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي الْبِلَادِ وَفَشَا ذِكْرُهُ^(٦) بَيْنَ الْعِبَادِ ...
فَجَعَلَ الْخُلَفَاءَ وَالْأَمْراءَ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهُ وَيَتَسَقَّطُونَ^(٧) أَخْبَارَهُ ...

* * *

حَدَّثَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ^(٨) قَالَ :

لَقِيتُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ^(٩) فِي « الْحِيرَةِ »^(١٠) فَقَالَ لِي :

(١) حبر أئمة مُحَمَّد : عالم أئمة مُحَمَّد ﷺ وعابدها .

(٢) الثقة : من يعتمد عليه ، ويوثق بدينه وعلمه .

(٣) يصيخون : ينصتون .

(٤) يعون حكيمته : يحفظون حكيمته ويتدبرونها .

(٥) نشر المسك : ربح المسك .

(٦) فشا ذكره : شاع ذكره وانتشر .

(٧) يتسقطون أخباره : يتبعون أخباره .

(٨) خالد بن صفوان : من فصحاء العرب ، جالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وعاش حتى أدرك

السفاح العباسي وحظي عنده .

(٩) مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : أَمِيرٌ قَائِدٌ مِنْ أَبْطَالِ بَنِي أُمَيَّةَ ، غَزَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ ، وَبَنَى فِيهَا مَسْجِدَ مَسْلَمَةَ .

(١٠) الحيرة : بلدة قديمة في العراق على بعد ثلاثة أميال من الكوفة ، اندثرت ولم يبق لها وجود اليوم .

أَخْبِرْنِي يَا خَالِدُ عَنْ حَسَنِ الْبَصْرَةِ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ
مَا لَا يَعْرِفُ سِوَاكَ .

فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

أَنَا خَيْرٌ مَنْ يُخْبِرُكَ عَنْهُ بِعِلْمٍ ...

فَأَنَا جَارُهُ فِي بَيْتِهِ ، وَجَلِيسُهُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَأَعْلَمُ أَهْلَ « الْبَصْرَةِ » بِهِ .

فَقَالَ مَسْلَمَةُ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فَقُلْتُ : إِنَّهُ أَمْرٌ سَرِيرَتُهُ كَعَلَانِيَّتِهِ ...

وَقَوْلُهُ كَفِعْلِهِ ...

إِذَا أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ كَانَ أَعْمَلَ النَّاسِ بِهِ ...

وَإِذَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ كَانَ أَتْرَكَ النَّاسِ لَهُ ...

وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مُسْتَعْنِيًا عَنِ النَّاسِ ؛ زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ...

وَرَأَيْتُ النَّاسَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ ؛ طَالِبِينَ مَا عِنْدَهُ ...

فَقَالَ مَسْلَمَةُ : حَسْبُكَ ^(١) يَا خَالِدُ حَسْبُكَ !! .

كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ هَذَا ؟ ! .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيَّ « الْعِرَاقَ » ، وَطَعَى فِي وَلَايَتِهِ
وَتَجَبَّرَ ...

كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَحَدَ الرِّجَالِ الْقَلَائِلِ الَّذِينَ تَصَدَّقُوا لِطُغْيَانِهِ ^(٢) ،

(١) حَسْبُكَ : يَكْفِيكَ .

(٢) تصدوا لطغيانه : ناهضوا طغيانه وعارضوه .

وَجَهَرُوا بَيْنَ النَّاسِ بِسُوءِ أَعْمَالِهِ ، وَصَدَعُوا^(١) بِكَلِمَةِ الْحَقِّ فِي وَجْهِهِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَجَّاجَ بَنَى لِنَفْسِهِ بِنَاءً فِي « وَاسِطَ »^(٢) .

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ ، نَادَى فِي النَّاسِ أَنْ يَخْرُجُوا لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ بِالْبَرَكَةِ .

فَلَمْ يَشَأِ الْحَسَنُ أَنْ يُفَوِّتَ عَلَى نَفْسِهِ فُرْصَةَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ هَذِهِ ...

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لِيُعْظِمَهُمْ وَيُذَكِّرَهُمْ ، وَيُرْهِدَهُمْ بِعَرَضِ الدُّنْيَا ، وَيُرْغِبَهُمْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَلَمَّا بَلَغَ الْمَكَانَ ، وَنَظَرَ إِلَى جُمُوعِ النَّاسِ وَهِيَ تَطُوفُ بِالْقَصْرِ الْمُنِيفِ مَأْخُودَةً بِرَوْعَةِ بِنَائِهِ ، مَذْهُوشَةً بِسَعَةِ أَرْجَائِهِ^(٣) مَشْدُودَةً إِلَى بَرَاعَةِ زَخَارِفِهِ ... وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيباً ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَهُ :

لَقَدْ نَظَرْنَا فِيمَا ابْتَنَى أَحَبُّتُ الْأَحْبَثِينَ ؛ فَوَجَدْنَا أَنَّ « فِرْعَوْنَ » شَيْدَ أَعْظَمَ مِمَّا شَيْدَ ، وَبَنَى أَعْلَى مِمَّا بَنَى ...

ثُمَّ أَهْلَكَ اللَّهُ « فِرْعَوْنَ » ، وَأَتَى عَلَى مَا بَنَى^(٤) وَشَيْدَ ...

لَيْتَ الْحَجَّاجَ يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ قَدْ مَقْتُوهُ ، وَأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ قَدْ غَرُّوهُ^(٥) ...

وَمَضَى يَتَدَفَّقُ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ^(٦) حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَحَدُ السَّامِعِينَ مِنْ نِقْمَةِ الْحَجَّاجِ ، فَقَالَ لَهُ :

حَسْبُكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ... حَسْبُكَ .

فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ :

(٤) أَتَى عَلَى مَا بَنَى : دُمِّرَ مَا بَنَى .

(١) صَدَعُوا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ : جَهَرُوا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ .

(٥) قَدْ غَرُّوهُ : خَدَعُوهُ ، وَنَافَقُوهُ حَتَّى امْتَلَأَ غُرُوراً .

(٢) واسط : مدينة متوسطة بين البصرة والكوفة .

(٦) عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ : عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ .

(٣) أَرْجَائِهِ : نَوَاحِيهِ .

لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ لِيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ ...

* * *

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَخَلَ الْحَجَّاجُ إِلَى مَجْلِسِهِ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ^(١) وَقَالَ لِجُلَاسِهِ :

تَبَّأَ لَكُمْ وَشَحَقًا^(٢) ...

يَقُومُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ أَهْلِ « الْبَصْرَةِ » وَيَقُولُ فِينَا مَا شَاءَ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ لَا يَجِدُ فِيكُمْ مَنْ يَرُدُّهُ أَوْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ !! ...

وَاللَّهِ لَا سَقِيئَكُمْ مِنْ دَمِهِ يَا مَعْشَرَ الْجُبَنَاءِ .

ثُمَّ أَمَرَ بِالسَّيْفِ وَالنُّطْعِ^(٣) ... فَأُخْضِرَا ...

وَدَعَا بِالْجَلَادِ ؛ فَمَثَلَ وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ .

ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى الْحَسَنِ بَعْضَ شَرْطِهِ ...

وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوهُ بِهِ ...

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَ الْحَسَنُ ، فَشَخَّصَتْ^(٤) نَحْوَهُ الْأَبْصَارُ ...

وَوَجِفَتْ^(٥) عَلَيْهِ الْقُلُوبُ .

فَلَمَّا رَأَى الْحَسَنُ السَّيْفَ وَالنُّطْعَ وَالْجَلَادَ ، حَرَكَ شَفَتَيْهِ ...

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ وَعَلَيْهِ جَلَالُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِزَّةُ الْمُسْلِمِ ، وَوَقَارُ الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ .

(١) يتميز من الغيظ : يتقطع من الغضب .

(٢) تبَّأَ لَكُمْ وشحَقًا : هلاكًا لكم ويُعْدَا .

(٣) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس .

(٤) شَخَّصَتْ الْأَبْصَارُ : فتحت العيون .

(٥) وَجِفَتْ الْقُلُوبُ : خففت القلوب .

فَلَمَّا رَأَاهُ الْحَجَّاجُ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ ؛ هَابَهُ أَشَدَّ الْهَيْبَةِ وَقَالَ لَهُ :

هَآ هُنَا يَا أَبَا سَعِيدٍ ... هَآ هُنَا ...

ثُمَّ مَا زَالَ يُوسِّعُ لَهُ وَيَقُولُ :

هَآ هُنَا ... وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي دَهْشَةٍ وَاسْتِعْزَابٍ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى

فِرَاشِهِ .

وَلَمَّا أَخَذَ الْحَسَنُ مَجْلِسَهُ التَّفَتَّ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ ، وَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ
أُمُورِ الدِّينِ ، وَالْحَسَنُ يُجِيبُهُ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِجَنَانٍ ثَابِتٍ ، وَبَيَانٍ سَاحِرٍ ، وَعِلْمٍ
وَاسِعٍ .

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ :

أَنْتَ سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ يَا أَبَا سَعِيدٍ .

ثُمَّ دَعَا بِغَالِيَةِ^(١) وَطَيَّبَ لَهُ بِهَا لِحْيَتَهُ وَوَدَّعَهُ .

وَلَمَّا خَرَجَ الْحَسَنُ مِنْ عِنْدِهِ ، تَبِعَهُ حَاجِبُ^(٢) الْحَجَّاجِ وَقَالَ لَهُ :

يَا أَبَا سَعِيدٍ ، لَقَدْ دَعَاكَ الْحَجَّاجُ لِغَيْرِ مَا فَعَلَ بِكَ ، وَإِنِّي رَأَيْتُكَ عِنْدَمَا
أَقْبَلْتُ وَرَأَيْتَ السَّيْفَ وَالنُّطْعَ ؛ قَدْ حَرَّكَتَ شَفَتَيْكَ ، فَمَاذَا قُلْتَ ؟ .

فَقَالَ الْحَسَنُ :

لَقَدْ قُلْتُ : يَا وَلِيَّ نِعْمَتِي وَمَلَاذِي عِنْدَ كُرْبَتِي ؛ اجْعَلْ نِقْمَتَهُ بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَيَّ كَمَا جَعَلْتَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ .

* * *

(١) الغالية : أنواع من الطيب تُفَرِّجُ وَيَطْبِيبُ بِهَا .

(٢) حاجِبُ الْحَجَّاجِ : بَوَّابُ الْحَجَّاجِ .

وَلَقَدْ كَثُرَتْ مَوَاقِفُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ هَذِهِ مَعَ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ ، فَكَانَ يَخْرُجُ مِنْ كُلِّ مِنْهَا عَظِيماً فِي أَعْيُنِ ذَوِي السُّلْطَانِ ، عَزِيزاً بِاللَّهِ ، مَحْفُوظاً بِحِفْظِهِ ... مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ انْتَقَلَ الْخَلِيفَةُ الرَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ^(١) إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ وَآلَتِ ^(٢) الْخِلَافَةَ إِلَى يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَّى عَلَى « الْعِرَاقِ » عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ ...

ثُمَّ زَادَهُ بَسْطَةً فِي السُّلْطَانِ فَأَضَافَ إِلَيْهِ « خُرَاسَانَ » أَيْضاً .

وَسَارَ يَزِيدُ فِي النَّاسِ سِيرَةً غَيْرَ سِيرَةِ سَلَفِهِ الْعَظِيمِ ...

فَكَانَ يُرْسِلُ إِلَى عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ بِالْكِتَابِ تَلُوَ الْكِتَابَ ، وَيَأْمُرُهُ بِإِنْفَازِ ^(٣) مَا فِيهَا وَلَوْ كَانَ مُجَافِياً لِلْحَقِّ أحياناً ...

فَدَعَا عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ كُلَّ مَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَعَامِرِ بْنِ شَرَاهِيلَ الْمَعْرُوفِ بِالشَّعْبِيِّ ^(٤) وَقَالَ لَهُمَا :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَأَوْجَبَ طَاعَتَهُ عَلَى النَّاسِ .

وَقَدْ وَلَّانِي مَا تَرَوْنَ مِنْ أَمْرِ « الْعِرَاقِ » ثُمَّ زَادَنِي فَوَلَّانِي « فَارِسَ » . وَهُوَ يُرْسِلُ إِلَيَّ أحياناً كُتُباً يَأْمُرُنِي فِيهَا بِإِنْفَازِ مَا لَا أَطْمَئِنُّ إِلَى عَدَالَتِهِ . فَهَلْ تَجِدَانِ لِي فِي مُتَابَعَتِي إِثْمَهُ وَإِنْفَازِ أَوَامِرِهِ مَخْرَجاً فِي الدِّينِ ؟ . فَأَجَابَ الشَّعْبِيُّ جَوَاباً فِيهِ مُلَاطَفَةٌ لِلْخَلِيفَةِ ، وَمُسَايَرَةٌ لِلْوَالِي ...

وَالْحَسَنُ سَاكِتٌ ...

(١) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ . (٣) إنفاذ ما فيها : إجراء ما فيها .
(٢) آلت : الخلافة إلى فلان : صارت إليه وتولاها . (٤) عامر بن شراحيل : انظره ص ١٧٢ .

فَالْتَفَتَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى الْحَسَنِ وَقَالَ :
وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ؟ .

فَقَالَ : يَا بَنَ هُبَيْرَةَ خَفِ اللَّهَ فِي يَزِيدَ ؛ وَلَا تَخَفْ يَزِيدَ فِي اللَّهِ ...
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ يَمْنَعُكَ ^(١) مِنْ يَزِيدَ ، وَأَنَّ يَزِيدَ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ
اللَّهِ ...

يَا بَنَ هُبَيْرَةَ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ عَلِيْظٌ شَدِيدٌ لَا يَعْصِي اللَّهَ
مَا أَمَرَهُ ، فَيُرِيْلَكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَذَا ، وَيَنْقُلَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ ...
حَيْثُ لَا تَجِدُ هُنَاكَ يَزِيدَ ، وَإِنَّمَا تَجِدُ عَمَلَكَ الَّذِي خَالَفْتَ فِيهِ رَبَّ
يَزِيدَ ...

يَا بَنَ هُبَيْرَةَ إِنَّكَ إِنْ تَكُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي طَاعَتِهِ ؛ يَكْفِكَ ^(٢) بَاقِيَةَ يَزِيدَ
ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...

وَإِنْ تَكُ مَعَ يَزِيدَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَكِلُكَ ^(٣) إِلَى يَزِيدَ .
وَاعْلَمْ يَا بَنَ هُبَيْرَةَ أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ كَائِنًا مِنْ كَانَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ
عَزَّ وَجَلَّ .

فَبَكَى عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ حَتَّى بَلَثَ دُمُوعُهُ لِحَيْتَهُ ...

وَمَالَ عَنِ الشَّعْبِيِّ إِلَى الْحَسَنِ ...

وَبَالَغَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِكْرَامِهِ ...

فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ تَوَجَّهَا إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا النَّاسُ ،
وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا مَعَ أَمِيرِ « الْعِرَاقَيْنِ » ^(٤) .

(٣) يَكِلُكَ : يَتْرَكُكَ .

(١) يَمْنَعُكَ مِنْ يَزِيدَ : يَحْمِيكَ مِنْ يَزِيدَ .

(٤) الْعِرَاقَانِ : الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ .

(٢) يَكْفِيكَ بَاقِيَةَ يَزِيدَ : يَمْنَعُكَ أَذَى يَزِيدَ .

فَالْتَفَتَ الشَّعْبِيُّ إِلَيْهِمْ وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُؤْثِرَ^(١) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ فَلْيَفْعَلْ ...

فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا قَالَ الْحَسَنُ لِعُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ قَوْلًا أَجْهَلُهُ ...
وَلَكِنِّي أَرَدْتُ فِيمَا قُلْتُهُ وَجْهَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، وَأَرَادَ فِيمَا قَالَهُ وَجْهَ اللَّهِ ...
فَأَقْصَانِي اللَّهُ مِنْ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَأَذْنَاهُ مِنْهُ وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ عَاشَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِينَ عَامًا مَلَأَ الدُّنْيَا خِلَالَهَا عِلْمًا وَحِكْمَةً وَفَقْهًا .

وَكَانَ مِنْ أَجَلٍ مَا وَرَّثَهُ لِلْأَجْيَالِ رَقَائِقُهُ^(٢) الَّتِي ظَلَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ رِبْعًا لِلْقُلُوبِ ...

وَمَوَاعِظُهُ الَّتِي هَزَّتْ وَمَا زَالَتْ تَهْزُ الْأَفْئِدَةَ ، وَتَسْتَدِيرُ الشُّنُونَ^(٣) ، وَتَدُلُّ
التَّائِبِينَ عَلَى اللَّهِ ، وَتُنَبِّهُ الْغَارِبِينَ الْغَافِلِينَ^(٤) إِلَى حَقِيقَةِ الدُّنْيَا ، وَحَالِ النَّاسِ مَعَهَا .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لِسَائِلٍ سَأَلَهُ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا :

تَسْأَلُنِي عَنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ !! ...

إِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَثَلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...
مَتَى ازْدَدْتَ مِنْ أَحَدِهِمَا قُرْبًا ازْدَدْتَ مِنَ الْآخَرِ بُعْدًا .

(١) يؤثر : يفضل .

(٢) الرقائق : المواعظ والوصايا ، سميت كذلك لرقتها أو لأنها ترقق القلوب .

(٣) الشنون : العروق التي تجري منها الدموع . (٤) الغارين الغافلين : المهملين .

وَتَقُولُ لِي صِفْ لِي هَذِهِ الدَّارَ !! ...
فَمَاذَا أَصِفُ لَكَ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ^(١) وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ...
وَفِي حَلَالِهَا حِسَابٌ ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ ...
مَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ ...
وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُهُ لِآخِرَ سَأَلُهُ عَنْ حَالِهِ وَحَالِ النَّاسِ :
وَيُحِنَّا مَاذَا فَعَلْنَا بِأَنْفُسِنَا !!؟ ...
لَقَدْ أَهْرَلْنَا دِينَنَا ، وَسَمَّيْنَا دُنْيَانَا ...
وَأَخْلَقْنَا^(٢) أَخْلَاقَنَا ، وَجَدَدْنَا فُرْشَنَا وَثِيَابَنَا ...
يَتَكَبَّرُ أَحَدُنَا عَلَى شِمَالِهِ ، وَيَأْكُلُ مِنْ مَالٍ غَيْرِ مَالِهِ ...
طَعَامُهُ غَضْبٌ ...
وَيَخْدُمُهُ سُحْرَةٌ^(٣) ...
يَدْعُو بِحُلُوبٍ بَعْدَ حَامِضٍ ...
وَبِحَارٍّ بَعْدَ بَارِدٍ ...
وَبِرَطْبٍ بَعْدَ يَابِسٍ ...
حَتَّى إِذَا أَخَذَتْهُ الْكِظَةُ^(٤) تَجَشَّأُ^(٥) مِنْ الْبَشَمِ^(٦) ثُمَّ قَالَ :
يَا غُلَامُ ...

(١) عناء : تعب ونصب .

(٢) أَخْلَقْنَا أَخْلَاقَنَا : أَلْبَيْنَا أَخْلَاقَنَا .

(٣) السُّحْرَةُ : العمل قهراً وبلا أجره .

(٤) الكِظَةُ : ما يعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام من الضيق والألم .

(٥) تَجَشَّأُ : أخرج ريحاً من فمه مع صوت من شدّة الشبع . (٦) الْبَشَمُ : الثُّخْمَةُ .

هَاتِ هَاضُوماً يَهْضِمُ الطَّعَامَ ...
يَا أُحْيِمُقُ^(١) - وَاللَّهِ - لَنْ تَهْضِمَ إِلَّا دِينَكَ ...
أَيْنَ جَارُكَ الْمُحْتَاجُ !!؟ .
أَيْنَ يَتِيمُ قَوْمِكَ الْجَائِعُ !!؟ .
أَيْنَ مِسْكِينُكَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْكَ !!؟ .
أَيْنَ مَا وَصَّاكَ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ !!؟ .
لَيْتَكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَدَدٌ ...
وَأَنَّهُ كُلَّمَا غَابَتْ عَنْكَ شَمْسُ يَوْمٍ نَقَصَ شَيْءٌ مِنْ عَدَدِكَ ...
وَمَضَى بَعْضُكَ مَعَهُ ...

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ مِنْ غُرَّةِ رَجَبٍ^(٢) سَنَةِ مِائَةِ وَعَشْرِ، لَبَّى الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ نِدَاءَ رَبِّهِ ...
فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ وَشَاعَ فِيهِمْ نَعْيُهُ ؛ اِزْتَجَتِ « الْبَصْرَةُ » لِمَوْتِهِ رَجًّا ...
فَغُسِّلَ وَكُفِّنَ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ فِي الْجَامِعِ الَّذِي قَضَى فِي رِحَابِهِ
جُلَّ حَيَاتِهِ عَالِمًا وَمُعَلِّمًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ .
ثُمَّ تَبَعَ النَّاسُ جَمِيعًا جَنَازَتَهُ ...
فَلَمْ تُقَمْ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي جَامِعِ « الْبَصْرَةِ » ...
لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ أَحَدٌ يُقِيمُ الصَّلَاةَ ...

(١) الأحيق: تصغير أحمق وهو القليل العقل الفاسد الرأي .
(٢) غرة رجب: الغرة من كل شيء أوله وطلعته، وغرة رجب: أول رجب .

وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّ الصَّلَاةَ عُطِّلَتْ فِي جَامِعِ «البَصْرَةِ» مُنْذُ ابْتِنَائِهِ
الْمُسْلِمُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

يَوْمَ انْتَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ (*) ...

-
- (*) للاستزادة من أخبار الحسن البصريّ انظر:
- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٥٦/٧، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٢، وغيرها من الصفحات (انظر فهرس الكتاب في المجلد الأخير).
 - ٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي: ٢٣٣/٣ - ٢٣٧ (طبعة دار الناشر بحلب).
 - ٣ - حلية الأولياء للأصفهاني: ١٣١/٢ - ١٦١.
 - ٤ - تاريخ خليفة بن خياط: ١٢٣، ١٨٩، ٢٨٧، ٣٣١، ٣٥٤.
 - ٥ - وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣٥٤/١ - ٣٥٦.
 - ٦ - شذرات الذهب: ١٣٨/١ - ١٣٩.
 - ٧ - ميزان الاعتدال: ٢٥٤/١ وما بعدها.
 - ٨ - أمالي المرتضى: ١٥٢/١، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٠.
 - ٩ - البيان والتبيين: ١٧٣/٢ و ١٤٤/٣.
 - ١٠ - المحرر لمحمد بن حبيب: ٢٣٥، ٣٧٨.
 - ١١ - كتاب الوفيات لأحمد بن حسن بن علي بن الخطيب: ١٠٨، ١٠٩.
 - ١٢ - الحسن البصري لإحسان عباس.

سُرَيْحُ الْقَاضِي

« قِيلَ لِشُرَيْحٍ : بِأَيِّ شَيْءٍ أَصَبْتَ هَذَا الْعِلْمَ ؟ ... »

فَقَالَ : بِمُذَاكَرَةِ الْعُلَمَاءِ : أَخَذْتُ مِنْهُمْ وَأُعْطِيَهُمْ »

[سَفِيَانُ الْأَوْسِيُّ]

ابْتَنَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَساً مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ وَنَقَدَهُ^(١) ، ثُمَّ امْتَطَى^(٢) صَهْوَتَهُ وَمَضَى بِهِ .

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَتَنَعَّدُ بِالْفَرَسِ طَوِيلًا حَتَّى ظَهَرَ فِيهِ عَطَبٌ عَاقَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْجُرُي ، فَانْتَنَى^(٣) بِهِ عَائِداً مِنْ حَيْثُ انْطَلَقَ ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ :
خُذْ فَرَسَكَ فَإِنَّهُ مَعْطُوبٌ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أَخْذُهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَقَدْ بَغْتُهُ مِنْكَ سَلِيماً صَاحِحاً .
فَقَالَ عُمَرُ : اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَكْماً .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَحْكُمُ بَيْنَنَا شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِنْدِيُّ .
فَقَالَ عُمَرُ : رَضِيتُ بِهِ .

* * *

اخْتَكَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَصَاحِبُ الْفَرَسِ إِلَى شُرَيْحٍ ، فَلَمَّا سَمِعَ شُرَيْحُ مَقَالَهَ الْأَعْرَابِيِّ ، التَفَتَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَالَ :
هَلْ أَخَذْتَ الْفَرَسَ سَلِيماً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .
فَقَالَ عُمَرُ : نَعَمْ .

(١) نقده ثمنه : دفع له ثمنه .

(٢) امتطى صهوته : ركب على ظهره ، والصهوة : مقعدُ الفارس من الفرس . (٣) انتنى : انعطف .

فَقَالَ شُرَيْحٌ : اَحْتَفِظْ بِمَا اسْتَرَيْتَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَوْ رُدَّ كَمَا أَحَدْتَ .

فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى شُرَيْحٍ مُعْجَبًا ، وَقَالَ :

وَهَلِ الْقَضَاءُ إِلَّا هَكَذَا !؟ ...

قَوْلُ فَضْلٍ^(١) ، وَحُكْمُ عَدْلٍ .

سِرٌّ إِلَى « الْكُوفَةِ » فَقَدْ وَلَّيْتُكَ قَضَاءَهَا .

* * *

لَمْ يَكُنْ شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ وَلَاةِ عُمَرَ الْقَضَاءَ ، رَجُلًا مَجْهُولَ الْمَقَامِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ ، أَوْ امْرَأًا مَعْمُورًا^(٢) الْمَنْزِلَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ مِنْ جِلَّةِ^(٣) الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ .

فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ الْفَضْلِ وَأَهْلُ السَّابِقَةِ^(٤) يُقَدِّرُونَ لِشُرَيْحٍ فِطْنَتَهُ الْحَادَّةَ وَذَكَاءَهُ الْقَدَّ ، وَخُلُقَهُ الرَّفِيعَ ، وَطُولَ تَجَرُّبَتِهِ فِي الْحَيَاةِ وَعُمْقَهَا ...

فَهُوَ رَجُلٌ « يَمْنِي » الْمَوْطِنَ ، « كِنْدِي »^(٥) الْعَشِيرَةَ ، قَضَى شَطْرًا غَيْرَ يَسِيرٍ مِنْ حَيَاتِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

فَلَمَّا أَشْرَقَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِثُورِ الْهَدَايَةِ ، وَنَفَذَتْ أَشْعَةَ الْإِسْلَامِ إِلَى أَرْضِ « الْيَمَنِ » ، كَانَ شُرَيْحٌ مِنْ أَوَائِلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ .

(١) قولُ فَضْلٍ : قولٌ حقٌّ لا باطلَ فيه .

(٢) المعمر : المجهول الخامل الذكر .

(٣) جلة الصحابة : سادة الصحابة وعظماؤهم .

(٤) أهل السابقة : أصحاب التقدم .

(٥) كِنْدِي العشيرة : منسوب إلى كِنْدَةَ [بكسر الكاف وسكون النون] وهي قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء .

وَكَانَ عَارِفُو فَضْلِهِ وَمُقَدِّرُو شَمَائِلِهِ ^(١) وَمَزَايَاهُ ؛ يَأْسُونَ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْأَسَى ،
وَيَتَمَنُّونَ أَنْ لَوْ أُتِيحَ ^(٢) لَهُ أَنْ يَفِدَ عَلَى الْمَدِينَةِ مُبَكَّرًا لِيَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ
أَنْ يَلْحَقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَلِيَنْهَلَ مِنْ مَوَارِدِهِ ^(٣) الصَّافِيَةِ الْمُصَفَّاءِ مُبَاشَرَةً
لَا بِالْوَسَاطَةِ ...

وَلَكِنِّي يَحْظَلِي بِشَرَفِ الصُّحْبَةِ بَعْدَ أَنْ حِطِّي بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ ...
وَبِذَلِكَ يَجْمَعُ الْخَيْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ ...
وَلَكِنَّ مَا قُدِّرَ كَانَ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، مُتَعَجِّلًا حِينَ عَهْدَ بِمَنْصِبٍ مِنْ
مَنَاصِبِ الْقَضَاءِ الْكُبْرَى لِرَجُلٍ مِنَ التَّائِبِينَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَمَاءَ الْإِسْلَامِ
كَانَتْ يَوْمَئِذٍ مَا تَزَالُ تَتَأَلَّقُ بِالنُّجُومِ الزُّهْرِ ^(٤) مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... فَقَدْ
أَثْبَتَتِ الْأَيَّامُ صِدْقَ فِرَاسَةِ ^(٥) عُمَرَ ، وَصَوَابَ تَذْيِيرِهِ ...

إِذْ ظَلَّ شُرَيْحٌ يَقْضِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ نَحْوًا مِنْ سِتِينَ عَامًا مُتَتَابِعَةً مِنْ غَيْرِ
انْقِطَاعٍ ...

وَقَدْ تَعَاقَبَ عَلَى إِقْرَارِهِ فِي مَنْصِبِهِ كُلِّ مِنْ عُمَرَ ، وَعُثْمَانُ ^(٦) ، وَعَلِيٌّ ،
وَمُعَاوِيَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ...

(١) شمائله : أخلاقه ومزاياه .

(٢) أُتِيحَ لَهُ : قُدِّرَ لَهُ .

(٣) ينهل من موارده : يَزَوِّي من ينابيعه .

(٤) النجوم الزُّهْر : النجوم المضيئة المتألفة .

(٥) الفراسة : دِقَّةُ التَّوَقُّعِ .

(٦) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

كَمَا أَقَرَّهُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ جَاءَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » ، حَتَّى
طَلَبَ الرَّجُلُ إِغْفَاءَهُ مِنْ مَنْصِبِهِ إِبَّانَ^(١) وَلَايَةِ الْحَجَّاجِ .

وَكَانَ قَدْ بَلَغَ السَّابِعَةَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ حَيَاتِهِ الْمَدِيدَةِ الرَّشِيدَةِ الْحَافِلَةِ
بِالْمَفَاجِرِ وَالْمَآثِرِ^(٢) .

وَلَقَدْ اِزْدَانَ تَارِيخُ الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ بِيَدَائِعِ مِنْ مَوَاقِفِ شُرَيْحٍ ، وَزَهَا
بِرَوَائِعِ مِنْ انْصِيَاعِ^(٣) خَاصَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ لِشُرْعِ اللَّهِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ شُرَيْحٌ ،
وَنُزُولِهِمْ عِنْدَ أَحْكَامِهِ ...

وَامْتَلَأَتْ بُطُونُ الْكُتُبِ بِطَرَائِفِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَذِّ وَأَخْبَارِهِ ، وَأَقْوَالِهِ
وَأَفْعَالِهِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ افْتَقَدَ دِرْعاً لَهُ كَانَتْ
أَثِيرَةً^(٤) عِنْدَهُ غَالِيَةً عَلَيْهِ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَهَا فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ^(٥) يَبِيعُهَا فِي سُوقِ
« الْكُوفَةِ » ...

فَلَمَّا رَأَاهَا عَرَفَهَا وَقَالَ :

هَذِهِ دِرْعِي سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لِي فِي لَيْلَةٍ كَذَا ... وَفِي مَكَانٍ كَذَا ...
فَقَالَ الذِّمِّيُّ : بَلْ هِيَ دِرْعِي وَفِي يَدِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

(١) إِبَّانٌ : حِينَ .

(٢) الْمَآثِرُ : الْأَفْعَالُ الْحَمِيدَةُ ذَوَاتُ الْآثَارِ الْجَلِيلَةِ .

(٣) الْانْصِيَاعُ : الْإِتْبَاعُ .

(٤) أَثِيرَةٌ عِنْدَهُ : عَزِيزَةٌ عَلَيْهِ .

(٥) أَهْلُ الذِّمَّةِ : مَنْ يَعِيشُونَ فِي دِيَارِ الْإِسْلَامِ مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : إِنَّمَا هِيَ دِرْعِي لَمْ أَبْعُهَا مِنْ أَحَدٍ ، وَلَمْ أَهْبَهَا لِأَحَدٍ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْكَ ...

فَقَالَ الذَّمِّيُّ : يَتَنِي وَيَتَنِكَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنْصَفْتُ ؛ فَهَلُمَّ إِلَيْهِ ^(١) ...

ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَى شُرَيْحِ الْقَاضِي ، فَلَمَّا صَارَا عِنْدَهُ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ ، قَالَ شُرَيْحٌ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
مَا تَقُولُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُ دِرْعِي هَذِهِ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ ، وَقَدْ سَقَطْتُ مِنِّْي فِي لَيْلَةٍ كَذَا وَفِي مَكَانٍ كَذَا ، وَهِيَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ لَا بِبَيْعٍ وَلَا هِبَةٍ .
فَقَالَ شُرَيْحٌ لِلذَّمِّيِّ : وَمَا تَقُولُ أَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟ .

فَقَالَ : الدَّرْعُ دِرْعِي وَهِيَ فِي يَدِي ...

وَلَا أَتَّهِمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَذِبِ ...

فَالْتَفَتَ شُرَيْحٌ إِلَى عَلِيٍّ وَقَالَ :

لَا رَيْبَ ^(٢) عِنْدِي فِي أَنَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تَقُولُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ الدَّرْعَ دِرْعُكَ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ شَاهِدَيْنِ يَشْهَدَانِ عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : نَعَمْ ...

مَوْلَايَ ^(٣) « قَتَبَرٌ » ، وَوَلَدِي الْحَسَنُ يَشْهَدَانِ لِي ...

فَقَالَ شُرَيْحٌ :

(١) فهلُمَّ إليه : فبادر إليه . (٢) لا ريب : لا شك . (٣) مولاي : عهدي .

وَلَكِنَّ شَهَادَةَ الْإِبْنِ لِأَبِيهِ لَا تَجُوزُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ !! ...

رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ !! ...

أَمَّا سَمِعْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

(الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) .

فَقَالَ شُرَيْحٌ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

غَيْرَ أَنِّي لَا أُجِيزُ شَهَادَةَ الْوَلَدِ لِوَالِدِهِ .

عِنْدَ ذَلِكَ التَّفَتَّ عَلِيٌّ إِلَى الذَّمِّيِّ وَقَالَ :

خُذْهَا ، فَلَيْسَ عِنْدِي شَاهِدٌ غَيْرُهُمَا ...

فَقَالَ الذَّمِّيُّ :

وَلَكِنِّي أَشْهَدُ بِأَنَّ الدُّرْعَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

ثُمَّ أَرَدَفَ (١) قَائِلًا : يَا لِلَّهِ ...

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاضِيَنِي أَمَامَ قَاضِيهِ !! ...

وَقَاضِيهِ يَقْضِي لِي عَلَيْهِ !! ...

أَشْهَدُ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْمُرُ بِهَذَا لَحَقٌّ ...

وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

اعْلَمْ أَيُّهَا الْقَاضِي أَنَّ الدُّرْعَ دِرْعُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنِّي اتَّبَعْتُ الْجَيْشَ

(١) أَرَدَفَ : أَضَافَ .

وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى « صِفِينَ »^(١)، فَسَقَطَتِ الدَّرْعُ عَنْ جَمَلِهِ الْأُورْقِ^(٢) فَأَخَذَتْهَا .
فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَمَّا وَإِنَّكَ قَدْ أَسْلَمْتَ فَإِنِّي وَهَبْتُهَا لَكَ ...
وَوَهَبْتُ لَكَ مَعَهَا هَذَا الْفَرَسَ أَيْضاً .

وَلَمْ يَمْضِ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، حَتَّى شُوهِدَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ
الْخَوَارِجَ^(٣) تَحْتَ رَايَةِ عَلِيٍّ فِي يَوْمِ « النَّهْرَوَانِ »^(٤)، وَيُمَعِنُ فِي الْقِتَالِ حَتَّى
كُتِبَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ .

* * *

وَمِنْ رَوَائِعِ شُرَيْحٍ أَيْضاً أَنَّ ابْنَهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا :
يَا أَبَتِ إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِ خُصُومَةٍ ، فَأَنْظُرْ فِيهَا ... فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ لِي
فَاضْيَيْتُهُمْ^(٥)، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ صَالَحَتُهُمْ ... ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ .
فَقَالَ لَهُ : انْطَلِقْ فَقَاضِيهِمْ ...

فَمَضَى إِلَى خُصُومِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْمُقَاضَاةِ ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ .
وَلَمَّا مَثَلُوا^(٦) بَيْنَ يَدَيْ شُرَيْحٍ ، قَضَى لَهُمْ عَلَى وَلَدِهِ ...
فَلَمَّا رَجَعَ شُرَيْحٌ وَابْنُهُ إِلَى الْبَيْتِ قَالَ الْوَلَدُ لِأَبِيهِ :
فَضَحَّحْتَنِي يَا أَبَتِ ...

(١) صِفِينَ : موضع بقرب الرقة من سورية وقعت فيه وقعة كبيرة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما .

(٢) الْأُورْق : الذي لونه لون الزماد .

(٣) الخوارج : كانوا من أتباع علي بن أبي طالب ، وخرجوا عليه لخلاف في الآراء ، وتطلق على من خرج على الخلفاء ، ونحوهم .

(٤) يوم النهروان : واقعة جرت بين الإمام علي رضي الله عنه وبين الخوارج .

(٥) قاضيتهم : رفعت أمرهم إلى القضاء .

(٦) مَثَلُوا : يقال مثل فلان بين يدي فلان أي قام مُتَّصِباً بين يديه .

وَاللَّهُ لَوْ لَمْ أَسْتَشِرْكَ مِنْ قَبْلُ لَمَا لُمْتُكَ .

فَقَالَ شُرَيْحٌ :

يَا بُنَيَّ ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ أُمَّتَالِهِمْ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْكَ ...

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَنَّ الْحَقَّ لَهُمْ ؛ فَتَصَالِحَهُمْ صُلْحاً يُفَوِّتُ عَلَيْهِمْ
بَعْضَ حَقِّهِمْ ، فَقُلْتُ لَكَ مَا قُلْتُ .

* * *

وَقَدْ كَفَلَ وَلَدٌ لِشُرَيْحٍ رَجُلًا فَقَبِلَ كَفَالَتَهُ ، فَمَا كَانَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ فَرَّ
هَارِبًا مِنْ يَدِ الْقَضَاءِ .

فَسَجَنَ شُرَيْحٌ وَلَدَهُ بِالرَّجُلِ الْفَارِّ ...

وَكَانَ يَنْقُلُ لَهُ طَعَامَهُ بِيَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى السَّجَنِ .

* * *

وَكَانَتِ الشُّكُوكُ تُسَاوِرُ^(١) شُرَيْحًا - أحياناً - فِي بَعْضِ الشُّهُودِ ...

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَجِدُ سَبِيلًا لِدَفْعِ شَهَادَتِهِمْ ؛ لِمَا تَوَافَرَ لَهُمْ مِنْ شُرُوطِ الْعَدَالَةِ ،
فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْلُوا^(٢) بِشَهَادَتِهِمْ :

اسْمَعُوا مِنِّي هَذَا كُمْ اللَّهُ .

إِنَّمَا يَقْضِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ أَنْتُمْ ...

وَلِيَّيْ لَا تَقْبَلِ النَّارَ بِكُمْ ، وَأَنْتُمْ بِاتِّقَائِهَا أَوْلَى ...

وَإِنَّ فِي وُسْعِكُمْ الْآنَ أَنْ تَدْعُوا الشَّهَادَةَ وَتَمْضُوا .

(١) تُسَاوِرُ شُرَيْحًا: تُلِيمُ بِشُرَيْحٍ وَتَسْتَنْزِلِي عَلَى فِكْرِهِ . (٢) يدلون بشهادتهم: يحضرون شهادتهم ويعلنونها .

فَإِذَا أَصْرُوا عَلَى الشَّهَادَةِ ، التَفَّتْ إِلَى الَّذِي يَشْهَدُونَ لَهُ وَقَالَ :
 اَعْلَمْ يَا هَذَا أَنَّنِي أَقْضِي لَكَ بِشَهَادَتِهِمْ ...
 وَإِنِّي لَأَرَى أَنَّكَ ظَالِمٌ ...
 وَلَكِنِّي لَسْتُ أَقْضِي بِالظَّنِّ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِشَهَادَةِ الشُّهُودِ ...
 وَإِنْ قَضَائِي مَا يُحِلُّ لَكَ شَيْئًا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ .

* * *

وَكَانَ الشُّعَارُ^(١) الَّذِي يُرَدِّدُهُ سُرَيْحٌ فِي مَجَالِسِ قَضَائِهِ قَوْلَهُ :
 غَدًا سَيَعْلَمُ الظَّالِمُ مِنَ الْخَاسِرِ ؟ .
 إِنَّ الظَّالِمَ يَنْتَظِرُ الْعِقَابَ ...
 وَإِنَّ الْمَظْلُومَ يَنْتَظِرُ النِّصْفَةَ^(٢) ...
 وَإِنِّي أَخْلِفُ بِاللَّهِ ، أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ أَحْسَسَ
 بِفَقْدِهِ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ سُرَيْحٌ نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ فَحَسِبْتُ ، وَإِنَّمَا كَانَ نَاصِحًا
 لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَخَاصَّتِهِمْ أَيْضًا .
 رَوَى أَحَدُهُمْ قَالَ :
 سَمِعَنِي سُرَيْحٌ وَأَنَا اسْتَكْبِي بَعْضَ مَا عَمَّنِي لِصَدِيقٍ ، فَأَخَذَنِي مِنْ يَدِي
 وَانْتَحَى^(٣) بِي جَانِبًا ، وَقَالَ :

(١) الشُّعَارُ : كلمة مخصوصة يعبر بها المرء عن فكره واعتقاده .

(٢) النصفه : الإنصاف والعدل .

(٣) انتحى بي : مال بي .

يَا بَنَ أَخِي ... إِيَّاكَ وَالشُّكُوى لِعَيرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
فَإِنَّ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ لَا يَحُلُو أَنْ يَكُونَ صَدِيقاً أَوْ عَدُوّاً ...
فَأَمَّا الصَّدِيقُ فَتُحْزِنُهُ ...
وَأَمَّا الْعَدُوُّ فَيَشْمَتُ بِكَ ...
ثُمَّ قَالَ :

انْظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ - فَوَاللَّهِ مَا أَبْصَرْتُ بِهَا
شَخْصاً وَلَا طَرِيقاً مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ...
وَلَكِنِّي مَا أَحْبَبْتُ أَحَداً بِذَلِكَ إِلَّا أَنْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ...
أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ ^(١) :
﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ^(٢) .
فَاجْعَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَشْكَاكَ ^(٣) وَمَحْزَنَكَ عِنْدَ كُلِّ نَائِبَةٍ ^(٤) تَنْوُبُكَ ...
فَإِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْئُولٍ وَأَقْرَبُ مَدْعُوٍّ ...

* * *

وَقَدْ رَأَى ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلًا يَسْأَلُ آخَرَ شَيْئًا فَقَالَ لَهُ :
يَا بَنَ أَخِي مَنْ سَأَلَ إِنْسَانًا حَاجَةً فَقَدْ عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ .
فَإِنْ قَضَاهَا لَهُ الْمَسْئُولُ فَقَدْ اسْتَعْبَدَهُ بِهَا ...
وَإِنْ رَدَّهَ عَنْهَا رَجَعَ كِلَاهُمَا ذَلِيلًا ...

(١) الْعَبْدُ الصَّالِحُ : هُوَ يَعْقُوبُ أَبُو يُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

(٢) سُورَةُ يُوسُفَ : ٨٦ . (٣) مَشْكَاكُكَ وَمَحْزَنُكَ : مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ وَتَحْزَنُ لَدَيْهِ . (٤) نَائِبَةٌ : مُصِيبَةٌ .

هَذَا بِذُلِّ الْبُحْلِ ...

وَذَاكَ بِذُلِّ الرَّدِّ ...

فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ .

وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ وَلَا عَوْنَ إِلَّا بِاللَّهِ .

* * *

وَقَدْ وَقَعَ « بِالْكُوفَةِ » طَاعُونٌ ^(١) فَخَرَجَ صَدِيقٌ لِشُرَيْحٍ مِنْهَا إِلَى
« النَّجَفِ » ^(٢) يَتَتَبِعِي الْمَهْرَبَ مِنَ الْوَبَاءِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ شُرَيْحٌ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي تَرَكْتَهُ لَا يُقَرَّبُ حِمَامَكَ ^(٣) ؛ وَلَا يَسْلُبُ
مِنْكَ أَيَّامَكَ ...

وَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي صِرْتَ إِلَيْهِ فِي قَبْضَةٍ مَنْ لَا يُعْجِزُهُ طَلَبٌ ، وَلَا يَفُوتُهُ
هَرَبٌ ...

وَإِنَّا وَإِيَّاكَ لَعَلَى بَسَاطِ مَلِكٍ وَاحِدٍ ...

وَإِنَّ « النَّجَفَ » مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٌ ...

* * *

وَكَانَ شُرَيْحٌ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ شَاعِرًا قَرِيبَ الْمَأْخِذِ حُلُوَ الْأَذَاءِ طَرِيفَ
الْمَوْضُوعَاتِ .

رُوي عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فِي نَحْوِ الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ ؛ وَكَانَ الصَّبِيُّ
مُؤَثِّرًا لِلَّهِوْ ، مُوَلَعًا بِاللَّعِبِ .

(١) الطاعون : نَوْعٌ مِنَ الْوَبَاءِ . (٢) النجف : من أعمال العراق . (٣) حِمَامَكَ : موتك وميتك .

فَافْتَقَدَهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَرَكَ الْكُتَّابَ وَمَضَى يَتَفَرَّجُ عَلَى الْكِلَابِ .
 فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْمَنْزِلِ سَأَلَهُ : أَصَلَّيْتَ ؟ .
 فَقَالَ : لَا .

فَدَعَا بِقِرطَاسٍ ^(١) وَقَلَمٍ ، وَكَتَبَ إِلَى مُؤَدِّبِهِ يَقُولُ :

تَرَكَ الصَّلَاةَ لِأَكْلِبٍ ^(٢) يَسْعَى لَهَا يَتَغَيُّ الْهَرَّاشَ ^(٣) مَعَ الْعَوَاةِ الرَّجَسِ ^(٤)
 فَلَيَأْتِيَنَّكَ عُذْوَةٌ بِصَحِيفَةٍ كَتَبْتُ لَهُ كَصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ ^(٥)
 فَإِذَا أَتَاكَ فِدَاوِيهِ بِمَلَامَةٍ أَوْ عِظُهُ مَوْعِظَةُ الْأَدِيبِ الْكَيِّسِ ^(٦)
 وَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدَرَةٍ ^(٧) وَإِذَا بَلَغْتَ ثَلَاثَةً لَكَ فَاحِيسٍ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ - مَا أَتَيْتَ - فَنَفْسُهُ - مَعَ مَا يُجْرِعُنِي - أَعَزُّ الْأَنْفُسِ

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْفَارُوقِ ، فَقَدْ زَانَ مَفْرِقٍ ^(٨) الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ بِلُؤْلُؤَةٍ
 كَرِيمَةٍ الْأَعْرَاقِ ^(٩) ...

صَافِيَةِ الْجَوْهَرِ ...

رَائِعَةِ الْمُجْتَلَى ...

(١) دعا بقرطاس : طلب ورقاً .

(٢) الأكلب : الكلاب .

(٣) الهراش : مهارشة بعض الكلاب على بعض .

(٤) الرجس : مارسو الأعمال القبيحة .

(٥) صحيفة التلمس : يضرب بها المثل في الشؤم وكان مكتوباً فيها : « إذا جاءك حامل هذه الصحيفة فاقتله » .

(٦) الكيس : الذكي اللبق .

(٧) الدرة : ما يُضْرَبُ بِهِ .

(٨) المفرق : مفرد وجمعه مفارق ... ومفارق القضاء : وجوهه الواضحة .

(٩) الأعراق : الأصول .

وَحَبَابُ^(١) الْمُسْلِمِينَ مُصْبِحاً مُنِيراً؛ مَا زَالُوا حَتَّى الْيَوْمِ يَسْتَضِيئُونَ بِسَنَاءِ
فِقْهِهِ لِشَرْعِ اللَّهِ ...

وَيَهْتَدُونَ بِنُورِ فَهْمِهِ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ...

وَيُبَاهُونَ بِهِ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَرَجَحَ اللَّهُ شُرَيْحاً الْقَاضِي ...

فَقَدْ أَقَامَ الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ سِتِّينَ عَاماً .

فَمَا خَافَ^(٢) عَلَى أَحَدٍ .

وَلَا حَادَ^(٣) عَنْ حَقٍّ .

وَلَا مَيَّزَ بَيْنَ مَلِكٍ وَسُوقَةٍ^(٤) (*) ...

(١) حبّاب المسلمين : منح المسلمين .

(٢) خاف : جار وظلم .

(٣) حاد : مال .

(٤) السوق : عامة الناس .

(*) للاستزادة من أخبار شُرَيْحِ الْقَاضِي انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١١/٦ ، ٣٤ ، ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٦٨ و ١٥١/٧ ، ١٩٤ ، ٤٥٣ و ٤٩٤/٨ .

٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي (طبعة حلب) : ٣٨/٣ .

٣ - حلية الأولياء للأصفهاني : ٢٥٦/٤ - ٢٥٨ .

٤ - تاريخ الطبري لابن جرير الطبري : الأجزاء الرابع والخامس والسادس (انظر الفهارس في الجزء العاشر) .

٥ - تاريخ خليفة بن خياط : ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ .

٦ - شذرات الذهب : ٨٥/١ - ٨٦ .

٧ - فوات الوفيات : ١٦٧/٢ - ١٦٩ .

٨ - كتاب الوفيات لأحمد بن حسن بن علي بن الخطيب : ٨٠ - ٨١ .

٩ - المحيّر لمحمد بن حبيب : ٣٠٥ ، ٣٨٧ .

١٠ - دائرة المعارف لفريد وجدي : ٣٧٣/٥ ، ٤٧٣ .

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ

« مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَفْقَهَ فِي وَرَعِهِ ، وَلَا أَوْزَعَ فِي فِقْهِهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ »
[مُورِقُ الْعِجْلِيِّ]

عَزَمَ « سِيرِينَ » عَلَى أَنْ يَسْتَكْمِلَ شَطْرَ دِينِهِ ^(١) بَعْدَ أَنْ حَزَرَ أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَقَبَتَهُ ، وَبَعْدَ أَنْ غَدَتْ حِرْفَتُهُ تُدِرُّ ^(٣) عَلَيْهِ الرُّبْحَ الْوَفِيرَ وَالْخَيْرَ الْكَثِيرَ ... فَقَدْ كَانَ نَحَاسًا مَاهِرًا يَنْتَقِنُ صِنَاعَةَ الْقُدُورِ .
وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى مَوْلَاةٍ ^(٤) لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُدْعَى « صَفِيَّةً » لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ .

* * *

كَانَتْ « صَفِيَّةُ » جَارِيَةً فِي بَوَاكِرِ ^(٥) الشَّبَابِ ، وَضِيئَةً الْوَجْهِ ، ذَكِيَّةَ الْفُؤَادِ ، كَرِيمَةَ الشَّمَائِلِ ، نَبِيلَةَ الْخَصَائِلِ ، مُحَبَّبَةً إِلَى كُلِّ مَنْ عَرَفَهَا مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ .

لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الشُّوَابِ ^(٦) اللَّوَاتِي تَزْبِطُهُنَّ بِهَا وَشَائِجِ الْيَفَاعَةِ ^(٧) ، وَبَيْنَ الْمُسِنَّاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَرَيْنَهَا صِنُوءًا ^(٨) لَهُنَّ فِي رَجَاحَةِ الْعَقْلِ ، وَرِضَانَةِ السُّلُوكِ .

وَكَانَتْ أَشَدَّ النِّسَاءِ حُبًّا لَهَا زَوْجَاتُ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا سِيَّمًا السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

* * *

(١) يستكمل شَطْرَ دِينِهِ : يَتَرَوَّجُ .

(٢) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) تُدِرُّ عَلَيْهِ : تَفِيضُ عَلَيْهِ . (٦) الشُّوَابُ : جَمْعُ شَابَةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ فِي مَقْتَبِلِ الْعُمُرِ .

(٤) مَوْلَاةٌ : أَمَةٌ . (٧) وشائج اليفاعة : روابط الفتوة .

(٥) البواكير : جمع باكرة ، وهي أَوَّلُ الشَّيْءِ . (٨) صِنُوءًا : مِثْلًا .

تَقَدَّمَ « سِيرِينُ » إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَحَاطَبَ مِنْهُ مَوْلَاهُ « صَفِيَّةٌ » .
فَبَادَرَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ دِينِ الْخَاطِبِ وَخُلُقِهِ ، كَمَا
يُبَادِرُ الْأَبُ الشَّفِيقُ الْحَانِي لِلْبَحْثِ عَنْ حَالِ خَاطِبِ بَنْتِهِ ...
وَلَا غَرَوْ (١) ، فَقَدْ كَانَتْ « صَفِيَّةٌ » تَحْتَلُّ مِنْ نَفْسِ أَبِي بَكْرٍ مَنْزِلَةَ الْوَلَدِ مِنْ
أَبِيهِ ... ثُمَّ إِنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَمَانَةٌ أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي عُنُقِهِ .
فَمَضَى يَسْتَفْصِي أَحْوَالَ « سِيرِينِ » أَشَدَّ الْإِسْتِفْصَاءِ ، وَيَتَّبِعُ سِيرَتَهُ أَدَقَّ
التَّتَبُّعِ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ سَأَلَهُمْ عَنْهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ
أَنَسُ :

زَوَّجَهَا مِنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَخْشَ عَلَيْهَا بَأْسًا ، فَمَا عَرَفْتُهُ إِلَّا صَاحِبَ
الدِّينِ رَضِيَ الْخُلُقِ ، مَوْفُورَ الْمُرُوءَةِ (٢) ...

وَلَقَدْ اذْتَبَطَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِي مُنْذُ سَبَاهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي مَعْرَكَةِ « عَيْنِ
التَّمْرِ » (٣) مَعَ أَرْبَعِينَ غُلَامًا ، وَجَاءَ بِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ ...
فَكَانَ « سِيرِينُ » مِنْ نَصِيبِي ، وَكُنْتُ مَحْظُوظًا بِهِ ...

* * *

وَأَفَقَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَزْوِيجِ « صَفِيَّةٍ » مِنْ « سِيرِينِ » .
وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَبْرَهَا كَمَا يَبْرُ الْأَبُ الشَّفِيقُ ابْنَتَهُ الْأَثِيرَةَ (٤) فَأَقَامَ
لِإِمْلَاكِهَا (٥) حَفْلًا قَلَمًا ظَفِرَتْ بِمِثْلِهِ فَتَاةٌ مِنْ فِتْيَاتِ الْمَدِينَةِ ...

(١) ولا غرو : ولا عجب .

(٢) موفور المروءة : تام النخوة كامل الرجولة .

(٤) الأثيرة : المفضلة المحببة .

(٣) عين التمر : بلدة غربي الكوفة ، افتتحها خالد بن الوليد في خلافة الصديق .

(٥) إملاكها : تزويجها .

فَقَدْ شَهِدَ إِمْلَاكَهَا طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ .

وَكَانَ فِيهِمْ ثَمَانِيَّةَ عَشَرَ بَدْرِيًّا^(١) ...

وَدَعَا لَهَا كَاتِبٌ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ...

وَأَمَّنَ عَلَى دُعَائِهِ الْحَاضِرُونَ ...

وَطَيَّبَتْهَا وَرَيَّتُهَا ثَلَاثَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ زُفَّتْ

إِلَى رَوْحِهَا ...

وَقَدْ كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الزَّوْاجِ الْمُبَارَكِ أَنْ رَزَقَ الْأَبْوَانِ غُلَامًا ؛ عَدَا بَعْدَ

عَقْدَيْنِ^(٢) مِنَ الزَّمَانِ عِلْمًا مِنْ أَعْلَامِ التَّابِعِينَ ، وَرَجُلًا مِنْ أَفْذَاذِ الْمُسْلِمِينَ هُوَ « مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ » .

فَتَعَالَوْا نَبْدَأْ قِصَّةَ حَيَاةِ هَذَا التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

وُلِدَ « مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ » لِسِتْنَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَرُئِيَ فِي بَيْتٍ يَتَضَوُّعُ^(٣) الْوَرَعُ وَالثَّقَلَى مِنْ كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ ...

وَلَمَّا أَفْنَعَ^(٤) الْغُلَامُ الْأَرِيْبَ اللَّيْبُ ، وَجَدَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

يَزْخَرُ^(٥) بِالْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ مِنْ أَمْثَالِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ،

وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَعُمَرَانِ بْنِ الْحُصَيْنِ ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ .

(١) البدرى : من شهد يوم بدر مع رسول الله ﷺ .

(٢) أفع : ترعرع وقارب البلوغ .

(٣) يتضوع : ينتشر انتشار المسك .

(٤) يزخر : يمتلئ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ إِقْبَالَ الظَّامِي عَلَى الْمَوْرِدِ الْعَذْبِ ...

وَنَهَلَ مِنْ عِلْمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَفَقَّهِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ ، وَرَوَّايَتِهِمْ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَفْعَمَ ^(١) عَقْلُهُ حِكْمَةً وَعِلْماً ، وَأَثَّرَعَ نَفْسَهُ صَلاَحاً وَهَدْياً ...
ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْأُسْرَةُ مَعَ فَتَاهَا الْفَذُّ ^(٢) إِلَى « الْبَصْرَةِ » وَاتَّخَذَتْهَا لَهَا مَوْطِئاً ...

* * *

كَانَتْ « الْبَصْرَةُ » يَوْمَئِذٍ مَدِينَةً شَابَّةً بِكُراً ...
فَقَدِ اخْتَطَطَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
وَكَانَتْ تُمَثِّلُ جُلَّ ^(٣) خَصَائِصِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ .
فَهِىَ قَاعِدَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْعَازِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...
وَهِيَ مَرْكَزٌ مِنْ مَرَائِزِ التَّعْلِيمِ وَالتَّوْجِيهِ لِلدَّاخِلِينَ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ
« الْعِرَاقِ » وَ« فَارِسَ » ...

وَهِيَ صُورَةٌ لِلْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَادِّ الَّذِي يَعْمَلُ لِدُنْيَاهُ كَأَنَّهُ يَعْيشُ
أَبَدًا ، وَيَعْمَلُ لِآخِرَاهُ كَأَنَّهُ يَمُوتُ غَدًا ...

* * *

سَلَكَ مُحَمَّدٌ بْنُ سِيرِينَ فِي حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ فِي « الْبَصْرَةِ » طَرِيقَيْنِ
مُتَوَازَيْنِ مُتَوَازَيْنِ :

فَجَعَلَ شَطْرًا مِنْ يَوْمِهِ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ...
وَشَطْرًا آخَرَ لِلْكَسْبِ وَالتَّجَارَةِ .

(٣) جُلَّ : أَكْثَرُ .

(٢) الْفَذُّ : الْفَرِيدُ الْمُتَمَيِّزُ .

(١) أَفْعَمَ : مَلَأَ .

فَكَانَ إِذَا انْبَلَجَ فَجْرُ الْفَجْرِ وَأَشْرَقَتِ الدُّنْيَا بِنُورِ رَبِّهَا؛ غَدَا إِلَى مَسْجِدِ
«البَصْرَةِ» يُعَلِّمُ وَيَتَعَلَّمُ .

حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ مَضَى مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى الشُّوقِ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي ...
فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَأَرَخَى عَلَى الْكَوْنِ سُدُولَهُ^(١) صَفَّ فِي مِحْرَابِ بَيْتِهِ ،
وَانْحَنَى عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ بِصُلْبِهِ ، وَبَكَى مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِدُمُوعِ عَيْنَيْهِ
وَقَلْبِهِ ...

حَتَّى يُشْفِقَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَجِيرَانُهُ الْأَذْنُونَ^(٢) لِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ نَحِيْبِهِ الَّذِي
يَقْطَعُ نِيَاطَ الْقُلُوبِ^(٣) .

* * *

وَكَانَ - وَهُوَ يَطُوفُ بِالشُّوقِ فِي النَّهَارِ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ - لَا يَفْتَأُ يَذْكُرُ النَّاسَ
بِالْآخِرَةِ ... وَيُبْصِرُهُمْ بِالدُّنْيَا ...

وَيُزَيِّدُهُمْ إِلَى مَا يَقْرَأُهُمْ إِلَى اللَّهِ ...

وَيَفْصِلُ فِيمَا يَشْجُرُ^(٤) بَيْنَهُمْ مِنْ خِلَافٍ .

وَكَانَ يُطْرِفُهُمْ^(٥) بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ بِالمُلْحَةِ^(٦) الَّتِي تَمْسَحُ أَلْهَمَ عَنْ
نَفْسِهِمُ الْمَكْدُودَةَ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ ذَلِكَ مِنْ هَيْبَتِهِ وَقَارِهِ عِنْدَهُمْ شَيْئًا .
فَقَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ هَدِيًّا وَسَمْتًا^(٧) ، وَمَنْحَهُ قَبُولًا وَتَأْثِيرًا ...

(١) سُدُولُهُ : أَسْتَارُهُ .

(٢) جيرانه الأذنون : جيرانه الأقربون الملاصقون .

(٣) النياط : جمعٌ مفردة نوطٌ ، وهو عرق معلق بالقلب إذا انقطع مات الإنسان .

(٤) فيما يشجر بينهم : فيما يتنازعون فيه .

(٥) يطرفهم : يأتيهم بالحديث المستحسن .

(٦) المُلْحَةُ : مَا لَدُنَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ .

(٧) السَّمْتُ : هَيْبَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ .

فَكَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْهُ فِي الشُّوقِ - وَهُمْ غَارِقُونَ غَافِلُونَ - انْتَبَهُوا ؛ فَذَكَرُوا
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهَلَّلُوا وَكَبَّرُوا ...

* * *

وَكَانَتْ سِيرَتُهُ الْعَمَلِيَّةُ خَيْرَ مُرْشِدٍ لِلنَّاسِ ... فَمَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ فِي
تِجَارَتِهِ إِلَّا أَخَذَ بِأَوْثَقِهِمَا فِي دِينِهِ ...

وَلَوْ كَانَ فِيهِ خَسَارَةٌ تُصِيبُ دُنْيَاهُ ...

* * *

وَكَانَتْ دِقَّةُ فَهْمِهِ لِأَسْرَارِ الدِّينِ ، وَصِحَّةُ نَظَرَتِهِ إِلَى مَا يَحِلُّ وَمَا لَا يَحِلُّ
تَدْفَعُهُ أَحْيَانًا إِلَى بَعْضِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَبْدُو غَرِيبَةً لِّلْعُيُونِ النَّاسِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا ادَّعَى عَلَيْهِ - كَذِبًا - أَنَّ لَهُ فِي ذِمَّتِهِ دِرْهَمَيْنِ ...
فَأَتَى أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهُمَا .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَتُحْلِفُ ؟ ...

وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَحْلِفُ مِنْ أَجْلِ دِرْهَمَيْنِ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، وَحَلَفَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَتُحْلِفُ مِنْ أَجْلِ دِرْهَمَيْنِ ؟ ! ...

وَأَنْتَ ، الَّذِي تَرَكْتَ أَمْسَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي شَيْءٍ رَابِكٍ ^(١)
مِمَّا لَا يَزُولُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُكَ ...

فَقَالَ : نَعَمْ أَحْلِفُ ...

فَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أُطِيعَهُ حَرَامًا ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ .

* * *

(١) رابك : شككت فيه .

وَكَانَ مَجْلِسُ ابْنِ سِيرِينَ ؛ مَجْلِسَ خَيْرٍ وَبِرٍّ وَمَوْعِظَةٍ ...
فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ بِسَيِّئَةٍ ، بَادَرَ فَذَكَرَهُ بِأَحْسَنِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِ .
بَلْ إِنَّهُ سَمِعَ أَحَدَهُمْ يَسُبُّ الْحَجَّاجَ ^(١) بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ :
صَهْ ، يَا بَنَ أَخِي ...

فَإِنَّ الْحَجَّاجَ مَضَى إِلَى رَبِّهِ ...
وَلِئِنَّكَ حِينَ تَقْدُمُ عَلَى اللَّهِ جَلًّا وَعَزًّا ؛ سَتَجِدُ أَنَّ أَحَقَرَ ذَنْبٍ ارْتَكَبْتَهُ فِي
الدُّنْيَا أَشَدُّ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ أَعْظَمِ ذَنْبٍ اجْتَرَحَهُ الْحَجَّاجُ ...
فَلِكُلِّ مِنْكُمْ يَوْمٌ يُعْنِيهِ .
وَاعْلَمْ يَا بَنَ أَخِي أَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ سَوْفَ يَقْتَضِي مِنَ الْحَجَّاجِ لِمَنْ ظَلَمَهُمْ
كَمَا سَيَقْتَضِي لِلْحَجَّاجِ مِمَّنْ يَظْلِمُونَهُ ...
فَلَا تَشْغَلَنَّ نَفْسَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ بِسَبِّ أَحَدٍ ...
وَكَانَ إِذَا جَاءَهُ رَجُلٌ مُودِعًا فِي سَفَرٍ لِيَجَارَةَ قَالَ لَهُ :
يَا بَنَ أَخِي ، اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَاطْلُبْ مَا قُدِّرَ لَكَ مِنْ طَرِيقٍ حَلَالٍ ... وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تَطْلُبُهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ
لَمْ تُصِبْ ^(٢) أَكْثَرَ مِمَّا قُدِّرَ لَكَ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ مَعَ وُلَاةِ بَنِي « أُمَيَّة » مَوَاقِفُ مَشْهُودَةٌ
صَدَعٌ ^(٣) فِيهَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَأَخْلَصَ التَّصْحیحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

(١) الحجاج : هو الحجاج بن يوسف الثقفي أحد ولاة بني أمية الفتاة الأشداء ، أفاض المؤرخون في ذكر بطشه
وقسوته وفتكه .

(٢) لم تصب : لم تل .

(٣) صدع : جهر .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ رَجُلَ بَنِي « أُمَيَّة » الْكَبِيرِ وَوَالِيَهُمْ عَلَى « الْعِرَاقَيْنِ » بَعَثَ إِلَيْهِ يَدْعُوهُ إِلَى زِيَارَتِهِ ، فَمَضَى إِلَيْهِ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ .

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ ، رَحَّبَ بِهِ الْوَالِي وَأَكْرَمَ وَفَادَتْهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ ، وَسَأَلَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شُؤْنِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

كَيْفَ تَرَكْتَ أَهْلَ مِصْرِكَ ^(١) يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ .

فَقَالَ : تَرَكْتُهُمْ وَالظُّلْمَ فِيهِمْ فَاشِ ^(٢) وَأَنْتَ عَنْهُمْ لَا إِيَّاهُ ...

فَعَمَزَهُ ابْنُ أَخِيهِ بِمَنْكِبِهِ ... فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

إِنَّكَ لَسْتَ الَّذِي تُسْأَلُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا أَنَا الَّذِي أُسْأَلُ ...

وَإِنَّهَا لَشَهَادَةٌ ... ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ ﴾ ^(٣) .

وَلَمَّا انْقَضَ الْمَجْلِسُ ، وَدَّعَهُ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ بِمِثْلِ مَا اسْتَقْبَلَهُ بِهِ مِنْ حَفَاوَةٍ وَإِجْلَالٍ ...

وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكَيْسٍ فِيهِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ دِينَارٍ ، فَلَمْ يَأْخُذْهَا .

فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَخِيهِ : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقْبَلَ هِبَةَ الْأَمِيرِ ؟ !

فَقَالَ : إِنَّمَا أُعْطَانِي لِخَيْرِ ظَنِّهِ بِي ...

فَإِنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ كَمَا ظَنُّ ، فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقْبَلَ ...

وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَمَا ظَنُّ ، فَأَحْرَى ^(٤) بِي أَلَّا أُسْتَبِيحَ قَبُولَ ذَلِكَ ...

* * *

(١) أَهْلُ مِصْرِكَ : أَهْلُ بِلْدِكَ .

(٢) فَاشٍ : مَنْتَشِرٌ .

(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ : الْآيَةُ ٢٨٣ .

(٤) أَحْرَى بِي : أَوْلَى بِي وَأَجْدَرُ .

وَلَقَدْ شَاءَ اللَّهُ جَلًّا وَعَزًّا أَنْ يَبْلُغَ صِدْقَ مُحَمَّدٍ بْنِ سِيرِينَ وَصَبْرُهُ ،
فَعَرَّضَهُ^(١) لِمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمِحَنِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ اشْتَرَى ذَاتَ مَرَّةٍ زَيْتًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا مُؤَجَّلَةً^(٢) ...

فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدَ زِقَاقِ^(٣) الزَّيْتِ ؛ وَجَدَ فِيهِ فَأْرًا مَيِّتًا مُتَفَسِّخًا .

فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ الزَّيْتَ كُلَّهُ كَانَ فِي الْمَعْصَرَةِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَإِنَّ
النَّجَاسَةَ لَيَسَتْ خَاصَّةً بِهَذَا الزُّقِّ ذُونَ سِوَاهُ ...

وَلِيَّنِي إِنْ رَدَّدْتُهُ لِلْبَائِعِ بِالْعَيْبِ^(٤) فَوَيْلًا بَاعَهُ لِلنَّاسِ ...

ثُمَّ أَرَاقَهُ كُلَّهُ ...

وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ كَانَ يَشْكُو فِيهِ مِنْ خَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ حَلَّتْ بِهِ .

فَرَكِبَهُ الدَّيْنُ ، وَطَالَبَهُ صَاحِبُ الزَّيْتِ بِمَالِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَدَادَهُ ...

فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَى الْوَالِي ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ حَتَّى يُسَدَّدَ مَا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا صَارَ فِي السَّجْنِ وَطَالَ مُكُوثُهُ^(٥) فِيهِ ، أَشْفَقَ عَلَيْهِ السَّجَّانُ لِمَا عَلِمَ
مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، وَمَا رَأَى مِنْ شِدَّةٍ وَرَعِهِ وَطُولِ عِبَادَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ :

أَيُّهَا الشَّيْخُ ، إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ وَبِثْ مَعَهُمْ ...

فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَعُدْ إِلَيَّ ...

وَاسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُطْلَقَ سَرَاحُكَ .

(١) عَرَّضَهُ لِلْمِخْنَةِ : جَعَلَهُ هَدَفًا لَهَا .

(٢) مُؤَجَّلَةٌ : مُؤَخَّرَةٌ الثَّمَنُ .

(٣) الزِقَاقُ : جَمْعُ زَقٍ ، وَهُوَ وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ يُوَضَعُ فِيهِ الْمَاءُ وَنَحْوُهُ مِنَ السُّوَائِلِ .

(٤) بِالْعَيْبِ : بِسَبَبِ الْعَيْبِ ، وَالرُّدُّ بِسَبَبِ الْعَيْبِ مِنْ حَقُوقِ الْمُشْتَرِي .

(٥) مُكُوثُهُ : إِقَامَتُهُ .

فَقَالَ لَهُ : لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ...

فَقَالَ السَّجَّانُ : وَلِمَ ، هَذَاكَ اللَّهُ ؟ !

فَقَالَ لَهُ : حَتَّى لَا أَعَاوِنَكَ عَلَى خِيَانَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ ...

* * *

وَلَمَّا اخْتُضِرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَوْصَى بِأَنْ يَغْسِلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَا يَزَالُ سَجِينًا .

فَلَمَّا تُوفِّيَ جَاءَ النَّاسُ إِلَى الْوَالِي وَأَخْبَرُوهُ بِوَصِيَّةِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ وَخَادِمِهِ ، وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي أَنْ يُخْلِيَ سَبِيلَ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ لِإِنْفَازِ الْوَصِيَّةِ فَأَذِنَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : لَا أَخْرُجُ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا صَاحِبَ الدِّينِ ؛ فَإِنَّمَا حُبِسْتُ بِمَا لَهُ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ ...
فَأَذِنَ لَهُ الدَّائِنُ أَيْضًا .

عِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ مِنْ سِجْنِهِ فَغَسَلَ أَنَسًا ، وَكَفَّنَهُ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ ...
ثُمَّ رَجَعَ إِلَى السَّجْنِ كَمَا هُوَ ...
وَلَمْ يَذْهَبْ لِرُؤْيَا أَهْلِهِ ...

* * *

عُمِّرَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ حَتَّى بَلَغَ السَّبَاعَةَ وَالسَّعِينَ ...
فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ^(١) وَجَدَهُ خَفِيفَ الْحِمْلِ مِنْ أَغْبَاءِ الدُّنْيَا ... كَثِيرَ الزَّادِ لِمَا
بَعْدَ الْمَوْتِ ...

(١) اليقين : الموت .

حَدَّثْتُ « حَفْصَةَ بِنْتُ رَاشِدٍ » ، وَكَانَتْ مِنَ الْعَابِدَاتِ فَقَالَتْ :
 كَانَ « مَرْوَانَ الْمُحَمَّلِيَّ » لَنَا جَاراً ، وَكَانَ نَاصِباً^(١) فِي الْعِبَادَةِ مُجْتَهِداً
 فِي الطَّاعَةِ ...

فَلَمَّا مَاتَ ؛ حَزِنَّا عَلَيْهِ حُزْناً شَدِيداً ، فَرَأَيْنَاهُ فِي الْمَنَامِ ... فَقُلْتُ :
 يَا أَبَا عَبِيدِ اللَّهِ ، مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ ؟ .
 فَقَالَ : أَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ .

قُلْتُ : ثُمَّ مَاذَا ؟ .
 فَقَالَ : ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ .
 قُلْتُ : ثُمَّ مَاذَا ؟ .

قَالَ : ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى الْمُقَرَّرِينَ^(٢) .
 قُلْتُ : فَمَنْ رَأَيْتَ هُنَاكَ ؟ .

قَالَ : الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ^(٣) ، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ (*) ...

(١) ناصباً في العبادة : جاداً في العبادة .

(٢) المقربون : السابقون .

(٣) الحسن البصري : انظره ص ٩٥ .

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٩٣/٧ و(انظر المجلد الخاص بالفهارس) .

٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢٤١/٣ - ٢٤٨ .

٣ - حلية الأولياء للأصفهاني : ٢٦٣/٢ - ٢٨٢ .

٤ - تاريخ بغداد للخليفة البغدادي : ١٣١/٥ .

٥ - شذرات الذهب : ١٣٨/١ - ١٣٩ .

٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ١٨١/٤ .

٧ - تهذيب التهذيب : ٢١٤/٩ .

٨ - الوافي بالوفيات للصفدي : ١٤٦/٣ .

٩ - طبقات الحفاظ : ٩/٣ .

رَبِيعُ الرَّأْيِ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْفَظَ لِلْسَّنَةِ مِنْ رَبِيعَةٍ »

[ابنُ المَاجَشُونِ]

« أ »

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ .
وَهَذَا هِيَ ذِي كُنَائِبِ (١) الْمُسْلِمِينَ تَضْرِبُ فِي فِجَاجِ (٢) الْأَرْضِ مُشْرِقَةً
مُغْرِبَةً .

تَحْمِلُ لِلْبَشَرِيَّةِ الْعَقِيدَةَ الْبَائِيَّةَ ...
وَتَمُدُّ إِلَيْهَا يَدَ الْمُصْلِحَةِ الْحَانِيَّةَ ...
وَتَنْشُرُ فِي رُبُوعِهَا الشُّرْعَةَ الَّتِي تُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنْ عُبودِيَّةِ الْإِنْسَانِ ...
وَتَجْعَلُ وَلَاءَهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...
وَهَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ « الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ » (٣) أَمِيرُ « خُرَاسَانَ » ،
وَفَاتِحُ « سِجِسْتَانَ » ، وَالْقَائِدُ الْمُظَفَّرُ ؛ يَمْضِي عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ الْغَازِي فِي
سَبِيلِ اللَّهِ .

وَمَعَهُ غُلَامُهُ الشُّجَاعُ « قُرُوشُ » .
فَلَقَدْ عَزَمَ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِفَتْحِ « سِجِسْتَانَ » وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَصْقَاعِ (٤)

(١) الكُنَائِبُ : جمع كَتِيبة ، وهي القطعة من الجيش .

(٢) فِجَاجُ الْأَرْضِ : مسالك الأرض الوعرة بين الجبال .

(٣) الربيع بن زياد الحارثي : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) الْأَصْقَاعُ : جمع صُقْع بضم الصاد ، الناحية من الأرض .

عَلَى أَنْ يَخْتِمَ حَيَاتُهُ الْحَافِلَةَ بِمُجُورِ نَهْرٍ « سَيْحُون » ^(١)، وَرَفَعَ رَايَاتِ التَّوْحِيدِ
فَوْقَ دُرَى ^(٢) تِلْكَ الْأَصْقَاعِ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى بِيَلَادٍ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ .

* * *

أَعَدَّ الرَّيِّعُ بْنُ زِيَادٍ لِلْمَعْرَكَةِ الْمَوْعُودَةِ عُدَّتَهَا ، وَاتَّخَذَ لَهَا أَهْبَتَهَا ...
وَفَرَضَ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ زَمَانَهَا وَمَكَانَهَا فَرَضاً ...

وَلَمَّا نَشِبَ ^(٣) الْقِتَالُ أَبْلَى فِيهِ الرَّيِّعُ وَجُنْدُهُ الْمَعَاوِيَةُ بِلَاءَ مَا يَزَالُ يَذْكُرُهُ
التَّارِيخُ بِلِسَانِ نَدِيِّ بِالْحَمْدِ ، رَطِيبٍ بِالْإِكْبَارِ .

وَأَظْهَرَ غُلَامُهُ « فَرْوُخٌ » فِي سَاحَاتِ الْوَعْلَى ^(٤) مِنْ ضُرُوبِ الْبَسَالَةِ
وَصُنُوفِ الْإِقْدَامِ مَا زَادَ الرَّيِّعَ إِعْجَاباً بِهِ ، وَإِكْبَاراً لَهُ ، وَتَقْدِيراً لِمَزَايَاهُ .
وَأَنْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرِ مُؤَزَّرٍ ^(٥) لِلْمُسْلِمِينَ .

فَزَلَزَلُوا أَقْدَامَ عَدُوِّهِمْ ، وَمَزَقُوا صُفُوفَهُ ، وَفَرَّقُوا جُمُوعَهُ ...
ثُمَّ عَبَّرُوا النَّهْرَ الَّذِي كَانَ يَحُولُ دُونَهُمْ وَدُونَ الْإِنْسِيَاكِ ^(٦) فِي بِلَادٍ
« التُّرُوكِ » ...

وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِنْدِفَاعِ نَحْوُ أَرْضِ « الصِّينِ » ، وَالْإِيغَالِ ^(٧) فِي مَمْلَكَةِ
« الصُّغْدِ » ^(٨) ...

وَمَا إِنْ عَبَرَ الْقَائِدُ الْعَظِيمُ النَّهْرَ ، وَاسْتَقَرَّتْ قَدَمَاهُ عَلَى صَفْتِهِ الثَّانِيَةِ حَتَّى
بَادَرَ فَتَوْضاً هُوَ وَجُنُودُهُ مِنْ مَائِهِ ؛ فَأَحْسَنُوا الْوُضُوءَ ...

(١) نهر سَيْحُون : نهر كبير بعد سمرقند في حدود تركستان .

(٢) الدُرَى : القمم ، وذروة كل شيء : أعلاه .

(٣) نشب القتال : ثار القتال .

(٤) ساحات الوعلَى : ساحات الحرب .

(٥) نصر مؤزَّر : نصر قَوِيٍّ شديد .

(٦) الانْسِيَاكِ فِي الْأَرْضِ : الذهاب فيها في كل اتجاه .

(٧) الإِيغَال : الذهاب بعيداً .

(٨) الصغد : منطقة في أواسط آسيا .

وَاسْتَقْبَلُوا الْقِبْلَةَ ، وَصَلُّوا رَكَعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ وَاهِبِ النَّصْرِ ...
ثُمَّ كَافَأَ الْقَائِدُ الْكَبِيرُ غُلَامَهُ « فَرُوحًا » عَلَى حُسْنِ بَلَائِهِ^(١) :
فَأَعْتَقَ رَقَبَتَهُ ...

وَقَسَمَ لَهُ نَصِيْبَهُ مِنَ الْغَنَائِمِ الْكَثِيرَةِ الْوَفِيرَةِ .
ثُمَّ زَادَهُ مِنْ عِنْدِهِ شَيْئًا كَثِيرًا ...

* * *

لَمْ تَطُلِ الْحَيَاةُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَبْلَجِ^(٢) الْأَغْرَ^(٣) بِالرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ
الْحَارِثِيِّ ...

حَيْثُ وَافَاهُ الْأَجَلَ الْمَحْتَمُومُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ مِنْ تَحْقِيقِ حُلْمِهِ الْكَبِيرِ ...
فَمَضَى إِلَى رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

أَمَّا الْفَتَى الْبَاسِلُ الشُّجَاعُ « فَرُوحُ » فَقَدْ عَادَ إِلَى « الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ »
يَحْمِلُ مَعَهُ سَهْمَهُ الْكَبِيرَ مِنَ الْغَنَائِمِ ...

وَالْهَبَةَ السَّخِيَّةَ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ قَائِدُهُ الْعَظِيمُ ...

وَيَحْمِلُ فَوْقَ ذَلِكَ حُرِّيَّتَهُ الْغَالِيَةَ ...

وَذِكْرِيَّاتِهِ الْغَنِيَّةَ بِرَوَائِعِ الْبُطُولَاتِ ...

الْمُكَلَّلَةَ^(٤) بِغُبَارِ الْوَقَائِعِ ...

* * *

(١) حُسن بِلَائِهِ : حُسن فِعْلِهِ فِي الْقِتَالِ .

(٢) الْأَبْلَجُ : النَّاصِعُ الْوَاضِحُ الْمَتَلَقِّ .

(٣) الْأَغْرُ : الْأَبْيَضُ .

(٤) الْمُكَلَّلَةُ : الْمُتَوَجَّعَةُ .

كَانَ «فَرُوحُ» حِينَ هَبَطَ مَدِينَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَابًّا مَوْفُورَ الشَّبَابِ ،
دَفَاقَ الْحَيَوِيَّةِ ، مُمْتَلِئًا قُوَّةً وَفُرُوسِيَّةً ...

وَكَانَ يَحْطُو نَحْوَ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمرِهِ ...

وَقَدْ عَزَمَ «فَرُوحُ» عَلَى أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَنْزِلًا يَسْتَقِرُّ فِيهِ ، وَزَوْجَةً يَسْكُنُ
إِلَيْهَا ...

فَابْتَعَ دَارًا مِنْ أَوْسَطِ دُورِ الْمَدِينَةِ ...

وَاخْتَارَ امْرَأَةً رَاحِحَةَ الْعَقْلِ ، كَامِلَةَ الْفَضْلِ ، صَحِيحَةَ الدِّينِ ، تُقَارِبُهُ فِي
السِّنِّ ... وَاقْتَرَنَ بِهَا .

* * *

نَعِمَ «فَرُوحُ» بِدَارِهِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا .

وَلَقِيَ فِي صُحْبَةِ زَوْجَتِهِ مِنْ هَنَاءِ الْعَيْشِ وَطِيبِ الْعِشْرَةِ وَنَضَارَةِ الْحَيَاةِ
فَوْقَ مَا كَانَ يَرْجُو وَيَأْمُلُ .

لَكِنَّ تِلْكَ الدَّارَ الْعَامِرَةَ عَلَى كُلِّ مَا تَوَافَرَ لَهَا مِنَ الْمَزَايَا ...

وَتِلْكَ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ عَلَى كُلِّ مَا حَبَّاهَا (١) اللَّهُ مِنْ كَرِيمِ السَّمَائِلِ (٢)
وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ ، لَمْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَتَغَلَّبَا عَلَى حَيْنِ الْفَارِسِ الْمُؤْمِنِ إِلَى خَوْضِ
الْمَعَارِكِ ...

وَشَوْقِهِ إِلَى سَمَاعِ وَقَعِ النَّصَالِ عَلَى النَّصَالِ (٣) ...

وَوَلَعِهِ بِاسْتِغْنَائِهِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

(١) حباها الله : منحها الله .

(٢) السمائل : الصفات الطيبة .

(٣) النصال : جمع نصل ، ونصل السيف : حديدته .

فَكَانَ كُلَّمَا تَرَدَّدَتْ فِي الْمَدِينَةِ أَخْبَارُ انْتِصَارَاتِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ
الْعَازِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَأَجَّجَتْ^(١) أَشْوَاقُهُ إِلَى الْجِهَادِ ، وَاسْتَدَّ حَيْنُهُ إِلَى
الِاسْتِشْهَادِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعِ سَمِعَ « فَرْوُخُ » خَطِيبَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ
يَزُفُ^(٢) لِلْمُسْلِمِينَ بُشْرَى انْتِصَارَاتِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مِئْدَانٍ .
وَيَحْضُ^(٣) النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الْإِسْتِشْهَادِ إِعْزَازاً لِدِينِهِ ، وَابْتِغَاءً^(٤) لِمَرْضَاتِهِ ، فَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ
وَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى الْإِنْضِوَاءِ تَحْتَ رَايَةٍ مِنْ رَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَثَبِّرَةِ تَحْتَ
كُلِّ نَجْمٍ .

وَأَعْلَنَ عَزَمَهُ هَذَا لِزَوْجَتِهِ .

فَقَالَتْ لَهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، لِمَنْ تَتْرُكُنِي وَتَتْرُكُ هَذَا الْجَنِينَ^(٥) الَّذِي أَحْمِلُهُ بَيْنَ
جَوَانِحِي ؟ ...

فَأَنْتَ رَجُلٌ غَرِيبٌ عَنِ الْمَدِينَةِ ، لَا أَهْلَ لَكَ فِيهَا وَلَا عَشِيرَةَ .

فَقَالَ : أَتُرْكُكِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ...

ثُمَّ إِنِّي خَلَفْتُ لَكَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ جَمَعْتُهَا مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ ...
فَضُونِيهَا ، وَتُمْرِيهَا^(٦) ، وَأَنْفِقِي مِنْهَا عَلَى نَفْسِكَ وَوَلِيدِكَ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى أَعُودَ
إِلَيْكَ سَالِمًا غَانِمًا ...

(١) تأججت : اشتعلت . (٢) يحض : يحث . (٣) يحض : يحث . (٤) ابتغاء : طلباً .
(٥) الجنين : الولد ما دام في رحم أمه . (٦) تُمَرِيها : كُثْرِيها بالتجارة ونحوها .

أَوْ يُزَوِّقُنِي اللَّهُ الشَّهَادَةَ الَّتِي أَتَمَّانَهَا ...

ثُمَّ وَدَّعَهَا وَمَضَى إِلَى غَايَتِهِ ...

* * *

وَضَعَتِ السَّيِّدَةُ الرَّزَّانُ^(١) حَمْلَهَا بَعْدَ رَحِيلِ زَوْجِهَا بِيَضْعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِذَا هُوَ غُلَامٌ مُشْرِقُ الْوَجْهِ ، حُلُوُ الْقَسَمَاتِ ، رَائِعُ الْمُجْتَلَى^(٢) ...

فَفَرِحَتْ بِهِ فَرَحًا عَظِيمًا كَادَ يُنْسِيهَا فِرَاقَ أَبِيهِ ...
وَأُطْلِقَتْ عَلَيْهِ اسْمُ « رَبِيعَةَ » .

* * *

بَدَتْ عَلَى الْغُلَامِ الصَّغِيرِ عَلَامَاتُ النَّجَابَةِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ...
وَزَهَرَتْ أَمَارَاتُ^(٣) الذِّكَا فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

فَأَسْلَمَتْهُ أُمُّهُ إِلَى الْمُعَلِّمِينَ ، وَأَوْصَتْهُمْ بِأَنْ يُحْسِنُوا تَعْلِيمَهُ ...
وَأَسْتَدَعَتْ لَهُ الْمُؤَدِّبِينَ وَحَضَّتْهُمْ عَلَى أَنْ يُحْكِمُوا تَأْدِيبَهُ .

فَمَا لَبِثَ كَثِيرًا حَتَّى أَتَقَنَّ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ ...

ثُمَّ حَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَعَلَ يُرْتِّلُهُ نَدِيًّا طَرِيًّا كَمَا أُنْزِلَ عَلَى فُؤَادِ
مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَوَعَى مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَأَسْتَظْهَرَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ أَنْ يَسْتَظْهَرَ ...
وَعَرَفَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ .

* * *

(١) المرأة الرزان : المرأة الرصينة الزينة .

(٢) رائع المجتلى : يروع عين رائيهِ .

وَقَدْ أَغْدَقْتُ^(١) أُمُّ رَبِيعَةَ عَلَى مُعَلِّمِي وَلَدِهَا وَمُؤَدِّيهِ الْمَالِ وَالْجَوَائِزِ
إِغْدَاقًا .

فَكَانَتْ كُلَّمَا رَأَتْهُ يَزْدَادُ عِلْمًا ؛ تَزِيدُهُمْ بِرًّا وَإِكْرَامًا ...
وَكَانَتْ تَتَرَقَّبُ عَوْدَةَ أَبِيهِ الْغَائِبِ ، وَتَجْتَهِدُ فِي أَنْ تَجْعَلَهُ قُرَّةَ^(٢) عَيْنٍ لَهَا
وَلَهُ .

لَكِنَّ « فَرُوحًا » طَالَتْ غَيْبَتُهُ .
ثُمَّ تَضَارَبَتِ الْأَقْوَالُ فِيهِ .
فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ .
وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهُ مَا زَالَ طَلِيقًا يُوَاصِلُ الْجِهَادَ .
وَقَالَ فَرِيقٌ ثَالِثٌ عَائِدٌ مِنْ سَاحَاتِ الْقِتَالِ : إِنَّهُ نَالَ الشَّهَادَةَ الَّتِي تَمَنَّاهَا .
فَتَرَجَّحَ هَذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ عِنْدَ أُمِّ رَبِيعَةَ لِإِنْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ ، فَحَزِنَتْ عَلَيْهِ
حُزْنًا أَمْضًى^(٣) فُؤَادَهَا .
ثُمَّ احْتَسَبَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ^(٤) .

* * *

كَانَ رَبِيعَةُ يَوْمِيذٍ قَدْ أُيْفِعَ^(٥) وَكَادَ يَدْخُلُ فِي مَدَاخِلِ الشَّبَابِ .
فَقَالَ النَّاصِحُونَ لِأُمِّهِ :
هَا هُوَ ذَا رَبِيعَةُ قَدْ اسْتَكْمَلَ مَا يَنْبَغِي لِفَتَى مِثْلِهِ أَنْ يَسْتَكْمِلَهُ مِنَ الْقِرَاءَةِ
وَالكِتَابَةِ ...

(١) أغدقت : أكثرت وأجزلت .

(٢) قرة عين : مبعث فرح وسرور .

(٣) أمض فؤادها : أحزنه وأوجعه .

(٤) احتسبته عند الله : طلبت أجرها عليه من الله .

(٥) أيفع : قارب البلوغ .

وَرَادَ عَلَى أَقْرَانِهِ^(١) فَحَفِظَ الْقُرْآنَ وَرَوَى الْحَدِيثَ .

فَلَوْ تَخَيَّرَ لَهُ حَرْفَةٌ^(٢) مِنَ الْحَرْفِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُتَقَنَّهَا ، وَيُنْفِقَ عَلَيْكَ وَعَلَى نَفْسِهِ مِمَّا تَذُرُّهُ مِنْ خَيْرٍ ، فَقَالَتْ :

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَخِيرَ^(٣) لَهُ مَا فِيهِ صَلَاحٌ مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ^(٤) ...

إِنَّ رَبِيعَةَ قَدْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعِلْمَ ...

وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَعِيشَ مُتَعَلِّمًا وَمُعَلِّمًا مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ .

* * *

مَضَى رَبِيعَةُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي اخْتَطَّهَا لِنَفْسِهِ غَيْرَ وَإِنْ وَلَا مُقَصِّرٍ .

وَأَقْبَلَ عَلَى حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَ يَزْخُرُ^(٥) بِهَا مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ كَمَا يُقْبَلُ الظَّمَاءُ^(٦) عَلَى الْمَوَارِدِ الْعَذَابِ^(٧) .

وَلَزِمَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ^(٨) خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَأَخَذَ عَنِ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ^(٩) مِنَ التَّابِعِينَ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ :

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ^(١٠) ، وَمَكْحُولُ الشَّامِيُّ ، وَسَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ^(١١) ...

(١) أقرانه : نظرائه وأمثاله .

(٢) الحرفة : الصنعة .

(٣) يَخِيرُ لَهُ : يختار له .

(٤) معاشه ومعاده : أي معاشه في الدنيا ، ومعاده في الآخرة .

(٥) يزخر بها : يموج بها .

(٦) الظَّمَاءُ : العطاش .

(٧) العذاب : العذبة الحلوة .

(٨) أنس بن مالك الأنصاري : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب

الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٩) الرعيل الأول : الفريق المتقدم .

(١٠) سعيد بن المسيب : انظره ص ١٩٧ .

(١١) سلمة بن دينار : انظره ص ١٨٥ .

وَوَاصَلَ كَلَالَ^(١) لَيْلِهِ بِكَالَالِ نَهَارِهِ حَتَّى أَنْهَكَ الْجُهْدُ .
فَإِذَا كَلَّمَهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَدَعَاهُ إِلَى الرِّفْقِ بِنَفْسِهِ ، قَالَ :
سَمِعْنَا أَشْيَاخَنَا يَقُولُونَ :

« إِنَّ الْعِلْمَ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ إِلَّا إِذَا أُعْطِيَتْهُ نَفْسُكَ كُلُّهَا » ...
ثُمَّ مَا لَبِثَ^(٢) كَثِيرًا حَتَّى اِرْتَفَعَ ذِكْرُهُ ، وَبَزَغَ نَجْمُهُ ، وَكَثُرَ إِخْوَانُهُ .
وَأُولَعَ بِهِ تَلَامِيذُهُ ، وَسَوَّدَهُ^(٣) قَوْمُهُ .
وَلَقَدْ سَارَتْ حَيَاةُ عَالِمِ الْمَدِينَةِ هَادِئَةً وَادِعَةً ...
فَشَطَّرَ مِنْ يَوْمِهِ فِي دَارِهِ لِأَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ ...
وَأَخَّرَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَحَلَقَاتِهِ ...
وَلَقَدْ مَضَتْ حَيَاتُهُ مُتَشَابِهَةً حَتَّى وَقَعَ فِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ ...

(١) الكلال : التعب والتَّصَبُّبُ .

(٢) ما لبث : ما أبطأ .

(٣) سَوَّدَهُ قَوْمُهُ : جعلوه سيِّداً عليهم .

رَبِيعَةُ الرَّأْيِ

« ب »

فِي ذَاتِ عَشِيَّةٍ مِنْ عَشِيَّاتِ الصَّيْفِ الْمُقْمِرَةِ ؛ بَلَغَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ فَارِسٌ
فِي أَوَاخِرِ الْعَقْدِ السَّادِسِ مِنْ عُمرِهِ .

وَمَضَى فِي أَرْقَتِهَا رَاكِباً جَوَادَهُ قَاصِداً دَارَهُ .

وَهَوَّ لَا يَدْرِي إِنْ كَانَتْ دَارُهُ مَا تَزَالُ قَائِمَةً عَلَى عَهْدِهِ بِهَا ، أَمْ أَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ
فَعَلَتْ بِهَا فِعْلَهَا ...

فَلَقَدْ مَضَى عَلَى غِيَابِهِ عَنْهَا ثَلَاثُونَ عَاماً أَوْ نَحْواً^(١) مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ يُسَائِلُ نَفْسَهُ عَنْ زَوْجَتِهِ الشَّابَّةِ الَّتِي خَلَفَهَا فِي تِلْكَ الدَّارِ
مَا فَعَلَتْ ؟ ...

وَعَنْ جَنِينِهَا الَّذِي كَانَتْ تَحْمِلُهُ بَيْنَ جَوَانِحِهَا :

أَوْضَعْتُهُ ذَكَراً أَمْ أُنْثَى ؟ ... أَحْيَى هُوَ أَمْ مَيِّتٌ ؟ .

وَإِذَا كَانَ حَيّاً ؛ فَمَا شَأْنُهُ ؟ .

وَعَنْ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ الَّذِي جَمَعَهُ مِنْ غَنَائِمِ الْجِهَادِ ، وَتَرَكَهُ وَدِيعَةً
عِنْدَهَا حِينَ مَضَى مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَوَجِّهَةِ لِفَتْحِ
« بُخَارَى » وَ« سَمَرْقَنْدَ » وَمَا جَاوَزَهُمَا ...

(١) نحواً من ذلك : قريباً من ذلك .

وَلَقَدْ كَانَتْ أَرْزُقُهُ الْمَدِينَةَ وَسَوَارِعُهَا مَا تَزَالُ عَامِرَةً بِالْعَادِينَ وَالرَّائِحِينَ ...
 فَالنَّاسُ لَمْ يَفْرَعُوا مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَّا وَشِيكاً^(١)، لَكِنَّ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ
 النَّاسِ الَّذِينَ مَرَّ بِهِمْ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَلَمْ يَأْبَهُ^(٢) لَهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى جَوَادِهِ الْمُطَهَّمِ،
 وَلَا إِلَى سَيْفِهِ الْمُتَدَلِّي مِنْ عَاتِقِهِ ...

فَسُكَّانُ الْمُدُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانُوا قَدْ أَلْفُوا مَنْظَرَ الْمُجَاهِدِينَ الْعَادِينَ إِلَى
 الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الْعَائِدِينَ مِنْهُ.

لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ سَبَباً فِي إِثَارَةِ حُزْنِ الْفَارِسِ وَازْدِيَادِ وَسَاوِسِهِ .
 وَفِيمَا كَانَ الْفَارِسُ سَابِحاً فِي أَفْكَارِهِ هَذِهِ، مَاضِياً يَتَلَمَّسُ طَرِيقَهُ فِي تِلْكَ
 الْأَرْقَةِ الَّتِي عَرَاهَا^(٣) التَّغْيِيرُ ... وَجَدَ نَفْسَهُ فَجْأَةً أَمَامَ دَارِهِ ...
 وَأَلْفَى^(٤) بَابَهَا مَشْقُوقاً، فَأَعْجَلَتْهُ الْفَرَحَةُ عَنِ الْإِسْتِغْذَانِ عَلَى أَهْلِهَا ...
 وَوَلَجَ مِنَ الْبَابِ، وَأَوْغَلَ فِي صَحْنِ الدَّارِ ...

* * *

سَمِعَ رَبُّ الدَّارِ صَرِيرَ الْبَابِ، فَأَاطَلَ مِنْ عُيَّتِهِ^(٥) فَرَأَى فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ
 رَجُلًا مُتَوَشِّحاً سَيْفَهُ مُتَقَلِّداً رُمَحَهُ، يَفْتَحِمُ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ دَارَهُ .
 وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ الشَّابَّةُ تَقِفُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ مُرْمَى بَصَرِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ .
 فَهَبَتْ مُغْضَباً، وَنَزَلَ إِلَيْهِ حَافِياً وَهُوَ يَقُولُ :
 أَتَسْتَسْرِ بِجُنْحِ اللَّيْلِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَتَفْتَحِمُ مَنْزِلِي، وَتَهْجِمُ عَلَى حَرِيمِي ؟!
 وَانْدَفَعَ نَحْوَهُ كَمَا يَنْدَفِعُ الْأَسَدُ الضَّارِي إِذَا أُرِيدَ عَرِيْنُهُ^(٦) بِشَوْءٍ ...

(٤) أَلْفَى : وجد .

(٥) الْعُيَّة : بيت في الطبقة الثانية من الدار .

(٦) العرين : بيت الأسد .

(١) وشيكاً : قريباً .

(٢) لم يأبه له : لم يهتم به .

(٣) عراها : أصابها .

وَلَمْ يَدْعُ لَهُ فُرْصَةً لِّلْكَلامِ ...

وَتَوَاتَبَ كُلُّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ عَلَى صَاحِبِهِ ؛ وَعَلَتْ جَلْبَتُهُمَا^(١) ، وَارْتَفَعَ
ضَجِيجُهُمَا ، وَتَدَفَّقَ الْجِيرَانُ عَلَى الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ .

فَأَحَاطُوا بِالرَّجُلِ الْغَرِيبِ إِحَاطَةً الْغُلِّ^(٢) بِالْعُنُقِ ، وَأَعَانُوا جَارَهُمْ عَلَيْهِ ...

فَأَمْسَكَ بِهِ صَاحِبُ الدَّارِ وَأَحْكَمَ قَبْضَتَهُ عَلَى خِنَاقِهِ^(٣) وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَا أَطْلِقُكَ - يَا عَدُوَّ اللَّهِ - إِلَّا عِنْدَ الْوَالِي .

فَقَالَ الرَّجُلُ : مَا أَنَا بِعَدُوِّ اللَّهِ ... وَلَمْ ارْتَكِبْ ذَنْباً ...

وإِنَّمَا هُوَ يَتَّبِعُنِي ، وَمَلِكُ يَمِينِي ، وَجَدْتُ بَابَهُ مَفْتُوحاً فَدَخَلْتُهُ ...

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ :

يَا قَوْمُ ... اسْمَعُوا مِنِّي ...

هَذَا الْبَيْتُ يَتَّبِعُنِي ... شَرِيئَتُهُ بِمَالِي ...

يَا قَوْمُ ... أَنَا « فَرُوحٌ » .

أَلَمْ يَتَّقْ فِي الْجِيرَانِ أَحَدٌ يَعْرِفُ « فَرُوحاً » الَّذِي عَدَا^(٤) مُنْذُ ثَلَاثِينَ عَاماً
مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ !؟ .

وَكَانَتْ وَالِدَةُ صَاحِبِ الدَّارِ نَائِمَةً ، فَاسْتَيْقَظَتْ عَلَى الضَّجِيجِ ، وَأَطْلَتْ
مِنْ نَافِذَةٍ عَلَيْهَا ؛ فَرَأَتْ زَوْجَهَا بِشَحْمِهِ وَلَحْمِهِ .

(١) جَلْبَتُهُمَا : ضوؤاؤهما .

(٢) الْغُلُّ : طوق من حديد يجعل في العنق أو اليد ، وجمعه أغلال .

(٣) خِنَاقُهُ : رقبته .

(٤) عَدَا : مضى وذهب .

فَكَادَتْ تَعْقِدُ الدَّهْشَةَ لِسَانَهَا ...

لِكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ قَالَتْ :

دَعُوهُ ...

دَعُهُ يَا رَبِيعَةَ ...

دَعُهُ يَا وَلَدِي ... إِنَّهُ أَبُوكَ ...

انصَرِفُوا عَنْهُ يَا قَوْمُ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .

حَذَارِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ...

إِنَّ هَذَا الَّذِي تَتَصَدَّى لَهُ وَلَدُكَ وَفَلَذُكَ كَبِيدُكَ^(١) .

فَمَا كَادَتْ كَلِمَاتُهَا تُلَامِسُ الْآذَانَ حَتَّى أَقْبَلَ « فَرُوحٌ » عَلَى رَبِيعَةَ ،
وَجَعَلَ يَضُمُّهُ وَيُعَانِقُهُ ..

وَأَقْبَلَ رَبِيعَةَ عَلَى « فَرُوحٍ » ، وَطَفِقَ يُقَبِّلُ يَدَيْهِ وَعُنُقَهُ وَرَأْسَهُ ...

وَانْفَضَّ عَنْهُمَا النَّاسُ ...

وَنَزَلَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ تُسَلِّمُ عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي مَا كَانَتْ تَظُنُّ ظَنًّا أَنَّهَا سَتَلْقَاهُ
عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ مُدَّةً تُقَارِبُ ثُلْثَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ .

* * *

جَلَسَ « فَرُوحٌ » إِلَى زَوْجَتِهِ ، وَطَفِقَ يُحَدِّثُهَا عَنْ أَحْوَالِهِ ...

وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ أَسْبَابِ انْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ ...

وَلِكِنَّهَا كَانَتْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَقُولُ ، فَلَقَدْ نَغَصَ^(٢) عَلَيْهَا

(١) فَلَذَةُ كَبِيدِكَ : قطعة كَبِيدِكَ .

(٢) نَغَصَ : كَثُرَ .

فَرَحَتْهَا بِلِقَائِهِ وَاجْتِمَاعِ شَمْلِهِ بِوَلَدِهِ ؛ خَوْفُهَا مِنْ غَضَبَتِهِ عَلَى إِضَاعَةِ كُلِّ
مَا أَوْدَعَهُ لَدَيْهَا مِنْ مَالٍ ...

كَانَتْ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا :

مَاذَا لَوْ سَأَلَنِي الْآنَ عَنْ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَرَكَهُ أَمَانَةً عِنْدِي ،
وَأَوْصَانِي أَنْ أَنْفِقَ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ؟ ! ...

مَاذَا سَيَكُونُ مِنْهُ لَوْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ ؟ ! ...
أَيُقْنِعُهُ قَوْلِي لَهُ :

إِنِّي أَنْفَقْتُ مَا تَرَكَهُ عِنْدِي عَلَى تَرْبِيَةِ ابْنِهِ وَتَعْلِيمِهِ ؟ ...
وَهَلْ تَبْلُغُ نَفَقَةُ وَلَدٍ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ؟ ! .

أَيُصَدِّقُ أَنَّ يَدَ ابْنِهِ أُنْدَى مِنَ السَّحَابِ ^(١) ، وَأَنَّهُ لَا يُبْقِي عَلَى دِينَارٍ
وَلَا دِرْهَمٍ ، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ كُلَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَى إِخْوَانِهِ الْآلَافَ الْمُؤَلَّفَةَ ؟ .
وَفِيمَا كَانَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ عَارِقَةً فِي هَوَاجِسِهَا ^(٢) هَذِهِ ، التَفَّتْ إِلَيْهَا زَوْجُهَا
وَقَالَ :

لَقَدْ جِئْتُكَ - يَا أُمُّ رَبِيعَةَ - بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ ...
فَأَخْرِجِي الْمَالَ الَّذِي أَوْدَعْتُهُ عِنْدَكَ لِنَظْمِ هَذَا إِلَيْهِ ، وَنَشْتَرِي بِالْمَالِ كُلَّهُ
بُسْتَانًا أَوْ عَقَارًا ^(٣) نَعِيشُ مِنْ غَلَّتِهِ مَا امْتَدَّتْ بِنَا الْحَيَاةُ .
فَتَشَاعَلَتْ عَنْهُ ، وَلَمْ تُجِبْهُ بِشَيْءٍ .

فَاعَادَ عَلَيْهَا الطَّلَبَ وَقَالَ :

(١) أُنْدَى مِنَ السَّحَابِ : أَكْرَمَ مِنَ الْغَيْمِ الْمَطَرِ .

(٢) هَوَاجِسُهَا : خَوَاطِرُهَا .

(٣) الْعَقَارُ : الدَّارُ وَالضَّبِيعَةُ وَنَحْوُهُمَا .

هَيَّا ... أَتَيْنَ الْمَالَ حَتَّى أَضُمَّ إِلَيْهِ مَا مَعِيَ ؟ .

فَقَالَتْ : لَقَدْ وَصَعْتُهُ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يُوَضَعَ ...

وَسَأَخْرِجُهُ لَكَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَقَطَعَ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ عَلَيْهِمَا الْحَدِيثَ ... فَهَبَّ « فَرْوُخٌ » إِلَى إِبْرِيْقِهِ فَتَوَضَّأَ .

ثُمَّ مَضَى مُسْرِعاً نَحْوَ الْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ : أَتَيْنَ رَبِيعَةً ؟ .

فَقَالُوا : سَبَقَكَ إِلَى الْمَسْجِدِ مُنْذُ النَّدَاءِ الْأَوَّلِ .

وَلَا نَحْسَبُ أَنَّكَ تُدْرِكُ الْجَمَاعَةَ .

* * *

بَلَغَ « فَرْوُخٌ » الْمَسْجِدَ ؛ فَوَجَدَ أَنَّ الْإِمَامَ قَدْ فَرَغَ وَشَيْكاً مِنَ الصَّلَاةِ ، فَأَذَى الْمَكْتُوبَةَ .

ثُمَّ مَضَى نَحْوَ الضَّرِيحِ الشَّرِيفِ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ انْشَأَ نَحْوَ الرُّوضَةِ (١) الْمُطَهَّرَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ فِي فُؤَادِهِ أَشْوَاقٌ إِلَيْهَا ، وَحِينٌ إِلَى الصَّلَاةِ فِيهَا .

فَتَخَيَّرَ لِنَفْسِهِ مَكَاناً فِي رَحَابِهَا النَّصْرَةِ .

ثُمَّ جَعَلَ يَتَنَفَّلُ (٢) ، فَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ، ثُمَّ دَعَا بِمَا أُلْهِمَ أَنْ يَدْعُو .

(١) الروضة : ما بين قبر الرسول ﷺ ومنبره .

(٢) يتنفل : يصلي نفلاً ، والنفل : ما زاد على الفرائض .

وَلَمَّا هَمَّ بِمُعَادَرَةِ الْمَسْجِدِ ؛ وَجَدَ بَاحَتَهُ قَدْ غُصَّتْ عَلَى رَحْبِهَا بِمَجْلِسٍ
مِنْ مَجَالِسِ الْعِلْمِ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ .

وَرَأَى النَّاسَ قَدْ تَحَلَّقُوا حَوْلَ شَيْخِ الْمَجْلِسِ حَلَقَةً إِثْرَ حَلَقَةٍ ، حَتَّى لَمْ
يَتْرُكُوا فِي السَّاحَةِ مَوْطِئًا لِقَدَمٍ .

وَأَجَالَ بَصَرَهُ فِي النَّاسِ ؛ فَإِذَا فِيهِمْ شُبُوحٌ مُعَمَّمُونَ ذَوُو أَسْنَانٍ (١) ...

وَرِجَالٌ مُتَوَقِّفُونَ (٢) تَدُلُّ هَيْئَاتُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ ذَوُو أَقْدَارٍ (٣) ...

وَشُبَّانٌ كَثِيرُونَ قَدْ جَثَوْا عَلَى رُكْبِهِمْ ، وَأَخَذُوا أَفْلامَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَجَعَلُوا
يَلْتَفِطُونَ مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ كَمَا تُلْتَقَطُ الدَّرَرُ ...

وَيَحْفَظُونَهُ فِي دِفَائِرِهِمْ كَمَا تُحْفَظُ الْأَعْلَاقُ (٤) النَّفِيسَةُ .

وَكَانَ النَّاسُ مُتَّجِهِينَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ الشَّيْخُ ، مُنْصِتِينَ إِلَى
كُلِّ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ حَتَّى لَكَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ (٥) ...

وَكَانَ الْمُجْلِسُونَ يَنْقُلُونَ مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ فِقْرَةً فِقْرَةً ، فَلَا يَفُوتُ أَحَدًا شَيْءٌ
مِنْ كَلَامِهِ مَهْمَا كَانَ بَعِيدًا .

وَحَاوَلَ « فَرُوحٌ » أَنْ يَتَبَيَّنَ صُورَةَ الشَّيْخِ ... فَلَمْ يُفْلِحْ لِمَوْقِعِهِ مِنْهُ ، وَبُعْدِهِ
عَنْهُ .

لَقَدْ رَاعَهُ مِنْهُ بَيَانُهُ الْمُشْرِقُ ، وَعِلْمُهُ الْمُتَدَقِّقُ ، وَخَافِظَتُهُ الْعَجِيبَةُ .

وَأَذْهَشَهُ خُضُوعُ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

(١) ذوو أسنان : ذوو أعمار ، [أي كبار السن] .

(٢) متوقفون : مظهرون الوقار .

(٣) ذوو أقدار : لهم منزلة وشأن .

(٤) الأعلاق : النفائس التي تُفْتَتَلُ .

(٥) كأن على رؤوسهم الطير : كناية عن سكوتهم ، وصمتهم .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى خَتَمَ الشَّيْخُ مَجْلِسَهُ وَنَهَضَ وَاقِفًا ...
فَهَبَ النَّاسُ مُتَجِهِينَ نَحْوَهُ ، وَتَزَاحَمُوا عَلَيْهِ ، وَأَحَاطُوا بِهِ ، وَانْدَفَعُوا وَرَاءَهُ
يُشَيِّعُونَهُ^(١) إِلَى خَارِجِ الْمَسْجِدِ .

وَهُنَا التَّفَتُّ « فَرُوخٌ » إِلَى رَجُلٍ كَانَ يَجْلِسُ بِجَانِبِهِ وَقَالَ :
قُلْ لِي - بِرَبِّكَ - مَنْ الشَّيْخُ ؟ !

فَقَالَ الرَّجُلُ بِاسْتِغْرَابٍ : أَوَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؟ .
فَقَالَ « فَرُوخٌ » : بَلَى .

فَقَالَ الرَّجُلُ : وَهَلْ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ وَاحِدٌ لَا يَعْرِفُ الشَّيْخَ ؟ !
فَقَالَ « فَرُوخٌ » : اعْذُرْنِي إِذَا كُنْتُ لَا أَعْرِفُهُ .

فَلَقَدْ أَمْضَيْتُ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا بَعِيدًا عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَلَمْ أَعُدْ إِلَيْهَا
إِلَّا أَمْسٍ ... فَقَالَ الرَّجُلُ :

لَا بَأْسَ ... اجْلِسْ إِلَيَّ قَلِيلًا أَحَدُثْكَ عَنِ الشَّيْخِ .
ثُمَّ قَالَ :

إِنَّ الشَّيْخَ الَّذِي اسْتَمَعْتَ إِلَيْهِ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ ، وَعَلِمَ مِنْ أَعْلَامِ
الْمُسْلِمِينَ .

وَهُوَ مُحَدِّثُ الْمَدِينَةِ ، وَفَقِيهٌ ، وَإِمَامُهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ .
فَقَالَ « فَرُوخٌ » : مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...
فَاتَّبَعَ الرَّجُلُ يَقُولُ :

(١) يشيعونه : يودعونه .

وَإِنَّ مَجْلِسَهُ يَضُمُّ - كَمَا رَأَيْتَ - مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ ^(١)، وَأَبَا حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ ،
وَيَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيَّ ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَمْرِو
الْأَوْزَاعِيِّ ، وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ ، وَغَيْرَهُمْ وَغَيْرَهُمْ .

فَقَالَ « فَرُوحٌ » :

غَيْرَ أَنَّكَ ...

فَلَمْ يُتَيْخَ لَهُ الرَّجُلُ فُرْصَةً لِإِتْمَامِ كَلَامِهِ ، وَأُرْدَفَ ^(٢) يَقُولُ :
وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ سَيِّدُ كَرِيمِ السَّمَائِلِ ، مُوَطَّأُ الْأَكْتَفِ ^(٣) ، سَخِيٌّ
الْيَدِ ...

فَمَا عَرَفَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَحَدًا أَوْفَرَ مِنْهُ جُودًا لِصَدِيقٍ وَائِنٍ صَدِيقٍ ...
وَلَا أَزْهَدَ مِنْهُ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا ، وَلَا أَرْغَبَ مِنْهُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ .

فَقَالَ « فَرُوحٌ » : وَلَكِنَّكَ لَمْ تَذْكُرْ لِي اسْمَهُ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّهُ رَبِيعَةُ الرَّأْيِ .

فَقَالَ « فَرُوحٌ » : رَبِيعَةُ الرَّأْيِ !! .

نَعَمْ ، إِنَّ اسْمَهُ رَبِيعَةُ ...

لَكِنَّ عُلَمَاءَ الْمَدِينَةِ وَشُيُوخَهَا دَعَوْهُ رَبِيعَةَ الرَّأْيِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَمْ يَجِدُوا
لِقَضِيَّةٍ نَصًّا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَجَأُوا إِلَيْهِ ...
فَيَجْتَهِدُ فِي الْأَمْرِ ...

وَيَقْيِسُ مَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ عَلَى مَا وَرَدَ فِيهِ نَصٌّ ...

(١) مالك بن أنس: صاحب المذهب المعروف وكذلك أبو حنيفة النعمان ... انظره ص ٤٨٤ ، ٤٩٤ .

(٢) أردف : أتبع .
(٣) موطأ الأكتاف : متواضع رضي الخلق .

وَيَأْتِيهِمْ بِالْحُكْمِ فِيمَا أُشْكِلَ عَلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ تَزَكُّنْ^(١) إِلَيْهِ النَّفُوسُ
وَتَطْمَئِنُّ لَهُ الْقُلُوبُ .

فَقَالَ « فَرُوحٌ » فِي لَهْفَةٍ : وَلَكِنَّكَ لَمْ تَنْسِبْهُ لِي ...
فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّهُ « رَبِيعَةُ بْنُ فَرُوحٍ » الْمُكَنَّى بِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ...
لَقَدْ وُلِدَ بَعْدَ أَنْ غَادَرَ أَبُوهُ الْمَدِينَةَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... فَتَوَلَّتْ أُمُّهُ
تَرْبِيَّتَهُ وَتَنْشِئَتَهُ ...

وَلَقَدْ سَمِعْتُ النَّاسَ قُبِيلَ الصَّلَاةِ يَقُولُونَ :
إِنَّ أَبَاهُ عَادَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ .
عِنْدَ ذَلِكَ تَحَدَّرْتُ مِنْ عَيْنِي « فَرُوحٌ » دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ لَمْ يَعْرِفْ لَهُمَا
الرَّجُلُ سَبَبًا ...

وَمَضَى يَحُثُّ^(٢) الْخُطَى نَحْوَ يَتِيهِ ...
فَلَمَّا رَأَتْهُ أُمُّ رَبِيعَةَ وَالْذَّمُوعُ تَمَلُّأَ عَيْنَيْهِ قَالَتْ :
مَا بِكَ يَا أَبَا رَبِيعَةَ ؟ .
فَقَالَ : مَا بِيَ إِلَّا الْخَيْرُ ...
لَقَدْ رَأَيْتُ وَلَدَنَا رَبِيعَةَ فِي مَقَامٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّرَفِ وَالْمَجْدِ مَا رَأَيْتُهُ لِأَحَدٍ
مِنْ قَبْلُ .

فَاغْتَمَمَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ الْفُرْصَةَ وَقَالَتْ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ...
ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ أَمْ هَذَا الَّذِي بَلَغَهُ وَلَدُكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّرَفِ ؟ .

(٢) يَحُثُّ الْخُطَى : يُسْرِعُ الْخُطَى .

(١) تَزَكُّنْ إِلَيْهِ : تَرَاحَ إِلَيْهِ وَتَطْمَئِنُّ .

فَقَالَ : بَلْ - وَاللَّهِ - هَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ ، وَآثَرُ^(١) عِنْدِي مِنْ مَالِ الدُّنْيَا كُلِّهِ .

فَقَالَتْ : لَقَدْ انْتَقَفْتُ مَا تَرَكْتَهُ عِنْدِي عَلَيْهِ ...

فَهَلْ طَابَتْ نَفْسُكَ بِمَا فَعَلْتُ ؟ !

فَقَالَ : نَعَمْ ...

وَجُرِيتْ عَنِّي وَعَنْهُ وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ...(*) .

(١) آثَرُ : أَفْضَلُ وَأَحَبُّ .

(*) . للاستيزادة من أخبار رَيْعَةَ الرَّأْيِ انظر :

- ١ - تذكرة الحفاظ : ١ / ١٤٨ .
- ٢ - حلية الأولياء : ٣ / ٢٥٩ .
- ٣ - صفة الصفوة : ٢ / ٨٣ .
- ٤ - ذيل الذيل : ١٠١ .
- ٥ - تاريخ بغداد : ٨ / ٤٢٠ .
- ٦ - ميزان الاعتدال : ١ / ١٣٦ .
- ٧ - التاج : ١٠ / ١٤١ .
- ٨ - وفيات الأعيان : ٢ / ٢٨٨ .
- ٩ - تاريخ الطبري : (انظر الفهارس في العاشر) .

رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ

« إِنَّ فِي كِنْدَةَ لثَلَاثَةَ رِجَالٍ يُنْزِلُ اللَّهُ بِهِمُ الْغَيْثَ ...
وَيَنْصُرُ بِهِمُ عَلَى الْأَعْدَاءِ ... أَحَدُهُمْ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ »

[مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ]

كَانَ فِي قَرْنِ (١) التَّابِعِينَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ مَا عَرَفَ أَهْلُ زَمَانِهِمْ لَهُمْ مِثِيلاً ،
وَلَا رَأَوْا لَهُمْ ضَرِيماً .

كَانَهُمُ التَّقْوَا عَلَى مِيعَادٍ ؛ فَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ...
وَتَعَاهَدُوا عَلَى الْخَيْرِ وَالْبِرِّ .

وَوَقَفُوا حَيَاتَهُمْ عَلَى الثَّقَلَيْنِ وَالْعِلْمِ .

وَجَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي خِدْمَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ
وَخَاصَّتِهِمْ ، هُمْ :

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ (٢) بِالْعِرَاقِ .

وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ (٣) بِالْحِجَازِ .

وَرَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ بِالشَّامِ .

فَتَعَالَوْا نَقْضِ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْمُبَارَكَاتِ فِي رِحَابِ ثَالِثِ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارِ
الْأَبْرَارِ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ .

* * *

وُلِدَ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ فِي « بَيْسَانَ » مِنْ أَرْضِ « فِلَسْطِينَ » ...

(١) القرن : مدة من الزمان قدرها مائة سنة ، والمراد هنا جيل التابعين .

(٢) محمد بن سيرين : انظره ص ١٢٤ . (٣) القاسم بن محمد بن أبي بكر : انظره ص ٣٠٠ .

وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» (١) أَوْ نَحْوِ مِنْ ذَلِكَ ...

وَكَانَ يَنْتَمِي إِلَى قَبِيلَةِ «كِندَةَ» الْعَرَبِيَّةِ .
وَعَلَى هَذَا فَرَجَاءُ «فِلَسْطِينِي» الْوَطَنِ ...
عَرَبِي الْأُرُومَةِ (٢) ...
«كِندِي» الْعَشِيرَةِ .

* * *

وَقَدْ نَشَأَ الْفَتَى الْكِندِيُّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُنْذُ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ؛ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ وَحَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ .

وَأَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ (٣) فَوَجَدَ الْعِلْمَ فُؤَادَهُ غَضًّا طَرِيًّا خَالِيًّا ، فَتَمَكَّنَ مِنْهُ ، وَاسْتَقَرَّ فِيهِ .
وَجَعَلَ هَمُّهُ الْأَكْبَرَ التَّضَلُّعَ (٤) مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَالتَّزَوُّدَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَاسْتَضَاءَ فِكْرُهُ بُنُورَ الْقُرْآنِ ...
وَاسْتَنَارَتْ بَصِيرَتُهُ بِهَدْيِ النُّبُوَّةِ ...
وَأَمْتَلَأَ صَدْرُهُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالْحِكْمَةِ ... وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...

(١) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) الأرومة : الأصل .

(٣) نُعُومَةُ أَظْفَارِهِ : كناية عن صغر سنِّه .

(٤) التَّضَلُّعُ : يُقَالُ تَضَلَّعَ مِنَ الْعِلْمِ أَيُّ شَبَّعَ مِنْهُ وَرَوَى .

وَقَدْ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْ طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنْ أَمْثَالِ : أَبِي
سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ^(١) ، وَأَبِي أُمَامَةَ ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ...
وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، وَالثَّوَّاسِ بْنِ
سَمْعَانَ ، وَغَيْرِهِمْ .

فَكَانُوا لَهُ مَصَابِيحَ هِدَايَةٍ ، وَمَشَاعِلَ عِرْفَانٍ .

* * *

وَقَدْ وَضَعَ الْفَتَى الْمَحْظُوظُ لِنَفْسِهِ دُسْتُورًا ظَلَّ يَلْتَزِمُ بِهِ وَيُرَدِّدُهُ مَا امْتَدَّتْ
بِهِ الْحَيَاةُ ، حَيْثُ كَانَ يَقُولُ :

مَا أَحْسَنَ الْإِسْلَامَ يَزِينُهُ الْإِيمَانُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْإِيمَانَ يَزِينُهُ الثَّقَلَى ...

وَمَا أَحْسَنَ الثَّقَلَى يَزِينُهُ الْعِلْمُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْعِلْمَ يَزِينُهُ الْعَمَلُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْعَمَلَ يَزِينُهُ الرُّفُقُ ...

* * *

وَقَدْ وَزَرَ^(٢) رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ لِبَطَائِفَةٍ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » ابْتِدَاءً مِنْ عَبْدِ
الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَانْتِهَاءً بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٣) .

لَكِنَّ صَلَاتَهُ بِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَاقَتْ صَلَاتِهِ
بِمَنْ سَبَقَهُمَا مِنَ الْخُلَفَاءِ .

* * *

(١) أبو الدرداء : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٣) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

(٢) وَزَرَ : صار وزيراً .

وَقَدْ أَدْنَاهُ مِنْ قُلُوبِ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » رَجَاحَةً فِي رَأْيِهِ ...

وَصِدْقٌ فِي لَهْجَتِهِ ...

وإِخْلَاصٌ فِي نِيَّتِهِ ...

وَحِكْمَةٌ فِي مُعَالَجَتِهِ الْأُمُورَ ...

ثُمَّ تَوَجَّحَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِزُهْدِهِ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ عَرْضِ الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ يَتَزَاوَرُ عَلَيْهِ الْمُتَزَاوِرُونَ .

* * *

وَقَدْ كَانَ اتِّصَالُهُ بِخُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » مِنْ عَظِيمِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ ، وَجَزِيلِ إِكْرَامِهِ لَهُمْ .

فَلَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَى الْخَيْرِ ، وَدَلَّاهُمْ عَلَى طَرِيقِهِ ...

وَنَثَّاهُمْ ^(١) عَنِ الشَّرِّ ، وَأَوْصَدَ دُونَهُمْ أَبْوَابَهُ ...

وَأَرَاهُمُ الْحَقَّ وَزَيَّنَ لَهُمْ اتِّبَاعَهُ ...

وَبَصَّرَهُمْ بِالْبَاطِلِ وَكَرَّهَ إِلَيْهِمْ إِتْيَانَهُ ...

فَنَصَحَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ .

وَلَقَدْ وَقَعَتْ لِرَجَاءِ قِصَّةِ أَنْارَتْ لَهُ طَرِيقُهُ فِي مُحَالَطَةِ الْخُلَفَاءِ ، وَحَدَّدَتْ لَهُ مُهِمَّتَهُ مَعَهُمْ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ :

إِنِّي لَوَاقِفٌ مَعَ سُلَيْمَانَ ^(٢) بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي جُمُوعٍ مِنَ النَّاسِ ؛ إِذْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَّبِعُهُ نَحُونًا وَسَطَ الزَّحَامِ ...

(١) ثَنَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ : صَرَفَهُمْ عَنِ الشَّرِّ .

(٢) سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : مِنْ أَكْبَارِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّة ، أَسَسَ مَدِينَةَ « الرَّمْلَة » بِفِلَسْطِينَ ، حَارَبَ الْبِيزَنْطِيِّينَ وَحَاصَرَ « الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ » .

وَكَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ جَلِيلَ الْهَيْئَةِ ، فَمَا زَالَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ وَأَنَا مَا أَشْكُ
أَنَّهُ يَوْمٌ ^(١) الْخَلِيفَةُ حَتَّى حَادَانِي ^(٢) ، وَوَقَفَ إِلَيَّ جَانِبِي ، ثُمَّ حَيَّانِي وَقَالَ :

يَا رَجَاءُ ...

إِنَّكَ قَدْ ابْتُلِيتَ بِهَذَا الرَّجُلِ .

وَأَشَارَ إِلَيَّ الْخَلِيفَةُ .

وَإِنَّ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ ، أَوِ الشَّرَّ الْكَثِيرَ ...

فَاجْعَلْ قُرْبَكَ مِنْهُ خَيْرًا لَكَ وَلَهُ وَلِلنَّاسِ ...

وَاعْلَمْ يَا رَجَاءُ أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ مِنَ السُّلْطَانِ ؛ فَرَفَعَ إِلَيْهِ حَاجَةً امْرِئٍ
ضَعِيفٍ لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا ؛ لَقِيَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَقَدْ ثَبَّتَ قَدَمِيهِ
لِلْحِسَابِ ^(٣) ...

وَأَذْكُرُ يَا رَجَاءُ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ .

وَاعْلَمْ يَا رَجَاءُ أَنَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ؛ إِدْخَالَ الْفَرَحِ عَلَى
قَلْبِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ .

وَفِيمَا كُنْتُ أَتَأَمَّلُ كَلَامَهُ وَأَتَرَقَّبُ أَنْ يَرِيدَنِي مِنْهُ ، نَادَى الْخَلِيفَةُ قَائِلًا :

أَيْنَ رَجَاءُ بُنْ حَيَوَةَ ؟

فَانْعَطَفْتُ ^(٤) نَحْوَهُ وَقُلْتُ :

هَآنَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) يروم الخليفة : يريد الخليفة .

(٢) حاداني : صارَ لِزائمي .

(٣) ثَبَّتَ قَدَمِيهِ لِلْحِسَابِ : أَمَكَّنَهُ مِنَ الْحِسَابِ وَيَسَّرَهُ لَهُ .

(٤) انعطفت : ملئت .

فَسَأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ ؛ فَمَا كِدْتُ أَفْرُعُ مِنْ جَوَابِهِ حَتَّى التَّفْتُ إِلَى صَاحِبِي
فَلَمْ أَجِدْهُ ...

فَتَفَضْتُ الْمَكَانَ عَنْهُ نَفْضاً^(١) ؛ فَلَمْ أَقَعْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ يَبِينُ النَّاسِ ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِرَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » مَوَاقِفُ صِدْقٍ مَا زَالَ
يُكِنُّهَا^(٢) التَّارِيخُ فِي أَزْهَى صَفْحَاتِهِ ، وَيَزُوبُهَا الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَوُصِفَ
لِلْخَلِيفَةِ رَجُلٌ بِسُوءِ طَوِيلِهِ^(٣) عَلَى بَنِي « أُمَيَّة » ، وَقِيلَ لَهُ :

إِنَّهُ يُشَايِعُ ابْنَ الزُّبَيْرِ^(٤) ، وَيَنْتَصِرُ لَهُ ... وَذَكَرَ الْوَاسِي لَهُ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ
مَا أَثَارَ حَفِيفَتَهُ^(٥) فَقَالَ :

وَاللَّهِ لَئِنْ أُمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْهُ لَأَفْعَلَنَّ ، وَلَأَفْعَلَنَّ ...

وَلَأَضَعَنَّ السَّيْفَ فِي عُنُقِهِ .

وَلَمْ يَمْضِ طَوِيلٌ وَقَتٍ حَتَّى أُمَكَّنَهُ اللَّهُ مِنَ الرَّجُلِ ، وَسَبَقَ إِلَيْهِ سَوْقاً ...

فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهِ ، كَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، وَهَمَّ بِأَنْ يُنْفَذَ وَعِيدُهُ بِهِ ...

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ صَنَعَ لَكَ مَا تُحِبُّهُ مِنَ الْقُدْرَةِ ، فَاصْنَعْ لِلَّهِ مَا يُحِبُّهُ مِنْ

الْعَفْوِ ...

(١) نفضت المكان عنه : تحريت المكان بحثاً عنه .

(٢) يكنها : يحفظها .

(٣) طويلته : ما يطويه في صدره من نية .

(٤) ابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان على الخلافة . (٥) الحفيظة : الغضب .

فَسَكَتَتْ نَفْسُ الْخَلِيفَةِ ، وَسَكَتَ عَنْهُ غَضَبُهُ ...
وَعَفَا عَنِ الرَّجُلِ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ...

* * *

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ حَجَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبِصُحْبَتِهِ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ .

فَلَمَّا بَلَغَا الْمَدِينَةَ زَارَا مَسْجِدَهَا النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ يُرَافِقُهُمَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

وَقَدْ رَغِبَ الْخَلِيفَةُ فِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ نَظْرَةً أُنَاةً وَرَوِيَّةً .

إِذْ كَانَ قَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى تَوْسِعَتِهِ حَتَّى يَكُونَ مِائَتِي ذِرَاعٍ .

فَأُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِيَتِمَّ كَنْ الْخَلِيفَةُ مِنْ تَأْمُلِهِ .

وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ غَيْرُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ^(١) ، إِذْ لَمْ يَجْزُوا الْحَرَسُ عَلَى إِخْرَاجِهِ .

فَارْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَالِيًا عَلَى الْمَدِينَةِ - رَسُولًا يَقُولُ لَهُ :

لَوْ خَرَجْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ كَمَا خَرَجَ النَّاسُ .

فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : لَا أُغَادِرُ الْمَسْجِدَ إِلَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي اعْتَدْتُ أَنْ أُغَادِرَهُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ .

فَقِيلَ لَهُ : لَوْ قُتِمَتْ فَسَلَّمْتَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : إِنَّمَا جِئْتُ إِلَى هُنَا لِأَقُومَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

(١) سعيد بن المسيب : انظره ص ١٩٧ .

فَلَمَّا عَرَفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَا دَارَ يَبْنَ رَسُولِهِ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ،
جَعَلَ يَعْدِلُ^(١) بِالْخَلِيفَةِ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ سَعِيدٌ ...

وَأَخَذَ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ يُشَاغِلُهُ بِالْكَلامِ ، لِمَا كَانَا يَعْلَمَانِ مِنْ شِدَّةِ
عُنْفُوانِ^(٢) الْخَلِيفَةِ .

فَقَالَ لَهُمَا الْوَلِيدُ :

مَنْ ذَلِكَ الشَّيْخُ ؟ ...

أَلَيْسَ هُوَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ؟ .

فَقَالَا : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَطَفِقَا يَصِفَانِ مِنْ دِينِهِ وَعِلْمِهِ ، وَفَضْلِهِ وَتَقْوَاهُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

ثُمَّ قَالَا :

وَلَوْ عَلِمَ الشَّيْخُ بِمَكَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَقَامَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفُ

الْبَصَرِ .

فَقَالَ الْوَلِيدُ : إِنِّي لَأَعْلَمُ مِنْ حَالِهِ مِثْلَمَا تَذْكُرَانِ ...

وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ نَأْتِيَهُ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ دَارَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى أَتَاهُ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَحَيَّاهُ وَقَالَ :

كَيْفَ الشَّيْخُ ؟ .

فَلَمْ يَنْهَضْ مِنْ مَكَانِهِ ، وَقَالَ :

بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ...

(١) جعل يعدل بالخليفة: أخذ يميل بالخليفة ويعدده . (٢) العنقوان: الشدة .

فَكَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَفَّهُ اللَّهُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ...
فَانْصَرَفَ الْوَلِيدُ وَهُوَ يَقُولُ :

هَذَا بَقِيَّةُ النَّاسِ ...

هَذَا بَقِيَّةُ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ...

* * *

وَلَمَّا أَفْضَتْ^(١) الْخِلَافَةُ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ لِرَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ
عِنْدَهُ شَأْنٌ^(٢) يُفَوِّقُ شَأْنَهُ عِنْدَ سَابِقِيهِ .

فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ عَظِيمَ الثِّقَةِ بِهِ ، شَدِيدَ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ ، حَرِيصاً عَلَى أَنْ
يَأْخُذَ بِرَأْيِهِ فِي صَغِيرِ الْأُمُورِ وَكَبِيرِهَا ...

وَمَوَاقِفَ رَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَثِيرَةٌ مُثِيرَةٌ .
يَبْدُ^(٣) أَنَّ أَكْبَرَهَا شَأْنًا وَأَعْظَمَهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَطَرًا ؛ مَوْقِفُهُ
مِنْ أَمْرِ وَلَايَةِ الْعَهْدِ ، وَأَثَرُهُ فِي الْبَيْعَةِ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

* * *

حَدَّثَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ قَالَ :

لَمَّا كَانَ أَوَّلُ يَوْمِ جُمُعَةٍ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُنَّا مَعَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ « بِدَابِقِ »^(٤) .

وَكَانَ قَدْ أَرْسَلَ جَيْشاً لَجِباً^(٥) إِلَى « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » بِقِيَادَةِ أَخِيهِ مَسْلَمَةَ

(١) أفضت الخلافة إلى فلان : آلت إليه وصارت له .

(٢) الشأن : ما عَظُمَ من الأمور والأحوال .

(٣) يبد : غير أن .

(٤) دابق : قرية قرب حلب في سورية كان ينزلها بنو أمية إذا غزوا بلاد الروم ، وبها قبر سليمان بن عبد الملك .

(٥) جيشاً لجباً : جيشاً كبيراً ذا جَلَبَةٍ .

ابنِ عَجْدِ الْمَلِكِ ، وَمَعَهُ ابْنُهُ دَاوُدُ ، وَطَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ آلِ بَيْتِهِ .
وَقَدْ آلَى^(١) عَلَى أَلَّا يَبْرَحَ « مَرْجَ دَابِقَ » حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ
« الْقُسْطُنَظِيَّةَ » أَوْ يَمُوتَ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ تَوَضَّأَ الْخَلِيفَةُ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ،
ثُمَّ لَبَسَ حُلَّةَ خَضِرَاءَ ، وَاعْتَمَّ بِعِمَامَةِ خَضِرَاءَ .

وَنَظَرَ فِي الْمِرْآةِ نَظْرَةً مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ ، مَرَهُوٌّ بِشَبَابِهِ .

وَكَانَ فِي نَحْوِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمرِهِ ...

ثُمَّ خَرَجَ لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ الْجُمُعَةَ ؛ فَلَمْ يَزِجْ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا وَهُوَ
مَوْعُوكُ^(٢) ...

ثُمَّ أَخَذَ يَنْقُلُ عَلَيْهِ الْمَرَضُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

وَقَدْ سَأَلَنِي أَنْ أَظْلُقَ قَرِيبًا مِنْهُ ...

فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ فَوَجَدْتُهُ يَكْتُبُ كِتَابًا .

فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

فَقَالَ : أَكْتُبُ كِتَابًا أَعْهَدُ^(٣) بِهِ إِلَيَّ ائِنِّي أَتُوبُ .

فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إِنَّ مِمَّا يَحْفَظُ الْخَلِيفَةُ فِي قَبْرِهِ ، وَيُتْرَى ذِمَّتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ؛ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلَى
النَّاسِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ .

(١) آلَى : خَلَفَ .

(٢) الموعوك : من أصابه الحمى .

(٣) أعهد به لابني : أي أعهد له بالخلافة .

وَإِنَّ ابْنَكَ أَثُوبَ غُلَامٍ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ بَعْدُ ، وَلَمْ يَتَيَّنْ لَكَ صَلَاحُهُ مِنْ
طَلَاحِهِ^(١) ...

فَتَرَجَعَ وَقَالَ : إِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبْتُهُ ...

وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَحِيرَ اللَّهَ فِيهِ ...

وَلَمْ أُعْزِمَ عَلَيْهِ ...

ثُمَّ مَزَّقَ الْكِتَابَ ...

وَمَكَثَ بَعْدَ ذَلِكَ يَوْماً أَوْ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ دَعَانِي وَقَالَ :

مَا رَأَيْتُكَ فِي وَلَدِي دَاوُدَ يَا أَبَا الْمِقْدَامِ ؟ .

فَقُلْتُ : هُوَ غَائِبٌ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ فِي « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » ...

وَأَنْتَ لَا تَدْرِي الْآنَ أَحْيٍ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ ؟ .

فَقَالَ : فَمَنْ تَرَى إِذَنْ يَا رَجَاءُ ؟ .

فَقُلْتُ : الرَّأْيَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِيمَنْ يَذْكُرُهُمْ لِكَيْ أَسْتَبْعِدَهُمْ وَاحِداً وَاحِداً ؛ حَتَّى

أَصِلَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

فَقَالَ : كَيْفَ تَرَى عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ .

فَقُلْتُ : مَا عَلِمْتُهُ - وَاللَّهِ - إِلَّا فَاضِلاً ، كَامِلاً ، عَاقِلاً ، دِيناً ...

فَقَالَ : صَدَقْتَ ...

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَكَذَلِكَ ...

(١) الطلاح : ضدُّ الصلاح .

وَلَكِنِّي إِنْ وَلَّيْتُهُ وَأَغْفَلْتُ أَوْلَادَ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(١) لَتَكُونَنَّ فِتْنَةً ، وَلَا يَتْرُكُونَهُ
يَلِي عَلَيْهِمْ أَبَدًا ...

فَقُلْتُ : أَشْرِكُ وَاحِدًا مِنْهُمْ وَاجْعَلْهُ بَعْدَهُ .
فَقَالَ : أَصَبْتَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُسَكِّنُهُمْ ، وَيَجْعَلُهُمْ يَرْضَوْنَهُ ...
ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ وَكَتَبَ بِيَدِهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِعُمَرَ بْنِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ ، إِنِّي وَلَّيْتُهُ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي ، وَجَعَلْتُهَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَزِيدَ بْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ .

فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيُطَمَعَ الطَّامِعُونَ فِيكُمْ ...
ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ ، وَنَاوَلَنِي إِيَّاهُ ...

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيَّ « كَعْبُ بْنُ حَامِزٍ » صَاحِبِ الشُّرْطَةِ ^(٢) وَقَالَ لَهُ :
ادْعُ آلَ يَتِي فَلَيجتمعوا ...

وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي فِي يَدِ رَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ هُوَ كِتَابِي ... وَمُرَاهُمْ
بِأَنْ يُبَايَعُوا لِمَنْ فِيهِ .
قَالَ رَجَاءُ :

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قُلْتُ لَهُمْ : هَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَاهَدَ فِيهِ لِلْخَلِيفَةِ
مِنْ بَعْدِهِ ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَخَذَ مِنْكُمْ الْبَيْعَةَ لِمَنْ وَلَّاهُ ، فَقَالُوا :

(١) أولاد عبد الملك : يعني إخوته .

(٢) صاحب الشُّرْطَةِ : مدير الشُّرْطَةِ .

سَمْعاً لِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَطَاعَةً لِخَلِيفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ...
وَطَلَبُوا أَنْ أَسْتَأْذِنَ لَهُمْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْسَّلَامِ عَلَيْهِ .
فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ :

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي فِي يَدِ رَجَاءِ بْنِ خَيْوَةَ هُوَ كِتَابِي ، وَفِيهِ عَهْدِي
لِلْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِي ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ وَلَّيْتُ ، وَبَايَعُوا لِمَنْ سَمَّيْتُ فِي هَذَا
الْكِتَابِ .

فَطَفِقُوا يُبَايِعُونَ رَجُلًا رَجُلًا ...

ثُمَّ خَرَجْتُ بِالْكِتَابِ مَخْتُومًا ... لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ مَا فِيهِ غَيْرِي
وَغَيْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ ، جَاءَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ :
يَا أَبَا الْمِقْدَامِ ...

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ حَسَنُ الظَّنِّ بِي ، وَكَانَ يُؤَلِّينِي ^(١) مِنْ كَرِيمِ بَرِّهِ
وَصَافِي وَدَادِهِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ ...

وَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَسْنَدَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا ، فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ ^(٢)
وَأَسْأَلُكَ بِحُرْمَتِي وَمَوَدَّتِي أَنْ تُعَلِّمَنِي إِنْ كَانَ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ
يَخْصُنِي حَتَّى أَسْتَغْفِيَهُ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَوَاتِ الْفُرْصَةِ .
فَقُلْتُ لَهُ :

لَا وَاللَّهِ مَا أَنَا بِمُخِيرِكَ خَوْفًا وَاحِدًا مِمَّا سَأَلْتَ عَنْهُ ...

(١) يُؤَلِّينِي : يَمْنَحُنِي .

(٢) أَنْشُدُكَ اللَّهَ : أَسْتَخْلِفُكَ بِاللَّهِ .

فَتَوَلَّى عَنِّي وَهُوَ غَضَبَانُ .

ثُمَّ مَا لَيْتَ أَنْ جَاءَنِي هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ :

يَا أَبَا الْمِقْدَامِ ، إِنَّ لِي عِنْدَكَ حُرْمَةً وَمَوَدَّةً قَدِيمَةً ، وَإِنَّ لَكَ عِنْدِي شُكْرًا
جَزِيلًا ؛ فَأَعْلِمْنِي بِمَا فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ^(١) إِلَيَّ سَكَتٌ ...

وَإِنْ كَانَ لِيُغَيِّرِي تَكَلَّمْتُ ... فَلَيْسَ مِثْلِي مَنْ يُنْحَلِي عَنْ هَذَا الْأَمْرِ .

وَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ أَلَّا أَذْكُرَ اسْمَكَ أَبَدًا .

فَقُلْتُ لَهُ :

لَا وَاللَّهِ لَا أَخْبِرُكَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ مِمَّا أَسَرَّ بِهِ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فَانْصَرَفَ وَهُوَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ وَيَقُولُ :

لِمَنْ يَكُونُ هَذَا الْأَمْرُ إِذَا أَنَا نُحِيتُ عَنْهُ ؟ ...

أَتَخْرُجُ الْخِلَافَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ ...

وَاللَّهِ إِنِّي لَعَيْنُ^(٢) أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَإِذَا هُوَ يَجُودُ بِرُوحِهِ ، فَجَعَلْتُ

إِذَا أَخَذَتْهُ السَّكْرَةُ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ أَحْرَفُهُ نَحْوَ الْقِبْلَةِ ، فَكَانَ يَقُولُ لِي وَهُوَ
يَشْهَقُ :

لَمْ يَأْنِ^(٣) ذَلِكَ بَعْدُ يَا رَجَاءُ .

حَتَّى فَعَلْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ ؛ فَلَمَّا كَانَتِ الثَّلَاثَةُ قَالَ :

(١) هذا الأمر : أي الخلافة .

(٢) عين أولاد عبد الملك : سيّد أولاد عبد الملك وأفضلهم . (٣) لم يَأْنِ : لم يحن .

الآنَ يَا رَجَاءُ... إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا فَافْعَلْهُ...
أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.
فَحَرَفْتُهُ نَحْوَ الْقِبْلَةِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَسْلَمَ رُوحَهُ.

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ أَعْمَضْتُ عَيْنَيْهِ، وَسَجَّيْتُهِ^(١) بِقَطِيفَةٍ خَضِرَاءَ، وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ عَلَيْهِ، وَخَرَجْتُ.

فَأَرْسَلْتُ إِلَيَّ زَوْجَتَهُ تَسْأَلُنِي عَنْهُ، وَتَطْلُبُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ.
فَشَقَقْتُ عَنْهُ الْبَابَ وَقُلْتُ لِرَسُولِهَا:

انْظُرِي إِلَيْهِ، لَقَدْ نَامَ السَّاعَةَ بَعْدَ سَهَرٍ طَوِيلٍ، فَدَعُوهُ.
فَرَجَعَ فَأَخْبَرَهَا، فَقَبِلْتُ ذَلِكَ، وَآيَقَنْتُ أَنَّهُ نَائِمٌ.

ثُمَّ أَحْكَمْتُ إِغْلَاقَ الْبَابِ، وَأَجْلَسْتُ عِنْدَهُ حَارِسًا أَثِقُ بِهِ، وَأَوْصَيْتُهُ
أَلَّا يَتَرَخِزَ عَنْ مَكَانِهِ حَتَّى أَعُودَ، وَأَلَّا يُدْخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ أَحَدًا أَبَدًا كَائِنًا مَنْ
كَانَ...

وَمَضَيْتُ، فَلَقَيْنِي النَّاسُ وَقَالُوا: كَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟
فَقُلْتُ: لَمْ يَكُنْ مُنْذُ مَرَضَ أَسْكَنَ مِنْهُ الْآنَ وَلَا أَهْدَأَ.
فَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ.

ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَيَّ «كَعْبِ بْنِ حَامِزٍ» صَاحِبِ الشُّرْطَةِ؛ فَجَمَعَ أَهْلَ بَيْتِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا فِي مَسْجِدِ «دَابِقَ».
فَقُلْتُ: بَايَعُوا لِمَنْ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

(١) سَجَّيْتُهِ: غَطَيْتُهُ.

فَقَالُوا : قَدْ بَايَعْنَا مَرَّةً وَنُبَايِعُ أُخْرَى ۱۹ .

فَقُلْتُ : هَذَا أَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

بَايَعُوا عَلِيَّ مَا أَمَرَ بِهِ ...

وَلَمَنْ سَمِعَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَحْتُمِ .

فَبَايَعُوا رَجُلًا رَجُلًا .

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنِّي قَدْ أَحْكَمْتُ الْأَمْرَ ... قُلْتُ :

إِنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ مَاتَ ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

وَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى ذِكْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ نَادَى

هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ :

لَا نُبَايِعُهُ أَبَدًا ... فَقُلْتُ :

إِذَنْ - وَاللَّهِ - أَضْرِبْ عُنْقَكَ ...

قُمْ فَبَايِعْ .

فَقَامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ... فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عُمَرَ قَالَ :

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ ^(١) لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَى عُمَرَ دُونَهُ

وَدُونِ إِخْوَتِهِ مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ] .

وَقَالَ عُمَرُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [وَكَانَ يَسْتَرْجِعُ لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ

عَلَى كُرْهِ مِنْهُ] .

(١) يسترجع : يقول إنا لله وإنا إليه راجعون .

فَكَانَتْ بَيْعَةٌ جَدَّدَ اللَّهُ فِيهَا لِلْإِسْلَامِ شَبَابَهُ ، وَرَفَعَ لِلدِّينِ مَنَارَهُ .

* * *

فَطُوبَى^(١) لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...

فَقَدْ أَكْبَرَأَ ذِمَّتُهُ أَمَامَ اللَّهِ بِتَوَلِّيَّتِهِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ

وَهَنِيئًا لِيُوزِرَ الصَّدَقِ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ ...

فَقَدْ نَصَحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

وَجَزَى اللَّهُ الْبَطَانَةَ^(٢) الصَّالِحَةَ الْخَيْرَ ...

وَلَقَّاهَا الْأَجْرَ ...

فَبَسَنَّا^(٣) رَأْيَهَا يَهْتَدِي الْأَخْيَارُ الْمَحْظُوطُونَ الْمُؤَفَّقُونَ مِنْ ذَوِي
السُّلْطَانِ (*).

(١) طوبى : الجنة والسعادة .

(٢) بطانة الرجل : خاصته ومستشاروه .

(٣) بسنا رأياها : بنور رأياها .

(*) للاستزادة من أخبار رجاء بن حيوة انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٣٥/٥ - ٣٣٩ ، ٣٩٥ ، ٤٠٧ .

٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢١٣/٤ .

٣ - حلية الأولياء للأصفهاني : ١٧٠/٥ .

٤ - البيان والتبيين للجاحظ : ٣٩٧/١ و ١٠٧/٢ ، ٣٢٢ .

٥ - تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٦٥/٣ .

٦ - تاريخ الطبري لابن جرير الطبري : ٣٦٥/٦ - ٣٧٠ .

٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٤٣٠/١ و ٣٠١/٢ و ٣٠٣ - ٣١٦/٧ .

٨ - تاريخ خليفة بن خياط : ٣٥٧ .

٩ - العقد الفريد لابن عبد ربه : ٥٠/٢ ، ٨٢ ، ٢٣٥ و ٨٦/٣ ، ١٠٥ ، ٣٠٦ و ١٥٦/٤ ، ٢١٩ و ١٣٩/٥ ،

١٦٦ و ٩٦/٧ .

١٠ - تهذيب التهذيب : ٢٦٥/٣ .

عامر بن شراحيل

المعروف بالشعبي

« كَانَ الشَّعْبِيُّ وَاسِعَ الْعِلْمِ ، عَظِيمَ الْحِلْمِ ...
وَإِنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ ... »

[الْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ]

لَيْسَتْ سَنَوَاتٍ خَلَتْ مِنْ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَدَ لِلْمُسْلِمِينَ
مَوْلُودٌ نَحِيلُ الْجِسْمِ ، ضَيْلُ الْجِرْمِ ^(١) .

ذَلِكَ لِأَنَّ أَخَاهُ زَاخِمَهُ عَلَى رَحِمِ أُمِّهِ ؛ فَلَمْ يَدَعْ لَهُ مَجَالًا لِلتَّمُؤ ...
لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُزَاخِمَهُ لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ فِي مَجَالَاتِ الْعِلْمِ ،
وَالْحِلْمِ ، وَالْحِفْظِ ، وَالْفَهْمِ ، وَالْعَبْقَرِيَّةِ ^(٢) .

ذَلِكَ هُوَ عَامِرُ بْنُ شَرَاخِيلَ الْحِمَيْرِيِّ الْمَعْرُوفُ بِالشَّعْبِيِّ ...
نَابِغَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ .

* * *

وُلِدَ الشَّعْبِيُّ فِي « الْكُوفَةِ » وَفِيهَا نَشَأَ .

لَكِنَّ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ كَانَتْ مَهْزُومًا ^(٣) فَوَادِهِ وَمَطْمَحِ نَفْسِهِ ، فَكَانَ
يُؤْمِنُهَا ^(٤) مِنْ حِينَ لَاخِرَ لِيَلْقَى صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلِيَأْخُذَ عَنْهُمْ ، كَمَا
كَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ يُؤْمِنُونَ « الْكُوفَةَ » لِيَتَّخِذُوا مِنْهَا مَنَاطِقًا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
أَوْ دَارًا لِإِقَامَتِهِمْ .

(٣) مَهْزُومٌ : مُسْتَهْزَأٌ : مُسْتَهْزَأٌ نَفْسُهُ .

(٤) يُؤْمِنُهَا : يَقْصِدُهَا وَيَعِضِي إِلَيْهَا .

(١) ضَيْلُ الْجِرْمِ : صَغِيرُ الْجَسَدِ .

(٢) الْعَبْقَرِيَّةُ : قُوَّةُ الْإِبْدَاعِ .

فَأُتِيحَ^(١) لَهُ أَنْ يُلْقَى نَحْواً مِنْ خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَأَنْ يَزُورَ عَنْ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ جَلَّتِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ : عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ...

وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَأَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ...
وَالثُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ ...
وَعَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ .

* * *

وَقَدْ كَانَ الشَّعْبِيُّ فَتًى مَتَوَقِّدَ الذِّكَا^(٢) ، يَقِظَ الْفُؤَادِ^(٣) ، مُرْهَفَ^(٤) الذَّهْنِ ، دَقِيقَ الْفَهْمِ ، آيَةً فِي قُوَّةِ الْحَافِظَةِ وَالذَّاكِرَةِ ...
فَقَدْ رُوي عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ :

مَا كَتَبْتُ سُودَاءَ فِي بَيْضَاءَ^(٥) قَطُّ ، وَلَا حَدَّثَنِي رَجُلٌ بِحَدِيثٍ إِلَّا حَفِظْتُهُ ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْ أَمْرِي كَلَاماً ثُمَّ أَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ .

وَقَدْ كَانَ الْفَتَى مُوَلَعاً بِالْعِلْمِ ، مَشْغُوفاً^(٦) بِالْمَعْرِفَةِ ، يَنْدُلُ فِي سَبِيلِهِمَا النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ ، وَيَسْتَسْهِلُ مِنْ أَجْلِهِمَا الْمَصَاعِبَ ... إِذْ كَانَ يَقُولُ :

لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَافَرَ مِنْ أَقْصَى الشَّامِ إِلَى أَقْصَى الْيَمَنِ ؛ فَحَفِظَ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَنْفَعُهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ مِنْ عُمْرِهِ ، لَرَأَيْتُ أَنَّ سَفَرَهُ لَمْ يَضِعْ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ :

أَقَلُّ شَيْءٍ تَعَلَّمْتُهُ الشُّعْرُ ...

(١) أُتِيحَ لَهُ : يُسَّرَ لَهُ .

(٢) متوقد الذكاء : مشتعل الذكاء .

(٣) يقظ الفؤاد : ما سجلت كلاماً في ورق .

(٤) مرهف الذهن : متنبه الفؤاد ، قطن القلب .

(٥) ما كتبت سوداء في بيضاء : محباً للمعرفة مولعاً بها .

وَلَوْ شِئْتُ لَأَنْشَدْتُكُمْ مِنْهُ شَهْرًا دُونَ أَنْ أُعِيدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْشَدْتُهُ .

* * *

وَكَانَتْ تُعَقَّدُ لَهُ حَلَقَةٌ فِي جَامِعِ « الْكُوفَةِ » ، فَيَلْتَفُّ النَّاسُ حَوْلَهُ زُمَرًا زُمَرًا ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْيَاءُ يَزُورُونَ وَيَعْدُونَ بَيْنَ أَظْهَرِ النَّاسِ .

بَلْ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ يَقْضُ عَلَى النَّاسِ أَخْبَارَ الْمَغَازِي (١) بِخَفَايَاهَا وَدَقَائِقِهَا ، فَأَرْهَفَ إِلَيْهِ سَمْعَهُ وَقَالَ :

لَقَدْ شَهِدْتُ بَعْضَ مَا يَقْضُهُ بَعْثِي وَسَمِعْتُهُ بِأُذُنِي ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ أَرْوَى (٢) لَهُ مِنِّي .

وَشَوَاهِدُ سَعَةِ عِلْمِ الشَّعْبِيِّ وَحُضُورِ ذَهْنِهِ ، غَزِيرَةٌ وَفِيرَةٌ .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

أَتَانِي رَجُلَانِ يَتَفَاخَرَانِ ، أَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي « عَامِرٍ » ، وَالْآخَرُ مِنْ بَنِي « أَسَدٍ » ، وَقَدْ غَلَبَ الْعَامِرِيُّ صَاحِبَهُ وَعَلَا عَلَيْهِ ... وَأَخَذَهُ مِنْ ثَوْبِهِ وَجَعَلَ يَجْرُهُ نَحْوِي جَرًّا ، وَالْأَسَدِيُّ مَخْذُولٌ أَمَامَهُ يَقُولُ لَهُ :

دَعْنِي دَعْنِي .

وَالْعَامِرِيُّ يَقُولُ لَهُ :

وَاللَّهِ لَا أَدْعُكَ حَتَّى يَحْكُمَ الشَّعْبِيُّ لِي عَلَيْكَ ...

فَالْتَفْتُ إِلَى الْعَامِرِيِّ وَقُلْتُ لَهُ :

دَعْ صَاحِبَكَ حَتَّى أَحْكُمَ بَيْنَكُمَا .

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى الْأَسَدِيِّ وَقُلْتُ :

(٢) أَرَوَى مِنِّي : أَحْسَنُ رِوَايَةٍ مِنِّي .

(١) الْمَغَازِي : الْغَزَوَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ .

مَا لِي أَرَاكَ تَتَخَاذُلُ لَهُ (١) ؟ .

وَلَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ مَفَاخِرُ سِتٍّ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ :

أَوَّلُهَا : أَنَّهُ كَانَتْ مِنْكُمْ امْرَأَةٌ خَطَبَهَا سَيِّدُ الْخَلْقِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ
فَزَوَّجَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ...

وَكَانَ السَّفِيرُ بَيْنَهُمَا « جِبْرِيلُ » عَلَيْهِ السَّلَامُ ...

إِنَّهَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ .

فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَأْتَرَةُ (٢) لِقَوْمِكَ ، وَلَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرِكُمْ .

وَالثَّانِيَةُ : أَنَّهُ كَانَ مِنْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ ، هُوَ
« عُكَّاشَةُ بْنُ مَحْصَنِ » (٣) .

وَكَانَتْ هَذِهِ لَكُمْ يَا بَنِي « أَسَدٍ » وَلَمْ تَكُنْ لِسِوَاكُمْ مِنَ النَّاسِ .

وَالثَّلَاثَةُ : أَنَّ أَوَّلَ لِيَوَاءٍ عُقِدَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ لِرَجُلٍ مِنْكُمْ ، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
جَحْشٍ (٤) .

وَالرَّابِعَةُ : أَنَّ أَوَّلَ مَغْنَمٍ قُسِمَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ مَغْنَمَهُ .

وَالْخَامِسَةُ : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ (٥) كَانَ مِنْكُمْ ؛ فَقَدْ جَاءَ
صَاحِبُكُمْ أَبُو سَيْنَانَ بْنِ وَهَبٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، ابْسُطْ يَدَكَ أَبَايَعُكَ .

(١) تتخاذل له : تضئف أمانه وتُفشل .

(٢) المأتره : المكزمة المتوارثة ، والفعل الحميد .

(٣) عكاشة بن محصن : صحابي شهد المشاهد كلها ، واستشهد في حرب الردة .

(٤) عبد الله بن جحش : صحابي من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ ... انظره في كتاب « صور من

حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٥) بيعة الرضوان : كانت في آخر سنة سِتٍّ للهجرة .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (عَلَى مَاذَا؟) .

قَالَ : عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَمَا فِي نَفْسِي؟!) .

قَالَ : فَتَحْ ، أَوْ شَهَادَةٌ ؟ .

قَالَ : (نَعَمْ) ، فَبَايَعَهُ ...

فَجَعَلَ النَّاسُ يُبَايِعُونَ عَلَى بَيْعَةِ أَبِي سِنَانٍ .

وَالسَّادِسَةُ : أَنَّ قَوْمَكَ بَنِي « أَسَدٍ » كَانُوا سُبُعَ الْمُهَاجِرِينَ يَوْمَ « بَدْرٍ » .

فَبِهِتَ الْعَامِرِيُّ وَسَكَتَ .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الشُّعْبِيَّ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ الضَّعِيفَ الْمَغْلُوبَ عَلَى الْقَوِيِّ

الغَالِبِ .

وَلَوْ كَانَ الْعَامِرِيُّ هُوَ الْمَخْذُولُ ؛ لَذَكَرَ لَهُ مِنْ مَآثِرِ قَوْمِهِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ

خُبْرًا .

* * *

وَلَمَّا آلَتْ (١) الْخِلَافَةُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، كَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ

عَامِلُهُ (٢) عَلَى « الْعِرَاقِ » :

أَنِ ابْعَثْ إِلَيَّ رَجُلًا يَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا ؛ أَتَّخِذْهُ سَمِيرًا وَجَلِيسًا ...

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِالشُّعْبِيِّ ، فَجَعَلَهُ مِنْ خَاصَّتِهِ (٣) ، وَأَخَذَ يَفْزَعُ إِلَى عِلْمِهِ فِي

(١) آلت الخِلافة إلى فلان : صارت إليه .

(٢) عامله : واليه .

(٣) خاصة الخليفة : المقربون إليه .

المُعْضَلَاتِ^(١)، وَيُعَوَّلُ عَلَى رَأْيِهِ^(٢) فِي الْمُلَمَّاتِ، وَيَبْعَثُهُ سَفِيرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُلُوكِ.

* * *

أَرْسَلَهُ مَرَّةً فِي مُهِمَّةٍ إِلَى «جِسْتِنْيَان» مَلِكِ «الرُّومِ» ... فَلَمَّا وَفَدَ عَلَيْهِ وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ، أَخَذَ بِذَكَائِهِ^(٣)، وَدْهَشَ مِنْ دَهَائِهِ، وَأَعْجَبَ بِسَعَةِ اطَّلَاعِهِ وَقُوَّةِ عَارِضَتِهِ^(٤).

فَاسْتَبْقَاهُ عِنْدَهُ أَيَّامًا كَثِيرَةً عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ مَعَ السُّفَرَاءِ.

فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ بِأَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْعُودَةِ إِلَى «دِمَشَقَ» سَأَلَهُ الْمَلِكُ الرُّومِيُّ :
أَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمُلْكِ أَنْتَ ؟

فَقَالَ : لَا ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَلَمَّا أْذِنَ لَهُ بِالرَّحِيلِ قَالَ لَهُ :

إِذَا رَجَعْتَ إِلَى صَاحِبِكَ [يَعْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ] وَأَبْلَغْتَهُ جَمِيعَ مَا يُرِيدُ مَعْرِفَتَهُ ، فَأَذْفَعْ إِلَيْهِ هَذِهِ الرُّقْعَةَ^(٥).

فَلَمَّا عَادَ الشَّعْبِيُّ إِلَى «دِمَشَقَ» بَادَرَ إِلَى لِقَاءِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا رَأَاهُ وَسَمِعَهُ ، وَأَجَابَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ .

وَلَمَّا نَهَضَ لِيَنْصَرِفَ قَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ مَلِكَ «الرُّومِ» حَمَّلَنِي لَكَ هَذِهِ الرُّقْعَةَ ... وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَانْصَرَفَ .

(١) يَفْزَعُ إِلَى عِلْمِهِ فِي الْمَعْضَلَاتِ : يُلْجَأُ إِلَى عِلْمِهِ فِي الْأُمُورِ الصَّعْبَةِ .

(٢) يُعَوَّلُ عَلَى رَأْيِهِ : يَعْتَمِدُ عَلَى فِكْرِهِ .

(٤) قُوَّةُ عَارِضَتِهِ : قُوَّةُ بَيَانِهِ وَسُرْعَةُ بَدِيعَتِهِ .

(٣) أَخَذَ بِذَكَائِهِ : سُحِرَ بِفِطْنَتِهِ وَتَوَقَّدَ ذَهْنُهُ .

(٥) الرُّقْعَةُ : الْخَطَابُ وَالرَّسَالَةُ .

فَلَمَّا قَرَأَهَا عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ لِغُلَامَيْهِ : رُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ فَرَدُّوهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِلشَّعْبِيِّ :

أَعْلِمْتَ مَا فِي هَذِهِ الرُّقْعَةِ ؟ .

فَقَالَ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لَقَدْ كَتَبَ إِلَيَّ مَلِكُ « الرُّومِ » يَقُولُ :

عَجِبْتُ لِلْعَرَبِ كَيْفَ مَلَكَتْ عَلَيْهَا رَجُلًا غَيْرَ هَذَا الْفَتَى ؟ .

فَبَادَرَهُ ^(١) الشَّعْبِيُّ قَائِلًا :

إِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّهُ لَمْ يَرَكَ ، وَلَوْ رَأَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَا قَالَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفَتَدْرِي لِمَ كَتَبَ إِلَيَّ مَلِكُ « الرُّومِ » بِهَذَا ؟ .

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ :

إِنَّمَا كَتَبَ إِلَيَّ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حَسَدَنِي عَلَيْكَ ، فَأَرَادَ أَنْ يُغْرِبَنِي ^(٢) بِقَتْلِكَ
وَالْتَحُلُصِ مِنْكَ .

فَبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكُ « الرُّومِ » فَقَالَ : لِلَّهِ أَبُوهُ ...

وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ ...

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ الشَّعْبِيُّ فِي الْعِلْمِ مَنَزِلَةً جَعَلَتْهُ رَابِعَ ثَلَاثَةِ فِي عَصْرِهِ .

فَقَدْ كَانَ الزُّهْرِيُّ يَقُولُ : الْعُلَمَاءُ أَرْبَعَةٌ ...

(١) بادره : عاجله وأسرع إليه .

(٢) يغربني : يحضني .

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ^(١) فِي الْمَدِينَةِ .

وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ فِي الْكُوفَةِ .

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ^(٢) فِي الْبَصْرَةِ .

وَمَكْحُولٌ فِي الشَّامِ .

لَكِنَّ الشَّعْبِيَّ كَانَ - لِتَوَاضُعِهِ - يَخْجَلُ إِذَا خَلَعَ ^(٣) عَلَيْهِ أَحَدٌ لَقَبَ
« الْعَالِمِ » ... فَقَدْ خَاطَبَهُ أَحَدُهُمْ قَائِلًا :

أَجْنَبِي أَتَيْهَا الْفَقِيهُ الْعَالِمُ .

فَقَالَ : وَيَحَكَ ^(٤) ...

لَا تُطْرِنَا ^(٥) بِمَا لَيْسَ فِينَا ...

الْفَقِيهُ مِنْ تَوَرَّعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَالْعَالِمُ مِنْ خَشِيَ اللَّهَ ، وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ
ذَلِكَ ؟ !

وَلَقَدْ سَأَلَهُ آخَرُ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، فَأَجَابَ :

قَالَ فِيهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَذًا ...

وَقَالَ فِيهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَذًا ...

فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ : وَأَنْتَ مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا عَمْرٍو ؟ .

فَابْتَسَمَ - فِي اسْتِحْيَاءٍ - وَقَالَ :

(١) سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : انظره ص ١٩٧ .

(٢) الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : انظره ص ٩٥ .

(٣) خَلَعَ عَلَيْهِ : أَلْقَى عَلَيْهِ .

(٤) وَيَحَكَ : كلمة ترجم وتوَجَّع ، والمَعْنَى : أترحم عليك وأتوَجَّع لك .

(٥) لَا تُطْرِنَا : لَا تبالغ في مدحنا وإكبارنا .

وَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتَ مَقَالَۀَ عُمَرَ وَعَلِيٍّ .

* * *

وَقَدْ كَانَ الشَّعْبِيُّ يَتَحَلَّى بِكَرِيمِ الشَّمَائِلِ ^(١) وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ ^(٢) ...
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الْمِرَاءَ ^(٣) وَيَتَصَاوَنُ ^(٤) مِنَ الْخَوْضِ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ .
فَلَقَدْ كَلَّمَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ :

يَا أَبَا عَمْرٍو ...

فَقَالَ : لَبَّيْكَ .

فَقَالَ : مَا تَقُولُ فِيمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ أَمْرِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ؟

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : أَيُّ رَجُلَيْنِ تَغْنِي ؟

فَقَالَ : عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ .

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : إِنِّي - وَاللَّهِ - لَفِي غِنَى عَنْ أَنْ أُجِئَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَصِيماً ^(٥)
لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ أَوْ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

* * *

وَلَقَدْ جَمَعَ الشَّعْبِيُّ إِلَى الْعِلْمِ الْحِلْمَ .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا سَتَمَهُ أَقْبَحَ الشُّتَمِ ، وَأَسَمَعَهُ أَقْدَعَ ^(٦) الْكَلَامِ ، فَلَمْ يَزِدْ
عَلَى أَنْ قَالَ لَهُ :

إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَزْمِينِي بِهِ عَفَرَ اللَّهُ لِي ...

(١) تَصَاوَنَ مِنَ الْأَمْرِ : حَفِظَ نَفْسَهُ مِنْهُ .

(٥) خَصِيماً : مُخَاصِماً .

(٦) أَقْدَعَ الْكَلَامِ : أَفْحَشَ الْكَلَامَ .

(١) كَرِيمِ الشَّمَائِلِ : سَامِيِ الطَّبَاعِ .

(٢) جَلِيلِ الْخَصَائِلِ : عَالِيِ الصِّفَاتِ .

(٣) الْمِرَاءُ : الْجِدَلُ .

وَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ .

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الشَّعْبِيُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَجْزَالَةِ^(١) فَضْلِهِ يَأْنِفُ أَنْ يَأْخُذَ
الْمَعْرِفَةَ ، أَوْ يَتَلَقَّى الْحِكْمَةَ عَنْ أَهْوَنِ النَّاسِ شَأْنًا ...

فَلَقَدْ دَابَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى حُضُورِ مَجَالِسِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُلَوِّدُ^(٢) بِالصَّنَمِ
دَائِمًا ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ :

أَلَا تَتَكَلَّمُ ؟ ! .

فَقَالَ : أَسْكُتُ فَأَسْلَمَ ، وَأَسْمَعُ فَأَعْلَمُ ...

وَإِنَّ حَظَّ الْمَرْءِ مِنْ أَذْنِهِ يَعُودُ عَلَيْهِ ...

أَمَّا حَظُّهُ مِنْ لِسَانِهِ فَيَعُودُ عَلَى غَيْرِهِ ...

فَظَلَّ الشَّعْبِيُّ يُرَدِّدُ كَلِمَةَ الْأَعْرَابِيِّ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ .

* * *

وَلَقَدْ أُوتِيَ الشَّعْبِيُّ مِنْ بَلَاغَةِ الْكَلَامِ ، وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ فِيهِ مَا لَمْ يُؤْتَهُ
إِلَّا الْقَلَّةُ النَّادِرَةُ مِنَ الْفُصَحَاءِ الْأَبْنَاءِ^(٣) ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَلَّمَ أَمِيرَ « الْعِرَاقَيْنِ » عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ فِي جَمَاعَةٍ
حَبَسَهُمْ فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

إِنْ كُنْتُ حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ ؛ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ...

وَإِنْ كُنْتُ حَبَسْتَهُمْ بِالْحَقِّ ؛ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ .

(١) جْزَالَة فضله : سمو فضله ، وعظمة مقامة .

(٢) يلود بالصنم : يقتصم به .

(٣) الأبناء : الذين يبنون ما يقولون بأوضح ما يكون .

فَأَعْجَبَ بِقَوْلِهِ ، وَأَطْلَقَهُمْ كَرَامَةً لَهُ .

* * *

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَمَالِ مُرُوءَةِ الشَّعْبِيِّ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ ، فَقَدْ كَانَ عَذَبَ الرُّوحِ حُلُوَ الْمُفَاكَهَةِ ، لَا يُفَوِّتُ النُّكْتَةَ إِذَا لَاحَتْ لَهُ .

فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ :
أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ ؟ .

فَقَالَ : هَذِهِ ، وَأَشَارَ إِلَى امْرَأَتِهِ .
وَسَأَلَهُ آخَرُ :

مَاذَا كَانَتْ تُسَمَّى زَوْجَةً لِإِئْلَاسٍ ؟ .
فَقَالَ : ذَلِكَ عُزْسٌ لَمْ نَشْهَدْهُ .

وَلَعَلَّ خَيْرَ مَا يُصَوِّرُ خِلَالَ الشَّعْبِيِّ مَا حَكَاهُ عَنْ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ :
مَا حَلَلْتُ حَبَوْتِي ^(١) إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يَنْظُرُ إِلَيْهِ النَّاسُ ...
وَلَا ضَرَبْتُ غُلَامًا لِي قَطُّ ...
وَمَا مَاتَ ذُو قَرَابَةٍ لِي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، إِلَّا قَضَيْتُهُ عَنْهُ .

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ عُمِّرَ الشَّعْبِيُّ حَتَّى نَيْفٍ ^(٢) عَلَى الثَّمَانِينَ .
فَلَمَّا لَبَّى نِدَاءَ رَبِّهِ ، وَنُعِيَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ :
« يَوْحُمُهُ اللَّهُ فَلَقَدْ كَانَ وَاسِعَ الْعِلْمِ ... »

(١) مَا حَلَلْتُ حَبَوْتِي : مَا قَمْتُ مِنْ مَكَانِي .

(٢) نَيْفٌ : زَادَ .

عَظِيمَ الْجَلْمِ ...
وَإِنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ «(*)» .

-
- (*) للاستزادة من أخبار الشَّعْبِيِّ انظر:
- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٤٧/٦.
 - ٢ - تاريخ بغداد: ٢٢٧/١٢.
 - ٣ - تهذيب التهذيب: ٦٥/٥.
 - ٤ - حلية الأولياء: ٣١٠/٤.
 - ٥ - صفة الصفوة: ٧٥/٣.
 - ٦ - وفيات الأعيان: ١٢/٣.
 - ٧ - شرح المقامات للشريشي: ٢٤٥/٢.
 - ٨ - المعارف لابن قتيبة: ٤٤٩.
 - ٩ - التهذيب لابن عساكر: ١٣٨/٧.
 - ١٠ - سمط اللآلئ: ٧٥١.

سَلَامَةُ بْنُ دِينَارٍ

المَعْرُوفُ بِأَبِي حَازِمٍ الْأَعْرَجِ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا الْحِكْمَةَ أَقْرَبُ إِلَيَّ فَمِنْهُ مِنْ أَبِي حَازِمٍ »

[عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ]

فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالتَّسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ، شَدَّ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الرَّحَالَ إِلَى الدِّيَارِ الْمُقَدَّسَةِ ؛ مُلَبِّيًا نِدَاءَ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... وَمَضَتْ رَكَائِبُهُ ^(١) تَحْتَ الْخُطَى ^(٢) مِنْ « دِمَشْقَ » عَاصِمَةِ « الْأُمَوِيِّينَ » إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

فَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ شَوْقٌ إِلَى الصَّلَاةِ فِي الرُّوَضَةِ الْمُطَهَّرَةِ ... وَتَوَقَّ ^(٣) إِلَى السَّلَامِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . وَقَدْ حَفَلَ مَوْكِبُ الْخَلِيفَةِ بِالْقُرَاءِ ، وَالْمُحَدِّثِينَ ، وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْعُلَمَاءِ ، وَالْأُمَرَاءِ ، وَالْقَادَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، وَحَطَّ رِحَالُهُ فِيهَا ، أَقْبَلَ وَجْهُهُ النَّاسَ وَذَوُو الْأَقْدَارِ ^(٤) لِلْسَّلَامِ عَلَيْهِ وَالتَّرْجِيْبِ بِهِ .

لَكِنَّ سَلَمَةَ بْنَ دِينَارٍ قَاضِيَ الْمَدِينَةِ وَعَالِمَهَا الْحُجَّةَ ^(٥) ، وَإِمَامَهَا الثَّقَةَ ^(٦) ؛ لَمْ يَكُنْ فِي عِدَادِ مَنْ زَارُوا الْخَلِيفَةَ مُرَحِّبِينَ مُسْلِمِينَ .

* * *

(٤) ذَوُو الْأَقْدَارِ : أَصْحَابُ الْحَرَمَةِ وَالْمَكَانَةِ .

(٥) الْحُجَّةُ : الْعَالِمُ الَّذِي يُخْتَلَجُ بِعِلْمِهِ .

(٦) الثَّقَةُ : الَّذِي يَتَّقَى النَّاسَ بِرَأْيِهِ وَفِكْرِهِ .

(١) رَكَائِبُهُ : إِبِلُهُ .

(٢) تَحْتَ الْخُطَى : تَمْضِي مَسْرَعَةً .

(٣) تَوَقَّ : شَوْقٌ .

وَلَمَّا فَرَغَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْمُرَحِّبِينَ بِهِ ، قَالَ لِبَعْضِ
جُلَسَائِهِ :

إِنَّ الثُّقُوسَ لَتَصْدَأُ كَمَا تَصْدَأُ الْمَعَادِينُ إِذَا لَمْ تَجِدْ مَنْ يُذَكِّرُهَا الْفَيْئَةَ بَعْدَ
الْفَيْئَةِ^(١) ، وَيَجْلُو عَنْهَا صَدَأُهَا .

فَقَالُوا : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : أَمَا فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ أَذْرَكَ طَائِفَةً مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
يُذَكِّرُنَا^(٢) ؟ .

فَقَالُوا : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

هَـا هُنَا أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ .

فَقَالَ : وَمَنْ أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ ؟ .

فَقَالُوا : سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ عَالِمُ الْمَدِينَةِ وَإِمَامُهَا ، وَأَحَدُ التَّابِعِينَ الَّذِينَ أَذْرَكُوا
عَدَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ .

فَقَالَ : ادْعُوهُ لَنَا ، وَتَلَطَّفُوا فِي دَعْوَتِهِ .

فَذَهَبُوا إِلَيْهِ وَدَعَوْهُ .

فَلَمَّا أَتَاهُ ... رَحَّبَ بِهِ وَأَذْنَى مَجْلِسَهُ^(٣) وَقَالَ لَهُ مُعَاتِبًا :

مَا هَذَا الْجَفَاءُ^(٤) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : وَأَيُّ جَفَاءٍ رَأَيْتَ مِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : زَارَنِي وَجُوهُ النَّاسِ وَلَمْ تَزُرْنِي !! .

(٣) أَذْنَى مَجْلِسُهُ : قَرَّبَ مَجْلِسَهُ .

(٤) الْجَفَاءُ : الْإِعْرَاضُ .

(١) الْفَيْئَةُ بَعْدَ الْفَيْئَةِ : مِنْ حِينَ إِلَى آخَرِ .

(٢) يُذَكِّرُنَا : يَعْطِلُنَا .

فَقَالَ : إِنَّمَا يَكُونُ الْجَفَاءُ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ ...
وَأَنْتَ مَا عَرَفْتَنِي قَبْلَ الْيَوْمِ ، وَلَا أَنَا رَأَيْتُكَ ، فَأَيُّ جَفَاءٍ وَقَعَ مِنِّي ؟ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ لِجُلَسَائِهِ : أَصَابَ الشَّيْخُ فِي اعْتِدَارِهِ ، وَأَخْطَأَ الْخَلِيفَةُ فِي
عَثْبِهِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَبِي حَارِثٍ وَقَالَ :
إِنَّ فِي النَّفْسِ شُؤْنَا^(١) أَحَبُّتُ أَنْ أُفْضِيَ^(٢) بِهَا إِلَيْكَ يَا أَبَا حَارِثٍ .
فَقَالَ : هَاتِيهَا - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : يَا أَبَا حَارِثٍ ، مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ !
فَقَالَ : لِأَنَّا عَمَرْنَا دُنْيَانَا ، وَخَرَبْنَا آخِرَتَنَا ...
فَنَكْرَهُ الْخُرُوجَ مِنَ الْعَمَارِ إِلَى الْخَرَابِ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : صَدَقْتَ ... ثُمَّ أَرَدَفَ قَائِلًا :
يَا أَبَا حَارِثٍ - لَيْتَ شِعْرِي^(٣) - مَا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ غَدًا ؟ .
فَقَالَ : اغْرِضْ عَمَلَكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ تَجِدْ ذَلِكَ .
قَالَ : وَأَيْنَ أَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ .
قَالَ : تَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ - عَلَتْ كَلِمَتُهُ - :
﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾^(٤) .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : إِذَنْ فَأَيْنَ رَحْمَةُ اللَّهِ ؟ .

(١) شغونا : أموراً هائلة .

(٢) أفضي بها : أغلبنها .

(٣) ليت شعري : ليتني أعلم .

(٤) سورة الانفطار : ١٣ - ١٤ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١) .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : لَيْتَ شِعْرِي ، كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ غَدًا ؟ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : أَمَّا الْمُحْسِنُ ؛ فَكَالْغَائِبِ يَقْدَمُ عَلَى أَهْلِهِ ...

وَأَمَّا الْمُسِيءُ ؛ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ ^(٢) يُسَاقُ إِلَى مَوْلَاهُ سَوْقًا .

فَبَكَى الْخَلِيفَةُ حَتَّى عَلَا نَحِيْبُهُ ، وَاشْتَدَّ بُكَاءُهُ .

ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا حَازِمٍ ، كَيْفَ لَنَا أَنْ نَصْلُحَ ؟ .

فَقَالَ : تَدْعُونَ عَنْكُمْ الصِّلَفَ ^(٣) ، وَتَتَحَلَّوْنَ بِالْمُرُوءَةِ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَهَذَا الْمَالُ ، مَا السَّبِيلُ إِلَى تَقْوَى اللَّهِ فِيهِ ؟ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ :

إِذَا أَخَذْتُمُوهُ بِحَقِّهِ ...

وَوَضَعْتُمُوهُ فِي أَهْلِهِ ...

وَقَسَمْتُمُوهُ بِالسُّوِيَّةِ ...

وَعَدَلْتُمْ فِيهِ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : يَا أَبَا حَازِمٍ ، أَخْبِرْنِي مَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ ؟ .

فَقَالَ : أُولُو الْمُرُوءَةِ ^(٤) وَالثَّقَلَى .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَمَا أَعْدَلُ الْقَوْلِ يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : كَلِمَةٌ حَقٌّ يَقُولُهَا الْمَرْءُ عِنْدَ مَنْ يَخَافُهُ ، وَعِنْدَ مَنْ يَرْجُوهُ .

(١) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٢) الآبِقُ : الهارب .

(٣) الصلف : التكبر .

(٤) المروءة : النخوة والالتزام .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: فَمَا أَسْرَعُ الدُّعَاءِ إِجَابَةً يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : دُعَاءُ الْمُحْسِنِ لِلْمُحْسِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: وَمَا أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ ؟ .

فَقَالَ : جُهْدُ الْمُقِلِّ^(١) يَضَعُهُ فِي يَدِ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّبِعَهُ مَنْ وَلَا أَدَى .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: مَنْ أَكْبَسَ النَّاسَ^(٢) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ ظَفِرَ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَمِلَ بِهَا ، ثُمَّ دَلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: فَمَنْ أَحْمَقُ النَّاسِ^(٣) ؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ انْسَاقَ مَعَ هَوَى صَاحِبِهِ ، وَصَاحِبُهُ ظَالِمٌ ، فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: هَلْ لَكَ أَنْ تَصْحَبَنَا - يَا أَبَا حَازِمٍ - فَتُصِيبَ مِنَّا وَتُصِيبَ مِنْكَ^(٤) ؟ .

فَقَالَ : كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: وَلِمَ ؟ ! .

فَقَالَ : أَحْشَى أَنْ أُرْكَنَ^(٥) إِلَيْكُمْ قَلِيلًا ؛ فَيُذَيِّقَنِي اللَّهُ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ^(٦) .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: ارْزُقْ إِلَيْنَا حَاجَتَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ .

(١) المقل : القليل المال .

(٢) أكبس الناس : أكثر الناس فطنة وتعقلاً .

(٣) أحقق الناس : أفسد الناس فكراً وعقلاً .

(٤) تصيب منا وتصيب منك : تأخذ منا وتعطينا .

(٥) أركن إليكم : أعتمد عليكم .

(٦) ضعف الحياة وضعف الممات : عناء الدنيا ،

وعذاب الآخرة .

فَسَكَتَ وَلَمْ يُجِبْ ...

فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : اذْفَعْ إِلَيْنَا حَاجَتَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ نَقْضُهَا لَكَ مَهْمَا كَانَتْ .

فَقَالَ : حَاجَتِي أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ ، وَتُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ ...

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي ^(١) يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : مَالِي مِنْ حَاجَةٍ سِوَاهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ادْعُ لِي يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ سَلِيمَانُ مِنْ أَوْلِيَائِكَ ؛ فَيَسِّرْهُ إِلَيَّ خَيْرِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ ...

وَإِنْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ؛ فَأَصْلِحْهُ وَاهْدِهِ إِلَيَّ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ :

بِئْسَ ^(٢) مَا قُلْتَ مُنْذُ دَخَلْتَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَلَقَدْ جَعَلْتَ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَآذَيْنَهُ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : بَلْ بِئْسَ مَا قُلْتَ أَنْتَ ، فَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ

الْمِيثَاقَ ^(٣) بِأَنْ يَقُولُوا كَلِمَةَ الْحَقِّ ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿لَتَبْلِيُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ^(٤) .

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى الْخَلِيفَةِ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَنَا مِنَ الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ ظَلُّوا فِي خَيْرٍ

وَعَافِيَةٍ مَا دَامَ أُمَرَاؤُهُمْ يَأْتُونَ عُلَمَاءَهُمْ رَعْبَةً فِيمَا عِنْدَهُمْ ...

(١) من شأني : من فعلي .

(٢) بئس ما قلت : ما أسوأ ما قلت .

(٣) الميثاق : العهد .

(٤) سورة آل عمران : ١٨٧ .

ثُمَّ وَجَدَ قَوْمٌ مِنْ أَرَاذِلِ^(١) النَّاسِ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَاتَّوَا بِهِ الْأُمَرَاءَ ؛ يُرِيدُونَ أَنْ يَنَالُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ...

فَاسْتَعْنَتِ الْأُمَرَاءُ عَنِ الْعُلَمَاءِ ...

فَتَعَسَوْا وَتُكْسُوا^(٢)، وَسَقَطُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ زَهَدُوا فِيمَا عِنْدَ الْأُمَرَاءِ ؛ لَرَغِبَ الْأُمَرَاءُ فِي عِلْمِهِمْ ...

وَلَكِنَّهُمْ رَغِبُوا فِيمَا عِنْدَ الْأُمَرَاءِ ؛ فَزَهَدُوا فِيهِمْ ...

وَهَانُوا عَلَيْهِمْ^(٣) .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : صَدَقْتَ ...

زِدْنِي مِنْ مَوْعِظَتِكَ يَا أَبَا حَازِمٍ ؛ فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا الْحِكْمَةَ أَقْرَبَ إِلَيَّ فَمِنْهُ مِنْكَ .

فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْتِجَابَةِ^(٤) ؛ فَقَدْ قُلْتَ لَكَ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ ...

وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا ؛ فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَرْمِي عَنْ قَوْسٍ لَيْسَ لَهَا وَتَرٌ^(٥) ...

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : عَزَمْتُ^(٦) عَلَيْكَ أَنْ تُوصِيَتِي يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ : نَعَمْ ... سَوْفَ أُوصِيكَ وَأُوجِزُ ...

عَظُمَ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ وَنَزَّهَهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ ...

وَأَنْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ .

(١) أَرَاذِلُ النَّاسِ : سَفَهَاءُ النَّاسِ .

(٢) تُكْسُوا : عَجَزُوا .

(٣) هَانُوا عَلَيْهِمْ : اسْتَخَفُّوهُمْ .

(٤) الْإِسْتِجَابَةُ : قَبُولُ الطَّلَبِ وَتَنْفِيزُهُ .

(٥) الْوَتَرُ : شُرُوعَةُ الْقَوْسِ .

(٦) عَزَمْتُ عَلَيْكَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ .

ثُمَّ سَلَّمَ وَأَنْصَرَفَ .

فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ عَالِمٍ نَاصِحٍ .

* * *

مَا كَادَ أَبُو حَازِمٍ يَبْلُغُ بَيْتَهُ ، حَتَّى وَجَدَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِصُرَّةٍ
مُلِئَتْ دَنَانِيرَ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

أَنْفِقْهَا ، وَلَكَ مِثْلُهَا كَثِيرٌ عِنْدِي .

فَرَدَّهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُكَ
إِيَّايَ هَزْلاً ، وَرَدِّي عَلَيْكَ بَاطِلاً .

فَوَاللَّهِ مَا أَرْضَى ذَلِكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لَكَ ...

فَكَيْفَ أَرْضَاهُ لِنَفْسِي ؟ !

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّنَانِيرُ لِقَاءَ حَدِيثِي الَّذِي حَدَّثْتُكَ بِهِ ،
فَالْمِئْتَةُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ فِي حَالِ الْاضْطِرَارِ أَحَلُّ مِنْهَا ...

وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لِي فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، فَهَلْ سَوَّيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ
جَمِيعاً فِي هَذَا الْحَقِّ ؟ !

* * *

وَلَقَدْ كَانَ مَنْزِلُ سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ مُورِداً عَذْباً^(١) لِطُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَرُغَابِ
الصَّلَاحِ ...

لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ إِخْوَانِهِ وَطُلَّابِهِ ...

فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَرِيرٍ » وَمَعَهُ ابْنُهُ ، وَأَخَذَا
مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ، وَسَلَّمَا عَلَيْهِ وَدَعَا لَهُ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(١) مُورداً عَذْباً: يَنْبوعاً حُلُو المَاءِ .

فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَرَحَّبَ بِهِمَا ، ثُمَّ دَارَ بَيْنَهُمَا الْحَدِيثُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَرِيرٍ :

كَيْفَ نَحْظِي بِالْفُتُوحِ ^(١) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : عِنْدَ تَصْحِيحِ الضَّمَائِرِ تُغْفَرُ الْكَبَائِرُ ...

وَإِذَا عَزَمَ الْعَبْدُ عَلَى تَرْكِ الْآثَامِ أُمَّهُ ^(٢) الْفُتُوحُ ...

وَلَا تَنْسَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنَّ يَسِيرَ الدُّنْيَا يَشْغَلُنَا عَنْ كَثِيرِ الْآخِرَةِ ...

وَكُلُّ نِعْمَةٍ لَا تُقْرَبُكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ نِقْمَةٌ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ : إِنَّ أَشْيَاخَنَا ^(٣) كَثِيرُونَ ؛ فَبِمَنْ نَقْتَدِي مِنْهُمْ ؟ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، افْتَدِ بِمَنْ يَخَافُ اللَّهَ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ ، وَيَعْفُ عَنِ التَّلَاسِ

بِالْغَيْبِ ...

وَيُصْلِحُ نَفْسَهُ فِي أَوَانِ الصَّبَا ، وَلَا يُرْجِئُ ذَلِكَ إِلَى عَهْدِ الشَّيْبِ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ تَطْلُعَ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَيُقْبَلُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ

هَوَاهُ ^(٤) وَعِلْمُهُ ، ثُمَّ يَتَغَالَبَانِ ^(٥) فِي صَدْرِهِ تَغَالِبَ الْمُتَخَاصِمِينَ .

فَإِذَا غَلَبَ عِلْمُهُ هَوَاهُ كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ غُنْمٍ لَهُ ...

وَإِذَا غَلَبَ هَوَاهُ عِلْمُهُ كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ خُسْرَانٍ عَلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَرِيرٍ : كَثِيرًا مَا حَضَضْتَنَا عَلَى الشُّكْرِ

يَا أَبَا حَازِمٍ ، فَمَا حَقِيقَةُ الشُّكْرِ ؟ .

فَقَالَ لِكُلِّ غُضُوٍ مِنْ أَعْضَائِنَا حَقٌّ عَلَيْنَا مِنَ الشُّكْرِ .

(٣) أَشْيَاخُنَا : شيوخنا ومُؤَجِّهينا .

(١) الفُتُوحُ : يقظة القلب .

(٥) يتغالبان : يتصارعان .

(٤) هواه : شهواته .

(٢) أُمُّهُ الْفُتُوحُ : فُتِحَ عَلَيْهِ .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : مَا سُكْرُ الْعَيْنَيْنِ ؟ .

فَقَالَ : إِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا خَيْرًا أَغْلَنْتَهُ ، وَإِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا شَرًّا سَتَرْتَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَمَا سُكْرُ الْأَذُنَيْنِ ؟ .

فَقَالَ : إِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا خَيْرًا وَعَيْتَهُ ، وَإِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا شَرًّا دَفَنْتَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَمَا سُكْرُ الْيَدَيْنِ ؟ .

فَقَالَ : أَنْ لَا تَأْخُذَ بِهِمَا مَا لَيْسَ لَكَ ...

وَأَنْ لَا تَمْنَعَ بِهِمَا حَقًّا مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ...

وَلَا يَفُتْكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنَّ مَنْ يَقْصِرُ شُكْرَهُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَلَا يُشْرِكُ مَعَهُ
جَمِيعَ أَعْضَائِهِ وَجَنَانِهِ^(١) ... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ كِسَاءٌ غَيْرُ أَنَّهُ أَخَذَ بِطَرَفِهِ ،
وَلَمْ يَلْبِسْهُ ...

فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَلَا يَصُونُهُ مِنَ الْبَرَدِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةِ نَفَرَ^(٢) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى
بِلَادِ « الرُّومِ » يَتَتَبَعِي الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ...

فَلَمَّا بَلَغَ الْجَيْشُ آخِرَ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِجِ السَّفَرِ ، آثَرَ^(٣) الرَّاحَةَ
وَالاسْتِجْمَامَ^(٤) قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَخَوِضِ الْمَعَارِكِ .

وَقَدْ كَانَ فِي الْجَيْشِ أَمِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » .

فَأَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى أَبِي حَازِمٍ يَقُولُ لَهُ :

(٣) آثر : اختار وَفَضَّلَ .

(٤) الاستجمام : الاستراحة .

(١) جنانه : قلبه .

(٢) نفر : مضى وذهب .

إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُوكَ إِلَيْهِ لِتُحَدِّثَهُ وَتُفَقِّهَهُ .
 فَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ يَقُولُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَهُمْ
 لَا يَحْمِلُونَ الدِّينَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا .
 وَلَا أَحْسَبُكَ تُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ...
 فَإِنْ كَانَتْ لَكَ بِنَا حَاجَةٌ فَأَتِنَا ...
 وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ مَعَكَ .
 فَلَمَّا قَرَأَ الْأَمِيرُ رِسَالَتَهُ مَضَى إِلَيْهِ ، وَحَيَّاهُ وَبَيَّاهُ^(١) وَقَالَ :
 يَا أَبَا حَارِثٍ ، لَقَدْ وَفَّقْنَا عَلَى مَا كَتَبْتَهُ لَنَا ؛ فَازْدَدْتَ بِهِ كَرَامَةً^(٢) عِنْدَنَا ،
 وَعِزَّةً لَدَيْنَا ...
 فَذَكَّرْنَا وَعِظْنَا ، لَمْ يَزَلْ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ .
 فَطَفِقَ أَبُو حَارِثٍ يَعْظُمُهُ وَيَذْكُرُهُ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَ لَهُ :
 انْظُرْ مَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَاحْرِصْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ...
 وَانْظُرْ مَا تَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ هُنَا ؛ فَارْهَدْ فِيهِ هُنَا ...
 وَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - أَنَّهُ إِنْ نَفَقَ^(٣) الْبَاطِلُ عِنْدَكَ وَرَاجَ ؛ أَقْبَلَ عَلَيْكَ
 الْمُبْطِلُونَ الْمُتَنَفِقُونَ ، وَالتَّفُّوا حَوْلَكَ ...
 وَإِنْ نَفَقَ عِنْدَكَ الْحَقُّ وَرَاجَ ؛ التَفَّ حَوْلَكَ أَهْلُ الْخَيْرِ ، وَأَعَانُوكَ عَلَيْهِ ...
 فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَخْلُو .

* * *

(٣) نفق : رُغب فيه .

(٢) كرامة : عِزًّا ومكانة .

(١) بياه : دعا له برفعة المقام .

وَلَمَّا أَقْبَلَ الْمَوْتُ عَلَى أَبِي حَازِمٍ الْأَعْرَجِ ، قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ :
كَيْفَ تَجِدُكَ^(١) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ :

لَيْسَ نَجُونَا مِنْ شَرِّ مَا أَصَبْنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَمَا يَضُرُّنَا مَا زَوَىٰ عَنَّا^(٢) مِنْهَا .
ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا^(٣)﴾^(٤) ...

وَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ^(*) .

(١) كيف تجدك : كيف تَرَىٰ نفسك .

(٢) زَوَىٰ عَنَّا : صُرِفَ عَنَّا وَطُوي .

(٣) وُدًّا : حُبًّا ومودَّة .

(٤) سورة مريم : ٩٦ .

(*) للاستزادة من أخبار سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ انظر :

١ - طبقات خليفة : ٢٦٤ .

٢ - تاريخ البخاري : ٧٨ / ٢ .

٣ - التاريخ الصغير : ٤٧ / ٢ .

٤ - الجرح والتعديل : ١٥٩ / ٤ .

٥ - حلية الأولياء : ٢٢٩ / ٣ .

٦ - تهذيب التهذيب : ١٤٣ / ٤ .

٧ - تهذيب ابن عساكر : ٢٢٨ ، ٢١٦ / ٦ .

٨ - خلاصة تذهيب الكمال : ١٤٧ .

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ

« كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يُفْتِي وَالصَّحَابَةُ أَحْيَاءُ »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

عَقَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْعَزَمَ عَلَى حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ
الْحَرَامِ ...

وَزِيَارَةِ ثَانِي الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ .

وَالسَّلَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَلَمَّا أَقْبَلَ شَهْرُ ذِي الْقَعْدَةِ ، زَمَّ الْخَلِيفَةُ الْعَظِيمُ رَكَائِبَهُ^(١) ، وَتَوَجَّهَ إِلَى
أَرْضِ الْحِجَازِ يَصْحَبُهُ السَّادَةُ الْأَمَاجِدُ مِنْ أُمَرَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » ...
وَنَفَرٌ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ دَوْلَتِهِ ... وَبَعْضُ أَوْلَادِهِ ...

وَمَضَى الرَّكْبُ فِي طَرِيقِهِ مِنْ « دِمَشْق » إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مِنْ غَيْرِ
رَيْثٍ^(٢) وَلَا عَجَلٍ ...

فَكَانُوا كُلَّمَا نَزَلُوا مَنْزِلًا نُصِبَتْ لَهُمُ الْخِيَامُ ، وَفُرِشَتْ لَهُمُ الْفُرُشُ ،
وَعُقِدَتْ لَهُمُ مَجَالِسُ الْعِلْمِ وَالتَّنْذِيرَةِ ؛ لِيَزْدَادُوا تَقْفًاهُ فِي الدِّينِ .
وَيَتَعَهَّدُوا قُلُوبَهُمْ وَنُفُوسَهُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْخَلِيفَةُ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، أَمَّ حَرَمَهَا الشَّرِيفَ ...
وَتَشَرَّفَ بِالسَّلَامِ عَلَى سَاكِنَيْهَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى

(٢) رَيْث : بَطْنٌ .

(١) زَمَّ رَكَائِبَهُ : أَعَدَّ نَوَقَهُ لِلرَّحِيلِ .

التَّسْلِيمِ ، وَسَعِدَ بِالصَّلَاةِ فِي الرُّوضَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْغَرَاءِ .
 فَذَاقَ مِنْ بَرْدِ الرَّاحَةِ^(١) ، وَسَلَامِ النَّفْسِ مَا لَمْ يَذُقْ مِثْلَهُمَا مِنْ قَبْلُ ...
 وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُطِيلَ إِقَامَتَهُ فِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا وَجَدَ
 إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .

* * *

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ مَا اسْتَأْثَرَ^(٢) بِاهْتِمَامِهِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حَلَقَاتُ الْعِلْمِ
 الَّتِي كَانَتْ تَعْمُرُ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ .
 وَيَتَأَلَّقُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ الْأَفْذَادُ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ كَمَا تَتَأَلَّقُ النُّجُومُ الزُّهْرُ^(٣)
 فِي كَيْدِ السَّمَاءِ ... فَهَذِهِ حَلَقَةُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ^(٤) ...
 وَتِلْكَ حَلَقَةُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ...
 وَهُنَاكَ حَلَقَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثَيْبَةَ^(٥) ...

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ صَحَا الْخَلِيفَةُ مِنْ قَيْلُولَتِهِ^(٦) فِي وَقْتٍ كَانَ لَا يَضْحُو فِيهِ
 عَادَةً ، فَتَأَدَّى حَاجِبُهُ وَقَالَ : يَا مَيْسَرَةُ .
 قَالَ : لَبَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
 قَالَ : امْضِ إِلَى مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَادْعُ لَنَا أَحَدَ
 الْعُلَمَاءِ لِيُحَدِّثَنَا ...

* * *

مَضَى مَيْسَرَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَأَجَالَ تَنْظَرُهُ فِيهِ فَلَمْ يَرَ غَيْرَ

(٤) عروة بن الزبير : انظره ص ٣٨ .

(٥) عبد الله بن عتبة : أخذ كبار التابعين .

(٦) القيلولة : نومة الصُّحُلِ .

(١) برود الراحة : سعادة الطمأنينة .

(٢) استأثر : سيطر واستبد .

(٣) الزُّهر : المتألقة .

حَلَقَةٍ وَاحِدَةٍ تَوَسَّطَهَا شَيْخٌ نَيْفٌ ^(١) عَلَى السَّيِّئِينَ مِنْ عُمْرِهِ فِيهِ بَسَاطَةُ الْعُلَمَاءِ ...
وَعَلَيْهِ هَيِّئَتُهُمْ وَوَقَارُهُمْ ...

فَوَقَفَ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَ الْحَلَقَةِ ، وَأَشَارَ لِلشَّيْخِ بِإِصْبَعِهِ ...
فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ الشَّيْخُ ، وَلَمْ يَأْبَهُ لَهُ ^(٢) .

فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَقَالَ : أَلَمْ تَرَ أَنِّي أُشِيرُ إِلَيْكَ ؟ !
قَالَ : إِلَيَّ أَنَا ؟ !

قَالَ : نَعَمْ ...

قَالَ : وَمَا حَاجْتُكَ ؟

قَالَ : اسْتَيْقَظَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ : ائْمُضْ إِلَى الْمَسْجِدِ وَاَنْظُرْ هَلْ تَرَى
أَحَدًا مِنْ حُدَاثِي ^(٣) ، فَأَتَنِي بِهِ .

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : مَا أَنَا مِنْ حُدَاثِهِ .

فَقَالَ لَهُ مَيْسَرَةٌ : وَلَكِنَّهُ يَتَّبِعِي مُحَدِّثًا يُحَدِّثُهُ .

فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنَّ مَنْ يَتَّبِعِي شَيْئًا يَأْتِي إِلَيْهِ ...

وَأَنَّ فِي حَلَقَةِ الْمَسْجِدِ مُتَّسِعًا لَهُ إِذَا كَانَ رَاغِبًا فِي ذَلِكَ .

وَالْحَدِيثُ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَأْتِي ...

فَعَادَ الْحَاجِبُ أَذْرَاجَهُ وَقَالَ لِلْخَلِيفَةِ : مَا وَجَدْتُ أَحَدًا فِي الْمَسْجِدِ غَيْرَ
شَيْخٍ أَشْرَفَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَقُمْ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَيْقَظَ فِي هَذَا
الْوَقْتِ وَقَالَ لِي : اَنْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا مِنْ حُدَاثِي فِي الْمَسْجِدِ فَادْعُهُ لِي ...

(١) نيف : زاد . (٢) لم يأبه له : لم يلتفت إليه ولم يهتم به . (٣) حُدَاثِي : الذين يحدثونني .

فَقَالَ لِي فِي هُدُوءٍ وَحَزْمٍ : إِنِّي لَسْتُ مِنْ حُدَاثِهِ ...
وَلِإِنَّ فِي حَلَقَةِ الْمَسْجِدِ مُتَّسِعاً لَهُ إِذَا كَانَ رَاغِباً فِي الْحَدِيثِ .
فَتَنَهَّدَ^(١) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ...
وَهَبَّ قَائِماً ، وَاتَّجَهَ إِلَى دَاخِلِ الْمَنْزِلِ وَهُوَ يَقُولُ :
ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ...
لَيْتَكَ لَمْ تَأْتِهِ ، وَلَمْ تُكَلِّمَهُ ...
فَلَمَّا ابْتَعَدَ عَنِ الْمَجْلِسِ وَصَارَ فِي الدَّاخِلِ ، انْتَفَتَّ أَصْغَرُ أَوْلَادِ عَبْدِ
الْمَلِكِ إِلَى أَخٍ لَهُ أَكْبَرَ مِنْهُ وَقَالَ :
مَنْ هَذَا الَّذِي يَمْتَنِعُ^(٢) عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَسْتَكْبِرُ عَلَى الْمُثُولِ^(٣) يَبِينُ
يَدَيْهِ ، وَخُضُورِ مَجْلِسِهِ ...
وَقَدْ دَانَتْ^(٤) لَهُ الدُّنْيَا ، وَخَضَعَتْ لِهَيْبَتِهِ ، مُلُوكُ « الرُّومِ » .
فَقَالَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ : ذَاكَ الَّذِي خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنْتَهُ لِأَخِيكَ الْوَلِيدِ ؛
فَأَتَى أَنْ يُزَوِّجَهَا مِنْهُ .
فَقَالَ الْأَخُ الْأَصْغَرُ : أَيْ أُنْ أَنْ يُزَوِّجَهَا مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ !!؟
وَهَلْ كَانَ يَزُومُ لَهَا بَعْلًا^(٥) أَسْمَى^(٦) مِنْ وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ !؟ ...
وَحَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْلِهِ .
فَسَكَتَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ وَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ ...

(١) تَنَهَّدَ : أَخْرَجَ نَفْسَهُ بَعْدَ مَدَّةٍ حَزَنًا وَأَلَمًا .
(٢) يَمْتَنِعُ : يَتَعَالَى .
(٣) الْمُثُولُ : الْوُقُوفُ .
(٤) دَانَتْ : خَضَعَتْ .
(٥) بَعْلًا : زَوْجًا .
(٦) أَسْمَى : أَعَزُّ وَأَكْرَمُ .

فَقَالَ الْأَخُ الْأَصْغَرُ: إِذَا كَانَ قَدْ ضَنَّ بِابْنَتِهِ عَلَى وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
فَهَلْ وَجَدَ لَهَا الْكُفَّءَ^(١) الَّذِي يَلِيقُ بِهَا ؟ ...

أَمْ إِنَّهُ حَالَ ذُنُوبِهَا وَذُنُوبَ الزَّوْاجِ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ ...
وَتَرَكَهَا فَعِيْدَةً بَيْتِ^(٢) .

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ الْأَكْبَرُ :

الْحَقُّ أَنِّي لَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ خَبَرِهَا ، وَخَبَرِهِ مَعَهَا ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمَا أَحَدُ الْجُلَاسِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَدِينَةِ وَقَالَ :

إِذَا أَذِنَ لِي الْأَمِيرُ قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرَهَا كُلَّهُ ...

فَقَدْ تَزَوَّجْتُ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ حَيْثَا يُقَالُ لَهُ : « أَبُو وَدَاعَةَ » .

وَهُوَ جَارُنَا بَيْتِ بَيْتِ^(٣) ...

وَلِزَوَاجِهِ مِنْهَا قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ رَوَاهَا لِي بِنْفُسِهِ .

فَقَالَ لَهُ الْأَخَوَانِ : هَاتِيهَا ...

فَقَالَ الرَّجُلُ : حَدَّثَنِي أَبُو وَدَاعَةَ قَالَ :

كُنْتُ - كَمَا تَعْلَمُ - أُلَازِمُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَلَبًا لِلْعِلْمِ .

وَكُنْتُ أَذَاوِمُ عَلَى حَلَقَةِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، وَأَزَاجِمُ النَّاسَ عَلَيْهَا

بِالْمَنَاكِيبِ ... فَتَعَيَّبْتُ عَنْ حَلَقَةِ الشَّيْخِ أَيَّامًا ، فَتَفَقَّدَنِي ، وَظَنَّ أَنَّ بِي مَرَضًا ،

أَوْ عَرَضَ لِي عَارِضٌ ...

فَسَأَلَ عَنِّي مَنْ حَوْلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ خَبْرًا .

(١) الكفء : المثل والنظير .

(٢) قعيْدَة بيت : ملازمة للبيت .

(٣) جارنا بيت بيت : ملاصق لنا .

فَلَمَّا عُدْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ حَيَّانِي ، وَرَحَّبَ بِي وَقَالَ :
أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟ .

فَقُلْتُ : تُوُفِّيتَ زَوْجَتِي ، فَاسْتَعَلْتُ بِأَمْرِهَا .
فَقَالَ : هَلَّا أَحْبَبْتَنَا يَا أَبَا وَدَاعَةَ فَنُوَاسِيكَ ^(١) ، وَنَشْهَدَ جَنَازَتَهَا مَعَكَ ،
وَنُعِينَكَ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ .

فَقُلْتُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ... وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ...
فَاسْتَبَقَانِي حَتَّى انْصَرَفَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ ، ثُمَّ قَالَ لِي :
أَمَّا فَكَّرْتُ فِي اسْتِحْدَاثِ زَوْجَةٍ ^(٢) لَكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟ .
فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ...

وَمَنْ يُزَوِّجُنِي ابْنَتُهُ وَأَنَا شَابٌّ نَشَأُ يَتِيمًا ، وَعَاشَ فَقِيرًا ...
فَأَنَا لَا أَمْلِكُ غَيْرَ دِرْهَمَيْنِ ، أَوْ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ .
فَقَالَ : أَنَا أَزَوِّجُكَ ابْنَتِي .

فَانْعَقَدَ ^(٣) لِسَانِي وَقُلْتُ : أَنْتَ !؟ ...
أَتَزَوِّجُنِي ابْنَتَكَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ مِنْ أَمْرِي مَا عَرَفْتُ !؟ .
فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَتَحَنُّ إِذَا جَاءَنَا مِنْ نَرْضَى دِينَهُ وَخُلُقَهُ زَوْجَنَاهُ ، وَأَنْتَ عِنْدَنَا مَرْضِيٌّ الدِّينِ
وَالْخُلُقِ ...

(١) نواسيك : نعاونك .

(٢) استحداث زوجة لك : تجديد زواجك . (٣) انعقد لساني : ارتبط لساني وعجزت عن الإفصاح .

ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى مَنْ كَانَ قَرِيباً مِنَّا ، وَنَادَاهُمْ ...
فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ ، وَصَارُوا عِنْدَهُ ؛ حَمِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى
عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَعَقَدَ لِي عَلَى ابْنَتِهِ ...

وَجَعَلَ مَهْرَهَا دِرْهَمَيْنِ اثْنَيْنِ ...

فَقُمْتُ وَأَنَا لَا أَذْرِي مَا أَقُولُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْفَرَحِ ...

ثُمَّ قَصَدْتُ بَيْتِي ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ صَائِماً ؛ فَنَسِيتُ صَوْمِي وَجَعَلْتُ أَقُولُ :
وَيَحْكَ^(١) يَا أَبَا وَدَاعَةَ ...

مَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ ؟ ...

مِمَّنْ تَسْتَدِينُ ؟ ...

وَمِمَّنْ تَطْلُبُ الْمَالَ ؟ .

وَضَلَلْتُ عَلَى حَالِي هَذِهِ حَتَّى أُذِنَ لِلْمَغْرِبِ ...

فَأَدَّيْتُ الْمَكْتُوبَةَ^(٢) ، وَجَلَسْتُ إِلَى فُطُورِي ، وَكَانَ خُبْزاً ، وَزَيْتاً ...

فَمَا أَنْ تَنَاوَلْتُ مِنْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ حَتَّى سَمِعْتُ الْبَابَ يُفْرَغُ .

فَقُلْتُ : مَنْ الطَّارِقُ ؟ .

فَقَالَ : سَعِيدٌ ...

فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَرَّ بِخَاطِرِي كُلِّ إِنْسَانٍ اسْمُهُ سَعِيدٌ أَعْرِفُهُ إِلَّا سَعِيدَ بْنِ

الْمُسَيَّبِ ...

(٢) المكتوبة : المفروضة .

(١) وَنَح : كلمة تَرْحِمُ وتوجع .

ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا يَبْنِي وَيَبْنِيهِ وَالْمَسْجِدَ .

فَفَتَحْتُ البابَ ، فَإِذَا بِي أَمَامَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ...

فَطَلَنْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لَهُ^(١) فِي أَمْرِ زَوَاجِي مِنْ ابْنَتِهِ شَيْءٌ ...

وَقُلْتُ لَهُ : أَبَا مُحَمَّدٍ ؟! ... هَلَّا أُرْسِلْتَ إِلَيَّ فَاتِيكَ .

فَقَالَ : بَلْ أَنْتَ أَحَقُّ بِأَنْ آتِيَ إِلَيْكَ الْيَوْمَ .

فَقُلْتُ : تَفْضُلُ عَلَيَّ ...

فَقَالَ : كَلَّا ، وَإِنَّمَا جِئْتُ لِأَمْرِ ...

فَقُلْتُ : وَمَا هُوَ يَوْحِمُكَ اللَّهُ ؟ ...

فَقَالَ : إِنَّ ابْنَتِي أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَكَ بِشَرْعِ اللَّهِ مُنْذُ الْعِدَاةِ^(٢) ، وَأَنَا أَعْلَمُ

أَنَّهُ لَيْسَ مَعَكَ أَحَدٌ يُؤْنِسُ وَحْشَتَكَ ، فَكْرِهْتُ أَنْ تَبِيتَ أَنْتَ فِي مَكَانٍ وَزَوْجَتُكَ

فِي مَكَانٍ آخَرَ ؛ فَجِئْتُكَ بِهَا .

فَقُلْتُ : وَيَحْيى ... جِئْتَنِي بِهَا ؟!

فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ بِطُولِهَا .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ : أَدْخُلِي إِلَى بَيْتِ زَوْجِكَ يَا بِنْتِي عَلَى اسْمِ اللَّهِ ،

وَبَرَكَتِهِ ...

فَلَمَّا أَرَادَتْ أَنْ تَخْطُو ؛ تَعَثَّرَتْ^(٣) بِمَلَأَتِهَا^(٤) مِنَ الْحَيَاءِ حَتَّى كَادَتْ

تَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ .

(٣) تعثرت : كَبَتْ حَتَّى كَادَتْ تَقَعُ .

(٤) بملاءتها : بِشَوْبِهَا .

(١) بدا له شيء : ظهر له ما غير رأيهِ .

(٢) الغداة : الضُّحَى .

أَمَّا أَنَا فَقَدْ وَقَفْتُ أَمَامَهَا مَشْدُوهَا^(١) لَا أَذْرِي مَا أَقُولُ ...
ثُمَّ إِنِّي بَادَرْتُ فَسَبَقْتُهَا إِلَى الْقَصْعَةِ^(٢) الَّتِي فِيهَا الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ ؛ فَنَحَيْتُهَا
مِنْ ضَوْءِ السَّرَاجِ حَتَّى لَا تَرَاهَا .
ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى السَّطْحِ وَنَادَيْتُ الْجِيرَانَ ، فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ وَقَالُوا :
مَا شَأْنُكَ ؟ .

فَقُلْتُ : عَقَدَ لِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَلَى ابْنَتِهِ الْيَوْمَ فِي الْمَسْجِدِ ...
وَقَدْ جَاءَنِي بِهَا الْآنَ عَلَى غَفْلَةٍ ...
فَتَعَالَوْا آنِسُوهَا^(٣) حَتَّى أَدْعُو أُمِّي ، فَهِيَ بَعِيدَةُ الدَّارِ .
فَقَالَتْ عَجُوزٌ مِنْهُنَّ : وَيَحَكَ أَتَذْرِي مَا تَقُولُ ؟ ! ...
أَزَوَّجَكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ابْنَتَهُ ...
وَحَمَلَهَا لَكَ إِلَى الْبَيْتِ بِنَفْسِهِ ؟ ! ...
وَهُوَ الَّذِي صَنَّ بِهَا عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ !! .
فَقُلْتُ : نَعَمْ ...

وَهَا هِيَ ذِي عِنْدِي فِي يَتِيَّتِي ، فَهَلُمُّوا^(٤) إِلَيْهَا ، وَانْظُرُوهَا .
فَتَوَجَّهَ الْجِيرَانُ إِلَى الْبَيْتِ ، وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَنِي ، وَرَحَّبُوا بِهَا ،
وَأَنَسُوا وَحَشَتَهَا ...

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَتْ أُمِّي ، فَلَمَّا رَأَتْهَا التَّفَتَّتْ إِلَيَّ وَقَالَتْ :

(٣) آنسوها : سلّوها وأزبلوها وحشتها .

(٤) هلموا : بادروا .

(١) مشدوهاً : ذاهلاً حائراً .

(٢) القصعة : الصُّخْفَةُ التي يوضع فيها الطعام .

وَجِهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ^(١) إِنْ لَمْ تَتْرُكْهَا لِي حَتَّى أُضْلِحَ شَأْنُهَا ...
ثُمَّ أَرْفَعُهَا^(٢) إِلَيْكَ كَمَا تُرْفُ كَرَائِمُ النِّسَاءِ .
فَقُلْتُ : أَنْتِ وَمَا تُرِيدِينَ ...
فَضَمَّتْهَا^(٣) إِلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ رَفَعَتْهَا إِلَيَّ .
فَإِذَا هِيَ مِنْ أَتْبَهَى نِسَاءِ الْمَدِينَةِ جَمَالاً ...
وَأَحْفَظِ النَّاسِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَأَرْوَاهُمْ لِحَدِيثِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...
وَأَعْرِفُ النِّسَاءَ بِحُقُوقِ الزَّوْجِ .
فَمَكَثْتُ مَعَهَا أَيَّاماً لَا يُزُورُنِي أَبُوهَا أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا .
ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ حَلْقَةَ الشَّيْخِ فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ
السَّلَامَ ، وَلَمْ يُكَلِّمْنِي .
فَلَمَّا انْفَضَّ^(٤) الْمَجْلِسُ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرِي قَالَ :
مَا حَالُ زَوْجَتِكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟
فَقُلْتُ : هِيَ عَلَى مَا يُحِبُّ الصَّدِيقُ وَيَكْرَهُ الْعَدُوُّ ...
فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .
فَلَمَّا غُذْتُ إِلَى بَيْتِي ، وَجَدْتُهُ قَدْ وَجَّهَ إِلَيْنَا مَبْلَغاً وَفِيراً مِنَ الْمَالِ لِنَسْتَعِينَ
بِهِ عَلَى حَيَاتِنَا .

* * *

(١) وجهي من وجهك حرام : أخاصمك ولا أنظر إليك .
(٢) أرفعها إليك : أهديتها لك . (٣) ضمتها إليها : استصحبتها . (٤) انفض المجلس : غادر الحضور المجلس .

فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : عَجِيبٌ أَمْرُ هَذَا الرَّجُلِ ...
فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ : وَمَا وَجْهُ الْعَجَبِ فِيهِ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ ؟ ...
إِنَّهُ أَمْرُو جَعَلَ دُنْيَاهُ مَطِيَّةً^(١) لِأُخْرَاهُ ...
وَاشْتَرَى لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِهِ الْبَاقِيَةَ بِالْفَانِيَةِ^(٢) ...
فَوَاللَّهِ إِنَّهُ مَا ضَنَّ^(٣) عَلَى ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِابْنَتِهِ ...
وَلَا رَأَهُ غَيْرَ كُفٍّ لَهَا ، وَإِنَّمَا خَافَ عَلَيْهَا فِتْنَةَ الدُّنْيَا ...
وَلَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَتَرُدُّ خُطْبَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتُزَوِّجُ ابْنَتَكَ
مِنْ رَجُلٍ مِنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ؟ !
فَقَالَ : إِنَّ ابْنَتِي أَمَانَةٌ فِي عُنُقِي ، وَقَدْ تَحَرَّيْتُ^(٤) فِيمَا صَنَعْتُهُ لَهَا صَلَاحَ
أَمْرِهَا .
فَقِيلَ لَهُ : وَكَيْفَ ؟ !
فَقَالَ : مَا ظَنُّكُمْ بِهَا إِذَا انْتَقَلَتْ إِلَى قُصُورِ بَنِي « أُمَيَّة » ...
وَتَقَلَّبَتْ بَيْنَ رِيَاسَتِهَا^(٥) وَأَثَانِهَا^(٦) ...
وَقَامَ الْخَدَمُ وَالْحَشَمُ وَالْجَوَارِي بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَعَنْ يَمِينِهَا ، وَعَنْ
شِمَالِهَا ...
ثُمَّ وَجَدَتْ نَفْسَهَا بَعْدَ ذَلِكَ زَوْجَةً لِلْخَلِيفَةِ ؟
أَيْنَ يُصْبِحُ دِينُهَا يَوْمَئِذٍ ؟ .

(١) مطية : مركباً ووسيلة .
(٢) الباقية بالفانية : الآخرة بالدنيا .
(٣) ما ضَنَّ : ما بخل .
(٤) تحريت : توخيت وبحشت .
(٥) الرياش : ما كان فائراً من اللباس ونحوه .
(٦) الأثاث : متاع البيت .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ : يَبْدُو أَنَّ صَاحِبَكُمْ طِرَازٌ فَرِيدٌ^(١) مِنْ النَّاسِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ الْمَدَنِيُّ : وَاللَّهِ مَا عَدَوْتُ^(٢) الْحَقَّ أَبَدًا ...

فَهُوَ صَوَّامٌ نَهَارٍ ...

قَوَّامٌ لَيْلٍ ...

حَجَّ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ حِجَّةً ...

وَمَا فَاتَتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْذُ
أَرْبَعِينَ عَامًا ...

وَلَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى قَفَا رَجُلٍ فِي الصَّلَاةِ خِلَالَ ذَلِكَ أَبَدًا ؛
لِمُحَافَظَتِهِ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ .

وَقَدْ كَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَنْ يَشَاءُ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، فَأَثَرُ^(٣) بِنْتِ
أَبِي هُرَيْرَةَ^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ .

وَذَلِكَ لِمَنْزِلَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَسَعَةِ رِوَايَتِهِ لَحَدِيثِهِ ...

وَشِدَّةِ رَغْبَتِهِ فِي الْأَخْذِ عَنْهُ .

وَلَقَدْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْعِلْمِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ...

فَدَخَلَ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَتَأَثَّرَ^(٥) بِهِنَّ ...

(١) طراز فريد : تَزَوَّجَ نادر .

(٢) ما عدوت الحق : ما بَعُدْتُ عن الحق وَلَا خَرَجْتُ عَلَيْهِ .

(٣) أثر : اخْتَارَ وَفَضَّلَ .

(٤) أَبُو هُرَيْرَةَ : انْظُرْهُ فِي كِتَابِ « صُور مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاشِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الطَّبَعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

(٥) تأثر بهن : انْتَفَعَ مِنْهُنَّ وَسَلَكَ مَسْلَكَهُنَّ .

وَتَتَلَمَّذَ عَلَى يَدَي زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ^(١)...

وَسَمِعَ مِنْ عُثْمَانَ ، وَعَلِيٍّ ، وَصُهَيْبٍ^(٢) ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ
الْكَرِيمِ ﷺ .

وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ ...

وَتَحَلَّى بِشَمَائِلِهِمْ^(٣) ...

وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ كَلِمَةٌ يُرَدِّدُهَا عَلَى الدَّوَامِ حَتَّى عَدَتْ وَكَانَتْهَا شِعَارًا لَهُ ،
وَهِيَ قَوْلُهُ :

مَا أَعَزَّتِ الْعِبَادُ نَفْسَهَا بِمِثْلِ طَاعَةِ اللَّهِ ...

وَلَا أَهَانَتْ نَفْسَهَا بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ (*) ...

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : هو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ... انظره في كتاب « صور من
حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) تحلى بشمائلهم : استمسك بأخلاقهم وصفاتهم وازدان بها .

(*) للاستزادة من أخبار سعيد بن المسيّب انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١١٩ / ٥ .

٢ - تاريخ البخاري .

٣ - المعارف : ٤٣٧ .

٤ - حلية الأولياء : ١٦١ / ٢ .

٥ - تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول ، الجزء الأول : ٢١٩ .

٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٣٧٥ / ٢ .

٧ - تذكرة الحفاظ : ٥١ / ١ .

٨ - العبر : ١١٠ / ١ .

٩ - الثجورم الزاهرة : ٢٢٨ / ١ .

١٠ - شذرات الذهب : ١٠٢ / ١ .

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ

«لَقَدْ قُتِلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ
إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ عَلَيْهِ»

[أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ]

كَانَ فَتًى وَثِيقٌ ^(١) الْجِسْمِ، مُكْتَمِلَ الْخَلْقِ، مُتَدَفِّقاً حَيَوِيَّةً وَنَشَاطاً.
وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ ذَكِيَّ الْفَوَادِ، حَادِّ الْفِطْنَةِ، نَزَّاعاً ^(٢) إِلَى الْمَكَارِمِ،
مُتَأَثِّماً ^(٣) مِنَ الْمَحَارِمِ...

وَلَمْ يَكُنْ سَوَادٌ لَوْنِهِ، وَفَلْفَلَةٌ ^(٤) شَعْرِهِ، وَحَبَشِيَّةٌ أَصْلُهُ؛ لِتَنَالَ مِنْ
شَخْصِيَّتِهِ الْمُتَمَيِّزَةِ الْفَذَّةَ، وَذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ.

* * *

وَلَقَدْ أَدْرَكَ الْفَتَى الْحَبَشِيُّ أَصْلاً، الْعَرَبِيُّ وَلَاءً ^(٥)، أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا هُوَ
طَرِيقُهُ الْقَوِيمُ الَّذِي يُوصِلُهُ إِلَى اللَّهِ.

وَأَنَّ الثَّقَى إِنَّمَا هِيَ سَبِيلُهُ الْمُمَهَّدَةُ الَّتِي تَبْلُغُ بِهِ الْجَنَّةَ؛ فَجَعَلَ الثَّقَى فِي
يَمِينِهِ... وَالْعِلْمَ فِي شِمَالِهِ...

وَشَدَّ عَلَيْهِمَا يَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا...

وَانْطَلَقَ يَقْطَعُ بِهِمَا رِحْلَةَ الْحَيَاةِ غَيْرَ وَاِنٍ ^(٦)، وَلَا مُتَمَهِّلٍ.

فَمَنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ كَانَ النَّاسُ يَرَوْنَهُ إِذَا عَاكِفَاً عَلَى كِتَابِهِ يَتَعَلَّمُ...

أَوْ صَافِئاً فِي مِحْرَابِهِ يَتَعَبَّدُ...

(١) وثيق الجسم: قوي الجسم محكمه.

(٢) نزاعاً: شديد الرغبة قوي التعلق.

(٣) متأثماً من المحارم: مبتعداً عما حرمه الله.

(٤) فلفلة شعره: تجعد شعره.

(٥) العربي ولأه: العربي تبعاً لآ نسباً.

(٦) وآن: فاطر مهمل.

ذَلِكَمُ هُوَ رَائِعَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِه ...
سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَوْصَاهُ .

* * *

أَخَذَ الْفَتَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ الْعِلْمَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ (١) مِنْ أَمْثَالِ
أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ، وَعَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ الطَّائِيِّ ...
وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ ...
وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .
يَبْدَأُ أَنْ أُسْتَاذَهُ الْأَكْبَرُ ، وَمُعَلِّمُهُ الْأَعْظَمُ كَانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، حَبْرُ (٢)
أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ، وَبَحَرَ عِلْمِهَا الزَّائِرِ ...

* * *

لَزِمَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ لُزُومَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ ... فَأَخَذَ عَنْهُ
الْقُرْآنَ وَتَفْسِيرَهُ ، وَالْحَدِيثَ وَغَرِيبَهُ ...
وَتَفَقَّهُ عَلَى يَدَيْهِ فِي الدِّينِ ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُ التَّأْوِيلَ (٣) ...
وَدَرَسَ عَلَيْهِ اللُّغَةَ ، فَتَمَكَّنَ مِنْهَا أَغْظَمَ التَّمَكُّنِ ...
حَتَّى غَدَا وَمَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى
عِلْمِهِ .

ثُمَّ طَوَّفَ (٤) فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ بَحْثًا عَنِ الْمَعْرِفَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُطَوَّفَ .
فَلَمَّا اكْتَمَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الْعِلْمِ ، اتَّخَذَ « الْكُوفَةَ » دَارًا لَهُ وَمَقَامًا .

(٣) التأويل : التفسير .

(٤) طَوَّفَ : تنقل .

(١) جِلَّةُ الصَّحَابَةِ : كبار الصَّحَابَةِ .

(٢) الحبر : العالم الصالح .

وَعَدَا لِأَهْلِهَا مُعَلِّمًا وَإِمَامًا .

* * *

كَانَ يَوْمَ النَّاسِ فِي رَمَضَانَ ؛ فَيَقْرَأُ لَيْلَةً بِقِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ^(١) ...

وَأُخْرَى بِقِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ^(٢) ...

وَتَالِثَةً بِقِرَاءَةِ غَيْرِهِمَا ، وَهَكَذَا ...

وَكَانَ إِذَا صَلَّى مُنْفَرِدًا فَرُبَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ... فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ

وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ^(٣) ﴿...﴾^(٤)

أَوْ مَرَّ بِنَحْوِهَا مِنْ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، اقْشَعَرَ جِلْدُهُ ...

وَتَصَدَّعَ فُؤَادُهُ ... وَهَمَّتْ^(٥) عَيْنَاهُ ...

ثُمَّ لَا يَزَالُ يَبْدَأُ فِيهَا وَيُعِيدُ حَتَّى يُوشِكَ أَنْ يَقْضِيَ نَحْبَهُ^(٦) .

* * *

وَقَدْ دَابَّ عَلَى شَدِّ رِجَالِهِ^(٧) إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ ...

مَرَّةً فِي رَجَبٍ مُحَرَّمًا بِعُمْرَةٍ ، وَأُخْرَى فِي ذِي الْقِعْدَةِ مُحَرَّمًا بِحَجٍّ .

وَقَدْ كَانَ طُلَّابُ الْعِلْمِ وَشُدَاةُ^(٨) الْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَالنُّصْحِ ؛ يَتَوَافَدُونَ عَلَى

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : صحابي خدَمَ الرُّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ ، انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ : صحابي من كُتَّابِ الْوَحْيِ كَانَ مُتَقَدِّمًا فِي الْقِرَاءَةِ وَالْقَضَاءِ وَالْفَتْوَى ، انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) يُسْجَرُونَ : يوقدون ويحرقون .

(٤) سورة غافر : ٧٠ - ٧٢ .

(٥) همت عيناه : سالت دموعه .

(٦) يقضي نَحْبَهُ : يُؤَوِّقِي .

(٧) شَدُّ رِجَالِهِ : رَحَل .

(٨) شُدَاةُ الْخَيْرِ : طُلَّابُ الصَّلَاحِ .

« الْكُوفَةُ » لِيَنْتَهَلُوا مِنْ مَنَاهِلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرِ الثَّرَّةِ ^(١) الْعَذْبَةِ ...

وَيَعْتَرِفُوا مِنْ هَدْيِهِ الْقَوِيمِ ...

فَهَذَا يَسْأَلُهُ عَنِ الْخَشْيَةِ ^(٢) مَا هِيَ ؟ .

فَيَجِيبُهُ بِقَوْلِهِ : الْخَشْيَةُ أَنْ تَخْشَى اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ حَتَّى تَحُولَ خَشْيَتُهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ .

وَذَاكَ يَسْأَلُهُ عَنِ الذِّكْرِ مَا هُوَ ؟ .

فَيَقُولُ : الذِّكْرُ هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ...

فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ وَأَطَاعَهُ فَقَدْ ذَكَرَهُ ...

وَمَنْ أَعْرَضَ ^(٣) عَنْهُ وَلَمْ يُطِعه فَلَيْسَ بِذَاكِرٍ لَهُ وَلَوْ بَاتَ لَيْلَهُ يُسَبِّحُ وَيَتْلُو .

* * *

وَقَدْ كَانَتْ « الْكُوفَةُ » حِينَ اتَّخَذَهَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ دَارَ إِقَامَةٍ لَهُ ، خَاضِعَةً لِلْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ...

إِذْ كَانَ الْحَجَّاجُ يُؤَمِّدُ وَالْيَا عَلَى « الْعِرَاقِ » ، وَالْمَشْرِقِ ، وَبِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَكَانَ يَتَرَبَّعُ ^(٤) حِينَئِذٍ عَلَى ذُرْوَةِ ^(٥) سَطْوَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ...

وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ ^(٦) ، وَقَضَى عَلَى حَرَكَتِهِ ...

وَأَخْضَعَ « الْعِرَاقَ » لِسُلْطَانِ بَنِي « أُمَيَّة » ، وَأَخْمَدَ ^(٧) نِيرَانَ الثُّورَاتِ الْقَائِمَةِ هُنَا وَهُنَاكَ ... وَأَعْمَلَ السَّيْفَ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ ...

(١) الثرة : الغزيرة المتدفقة .

(٢) الخشية : الخوف .

(٣) أَعْرَضَ عنه : ابتعد عنه .

(٤) يتربع في جلوسه : يثني قدميه تحت فخذيه مخالفاً لهما . (٥) ذروة سَطْوَتِهِ : قمة سلطانه .

(٦) عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ : بُويع بالخلافة ،

ثم قُضِيَ الْحَجَّاجُ عَلَيْهِ .

(٧) أَخْمَدَ : أَطْفَأَ النيران .

وَأَشَاعَ الرُّعْبَ فِي أَرْجَاءِ^(١) الْبِلَادِ ...
حَتَّى امْتَلَأَتِ الْقُلُوبُ رَهْبَةً مِنْهُ وَخَشْيَةً مِنْ بَطْشِهِ^(٢).

* * *

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ صِدَامٌ بَيْنَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ وَبَيْنَ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ أَحَدِ كِبَارِ قُوَادِهِ .

وَأَنْ يَتَحَوَّلَ الصَّدَامُ إِلَى فِتْنَةٍ أَكَلَتِ الْأَخْضَرَ وَالْيَابِسَ ...

وَتَرَكَتْ فِي جِسْمِ الْمُسْلِمِينَ جَرَاحَاتٍ غَائِرَةً^(٣).

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، أَنَّ الْحَجَّاجَ سَيَّرَ ابْنَ الْأَشْعَثِ بِجَيْشٍ لِيُغْزِيَ
« رَتْبِيلَ » مَلِكِ « التُّرْكِ » عَلَى الْمَنَاطِقِ الْوَاقِعَةِ وَرَاءَ « سِجِسْتَانَ »^(٤).

فَعَزَا الْقَائِدُ الْبَاسِلُ الْمُظْفَرُ شَطْرًا كَبِيرًا مِنْ بِلَادِ « رَتْبِيلِ » ، وَاحْتَلَّ حُصُونًا
مَنْيَعَةً^(٥) مِنْ دِيَارِهِ ...

وَعَنِمَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً مِنْ مُدُنِهِ وَقُرَاهُ ...

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الْحَجَّاجِ رُسُلًا زَفُّوا^(٦) لَهُ بَشَائِرَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ ، وَحَمَلُوا مَعَهُمْ
خُمْسَ الْغَنَائِمِ لِيَسْتَقِرَّ فِي خَزَائِنِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا اسْتَأْذَنَهُ فِيهِ بِالتَّوَقُّفِ عَنِ الْقِتَالِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ ؛ لِيُخْتَبِرَ
مَدَاخِلَ الْبِلَادِ وَمَخَارِجَهَا ، وَيَقِفَ عَلَى طَبِيعَتِهَا وَأَحْوَالِهَا .

وَذَلِكَ قَبْلَ التَّوَعُّلِ^(٧) فِي شِعَابِهَا^(٨) الْقَاصِيَةِ الْمَجْهُولَةِ ...

وَتَغْرِيزِ الْجَيْشِ الظَّافِرِ لِلْمَخَاطِرِ .

(١) أَرْجَاءُ الْبِلَادِ : أَنْحَاءُ الْبِلَادِ .

(٢) بَطْشُهُ : فَتْكُهُ .

(٣) غَائِرَةٌ : عَمِيقَةٌ .

(٤) سِجِسْتَانَ : بِلَادٌ وَاقِعَةٌ بَيْنَ إِيرَانَ وَأَفْغَانِسْتَانَ .

(٥) الشُّعَابُ : الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجِبَالِ .

(٥) الْحَصُونُ الْمَنْيَعَةُ : الْحَصُونُ الَّتِي يَتَعَذَّرُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا .

(٦) زَفُّوا الْبَشَائِرَ : نَقَلُوا الْأَفْرَاحَ .

(٧) التَّوَعُّلُ : الْبَعْدُ وَالتَّعَمُّقُ .

(٨) الشُّعَابُ : الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجِبَالِ .

فَاغْتَاظَ الْحَجَّاجُ مِنْهُ ...

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَاباً يَصِفُهُ فِيهِ بِالْجُنِّ وَالْخُنُوعِ^(١) ...

وَيُنْذِرُهُ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ^(٢)، وَيُهَدِّدُهُ بِالتَّحِيَّةِ عَنْ قِيَادَةِ الْجَيْشِ .

فَجَمَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَجُوهَ الْجُنْدِ، وَقَادَةَ الْكَتَائِبِ ... وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ
الْحَجَّاجِ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِيهِ ...

فَدَعَا إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيْهِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى نَبْذِ^(٣) طَاعَتِهِ .

فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ :

أَتَبَايَعُونَنِي عَلَى ذَلِكَ وَتُوَازِرُونَنِي^(٤) عَلَى جِهَادِهِ حَتَّى يُطَهِّرَ اللَّهُ أَرْضَ
« الْعِرَاقِ » مِنْ رَجْسِهِ^(٥) ؟

فَبَايَعَهُ الْجُنْدُ عَلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ .

* * *

هَبَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَشْعَثِ بِجَيْشِهِ الْمُمْتَلِي كِرَاهَةً لِلْحَجَّاجِ .

وَنَشِبَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَيْوشِ ابْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ مَعَارِكٌ طَاحِنَةٌ انْتَصَرَ فِيهَا
نَصْرًا مُؤَزَّرًا .

فَتَمَّ لَهُ الْاسْتِيلَاءُ عَلَى « سِجِسْتَانَ »، وَجُلَّ بِلَادِ « فَارِسَ » ...

ثُمَّ أَقْبَلَ يُرِيدُ انْتِزَاعَ « الْكُوفَةِ » وَ« الْبَصْرَةِ » مِنْ يَدَيِ الْحَجَّاجِ .

* * *

وَفِيمَا كَانَتْ نِيرَانُ الْحَرْبِ مُشْتَغِلَةً بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ...

(١) الخنوع : الضعف والذل .

(٢) الويل والثُّبُورُ : الهلاك والدَّمار .

(٣) نبذ طاعته : خلع طاعته .

(٤) توَازَرُونِي : تتعاونون معي .

(٥) رجسه : قبحه وسوء فعله .

وَكَانَ ابْنُ الْأَشْعَثِ يَنْتَقِلُ مِنْ ظَفَرٍ إِلَى ظَفَرٍ ...
وَقَعَ لِلْحَجَّاجِ خَطْبٌ ^(١) زَادَ خَصْمَهُ قُوَّةً .

ذَلِكَ أَنَّ وُلاَةَ الْأَمْصَارِ كَتَبُوا إِلَى الْحَجَّاجِ كُتُبًا قَالُوا فِيهَا :

إِنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ ^(٢) قَدْ طَفِقُوا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ دَفْعِ
الْجِزْيَةِ ^(٣) ، وَقَدْ تَرَكُوا الْقُرَى الَّتِي يَعْمَلُونَ فِيهَا وَاسْتَقَرُّوا فِي الْمُدُنِ ...
وَإِنَّ الْخَرَاجَ ^(٤) قَدْ اضْمَحَلَّ ^(٥) ...

وَإِنَّ الْجَبَايَاتِ قَدْ أَفْلَسَتْ .

فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى وُلاَتِهِ فِي « الْبَصْرَةِ » وَغَيْرِهَا كُتُبًا يَأْمُرُهُمْ فِيهَا بِأَنْ
يَجْمَعُوا كُلُّ مَنْ نَزَحَ ^(٦) إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ...

وَأَنْ يُعِيدُوهُمْ إِلَى الْقُرَى مَهْمَا طَالَ نُزُوحُهُمْ عَنْهَا .

فَصَدَعَ ^(٧) الْوُلاَةَ بِالْأَمْرِ ، وَأَجْلَوْا أَعْدَادًا كَبِيرَةً مِنْ هَؤُلَاءِ عَنْ دِيَارِهِمْ ...

وَأَبْعَدُوهُمْ عَنْ مَوَارِدِ أَرْزَاقِهِمْ ، وَحَشَدُوهُمْ ^(٨) فِي أَطْرَافِ الْمُدُنِ ...

وَأَخْرَجُوا مَعَهُمْ نِسَاءَهُمْ وَأَطْفَالَهُمْ ...

وَدَفَعُوهُمْ دَفْعًا إِلَى الرَّحِيلِ إِلَى الْقُرَى ...

بَعْدَ أَنْ مَضَى عَلَى فِرَاقِهِمْ لَهَا حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ .

(١) خطب : أمر مكروه .

(٢) أهل الذِّمَّة : هم اليهود والنصارى ، ممن يعيشون بين المسلمين في ذمة الله ورسوله .

(٣) الجزية : ما يدفعه أهل الذمة للمسلمين من ضريبة .

(٤) الخراج : المال الذي يؤخذ عن الأرض .

(٥) اضمحل : انحل .

(٦) نزح : انتقل .

(٨) حشدوهم : جمعوهم .

(٧) صدعوا بالأمر : جهروا بالأمر وأنفذوه .

فَأَخَذَ النِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ وَالشُّيُوخَ يَبْكُونَ ، وَيَسْتَصْرِخُونَ ، وَيَسْتَغِيثُونَ ،
وَيُنَادُونَ : وَامْحَمِّدَاهُ ...

وَامْحَمِّدَاهُ ...

وَحَارُوا فِيمَا يَفْعَلُونَ ، وَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ .

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فُقَهَاءُ « الْبَصْرَةِ » وَقَرَأُواهَا لِيَغِيثُوهُمْ ، وَيَشْفَعُوا لَهُمْ .
فَلَمْ يَتِمَّ كُنُوتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

فَطَفِقُوا يَبْكُونَ لِبَكَائِهِمْ ، وَيَسْتَغِيثُونَ لِمَصَابِهِمْ .

* * *

اغْتَنَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَشْعَثِ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَدَعَا الْفُقَهَاءَ وَالْقُرَّاءَ ^(١) إِلَى
مُؤَاوَزَتِهِ .

فَاسْتَجَابَتْ لَهُ كَوَكْبَةُ ^(٢) مِنْ جِلَّةِ ^(٣) التَّابِعِينَ وَأُيُمَّةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَى
رَأْسِهِمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى ^(٤) ...
وَالشَّعْبِيُّ ^(٥) ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ ^(٦) ، وَغَيْرُهُمْ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَكَانَ النَّصْرُ فِيهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ لِابْنِ
الْأَشْعَثِ وَمَنْ مَعَهُ عَلَى الْحَجَّاجِ وَجُنُودِهِ .

ثُمَّ بَدَأَتْ كَفَّةُ الْحَجَّاجِ تَرْجُحُ شَيْئًا فَشَيْئًا ... حَتَّى هَزِمَ ابْنُ الْأَشْعَثِ
هَزِيمَةً مُنْكَرَةً ... وَفَرَّ نَاجِيًا بِنَفْسِهِ ...

(١) القراء : العباد الزَّهَّاد حملة القرآن .

(٢) كوكبة : جماعة .

(٣) جِلَّةُ التَّابِعِينَ : فضلاء التابعين .

(٤) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى : أحد فضلاء التابعين .

(٥) الشعبي : أحد فقهاء التابعين وشعرائهم وأذكيائهم النادرين ... انظره ص ١٧٢ .

(٦) أبو البختري : تابعي عابد زاهد .

وَاسْتَسْلَمَ حَيُّهُ لِلْحَجَّاجِ وَجُنُودِهِ .

* * *

أَمَرَ الْحَجَّاجُ مُنَادِيَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمُقَاتِلِينَ الْمَهْزُومِينَ ، وَأَنْ يَدْعُوهُمْ
لِتَجْدِيدِ بَيْعَتِهِ ^(١) .

فَاسْتَجَابَ أَكْثَرُهُمْ لَهُ ، وَتَوَارَى بَعْضُهُمْ عَنْهُ .

وَكَانَ بَيْنَ الْمُتَوَارِينَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَلَمَّا أَخَذَ الْمُسْتَسْلِمُونَ يَتَقَدَّمُونَ تَبَاعاً لِبَيْعَتِهِ ، فُوجِئُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي
حُسْبَانِهِمْ ...

فَلَقَدْ جَعَلَ يَقُولُ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ : أَتَشْهَدُ عَلَى نَفْسِكَ بِأَنَّكَ قَدْ كَفَرْتَ
بِنَقْضِ بَيْعَتِكَ لِوَالِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ ...

فَإِذَا قَالَ : نَعَمْ ... قَبِلَ مِنْهُ تَجْدِيدَ بَيْعَتِهِ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ .

وَإِذَا قَالَ : لَا ... قَتَلَهُ .

فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَخْضَعُ لَهُ وَيُقِرُّ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ ؛ لِيُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنَ الْقَتْلِ .

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْتَكْبِرُ ^(٢) ذَلِكَ وَيَسْتَنْكِرُهُ ^(٣) ... فَيَدْفَعُ رَقَبَتَهُ ثَمَنًا لِإِبَائِهِ
وَاسْتِنْكَارِهِ .

وَلَقَدْ دَاعَتْ أَخْبَارُ تِلْكَ الْمَجْزَرَةِ ^(٤) الرَّهْبِيَّةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِنَ

الرِّجَالِ ...

(١) بيعته : مبايعته بالولاية عليهم .

(٢) يستكبر ذلك : يجده أمراً كبيراً على نفسه .

(٣) يستنكره : يستغربه .

(٤) المجزرة : المذبحة .

وَنَجَا مِنْهَا بِضَعَةِ آلَافٍ بَعْدَ أَنْ دَمَغُوا^(١) أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ ...

* * *

مِنْ ذَلِكَ ... أَنَّ شَيْخاً مُعَمَّراً^(٢) مِنْ قَبِيلَةِ « حَتْعَم » كَانَ مُعْتَزِلاً^(٣) لِلْفَرِيقَيْنِ ... مُقِيماً وَرَاءَ الْفُرَاتِ^(٤).

فَسِيقَ إِلَى الْحَجَّاجِ مَعَ مَنْ سِيقُوا إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَيْهِ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ :

مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبْتُ هَذِهِ النَّارُ مُعْتَزِلاً وَرَاءَ هَذَا النَّهْرِ ...

مُنْتَظِراً مَا يُسْفِرُ^(٥) عَنْهُ الْقِتَالُ ...

فَلَمَّا ظَهَرَتْ وَظَفِرَتْ أَتَيْتُكَ مُبَايَعاً .

فَقَالَ لَهُ : تَبّاً لَكَ^(٦) ... أَتَقْعَدُ مَتَرَبُّصاً^(٧) ...

وَلَا تُقَاتِلُ مَعَ أَمِيرِكَ !؟ .

ثُمَّ زَجَرَهُ قَائِلاً : أَتَشْهَدُ عَلَى نَفْسِكَ بِأَنَّكَ كَافِرٌ ؟ .

فَقَالَ : يٰسُّ الرَّجُلُ أَنَا إِنْ كُنْتُ عَبَدْتُ اللَّهَ ثَمَانِينَ عَاماً ، ثُمَّ أَشْهَدُ بَعْدَ

ذَلِكَ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ .

فَقَالَ لَهُ : إِذْنُ أَقْتُلُكَ .

فَقَالَ : وَإِنْ قَتَلْتَنِي ... فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي إِلَّا ظِمٌّ حِمَارٍ^(٨) ...

فَإِنَّهُ يَشْرَبُ غُدُوَّةً ، وَيَمُوتُ عَشِيَّةً ...

(١) دمغوا أنفسهم : أقرروا على أنفسهم .

(٢) معمرًا : متقدماً في السن .

(٣) معترلاً : هلاكاً لك .

(٤) معترلاً للفريقين : مبتعداً عن الفريقين غير موالي لأي منهما .

(٥) متربصاً : منتظراً .

(٦) تَبّاً لك : مُدَّة صبر الحمار على العطش .

(٧) ظمٌّ حمار : مُدَّة صبر الحمار على العطش .

وَأِنِّي لَأَنْتَظِرُ الْمَوْتَ صَبَاحَ مَسَاءٍ ، فَأَفْعَلُ مَا بَدَأَ لَكَ .

فَقَالَ الْحَجَّاجُ لَجَلَّادِهِ : اضْرِبْ عُقَّةُ ...

فَضْرَبَ الْجَلَّادُ عُقَّةُ ؛ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ شِيعَةِ ^(١) الْحَجَّاجِ
أَوْ مِنْ عَدُوِّهِ إِلَّا أَكْبَرَ الشَّيْخَ الْمُعَمَّرَ ، وَرَثَى لَهُ ... وَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ ...

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ دَعَا بِكَمِيلِ بْنِ زِيَادِ النَّخَعِيِّ ^(٢) وَقَالَ لَهُ :

أَتَشْهَدُ عَلَى نَفْسِكَ بِالْكُفْرِ ؟ ! .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَشْهَدُ .

فَقَالَ : إِذَنْ أَقْتُلُكَ .

فَقَالَ : اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ^(٣) ...

وَإِنَّ الْمَوْعِدَ فِيمَا بَيْنَنَا عِنْدَ اللَّهِ ... وَبَعْدَ الْقَتْلِ الْحِسَابُ .

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : سَتَكُونُ الْحُجَّةُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ .

فَقَالَ لَهُ :

ذَلِكَ إِذَا كُنْتُ أَنْتَ الْقَاضِي يَوْمَئِذٍ .

فَقَالَ الْحَجَّاجُ : اقْتُلُوهُ ...

فَقُدِّمَ وَقُتِلَ ...

* * *

(١) شِيعَةُ الْحَجَّاجِ : أَنْصَارُ الْحَجَّاجِ وَأَتْبَاعُهُ .

(٢) كَمِيلُ بْنُ زِيَادِ النَّخَعِيِّ : تَابِعِي ثِقَةٌ ، مَطَاعٌ فِي قَوْمِهِ ، شَهِدَ صَفِينَ مَعَ عَلِيِّ .

(٣) اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ : افْعَلْ مَا تَرِيدُ .

ثُمَّ قُدِّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ كَانَ يَكْرَهُهُ وَيَسْتَهْيِي أَنْ يَظْفَرَ بِقَتْلِهِ ؛ لِمَا كَانَ يُثْقَلُ
إِلَيْهِ مِنْ سُخْرِيَّتِهِ بِهِ ... فَبَادَرَهُ قَائِلًا :

إِنِّي أَرَى أَمَامِي رَجُلًا مَا أَظُنُّهُ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ .
فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا تُؤْزِطْنِي ^(١) وَتَخْذَعْنِي عَنْ نَفْسِي ، فَأَنَا أَكْفَرُ أَهْلِ
الْأَرْضِ ، وَأَكْفَرُ مِنْ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ .
فَحَلَّى سَبِيلَهُ ... وَهُوَ يَتَحَرَّقُ ظَمًا لِقَتْلِهِ .

* * *

ذَاعَتْ أَخْبَارُ تِلْكَ الْمَهْلَكَةِ ^(٢) الرَّهْبِيَّةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ الرَّاسِخِينَ ^(٣) ...

وَنَجَا مِنْهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِمَّنْ أُكْرِهُوا عَلَى دَمْعِ ^(٤) أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ...
فَأَيْقَنَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّهُ إِنْ وَقَعَ بَيْنَ يَدَيِ الْحَجَّاجِ ؛ غَدَا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ لَا ثَالِثَةَ
لَهُمَا :

فَإِذَا أَنْ تُدَقَّ ^(٥) عُنُقُهُ ...
وَأَمَّا أَنْ يُقَرَّرَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ ...
وَهُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مَرٌّ ... فَأَثَرُ ^(٦) أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِ « الْعِرَاقِ » ...
وَأَنْ يَتَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ .
وَوَظَلَّ يَضْرِبُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ مُسْتَحْفِيًا عَنِ الْحَجَّاجِ وَعُيُونِهِ ^(٧)
حَتَّى لَجَأَ إِلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ فِي أَرْضِي مَكَّةَ .

(١) لَا تُؤْزِطْنِي : لَا تَوْقِعْنِي فِي الْهَلَاكِ . (٤) دَمَعُ أَنْفُسِهِمْ : وَشَمَ أَنْفُسِهِمْ .

(٢) الْمَهْلَكَةُ : مَكَانُ الْهَلَاكِ وَمَوْضِعُهُ . (٥) تُدَقُّ عُنُقُهُ : تَقَطُّعُ رَقَبَتِهِ .

(٣) الرَّاسِخِينَ : الثَّابِتِينَ الْمُتَعَمِّقِينَ . (٦) آثَرُ : فَضْلٌ وَاخْتَارَ . (٧) عِيُونُهُ : جَوَاسِيسُهُ .

وَبَقِيَ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ عَشْرَ حِجَجٍ (١) كَامِلَاتٍ كَانَتْ كَافِيَةً لِأَنْ تُطْفِئَ نِيرَانَ الْحَجَّاجِ الْمُتَّقِدَةِ فِي قَلْبِهِ ، وَأَنْ تُزِيلَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ضِغْنٍ (٢) عَلَيْهِ .

* * *

يَبْدَأُ أَنَّهُ حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ أَحَدٌ ... ذَلِكَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى مَكَّةَ وَالِ جَدِيدٌ مِنْ وَلَادَةِ نَبِيِّ « أُمِّيَّة » ... هُوَ « خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ » .

فَتَوَجَّسَ (٣) أَصْحَابُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ خِيفَةً مِنْهُ ؛ لِمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ سُوءِ سِيرَتِهِ ، وَتَوَقَّعُوا الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ .

فَجَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعِيدٍ وَقَالُوا لَهُ :

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدِمَ مَكَّةَ ، وَإِنَّا - وَاللَّهِ - لَا نَأْمَنُهُ عَلَيْكَ ...

فَاسْتَجَبَ لَطَلَبِنَا ؛ وَاخْرُجْ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ فَرَزْتُ حَتَّى صِرْتُ اسْتَحْيَ مِنَ اللَّهِ ...

وَلَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَبْقَى فِي مَكَانِي هَذَا ...

وَلْيَفْعَلِ اللَّهُ بِي مَا يَشَاءُ .

* * *

لَمْ يُكْذِبْ خَالِدٌ ظَنَّ السُّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ النَّاسُ بِهِ ، فَمَا أَنْ عَلِمَ بِمَكَانِ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْهِ سَرِيَّةً (٤) مِنْ جُنُودِهِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسُوقُوهُ مُقَيَّدًا إِلَى الْحَجَّاجِ فِي مَدِينَةِ « وَاسِطَ » (٥) .

فَأُطْبِقَ الْجُنْدُ عَلَى يَتِ الشَّيْخِ ...

(١) عشر حجج : عشر سنوات .

(٢) ضغن : حقد .

(٥) واسط : مدينة واقعة بين البصرة والكوفة ، وقد

سميت بذلك لأنها تقع في وسطهما ، فتبعد عن

كل منهما خمسين ميلاً .

(٣) توجس خيفة : شعر بفرع وخوف .

(٤) السريّة : القطعة من الجيش .

وَأَلْقُوا الْقَيْدَ فِي يَدَيْهِ عَلَى مَرَأَى مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ ...
وَأَذْنُوهُ^(١) بِالرَّحِيلِ إِلَى الْحَجَّاجِ ، فَتَلَقَّاهُمْ هَادِي النَّفْسِ مُطْمَئِنِّ الْقَلْبِ .
ثُمَّ التَّفَّتْ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ :
مَا أَرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا عَلَى يَدَيِ ذَلِكَ الظَّالِمِ ...
وَلَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي فِي لَيْلَةِ عِبَادَةٍ ، فَاسْتَشْعَرْنَا حَلَاوَةَ الدُّعَاءِ
فَدَعَوْنَا اللَّهَ بِمَا دَعَوْنَا ، وَتَضَرَّعْنَا^(٢) إِلَيْهِ بِمَا شَاءَ أَنْ نَتَضَرَّعَ ...
ثُمَّ سَأَلْنَا اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَكْتُبَ لَنَا الشَّهَادَةَ ، وَقَدْ رَزَقَهَا اللَّهُ لِصَاحِبَيَّ
كِلَيْهِمَا ، وَبَقِيْتُ أَنَا أَنْتَظِرُهَا ...
ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَادَ يَنْتَهِي مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى طَلَعَتْ عَلَيْهِ بُنَيَّةٌ صَغِيرَةٌ لَهُ ، فَرَأَتْهُ
مُقَيَّدًا وَالْجُنْدُ يَسْوَقُونَهُ ، فَتَشَبَّهَتْ^(٣) بِهِ ، وَجَعَلَتْ تَبْكِي وَتَنْشُجُ^(٤) ...
فَنَحَّاهَا عَنْهُ بِرَفْقٍ ، وَقَالَ لَهَا :
قُولِي لِأُمِّكِ يَا بُنَيَّةُ : إِنَّ مَوْعِدَنَا الْجَنَّةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ...
ثُمَّ مَضَى ...

* * *

بَلَغَ الْجُنْدُ بِالْإِمَامِ الْحَبْرِ^(٥) الْعَابِدِ الرَّاهِدِ ؛ التَّقِيَّ التَّقِيَّ الْوَرَعَ مَدِينَةَ
« وَاسِطَ » ، وَأَذْخَلُوهُ عَلَى الْحَجَّاجِ .
فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ نَظَرَ إِلَيْهِ فِي حَقْدٍ وَقَالَ : مَا اسْمُكَ ؟ .

(١) أَذْنُوهُ : دَعُوهُ وأعلموه .

(٢) تَضَرَّعْنَا : ابْتَهِلْنَا .

(٣) تَشَبَّهَتْ : تَعَلَّقَتْ .

(٤) تَنْشُجُ : تَغْصُ بِالْبُكَاءِ .

(٥) الْحَبْرِ : الْعَالِمُ الْعَامِلُ .

فَقَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

فَقَالَ : بَلْ شَقِيئُ بْنُ كُسَيْرٍ^(١) .

فَقَالَ : بَلْ كَانَتْ أُمِّي أَعْلَمَ بِاسْمِي مِنْكَ .

فَقَالَ : مَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : تَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؟ ! .

فَقَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى^(٢) ...

خَيْرٌ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْبَشَرِ ، وَخَيْرٌ مَنْ مَضَى ...

حَمَلَ الرِّسَالَةَ ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ...

وَنَصَحَ لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَخَاصَّتِهِمْ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ ؟ .

قَالَ : هُوَ الصَّدِيقُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ذَهَبَ حَمِيداً ، وَعَاشَ

سَعِيداً ...

وَمَضَى عَلَى مِنْهَاجِ^(٣) النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، لَمْ يُعَيَّرْ وَلَمْ

يُبَدَّلْ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُمَرَ ؟ ! .

قَالَ : هُوَ الْفَارُوقُ الَّذِي فَزَقَ^(٤) اللَّهُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ...

(٣) المنهاج : الخطة والطريقة .

(٤) فرق : ميز .

(١) كسير : ضد جبير .

(٢) المصطفى : المختار .

وَخَيْرُهُ^(١) اللَّهُ وَخَيْرُهُ رَسُولُهُ ، وَلَقَدْ مَضَى عَلَى مِنْهَاجٍ^(٢) صَاحِبِيهِ ...

فَعَاشَ حَمِيداً ، وَقُتِلَ شَهِيداً .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ^(٣)

قَالَ : هُوَ الْمُجْهَرُ لِجَيْشِ الْعُسْرَةِ^(٤) ...

الْحَافِرُ بِئَرٍ^(٥) رُومَةَ ...

الْمُشْتَرِي يَبْتَائَ لِنَفْسِهِ فِي الْجَنَّةِ ...

صَهْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى ابْنَتَيْهِ .

وَلَقَدْ زَوَّجَهُ النَّبِيُّ بِوَحْيٍ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُوَ الْمَقْتُولُ ظُلْماً .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ^{١٩} .

قَالَ : ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْفِثْيَانِ ...

وَهُوَ زَوْجُ فَاطِمَةَ الْبَتُولِ^(٦) ...

وَأَبُو الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ سَيِّدَيِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

قَالَ : فَأَيُّ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » أَعْجَبُ لَكَ ؟ .

قَالَ : أَرْضَاهُمْ لِخَالِقِهِمْ .

قَالَ : فَأَيُّهُمْ أَرْضَى لِلْخَالِقِ ؟ .

(١) خيرة الله وَرَسُولُهُ : الذي اختار الله وَرَسُولَهُ .

(٢) منهج صاحبه : خطة الرسول ﷺ وأبي بكر .

(٣) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) جيش العسرة : جيش غزوة تبوك .

(٥) بئر رومة : بئر في عقيق المدينة المنورة اشتراها عثمان بن عفان بمائة ناقة ، وتصدق بها على المسلمين .

(٦) البتول : النقية الطاهرة .

قَالَ : عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ الَّذِي يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ .
 قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِيَّ ؟ .
 قَالَ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ .
 قَالَ : بَلْ أُرِيدُ عِلْمَكَ أَنْتَ .
 قَالَ : إِذَنْ يَسُوءُكَ ^(١) وَلَا يَشْرُوكَ .
 قَالَ : لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ .
 قَالَ : إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ مُخَالِفٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ...
 تُقَدِّمُ عَلَى أُمُورٍ تُرِيدُ بِهَا الْهَيْبَةَ ، وَهِيَ تُفْجِمُكَ ^(٢) فِي الْهَلَكَةِ ...
 وَتَذْفَعُكَ إِلَى النَّارِ دَفْعًا .
 قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُكَ .
 قَالَ : إِذَنْ تُفْسِدَ عَلَيَّ دُنْيَايَ ، وَأُفْسِدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ .
 قَالَ : اخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَيَّ قِتْلَةٍ شِئْتَ .
 قَالَ : بَلِ اخْتَرْهَا أَنْتَ لِنَفْسِكَ يَا حَجَّاجُ ...
 فَوَاللَّهِ مَا تَقْتُلْنِي قِتْلَةً إِلَّا قَتَلَكَ اللَّهُ مِثْلَهَا فِي الْآخِرَةِ .
 قَالَ : أَقْتَرِيدُ أَنْ أَعْفُو عَنْكَ ؟ .
 قَالَ : إِنْ كَانَ عَفْوٌ فَمِنْ اللَّهِ تَعَالَى ...
 أَمَا أَنْتَ فَلَا بَرَاءَةَ ^(٣) لَكَ وَلَا عُذْرَ .

(١) يسوءك : يحزنك .

(٢) تُفْجِمُكَ : تدفعك وتدخلك .

(٣) لَا بَرَاءَةَ لَكَ : لَا عَفْوَ مِنْ عِنْدِكَ .

فَاغْتَاظَ الْحَجَّاجُ وَقَالَ : السَّيْفَ وَالنَّطْعَ (١) يَا غُلَامُ .

فَتَبَشَّسَ سَعِيدٌ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ :

وَمَا تَبَشُّسُكَ ؟ !

قَالَ : عَجِبْتُ مِنْ جَرَأَتِكَ (٢) عَلَى اللَّهِ وَحِلْمِ اللَّهِ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : اقْتُلْهُ يَا غُلَامُ .

فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَقَالَ :

﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ (٣) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا (٤) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥) .

فَقَالَ : احْرِفُوا (٦) وَجْهَهُ عَنِ الْقِبْلَةِ .

فَقَالَ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا (٧) فَثَمَّ (٨) وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (٩) .

فَقَالَ : كُتِبَوهُ (١٠) عَلَى الْأَرْضِ .

فَقَالَ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١١) .

فَقَالَ : اذْبَحُوا عَدُوَّ اللَّهِ ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَدْعَى (١٢) مِنْهُ لآيَاتِ الْقُرْآنِ ...

فَرَفَعَ سَعِيدٌ كَفَّيْهِ وَقَالَ :

(١) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالقتل .

(٢) جرأته : إقدامك .

(٣) فطر : خلق وأنشأ .

(٤) حنيفاً : مائلاً إلى الدين القيم .

(٥) سورة الأنعام : ٧٩ .

(٦) احرفوا وجهه : أميلوا وجهه .

(٧) تَوَلَّوْا : تتجهوا .

(٨) ثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ : هناك قبله الله التي ترضاها .

(٩) سورة البقرة : ١١٥ .

(١٠) كُتِبَوهُ عَلَى الْأَرْضِ : اقبلوه عَلَى الْأَرْضِ .

(١١) سورة طه : ٥٥ .

(١٢) أَدْعَى مِنْهُ : أَقْوَى استحضاراً منه .

اللَّهُمَّ : لَا تُسَلِّطِ الْحَجَّاجَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي .

* * *

لَمْ يَمُضِ عَلَى مَضَرَعِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ غَيْرُ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْماً حَتَّى حُمَّ^(١)
الْحَجَّاجُ ، وَاسْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْمَرَضِ .

فَكَانَ يَغْفُو^(٢) سَاعَةً وَيُفِيقُ أُخْرَى ...

فَإِذَا عَفَا عَفْوَةً صَغِيرَةً ؛ اسْتَيْقَظَ مَذْعُوراً^(٣) وَهُوَ يَصِيحُ :

هَذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ آخِذٌ بِخَنَاقِي^(٤) ...

هَذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يَقُولُ : فِيمَ قَتَلْتَنِي ؟ ! .

ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ :

مَالِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ؟ !! رُدُّوا عَنِّي سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ ...

فَلَمَّا قَضَى نَحْبَهُ^(٥) وَوُورِيَ ثَرَابَهُ ، رَأَاهُ بَعْضُهُمْ فِي الْحُلَمِ فَقَالَ لَهُ :

مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ فِي مَنْ قَتَلْتَهُمْ يَا حَجَّاجُ ؟ .

فَقَالَ : قَتَلَنِي اللَّهُ بِكُلِّ امْرِي قَتْلَةً وَاحِدَةً ...

وَقَتَلَنِي بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ سَبْعِينَ قَتْلَةً (*) .

(١) حُمَّ : أصابته الحمى . (٣) مَذْعُوراً : فزعاً خائفاً .

(٢) يغفو : يرقد رقدة خفيفة . (٤) بخناقِي : يعنقي . (٥) قضى نَحْبَهُ : هلك ومات .

(*) للاستزادة من أخبار سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢٥٦/٦ .

٢ - الزهد للإمام أحمد بن حنبل : ٣٧٠ .

٣ - طبقات الفقهاء للشيرازي : ٨٢ . ٧ - تاريخ الإسلام : ٢/٤ . ١١ - العقد الثمين : ٥٤٩/٤ .

٤ - البداية والنهاية : ٩٦/٩ - ٩٨ . ٨ - تذكرة الحفاظ : ٧١/١ . ١٢ - النجوم الزاهرة : ٢٢٨/١ .

٥ - تاريخ البخاري : ٤٦١/٣ . ٩ - العبر : ١١٢/١ . ١٣ - طبقات المفسرين : ١٨١/١ .

٦ - وفيات الأعيان : ٣٧١/٢ . ١٠ - أخبار القضاة : ٤١١/٢ . ١٤ - شذرات الذهب : ١٠٨/١ .

مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ شَيْخُ الرَّاهِدِينَ فِي عَصَرِهِ

« لِلْأَمْرَاءِ قُرَاءَةٌ وَلِلْأَغْنِيَاءِ قُرَاءَةٌ ، وَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ لَمِنْ قُرَاءِ الرَّحْمَنِ »
[مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...
وَهَذَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، أَحَدُ سُيُوفِ الْإِسْلَامِ الْمَسْلُولَةِ ...
وَوَالِي « خُرَاسَانَ » الْعَتِيدُ^(١) ...
يَنْهَدُ^(٢) بِجَيْشِهِ الْبَالِغِ مِائَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، عَدَا الْمُتَطَوِّعِينَ مِنْ طُلَابِ
الشَّهَادَةِ ، وَرُغَابِ الْمَثُوبَةِ ...
وَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى فَتْحِ « جُزْجَانَ » ، « وَطَبْرِسْتَانَ »^(٣) ... وَكَانَ فِي
طَلِيعَةِ الْمُتَطَوِّعِينَ مَعَهُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ الْبَصْرِيُّ ...
الْمُلَقَّبُ بِزَيْنِ الْفُقَهَاءِ ...
الْمَعْرُوفُ بِعَابِدِ « الْبَصْرَةِ » ...
وَتَلْمِيزُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ أَنَسِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ^(٤) ، خَادِمِ الرَّسُولِ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

(١) العتيد : القوي المستعد .

(٢) ينهد : يسرع إلى العدو ، ويرز له .

(٣) جُزْجَانُ وَطَبْرِسْتَانُ : فتحهما يزيد بن المهلب ، وهما منطقتان من مناطق بلاد فارس .

(٤) أنس بن مالك الأنصاري : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

نَزَلَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بِجَيْشِهِ عَلَى « دِهْشْتَانَ » .
وَكَانَ يَقْطُنُهَا قَوْمٌ مِنَ « التُّرُكِ » ، شَدِيدٌ بِأُسْهُمٍ ...
قَوِيٌّ مِرَاسُهُمْ ^(١) ...
مَنْيَعَةٌ حُصُونُهُمْ ^(٢) ...

فَكَانُوا يَخْرُجُونَ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ يَوْمٍ ...
فَإِذَا نَالَ مِنْهُمْ الْجُهْدُ أَوْ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَأْسُ ، انْحَاذُوا ^(٣) إِلَى مَعَاقِلِهِمْ ^(٤)
فِي شِعَابِ ^(٥) الْجِبَالِ ...
وَتَحَصَّنُوا بِحُصُونِهَا الْمَنْيَعَةِ ، وَلَاذُوا بِذُرَاهَا ^(٦) الرَّفِيعَةِ ...

* * *

وَقَدْ كَانَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ مَقَامٌ كَبِيرٌ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ ؛ عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ بِنْيَتِهِ ، وَتَقَدُّمِ سِنِّهِ ...
فَلَقَدْ كَانَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَرْوِحُونَ ^(٧) بِنُورِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَتَهَلَّلُ مِنْ
وَجْهِهِ السَّمْحِ ...

وَيَنْشَطُونَ لِحَرَارَةِ الذُّكْرِ الَّتِي تَشِعُّ مِنْ لِسَانِهِ الْعَذْبِ ...
وَيَطْمَئِنُّونَ إِلَى دَعَوَاتِهِ الْمُسْتَجَابَةِ فِي لَحْظَاتِ الشَّدَّةِ وَالْكَرْبِ ...
وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ ^(٨) إِذَا أَنْشَبَ قَائِدُ الْجَيْشِ الْقِتَالَ ، أَنْ يُنَادِيَ :
يَا خَيْلَ اللَّهِ ازْكَبِي ...

(١) مراسهم : بأسهم وقوتهم .

(٢) الحصون : الأماكن المنيعَة المحميّة .

(٣) ذراها : مرتفعاتها .

(٤) انحاذا : لجأوا .

(٥) شِعَابِ : يجدون الراحة ويطلبونها .

(٦) معاقلهم : جبالهم المرتفعة .

(٧) يستروحوون : من خطته وطريقته .

يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي ...

فَلَا يَكَادُ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْمَعُونَ نِدَاءَهُ ، حَتَّى يَهْبُتُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ
كَمَا تَهْبُتُ الْأَسُودُ الْمُسْتَنْفَرَةُ^(١) ...

وَيُقْبِلُوا عَلَى سَاحَةِ الْوَعَى إِقْبَالَ الظَّمَاءِ عَلَى الْمَاءِ الْبُرُودِ^(٢) فِي الْيَوْمِ
الْقَائِظِ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ مَعْرَكَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَعَارِكِ الطَّاحِنَةِ الضَّرُوسِ^(٣) ، بَرَزَ مِنْ
صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ فَارِسٌ لَمْ تَقَعِ الْعَيْنُ عَلَى أَجْسَمٍ مِنْهُ جَسَامَةٌ^(٤) ...
وَلَا أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً ...

وَلَا أَوْفَى جُرْأَةً ...

وَلَا أَمْضَى^(٥) عَزْماً ...

وَطَفِقَ يَصُولُ^(٦) يَيْنَ الصُّفُوفِ وَيَجُولُ ، حَتَّى نَحَى الْمُسْلِمِينَ عَنْ
مَوَاقِعِهِمْ ...

وَبَعَثَ الْخَشْيَةَ وَالْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِهِمْ ...

ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُبَارَزَةِ مُتَحَدِّياً مُسْتَكْبِراً ، وَيُلِخُّ^(٧) فِي الدُّعَاءِ .
فَمَا كَانَ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ وَاسِعٍ إِلَّا أَنْ هَمَّ بِأَنْ يَهْرَزَ لَهُ .
عِنْدَ ذَلِكَ دَبَّتِ الْحَمِيَّةُ^(٨) فِي نَفُوسِ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ...

(٥) أمضى : أقوى .

(٦) طفق يصول : أخذ يجول في ساحة الحرب .

(٧) يلخ : يلحف ويكرز .

(٨) الحمية : الأنفة والإباء .

(١) المستنفرة : الهائجة المستثارة .

(٢) البرود : البارد الصافي .

(٣) الضروس : الشديدة المهلكة .

(٤) أجسم جسامته : أضخم ضخامة وأشدَّ عظمة .

وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ بِأَلَّا يَفْعَلَ ، وَسَأَلَهُ بِأَنْ يَتْرَكَ لَهُ ذَلِكَ ...

فَأَبْرَ^(١) الشَّيْخُ قَسَمَهُ ، وَدَعَا لَهُ بِالنَّصْرِ والتَّأْيِيدِ ...

* * *

أَقْبَلَ كُلٌّ مِنَ الْفَارِسِينَ عَلَى عَدُوِّهِ إِقْبَالَ الْمُتَوَكِّلِينَ ...

وَتَصَاوَلَا مُصَاوَلَةَ أَسَدَيْنِ خَادِرَيْنِ^(٢) ...

فَتَعَلَّقَتْ بِهِمَا عُيُونُ الْجُنْدِ وَقُلُوبُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

وَاسْتَمَرَّا سَاعَةً يَتَصَاوَلَانِ وَيَتَجَاوَلَانِ ، حَتَّى أَخَذَ الْجُهْدُ مِنْهُمَا كُلَّ مَا أَخَذَ .

ثُمَّ اخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ بِسَيْفَيْهِمَا عَلَى رَأْسَيْهِمَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ...

فَثَبَّتْ سَيْفُ « التُّرْكِيِّ » فِي حَدِيدِ بَيْضَةِ^(٣) الْفَارِسِ الْمُسْلِمِ ...

وَنَزَلَ سَيْفُ الْمُسْلِمِ عَلَى جَبِينِ الْفَارِسِ « التُّرْكِيِّ » ، فَشَطَرَ رَأْسَهُ شَطَرَيْنِ ...

وَفَلَقَ هَامَتَهُ^(٤) فِلَقَتَيْنِ ...

ثُمَّ عَادَ الْفَارِسُ الْمُتَنَصِّرُ إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فِي مَنْظَرٍ لَمْ تَشْهَدْ الْعَيْنُ مِثْلَهُ قَطُّ .

فَسَيْفٌ فِي يَدِهِ يَقْطُرُ دَمًا ...

وَسَيْفٌ مُثَبَّتٌ فِي خُوذَتِهِ^(٥) يَلْتَمِعُ تَحْتَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ .

(١) أBR قسمه : أمضى يمينه ونفذها .

(٢) خادرين : شديدين ، قويين .

(٣) البيضة : الخوذة المصنوعة من الحديد . (٤) هامة : هامة الإنسان رأسه .

(٥) الخوذة : ما يضعه المحارب على رأسه ليقيه ضربات السيوف .

فَاسْتَقْبَلَهُ الْمُسْلِمُونَ بِالتَّهْلِيلِ ، وَالتَّكْبِيرِ ، وَالتَّحْمِيدِ .
وَنَظَرَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ إِلَى اثْتِلَاقِ (١) السِّيفَيْنِ ، وَالْبَيْضَةِ ، وَالسَّلَاحِ عَلَى
الرَّجُلِ ... فَقَالَ : لِلَّهِ أَبُوهُ مِنْ فَارِسٍ !! ...
أَيُّ رَجُلٍ هَذَا ؟ ! .

فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ رَجُلٌ بَارَكَنَّهُ دَعَوَاتُ مُحَمَّدٍ بْنِ وَاسِعٍ الْأَزْدِيِّ ...

* * *

انْقَلَبَ مِيزَانُ الْقُوَى بَعْدَ مَضَرَعِ الْفَارِسِ « التُّرْكِيِّ » ... فَسَرَى الْجَزْعُ
وَالْهَلَعُ (٢) فِي نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ سَرِيانَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ (٣) ...
وَاضْطَرَمَّتْ نِيرَانُ النَّخْوَةِ وَالْعِزَّةِ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ .
فَأَقْبَلُوا عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ إِقْبَالَ السَّيْلِ ...
وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ الْغُلِّ (٤) بِالْعُنُقِ ...
وَقَطَعُوا عَنْهُمْ الْمَاءَ وَالْمِيرَةَ (٥) .
فَلَمْ يَجِدْ مَلِكُهُمْ بُدًّا مِنَ الْمُصَالِحَةِ ...

فَبَعَثَ إِلَى يَزِيدَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الصُّلْحَ ، وَيُعْلِنُ اسْتِعْدَادَهُ لِتَسْلِيمِهِ مَا فِي يَدِهِ
مِنَ الْبِلَادِ بِكُلِّ مَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا ، عَلَى أَنْ يُؤَمِّنَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ .
فَقَبِلَ يَزِيدُ مُصَالَحَتَهُ ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ
مُقَسَّطَةً (٦) ...

(١) الاثتِلَاقُ : اللِّمَعَانُ .

(٢) الهَلَعُ : الخوف .

(٣) الهَشِيمُ : الكَلَأُ الْيَابِسُ .

(٤) الْغُلُّ : طَوْقٌ مِنْ جِلْدٍ أَوْ حَدِيدٍ يَجْعَلُ فِي الْبَدَنِ أَوْ الْعُنُقِ .

(٥) المِيرَةُ : الطَّعَامُ الَّذِي يَدْخُرُهُ الْإِنْسَانُ .

(٦) مُقَسَّطَةٌ : مَجْرَأَةٌ أَجْزَاءَ مُحَدَّدَةٍ تُدْفَعُ فِي أَوْقَاتٍ مُعْلُومَةٍ .

وَأَنْ يَنْقُدَهُ أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفٍ مُعَجَّلَةً ...

وَأَنْ يُقَدِّمَ لَهُ أَرْبَعِمِائَةَ دَابَّةٍ مُحَمَّلَةً زَعْفَرَانًا^(١) ...

وَأَنْ يَشُوقَ لَهُ أَرْبَعِمِائَةَ رَجُلٍ ؛ فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَانَمٌ^(٢) مِنْ
الْفِصَّةِ ...

وَعَلَى رَأْسِهِ بُرْنُسٌ مِنَ الْخَزْرِ^(٣) ...

وَعَلَى الْبُرْنُسِ طَيْلَسَانٌ مِنَ الْقَطِيفَةِ^(٤) ، وَسَرَقَةٌ^(٥) مِنَ الْحَرِيرِ لِتَلْبَسَهَا
نِسَاءُ الْجُنْدِ ...

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعَارِكُ أَوْزَارَهَا^(٦) قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ لِخَازِنِهِ^(٧) :

أُخْصِ لَنَا الْغَنَائِمَ حَتَّى نُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ...

فَحَاوَلَ الْخَازِنُ وَمَنْ مَعَهُ أَنْ يُخْصُوهَا ؛ فَعَجِزُوا عَنْ ذَلِكَ ...

فَقُسِمَتِ الْغَنَائِمُ بَيْنَ الْجُنْدِ قِسْمَةً قَائِمَةً عَلَى التَّسَامُحِ ...

* * *

وَقَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْغَنَائِمِ تَاجًا مَصُوعًا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ ...

مُحَلًى بِالذَّرِّ وَالْجَوْهَرِ ...

مُرْخَرَفًا بِرَوَائِعِ الثَّقُوشِ .

فَتَطَاوَلَتْ^(٨) نَحْوُهُ الرِّقَابُ ...

(١) الزعفران : نبات يستخدم لتطيب الطعام وتلوينه .

(٢) الجانم : الكأس .

(٣) البرنُس : ثوب يكون غطاء الرأس جزءًا منه ، والخز : الحرير .

(٤) القطيفة : دثارٌ مخمل يلقيه الرجل على نفسه .

(٥) سرقة من الحرير : شقة من حرير تلبسها النساء . (٧) الخازن : الذي يتولى حفظ المال وإنفاقه .

(٦) أوزارها : أثقالها . (٨) تطاولت : امتدت .

وَتَسَمَّرْتُ^(١) عَلَى لَأَلِيهِ الْعُيُونُ .

فَأَخَذَهُ يَزِيدُ بِيَدِهِ ، وَرَفَعَهُ حَتَّى يَرَاهُ مَنْ لَمْ يَسْتَطِيعَ رُؤْيَتَهُ مِنَ الْجُنْدِ ، ثُمَّ قَالَ :

أَتَرُونَ أَنَّ أَحَدًا يَزْهَدُ^(٢) فِي هَذَا النَّجَاحِ ؟!

فَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَزْهَدُ بِهِ ؟!

فَقَالَ :

سَتَرُونَ أَنَّهُ مَا زَالَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ يَزْهَدُ بِهِ ...
وَبِمِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِهِ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى حَاجِبِهِ وَقَالَ :

الْتِمِسْ^(٣) لَنَا مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ .

فَانْطَلَقَ الْحَاجِبُ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ جِهَةٍ ...

فَالْفَاهُ قَدْ انْتَحَلَ مَكَانًا قَصِيًّا^(٤) عَنِ النَّاسِ ، وَانْتَصَبَ قَائِمًا يَتَنَقَّلُ^(٥)
وَيَدْعُو ، وَيَيْتَهَلُ وَيَسْتَغْفِرُ ...

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ :

إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُوكَ لِلِقَائِهِ ، وَيَسْأَلُكَ أَنْ تَمْضِيَ إِلَيْهِ السَّاعَةَ ...

(١) تسمرت : تعلقت .

(٢) يزهد : يتخلى ويستهيئ .

(٣) التمس فلاناً : ابحث عن فلان واطلبه .

(٤) قصيًّا : بعيداً .

(٥) يتنقل : يصلي النوافل ، والنوافل : ما لم يفرض على المسلم .

فَمَضَى مَعَ الْحَاجِبِ ، حَتَّى إِذَا صَارَ عِنْدَ الْأَمِيرِ حَيًّا وَجَلَسَ قَرِيباً مِنْهُ ،
فَرَدَّ الْأَمِيرُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ...

ثُمَّ رَفَعَ التَّاجَ بِيَدِهِ وَقَالَ :

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ظَفِرُوا بِهَذَا التَّاجِ الثَّمِينِ ...
وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُوثِرَكَ^(١) بِهِ ، وَأَنْ أَجْعَلَهُ مِنْ نَصِييِكَ ؛ فَطَابَتْ نَفُوسُ
الْجُنْدِ بِذَلِكَ ...

فَقَالَ : تَجْعَلُهُ مِنْ نَصِييِي أَنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ !؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ مِنْ نَصِييِكَ أَنْتَ .

فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

وَجُزِيتَ وَإِيَّاهُمْ عَنِّي خَيْرًا .

فَقَالَ : أَقَسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ لَتَأْخُذَنَّهُ .

فَلَمَّا وَقَعَ قَسَمُ الْأَمِيرِ أَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ التَّاجَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ وَانْصَرَفَ .

فَقَالَ بَعْضُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الشَّيْخَ :

هَذَا هُوَ ذَا قَدْ اسْتَأْثَرَ^(٢) بِالتَّاجِ ، وَمَضَى بِهِ .

فَأَمَرَ يَزِيدُ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِهِ أَنْ يَتَّبِعَهُ مُسْتَخْفِيًا^(٣) عَنْهُ ...

وَأَنْ يَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ بِالتَّاجِ ...

وَأَنْ يَأْتِيَهُ بِخَبَرِهِ ...

(١) أُوْثِرَكَ بِهِ : أَكْرَمَكَ بِهِ .

(٢) اسْتَأْثَرَ بِالتَّاجِ : أَثَرُ بِهِ نَفْسَهُ ، وَاخْتَصَ بِهِ .

(٣) مُسْتَخْفِيًا : مُسْتَرًا عَنْهُ .

فَتَبِعَهُ الْغُلَامُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي بِهِ .

* * *

مَضَى مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ فِي طَرِيقِهِ ، وَالتَّاجُ فِي يَدِهِ ...
فَعَرَضَ لَهُ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ^(١) زَرِيَّ الْهَيْئَةِ فَسَأَلَهُ قَائِلًا :
مِنْ مَالِ اللَّهِ ...

فَنَظَرَ الشَّيْخُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ ...
فَلَمَّا اسْتَيْقَنَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَرَاهُ ، دَفَعَ بِالتَّاجِ إِلَى السَّائِلِ ...
ثُمَّ انْطَلَقَ فَرِحًا جَدِلًا^(٢) ...

كَأَنَّمَا أَلْقَى عَنْ كَاهِلِهِ عِبْنًا كَانَ يُثْقِلُ ظَهْرَهُ ...
فَأَمْسَكَ الْغُلَامُ بِيَدِ السَّائِلِ ، وَأَتَى بِهِ الْأَمِيرَ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ ...
فَأَخَذَ الْأَمِيرُ التَّاجَ مِنَ السَّائِلِ ، وَعَوَّضَ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَفِيرٍ حَتَّى أَرْضَاهُ .
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْجُنْدِ وَقَالَ :
أَمَا قُلْتُ لَكُمْ : إِنَّهُ مَا زَالَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ يَزْهَدُ
بِهَذَا التَّاجِ ، وَأَمْنَالٍ أَمْثَالِهِ .

* * *

ظَلَّ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ يُجَاهِدُ الْمُشْرِكِينَ تَحْتَ رَايَةِ يَزِيدَ بْنِ
الْمُهَلَّبِ حَتَّى اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الْحَجِّ .
فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُ غَيْرُ وَقْتٍ قَصِيرٍ ؛ دَخَلَ عَلَى يَزِيدَ ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي
الْإِنْصِرَافِ إِلَى الْقِيَامِ بِالنُّسْكِ^(٣) .

(١) أَشْعَثُ أَغْبَرُ : مُتَلَبِّدُ الشَّعْرِ مُغْبَرُهُ .

(٢) جَدِلًا : فَرِحًا .

(٣) النُّسْكُ : الْحَجُّ تَطَوُّعًا وَذَلِكَ بَعْدَ آدَاءِ الْفَرِيضَةِ .

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ :

إِذْنُكَ بِيَدِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَمْضِ مَتَى شِئْتَ ...
وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِمَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ يُعِينُكَ عَلَى حُجِّكَ .
فَقَالَ لَهُ :

وَهَلْ سَتَأْتُرُ بِمِثْلِ هَذَا الْمَالِ لِكُلِّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟ !
فَقَالَ : لَا ...

فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِشَيْءٍ أُخْصُ بِهِ ^(١) مِنْ دُونِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ .
ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ ...

* * *

شَقَّ ^(٢) سَفَرُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ عَلَى يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ كَمَا شَقَّ
عَلَى جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَظُّوا بِضُحْبَتِهِ ^(٣) .

وَأَسْفُوا لِحَرَمَانَ جَيْشِهِمُ الظَّافِرِ مِنْ بَرَكَاتِهِ ، وَتَمَنَّوْا عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِمْ
حِينَ يَقْرُعَ مِنْ قَضَاءِ نُسْكِهِ .

وَلَا غَرَوْ ^(٤) فَقَدْ كَانَ قَوَادُ الْمُسْلِمِينَ الْمُنْتَشِرُونَ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ
يَحْرِضُونَ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَابِدُ « الْبَصْرَةِ » مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ
فِي عِدَادِ جَيْشِهِمْ ...

وَكَانُوا يَسْتَبْشِرُونَ بِوُجُودِهِ مَعَهُمْ خَيْرًا كَثِيرًا ...
وَيَزُجُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَهَبَهُمُ النَّصْرَ الْمُؤَزَّرَ بِصَالِحِ دَعَوَاتِهِ ...

(١) أُخْصُ بِهِ : أُمَيَّرُ بِهِ عَلَى الْآخَرِينَ .

(٣) بِضُحْبَتِهِ : بِمِرَافِقَتِهِ .

(٤) لَا غَرَوْ : لَا عَجَب .

(٢) شَقَّ : صَغَبَ .

وَجَزِيلٌ ^(١) بَرَكَاتِهِ ...

* * *

وَبَعْدُ ؛ فَمَا أَكْرَمَ هَذِهِ النُّفُوسَ الَّتِي كَانَتْ صَغِيرَةً فِي عُيُونِ أَنْفُسِهَا ...
كَبِيرَةً عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ .

وَمَا أَجَلَ هَذَا التَّارِيخِ الَّذِي ظَفِرَ بِهِؤُلَاءِ الْأَفْدَاذِ ^(٢) مِنْ رَوَائِعِ الرِّجَالِ .
وإِلَى لِقَاءِ آخَرٍ مَعَ عَابِدِ « الْبَصْرَةِ » مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأُرْدِيِّ .

(١) جزيل بركاته : وافر تقاه وصلاحه .

(٢) الأفذاذ : النادرون الذين لَا نظير لهم .

مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ عَايِدُ الْبَصْرَةِ وَزِينُ الْفُقَهَاءِ

«إِنْ إِضْبَعَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ ...
يَحْمِلُهَا أَلْفُ شَابٍّ طَرِيرٍ ...»

[قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ ...

وَهَذَا مَفْخَرَةُ الْمُسْلِمِينَ الْقَائِدِ الْفَاتِحِ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمِ الْبَاهِلِيِّ ، يَنْهَدُ^(١)
بِجَيْشِهِ اللَّجَبِ^(٢) مِنْ مَدِينَةِ «مَرْو»^(٣) مُتَوَجِّهًا إِلَى مِنْطَقَةِ «بُخَارَى»^(٤).

فَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يَفْتَحَ مَا تَبَقَّى مِنْ بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ^(٥) ...

وَأَنْ يَغْزُوا أَطْرَافَ «الصِّين» ...

وَأَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَهْلِهَا الْجَزِيَّةَ^(٦).

لَكِنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ مَا كَادَ يَغْبُرُ نَهْرَ «سِيحُون»^(٧) حَتَّى نَذَرَ^(٨) بِهِ أَهْلُ
«بُخَارَى» ، فَهَبُّوا يَدْقُونَ طُبُولَ الْحَرْبِ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَطَفِقُوا يَسْتَضْرِحُونَ الْأَقْوَامَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ مِنْ «الصُّغْد»^(٩) ...

(١) ينهد : يخرج .

(٢) اللجب : الجرار ذو الجَلْبَةِ .

(٣) مَرْو : هي «مَرْو الروذ» إحدى حواضر الفرس ، مات فيها المهلب بن أبي صفرة .

(٤) بخارى : مدينة في أوزبكستان عَلَى ملتقى الطرق بين فارس وروسيا والهند والصين .

(٥) ما وراء النهر : ما وراء نهر «جيحون» في خراسان .

(٦) الجزية : ما يؤخذ من أهل الذَّمَّة .

(٧) نهر سيحون : نهر شهير كبير واقع بعد سمرقند .

(٨) نذر به : علم به واستعد له .

(٩) الصُّغْد : أمة دخلت في طاعة الفرس .

وَ«الشُّرُكِ» ...

وَ«الصِّينِ» ...

وغيرهم ، وغيرهم ...

فَتَدَفَّقَتْ عَلَيْهِمْ جُمُوعُ الْمُقَاتِلِينَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَعِزْقٍ ، وَلُغَةٍ وَدِينٍ ...
حَتَّى بَلَغُوا أَضْعَافَ أَضْعَافِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عُدَّةً وَعَدَدًا .

ثُمَّ إِنَّهُمْ بَادَرُوا فَسَدُوا فِي وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ أَفْوَاهَ الطُّرُقِ ...
وَأَغْلَقُوا ذُؤُنُهُمُ الثُّغُورَ وَالْمَسَالِكَ ...

حَتَّى إِنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُسَرِّبَ ^(١) إِلَيْهِمْ سَرِيَّةً صَغِيرَةً مِنْ
سَرَايَاهُ لِيَتَحَسَّسَ أَحْوَالَهُمْ ، وَتَأْتِيَهُ بِأَخْبَارِهِمْ ...

كَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْ عُيُونِهِ الْمُنبِّثِينَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَنْفُذَ إِلَيْهِ .

* * *

عَسَكَرَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِجَيْشِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ «يَكْنَدَ» ^(٢) ، وَتَسَمَّرَ فِي
مَكَانِهِ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ...

فَأَخَذَ الْعَدُوُّ يَبْزُزُ لَهُ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ صَبَاحٍ بِطَلِيعَةٍ مِنْ طَلَائِعِهِ ، فَتُتَاوَشُ
جَيْشُهُ سَحَابَةَ النَّهَارِ كُلِّهِ ...

فَإِذَا جَنَّ ^(٣) عَلَيْهَا اللَّيْلُ عَادَتْ إِلَى قَوَاعِدِهَا الْحَصِينَةِ الْأَمِينَةِ .

وَقَدْ اسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ...
وَقُتَيْبَةُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ .

(١) يُسَرِّبُ : يُدْخِلُ خَفِيَةً .

(٢) يَكْنَدُ : إِحْدَى مَدَنٍ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ .

(٣) جَنَّ اللَّيْلُ : أَظْلَمَ .

فَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْحِجُّمُ^(١) أَمْ يُقَدِّمُ ؟ .

ثُمَّ مَا لَبِثْتَ أَنْ بَلَغْتَ أَخْبَارَ قُتَيْبَةَ وَجُنْدِهِ أَسْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ .
فَجَزَعَ النَّاسُ أَشَدَّ الْجَزَعِ عَلَى الْجَيْشِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَمْ يُقْهَرْ ...
وَالْقَائِدِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَمْ يُغْلَبْ .

وَصَدَرَتِ التَّوْجِيهَاتُ إِلَى الْوَلَاةِ فِي الْأَمْصَارِ بِأَنْ يُدْعَى لِجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ
الْمُتَرَبِّصِينَ^(٢) فِي بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ إِنْزَرَ كُلُّ صَلَاةٍ .

فَأَخَذَتْ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ تَضِجُ^(٣) مِنْ أَجْلِهِمْ بِالْدُّعَاءِ ...
وَطَفِئَتْ مَادِنُهُمْ تَعِجُ^(٤) بِالضَّرَاعَةِ وَالْإِيْتِهَالِ ...
وَدَأَبَ الْأُيُمَةُ يَقْتَتُونَ^(٥) فِي كُلِّ صَلَاةٍ .

وَهَبَّ لِنَجْدَةِ الْجَيْشِ الْعَتِيدِ^(٦) خَلْقٌ كَثِيرٌ ...
وَكَانَ يَقْدُمُهُمُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ .

* * *

كَانَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمِ الْبَاهِلِيِّ عَيْنُ^(٧) مِنْ أَبْنَاءِ الْعَجَمِ ؛ مَشْهُودٌ لَهُ بِالْحُنْكَةِ
وَالْحِكْمَةِ وَالْدَّهَاءِ يُقَالُ لَهُ « تَيْذَرُ » ...

فَاسْتَمَالَهُ الْأَعْدَاءُ إِلَيْهِمْ ، وَبَدَّلُوا لَهُ الْمَالَ بِسَخَائِهِ ...

(١) أحجم عن الأمر : رجع عنه وتأخر عن فعله .

(٢) المتربصين : المنتظرين حتى تتكشف الأمور .

(٣) تضج بالدعاء : ترفع أصواتها بالدعاء ، وتملأ به الأرض .

(٤) تعج بالضراعة : تصيح تذللًا لله .

(٥) يقتنون : يدعون الله ويسألونه النضر .

(٦) العتيد : القوي .

(٧) عين : جاسوس .

وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ حِيلَتَهُ وَذَكَاءَهُ فِي تَوْهِينِ^(١) قُوَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَحَمْلِهِمْ عَلَى مُعَادَرَةِ الْبِلَادِ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ ...

* * *

دَخَلَ « تَيْذَرُ » عَلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ .

وَكَانَ مَجْلِسُهُ حَافِلاً بِكِبَارِ الْقَوَادِ وَوُجُوهِ الْجُنْدِ ، فَأَخَذَ مَكَانَهُ إِلَى
جَانِبِهِ ، ثُمَّ مَالَ عَلَيْهِ وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلاً :

أَحْلِ^(٢) مَجْلِسَكَ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ إِذَا شِئْتَ .

فَأَشَارَ قُتَيْبَةُ إِلَى مَنْ فِي الْمَجْلِسِ ؛ فَأَنْصَرَفُوا جَمِيعاً إِلَّا ضِرَارَ بْنَ الْحَصِينِ
فَقَدِ اسْتَبَقَاهُ قُتَيْبَةُ .

عِنْدَ ذَلِكَ التَّفَتَّ « تَيْذَرُ » إِلَى قُتَيْبَةَ وَقَالَ :

لَكَ عِنْدِي أَخْبَارٌ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ ...

فَقَالَ قُتَيْبَةُ - فِي لَهْفَةٍ - : هَاتِيهَا .

فَقَالَ « تَيْذَرُ » : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي دِمَشْقَ - قَدْ عَزَلَ الْحَجَّاجَ بْنَ
يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ...

وَعَزَلَ الْقَوَادِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ ، وَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ...

وَوَلَّى عَلَى الْجُيُوشِ قَوَاداً جُدُداً ، وَوَجَّهَهُمْ إِلَى أَعْمَالِهِمْ ...

وَإِنَّ خَلْفَكَ^(٣) قَادِمٌ عَلَيْكَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا .

وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَنْصَرِفَ بِجَيْشِكَ عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ ...

(١) توهين القوى : إضعاف القوى وضعفها .

(٢) أحل مجلسك : فرغ مجلسك من الناس .

(٣) خلّك : الذي سيخلفك ويحل محلك .

وَأَنْ تَعُودَ إِلَى « مَرَوْ » لِتَتَذَكَّرَ أَمْرَكَ بَعِيداً عَنْ سَاحَاتِ الْمَعَارِكِ .

* * *

مَا كَادَ « تَيْذَرُ » يُنِيمُ كَلَامُهُ حَتَّى دَعَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ غُلَامَهُ « سِيَاهُ » ، فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ :

اضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْخَائِنِ يَا « سِيَاهُ » ...

فَضْرَبَ « سِيَاهُ » عُنُقَهُ ، وَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى ...

وَهُنَا التَّفَتُّ قُتَيْبَةُ إِلَى ضِرَارِ بْنِ الْحُصَيْنِ وَقَالَ :

لَيْسَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ سَمِعَ هَذَا الْخَبَرَ غَيْرِي وَغَيْرِكَ ، وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ لَئِنْ ظَهَرَ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تَنْقُضِي حَرْبَنَا هَذِهِ لِأَلْحِقَنَّكَ بِهَذَا الْغَادِرِ ...

فَإِذَا كَانَتْ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ ؛ فَاحْفَظْ^(١) عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ انْتِشَارَ هَذَا الْحَدِيثِ يُفْتُ^(٢) فِي عَضْدِ الْجُنْدِ ...

وَيُنْزِلُ بَنَاهُ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً .

ثُمَّ أَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا رَأَوْا « تَيْذَرَ » مُجْنَدلاً^(٣) عَلَى الْأَرْضِ ، غَارِقاً فِي دِمَائِهِ ... وَقَفُوا وَاجِمِينَ^(٤) مُطْرِقِينَ^(٥) مُرْتَاعِينَ ...

فَقَالَ لَهُمْ قُتَيْبَةُ : مَا يَرُوعُكُمْ^(٦) مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ غَادِرٍ خَائِنٍ ؟ !

فَقَالُوا : كُنَّا نَظُنُّهُ نَاصِحاً لِلْمُسْلِمِينَ .

(١) احفظ لسانك : اكتم الأمر ولا تحدث به أحداً . (٤) واجمين : دهشين متحيرين .

(٢) يفت في عضد الجند : يوهن قوة الجند . (٥) مطرقين : ساكتين .

(٣) مجندلاً : صريعاً . (٦) ما يروعكم : ما يفزعكم .

فَقَالَ : بَلْ كَانَ غَاشًّا لَهُمْ ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ بِذَنْبِهِ .

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ :

وَالآنَ انْصَرِفُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ... وَالْقَوَّةُ بِقُلُوبٍ غَيْرِ الْقُلُوبِ الَّتِي كُنْتُمْ تَلْقَوْنَهَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

صَدَعَ^(١) الْجُنْدُ بِأَمْرِ قَائِدِهِمْ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ ، وَعَبَرُوا الثُّغُورَ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ ...

فَلَمَّا تَصَافَّ الْجَيْشَانِ^(٢) رَأَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ كَثَرَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَوَفَرَةِ عُدَّتِهِ وَعَتَادِهِ مَا مَلَأَ نُفُوسَهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ ... وَهَيْبَةً لَهُ ...

وَأَحْسَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِمَا يَغْتَمِلُ^(٣) فِي أَفْعَادِهِ جُنْدِهِ ، فَجَعَلَ يَطُوفُ بَيْنَ الْكَتَائِبِ وَيَشْحَذُ^(٤) الْهِمَمَ ، وَيَشْدُ الْعَزَائِمَ ...

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ وَقَالَ :

أَيْنَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ ؟ !

فَقَالُوا : إِنَّهُ هُنَاكَ فِي الْمَيْمَنَةِ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : وَمَا يَفْعَلُ ؟

فَقَالُوا : إِنَّهُ مُتَكَيِّئٌ عَلَى رُمْحِهِ ، شَاخِصٌ بَبَصَرِهِ ، يُحَرِّكُ إصْبَعَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ... أَفَنُنَادِيهِ لَكَ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ ؟

فَقَالَ : بَلْ دَعُوهُ ...

(٣) يعتمل : يضطرب وينفعل .

(١) صدع الجند بالأمر : مضوا فيه ، وحققوه .

(٤) يشد الهمم : يقوي الهمم ويثيرها .

(٢) تصاف الجيشان : اجتمعا صفين .

ثُمَّ أَرْذَفَ يَقُولُ : وَاللَّهِ إِنَّ تِلْكَ الْإِصْبَعَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ ؛
يَحْمِلُهَا أَلْفُ شَابٍّ طَرِيرٍ^(١) ...

انْزُكُوهُ يَدْعُو ...

فَمَا عَرَفْنَاهُ إِلَّا مُسْتَجَابَ الدُّعَاءِ ...

* * *

تَرَاحَفَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَجَيْشِ عَدُوِّهِمْ كَمَا تَتَرَاحَفُ الْأَسُودُ
الضَّوَارِي^(٢) ...

والتَّمَيَّ الْجَمْعَانِ كَمَا تَلْتَقِي أَمْوَاجُ الْبَحْرِ الْمُتَلَاطِمَةُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ...

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ السَّكِينَةَ ... وَأَمَدَّهُمْ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ .

فَمَا زَالُوا يُجَالِدُونَ^(٣) عَدُوَّهُمْ نَهَارَهُمْ كُلَّهُ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ زَلَزَلُ^(٤)
اللَّهُ أَقْدَامَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ...

فَمَنْحُوا^(٥) ظُهُورَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ ...

فَرَكِبَهُمُ الْمُجَاهِدُونَ قَتْلًا ، وَأَسْرًا ، وَتَشْرِيدًا .

عِنْدَ ذَلِكَ سَأَلُوا قُتَيْبَةَ الصُّلَحِ وَالْفِدْيَةَ^(٦) ... فَصَالَحَهُمْ .

* * *

كَانَ فِي جُمْلَةِ أَسْرَى الْأَعْدَاءِ رَجُلٌ خَبِيثُ النَّفْسِ ، مُسْتَطِيرٌ^(٧) الشَّرَّ ،
شَدِيدُ الْأَثَرِ فِي تَأْلِيلِ^(٨) قَوْمِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ... فَقَالَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ :
أَنَا أَفْدِي نَفْسِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

(١) طَرِيرٌ : ذو شارب .

(٢) الضَّوَارِي : التي تلهج بالصيد ، وتندفع إليه .

(٣) يجالدون : يضاربون بالسيوف .

(٤) زَلَزَلَ أَقْدَامَهُمْ : أَرْجَفَ أَقْدَامَهُمْ .

(٥) مَنْحُوا ظُهُورَهُمْ : وَلَوْ هَارِبِينَ .

(٦) الفدية : استنقاذ أنفسهم بالمال .

(٧) مستطير الشر : شديد الشر قويه .

(٨) تأليب قومه : إثارة قومه .

فَقِيلَ لَهُ : وَكَمْ تَبْذُلُ ؟ !

فَقَالَ : خَمْسَةَ آلَافٍ حَرِيرَةٍ « صِينِيَّةٌ » ^(١) ثَمَنُهَا أَلْفُ أَلْفٍ .

فَالْتَفَتَ قُتَيْبَةُ إِلَى وُجُوهِ الْجُنْدِ ، وَقَالَ : مَا تَرَوْنَ ؟

فَقَالُوا : نَرَى أَنَّ هَذَا الْمَالَ سَيَرِيدُ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ ...

ثُمَّ إِنَّنَا بَعْدَ أَنْ أَخْرَجْنَا هَذَا النَّصْرَ لَمْ نَعُدْ نَخْشَى بَأْسَ هَذَا الرَّجُلِ ،
وَأَمْثَالِهِ ...

فَالْتَفَتَ قُتَيْبَةُ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأُرْدِيِّ وَقَالَ :

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟

فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِيَجْمَعَ الْغَنَائِمَ ،
وَتَكْدِيسِ ^(٢) الْأَمْوَالِ ، وَإِنَّمَا خَرَجُوا مَرْضَاةً ^(٣) لِلَّهِ ...

وَنَشْرًا لِدِينِهِ فِي الْأَرْضِ ...

وَقَهْرًا لِأَعْدَائِهِ .

فَقَالَ قُتَيْبَةُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ...

وَاللَّهِ لَا أَدْعُهُ يَرْوُعُ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةً بَعْدَ السَّاعَةِ ، وَلَوْ بَدَلَ مَالِ الدُّنْيَا فِدَاءً

لِنَفْسِهِ ...

ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِهِ .

* * *

(١) صينية : من صنع الصين .

(٢) تكديس الأموال : الاستكثار من الأموال ، وجعلها أكداً .

(٣) مرضاة لله : لإرضاء الله ونيل ثوابه .

لَمْ تَقْتَصِرْ صَلَتهُ مُحَمَّدٍ بْنِ وَاسِعٍ الْأَزْدِيِّ بِأَمْرَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » عَلَى يَزِيدَ بْنِ
الْمُهَلَّبِ ، وَفُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمِ الْبَاهِلِيِّ ...

وإنَّما ائْتَدَّتْ إِلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ .

وَكَانَ مِنْ أَهْزَرَ مَنْ اتَّصَلَ بِهِمْ وَالِي « الْبَصْرَةِ » بِلَالُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ .

وَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَعَ هَذَا الْوَالِي مَوَاقِفُ مُتَدَاوِلَةٍ^(١) مَشْهُورَةٌ ، وَأَخْبَارُ مَرْوِيَّةٍ
مَأْثُورَةٍ^(٢) ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَهُوَ لَا يَسُ مِذْرَعَةً^(٣) خَشِينَةً مِنَ
الصُّوفِ ، فَقَالَ لَهُ بِلَالُ :

مَا يَدْعُوكَ إِلَى لُبْسِ هَذَا الْكِسَاءِ الْحَشِينِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ !

فَتَشَاغَلَ عَنْهُ الشَّيْخُ ، وَلَمْ يُجِبْهُ ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا لَكَ لَا تُجِيبُنِي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ !

فَقَالَ :

أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ زُهْدًا ؛ فَأُزَكِّي^(٤) نَفْسِي ...

وَأَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ فَقْرًا ؛ فَأَشْكُو رَبِّي ...

وَأَنَا لَا أُرِيدُ هَذَا وَلَا ذَاكَ .

فَقَالَ لَهُ : أَلَاكَ مِنْ حَاجَةٍ فَتَنْقُضِيهَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ !

فَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَمَا لِي مِنْ حَاجَةٍ أَسْأَلُهَا^(٥) أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ...

(١) متداولة : متناقلة .

(٢) مأثورة : محفوظة متداولة بين الناس .

(٣) المذرة : جبة مشقوفة المقدَّم ، وجمعها مدارع .

(٤) أزكِّي نفسي : أرفع من شأن نفسي .

(٥) أسألها أحدًا : أطلبها من أحد .

وَأِنَّمَا أَتَيْتُكَ فِي حَاجَةٍ لِأَخٍ مُسْلِمٍ ...
فَإِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِي قَضَائِهَا فَضَّيْتُهَا ، وَكُنْتُ مَحْمُوداً ...
وَأِنْ لَمْ يَأْذَنْ فِي قَضَائِهَا لَمْ تَقْضِهَا ، وَكُنْتُ مَعْذُوراً .
فَقَالَ : بَلْ نَقْضُهَا بِإِذْنِ اللَّهِ .
ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْهِ الْوَالِي وَقَالَ :
مَا تَقُولُ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .
فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...
إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْأَلُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ ...
وَأِنَّمَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ .
فَاسْتَحَى مِنْهُ الْوَالِي وَلَاذٌ^(١) بِالصُّمْتِ .
وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ حَانَ مَوْعِدُ غَدَائِهِ ، فَدَعَاهُ الْوَالِي إِلَى طَعَامِهِ ، فَأَكَلَ
ذَلِكَ ... فَأَلَحَّ عَلَيْهِ ؛ فَجَعَلَ يَتَعَلَّلُ^(٢) بِشَتَّى الْعِلَالِ ...
فَغَضِبَ الْوَالِي وَقَالَ :
أَرَأَيْكَ تَكَرَّرُهُ أَنْ تُصِيبَ^(٣) شَيْئًا مِنْ طَعَامِنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ !!! .
فَقَالَ لَهُ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...
فَوَاللَّهِ إِنَّ خِيَارَكُمْ - مَعْشَرَ الْأَمْراءِ - لِأَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أُنْبَائِنَا وَخَاصَّةِ^(٤)
أَهْلِينَا .

* * *

(٣) تصيب من طعامنا : تتناول شيئاً من طعامنا .

(٤) خَاصَّةُ أَهْلِينَا : أقرب ذوي قربانا .

(١) لَاذٌ بِالصُّمْتِ : التجأ إلى الصمت .

(٢) يتعلل : ييدي الماذاير ويظهر الحجج .

وَلَقَدْ دُعِيَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ لِتَوَلَّى مَنَصِبَ الْقَضَاءِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ
فَأَبَى^(١) ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ...

وَعَرَضَ نَفْسَهُ بِسَبَبِ إِبَائِهِ لِلْإِيذَاءِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْذِرِ صَاحِبَ شُرْطَةِ « الْبَصْرَةِ » دَعَاهُ إِلَيْهِ ،
وَقَالَ :

إِنَّ أَمِيرَ « الْعِرَاقِ » طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَدْعُوكَ لِتَوَلَّى الْقَضَاءِ ، فَقَالَ :
اغْفُونِي مِنْ ذَلِكَ عَافَاكُمُ اللَّهُ .

فَعَاوَدَهُ^(٢) مَتْنًى وَثَلَاثَ ، فَأَصْرَّ عَلَى إِبَائِهِ .

فَقَالَ لَهُ : وَاللَّهِ لَتَتَوَلَّى الْقَضَاءَ ، أَوْ لَأَجْلِدَنَّكَ^(٣) ثَلَاثِمِائَةَ جَلْدَةٍ ،
وَلَأُعَذِّبَنَّكَ^(٤) .

فَقَالَ لَهُ : إِنْ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مُسْلَطٌ^(٥) ...

وَإِنَّ مُعَذِّبَ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ مُعَذِّبِ الْآخِرَةِ ...

فَحَجَلَ مِنْهُ ، وَصَرَفَهُ بِالْحُسْنَى

* * *

وَقَدْ كَانَ مَجْلِسُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ فِي مَسْجِدِ « الْبَصْرَةِ » مَوْثِلًا^(٦)
لِطُلَّابِ الْعِلْمِ ... وَمِنْهَا^(٧) لَشِدَادَةُ^(٨) الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ .

وَقَدْ حَفِلَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ بِأَخْبَارِ مَجَالِسِهِ هَذِهِ .

(١) أبى ذلك : امتنع عن ذلك ورفضه .

(٢) فعاوده : طلب منه مرة بعد مرة .

(٣) أجلدتك : أضربتك .

(٤) أعذبتك : أفضحتك وأشهرت بك .

(٥) مسلط : مطلق اليد .

(٦) مَوْثِلًا : ملاذاً ومرجعاً .

(٧) منها : مورداً .

(٨) شدة الحكمة : طالاب الحكمة ورغابها .

مِنْ ذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ قَالَ لَهُ :

أَوْصِنِي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .

فَقَالَ : أَوْصِيكَ أَنْ تَكُونَ مَلِكًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَدُهِشَ السَّائِلُ وَقَالَ :

وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ۱۴ .

فَقَالَ : ارْهَدْ بَعْرَضِ (١) الدُّنْيَا تَكُنْ مَلِكًا هُنَا بِالْإِسْتِغْنَاءِ عَمَّا فِي أَيْدِي

النَّاسِ ...

وَمَلِكًا هُنَاكَ بِالْفَوْزِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ ...

وَقَالَ لَهُ آخَرُ :

إِنِّي لِأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .

فَقَالَ : أَحَبُّكَ اللَّهُ الَّذِي أَحَبَّبْتَنِي مِنْ أَجْلِهِ ...

ثُمَّ وَلَّى وَهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُحِبَّ فِيكَ وَأَنْتَ لِي مَأْتِ (٢) .

وَكَانَ كُلَّمَا سَمِعَ ثَنَاءَ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَإِطْرَاءَهُمْ (٣) لِيَتَّقُواهُ وَعِبَادَتِهِ ، يَقُولُ

لَهُمْ :

لَوْ كَانَ لِلدُّنُوبِ رَائِحَةٌ تَفُوحُ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَذْنُو مِنِّي لِمَا

يُصِيبُهُ مِنْ أَذَى رَائِحَتِي .

* * *

(٣) إطراءهم : مدحهم .

(١) عرض الدنيا : الزائل الذي لا بقاء له . (٢) مأت : كاره .

وَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ لَا يَفْتَأُ يَحْضُ^(١) طَلَابَهُ عَلَى التَّزَامِ كِتَابِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَيْشِ فِي أَكْنَافِهِ^(٢) وَيَقُولُ :

الْقُرْآنُ بُسْتَانُ الْمُؤْمِنِ ... فَأَيْنَمَا حَلَّ مِنْهُ ؛ نَزَلَ فِي رَوْضَةٍ ...

كَمَا كَانَ يُوصِيهِمْ بِقِلَّةِ الطَّعَامِ فَيَقُولُ :

مَنْ قَلَّ طَعَامُهُ فَهَمَّ ، وَأَفْهَمَ ...

وَصَفَا وَرَقٌ ...

وَإِنَّ كَثْرَةَ الطَّعَامِ لَتَثْقِلُ^(٣) الرَّجُلَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يُرِيدُ .

* * *

وَقَدْ بَلَغَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ مِنَ الثَّقَلِ وَالْوَرَعِ مَبْلَغاً عَظِيماً ... وَزُوِيَ لَهُ فِي
ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ رُئِيَ فِي الشُّوقِ ، وَهُوَ يَعْزِضُ لِلْبَيْعِ حِمَاراً لَهُ ؛ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ :
أَتَرْضَاهُ لِي أَيْهَا الشَّيْخُ ؟ .

فَقَالَ : لَوْ رَضِيئُهُ لِنَفْسِي مَا بَعْتُهُ .

* * *

وَقَدْ عَاشَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي وَجَلٍ^(٤) مِنْ ذُنُوبِهِ ...

وَلِإِسْفَاقٍ^(٥) مِنَ الْعَرَضِ عَلَى رَبِّهِ ...

فَكَانَ إِذَا قِيلَ لَهُ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَبَا عَبِيدِ اللَّهِ ؟ .

أَجَابَ قَائِلاً :

(١) يحض طلابه : يحث تلاميذه .

(٢) أكنافه : راحبه .

(٣) تثقل الرجل : تعوق الرجل .

(٤) الوجَل : الخوف والقلق .

(٥) الإسفاق : الحذر .

أَصْبَحْتُ قَرِيْباً أَجْلِي ...

بَعِيداً أَمْلِي ...

سَيِّئاً عَمَلِي ...

فَإِذَا رَأَى شَيْئاً مِّنَ الدَّهْشَةِ يَبْدُو عَلَى مَلَامِحِ (١) سَائِلِيهِ قَالَ :

مَا ظَنُّكُمْ بِرَجُلٍ يَقْطَعُ إِلَى الْآخِرَةِ كُلَّ يَوْمٍ مَّرْجَلَةً ؟!

* * *

وَلَمَّا مَرَضَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ مَرَضَ الْمَوْتِ ؛ تَكَاثَرَ النَّاسُ عَلَى

عِيَادَتِهِ حَتَّى غَصَّ مَنْزِلُهُ بِالْدَّاخِلِينَ عَلَيْهِ وَالْخَارِجِينَ ...

وَالْقَائِمِينَ فِي مَنْزِلِهِ وَالْقَاعِدِينَ ...

فَمَالَ بِشَقِّهِ (٢) عَلَى أَحَدِ خَوَاصِّهِ وَقَالَ :

أَخْبِرْنِي مَا يُعْنِي عَنِّي هَؤُلَاءِ إِذَا أَخَذْنَا غَدًا بِالنَّوَاصِي (٣) وَالْأَقْدَامِ ؟!

وَمَا يَنْفَعُونَنِي إِذَا أُلْقِيتُ فِي النَّارِ ؟!

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ وَجَعَلَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ مَقَامٍ (٤) سُوءٍ قُمْتُهُ ...

وَمِنْ كُلِّ مَقْعَدٍ سُوءٍ قَعَدْتُهُ ...

وَمِنْ كُلِّ مَدْخَلٍ سُوءٍ دَخَلْتُهُ ...

(١) الملامح : مظاهر الوجه وما يبدو عليه .

(٢) بشقه : يطرّفه .

(٣) أخذنا غداً بالنواصي والأقدام : نجرّنا يوم القيامة من رؤوسنا وأرجلنا .

(٤) مقام سوء قمته : موقف سوء وقفته .

وَمِنْ كُلِّ مَخْرَجٍ سُوءٍ خَرَجْتُهُ ...
وَمِنْ كُلِّ عَمَلٍ سُوءٍ عَمِلْتُهُ ...
وَمِنْ كُلِّ قَوْلٍ سُوءٍ قُلْتُهُ ...
اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ فَاعْفِرْهُ لِي ...
وَأَتُوبُ لَكَ مِنْهُ ؛ فَتُبْ عَلَيَّ ...
وَأُلْقِي إِلَيْكَ بِالسَّلَامِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لِرَأْمَا^(١) ...
ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ (*) ...

(١) قبل أن يكون لِرَأْمَاً : قبل أن أحاسَبَ وأُحْمَلَ عَلَى ذلك حملاً .

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ انظر :

- ١ - تاريخ البخاري : ٢٥٥ / ١ .
- ٢ - التاريخ الصغير : ٣١٨ / ١ - ٣١٩ .
- ٣ - المرح والتعديل : ١١٣ / ٨ .
- ٤ - حلية الأولياء : ٣٤٥ / ٢ - ٣٥٧ .
- ٥ - الوافي بالوفيات : ٢٧٢ / ٥ .
- ٦ - تهذيب التهذيب : ٤٩٩ / ٩ - ٥٠٠ .
- ٧ - شذرات الذهب : ١٦١ / ١ .
- ٨ - طبقات خليفة : ٢١٥ .
- ٩ - تهذيب الكمال : ١٢٨٣ .
- ١٠ - صفة الصفوة « الطبعة الحلبية » : ٢٦٦ / ٣ .
- ١١ - تاريخ الإسلام للذهبي : ١٩٥ / ٥ .
- ١٢ - وفيات الأعيان : ٣٠٨ / ٦ .

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَحَاتُ رَأْيَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ

«عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُعَدُّودٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ
وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»

[الذَّهَبِيُّ]

الْحَدِيثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّادِ الرَّهَّادِ حَامِسِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ؛ حَدِيثٌ
أَطْيَبُ مِنْ نَشْرِ (١) الْمِسْكِ ، وَأَزْهَى (٢) مِنْ قِطْعِ الرَّوْضِ ...
وَسِيرَتُهُ الْفَدَّةُ (٣) الْعَرَاءُ ؛ وَاحِدَةٌ (٤) مِعْطَارٌ ؛ أَيْنَمَا حَلَلَتْ مِنْهَا أَلْفَيْتَ نَبْتًا
طَرِيًّا ...

وَزَهْرًا بَهِيًّا ...

وَتَمَرًا جَنِيًّا (٥) ...

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِنَا أَنْ نَسْتَوْعِبَ الْآنَ تِلْكَ السَّيْرَةَ الَّتِي ارْزَدَانَ بِهَا
هَامُ (٦) التَّارِيخِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُنَا مِنْ أَنْ نَقْطِفَ مِنْ رَوْضِهَا زَهْرَةً ...
وَأَنْ نَقْبِسَ (٧) مِنْ نُورِهَا وَمُضَّةً (٨) ...
ذَلِكَ لِأَنَّ مَا لَا يُدْرِكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ بَعْضُهُ .

فَالْيَكُ ثَلَاثَ صُورٍ مِنْ حَيَاةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، تَتْبَعُهَا صُورٌ أُخْرَى فِي
كِتَابِ تَالٍ إِذَا أُذِنَ لِلَّهِ وَيَسَّرَ .

* * *

(١) نشر المسك : ربح المسك . (٤) واحدة معطار : حديقة خصبة عطرة .

(٢) أزهي : أجمل . (٥) جنيًا : جني يساعته . (٧) نقبس : نأخذ .

(٣) الفدّة : الفريدة الرائعة . (٦) هام التاريخ : قمة التاريخ . (٨) ومضة : لمعة .

أَمَّا أَوْلَى هَذِهِ الصُّورِ ؛ فَرَوَاهَا لَنَا سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ ^(١) عَالِمُ الْمَدِينَةِ وَقَاضِيهَا
وَشَيْخُهَا ، فَقَالَ :

قَدِمْتُ عَلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ « بِخُنَاصِرَةٍ » مِنْ
أَعْمَالِ « حَلَبَ » ، وَكَأَنَّكَ قَدْ تَقَدَّمْتَ بِي السَّنَّ ، وَبَعْدَ بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ الْعَهْدُ
فَوَجَدْتُهُ فِي صَدْرِ الْبَيْتِ ...

غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفُهُ لِتَغْيِيرِ حَالِهِ عَمَّا عَهِدْتُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ كَانَ وَالِيًّا عَلَى الْمَدِينَةِ ؛
فَرَحَّبَ بِي وَقَالَ :

أُذُنُ مِنِّي يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ قُلْتُ : أَلَسْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ .

فَقَالَ : بَلَى ...

فَقُلْتُ : مَا الَّذِي حَلَّ بِكَ !!؟ ... أَلَمْ يَكُنْ وَجْهَكَ بِهِيًّا ...

وَلِهَابِكَ ^(٢) طَرِيًّا ... وَعَيْشُكَ رَخِيًّا ^(٣) ...

فَقَالَ : بَلَى ...

فَقُلْتُ : فَمَا الَّذِي غَيَّرَ مَا بِكَ بَعْدَ أَنْ غَدَوْتَ تَمْلِكُ الْأَصْفَرَ ^(٤)
وَالْأَبْيَضَ ، وَأَصْبَحْتَ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي تَغَيَّرَ بِي يَا أَبَا حَازِمٍ !!؟ .

فَقُلْتُ : جِسْمُكَ الَّذِي نَحَلْ ^(٥) ...

وَجِلْدُكَ الَّذِي اخْشَوْشَنَ ^(٦) ...

(٤) الأصفر والأبيض : الذهب والفضة .

(٥) نحل : هزل .

(٦) اخْشَوْشَنَ : خَشَّنَ .

(١) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ : انظره ص ١٨٥ .

(٢) إهابك : بشرتك وجلدك .

(٣) رخيًّا : ناعماً .

وَوَجَّهَكَ الَّذِي اصْفَرَ ...
وَعَيْنَاكَ اللَّتَانِ حَبَا وَمُضْهُمَا^(١).
فَبَكَى وَقَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي فِي قَبْرِ بَعْدَ ثَلَاثِ ١؟ ...
وَقَدْ سَأَلْتَ حَدِّقَتَايَ^(٢) عَلَى وَجْنَتَيَّ ...
وَتَفَسَّخَ بَطْنِي وَتَشَقَّقَ ...
وَأَنْطَلَقَ الدُّودُ يَزْنَعُ^(٣) فِي بَدَنِي .
إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَنِي آنَذَاكَ - يَا أَبَا حَازِمٍ - لَكُنْتُ أَشَدَّ إِنْكَاراً^(٤) لِي مِنْ يَوْمِكَ
هَذَا ...
ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ وَقَالَ :
أَمَّا تَذْكُرُ حَدِيثاً كُنْتُ حَدَّثْتَنِي بِهِ فِي الْمَدِينَةِ يَا أَبَا حَازِمٍ ؟
فَقُلْتُ : لَقَدْ حَدَّثْتُكَ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...
فَأَيُّهَا تَقْصِدُ ؟
فَقَالَ : إِنَّهُ حَدِيثٌ رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ .
فَقُلْتُ : نَعَمْ ... أَذْكُرُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
فَقَالَ : أَعِدْهُ عَلَيَّ ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ .
فَقُلْتُ : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

(١) حبا ومضهما : خمد لمعانهما .

(٢) حدقتاي : عيناى .

(٣) يزنع : يتقلب ويتمتع أكلاً وشرباً .

(٤) أشد إنكاراً لى : أشد جهلاً بى واستغراباً .

(إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَقَبَةً كَوْوداً^(١)، مُضْرَسَةً^(٢)، لَنْ يَجُوزَهَا^(٣) إِلَّا كُلُّ ضَامِرٍ^(٤) مَهْزُولٍ).

فَبَكَى عُمَرُ بُكَاءً شَدِيداً خَشِيتُ مَعَهُ أَنْ تَنْشَقَّ مَرَارَتُهُ^(٥).

ثُمَّ كَفَفَ^(٦) دُمُوعَهُ، وَالتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ :

فَهَلْ تَلُومُنِي يَا أَبَا حَازِمٍ إِذَا أَنَا أَهْزَلْتُ نَفْسِي لِتِلْكَ الْعَقَبَةِ ؛ رَجَاءً أَنْ أَنْجُو مِنْهَا ... وَمَا أَظُنُّنِي بِنَاجٍ ...

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صُورِ حَيَاةِ عُمَرَ ؛ فَيَزِيهِهَا لَنَا الطَّبْرِيُّ عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ مِرْدَاسٍ ، فَيَقُولُ :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ حِينَ وَلِيَ الْخِلَافَةَ كَتَبَ إِلَى سُلَيْمَانَ ابْنِ أَبِي السَّرِيِّ وَالِيهِ عَلَى « الصُّغْدِ »^(٧) كِتَاباً قَالَ فِيهِ :

إِتَّخِذْ فِي بِلَادِكَ فَنَادِقَ لِاسْتِضَافَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِذَا مَرَّ بِهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ فَاسْتَضِيفُوهُ يَوْماً وَلَيْلَةً ... وَأَصْلِحُوا شَأْنَهُ^(٨)، وَتَعَاهَدُوا دَوَابَّهُ .

فَإِذَا كَانَ يَشْكُو نَصَباً^(٩) فَاسْتَضِيفُوهُ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ ... وَوَأَسُوهُ^(١٠).

فَإِذَا كَانَ مُنْقَطِعاً لَا مَوْوَنَةَ عِنْدَهُ وَلَا دَابَّةَ تَحْمِيلُهُ ؛ فَأَعْطُوهُ مَا يَشُدُّ حَاجَتَهُ ، وَأَوْصِلُوهُ إِلَى بَلَدِهِ .

-
- (١) كَوْوداً : شاقة المصعد ، صعبة المرتقى .
 (٢) مُضْرَسَةً : شديدة مهلكة .
 (٣) لَنْ يَجُوزَهَا : لَنْ يَتَخَطَّهَا .
 (٤) الضامر : الهزيل الجسم من العبادة والجهاد .
 (٥) مَرَارَتُهُ : جوف كبده .
 (٦) كَفَفَ دُمُوعَهُ : مسح دموعه مرة بعد مرة .
 (٧) الصُّغْدُ : منطقة في أواسط آسيا .
 (٨) شَأْنُهُ : حاله .
 (٩) نَصَباً : عناء .
 (١٠) وَأَسُوهُ : أعينوه .

فَصَدَعَ الْوَالِي بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَقَامَ الْفَنَادِقَ الَّتِي أَمَرَهُ بِإِعْدَادِهَا
فَسَرَتْ أَخْبَارُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَطَفِقَ النَّاسُ فِي مَشَارِقِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَمَغَارِبِهَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا ، وَيُشِيدُونَ بِعَدْلِ الْخَلِيفَةِ وَتَقْوَاهُ ...

فَمَا كَانَ مِنْ وُجُوهِ أَهْلِ « سَمَرْقَنْدَ » ^(١) إِلَّا أَنْ وَفَدُوا عَلَى وَالِيهَا سُلَيْمَانَ
ابْنِ أَبِي السَّرِيِّ وَقَالُوا :

إِنَّ سَلَفَكَ « قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيَّ » قَدْ دَهَمَ ^(٢) بِلَادَنَا مِنْ غَيْرِ إِذْئَارٍ ، وَلَمْ
يَسْلُكْ فِي حَرْبِنَا مَا تَسْلُكُونَهُ ، مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّكُمْ تَدْعُونَ أَعْدَاءَكُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ...

فَإِنْ أَبَوْا ؛ دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَى دَفْعِ الْجَزْيَةِ ^(٣) ...

فَإِنْ أَبَوْا ؛ أَعْلَنْتُمْ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ ...

وإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا مِنْ عَدْلِ خَلِيفَتِكُمْ وَتَقَاهُ مَا أَعْرَانَا ^(٤) بِشَكْوَى جَيْشِكُمْ
إِلَيْكُمْ ... وَالْإِسْتِصَارَ بِكُمْ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ بِنَا قَائِدٌ مِنْ قُوَادِكُمْ .

فَأَذَنْ - أَيْهَا الْأَمِيرُ - لِيُوفِدَ مِنَّا بَأْنَ يَفِدَ ^(٥) عَلَى خَلِيفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَرْفَعَ
ظُلَامَتَنَا ^(٦) إِلَيْهِ ...

فَإِنْ كَانَ لَنَا حَقٌّ أُعْطِينَاهُ ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ؛ عُذْنَا مِنْ حَيْثُ ذَهَبْنَا .

فَأَذَنْ سُلَيْمَانَ لِيُوفِدَ مِنْهُمْ بِالْقُدُومِ عَلَى الْخَلِيفَةِ فِي « دِمَشْقَ » ، فَلَمَّا
صَارُوا فِي دَارِ الْخِلَافَةِ رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

(١) سَمَرْقَنْدَ : أصبحت اليوم إحدى مدن الجمهورية السوفياتية وذلك بعد أن احتلتها روسيا .

(٢) دَهَمَ : غشى واحتل .

(٣) الجزية : ما يؤخذ من أهل الذمة .

(٥) يَفِدَ : يذهب .

(٦) ظُلَامَتُنَا : ما لحق بنا من ظلم .

(٤) أَعْرَانَا : شجعنا .

فَكَتَبَ الْخَلِيفَةُ كِتَابًا إِلَى وَالِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ يَقُولُ فِيهِ :
أَمَّا بَعْدُ ... فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَأَجْلِسْ إِلَى أَهْلِ « سَمَرْقَنْدَ » قَاضِيًا
يَنْظُرُ فِي شَكْوَاهُمْ ...

فَإِنْ قَضَى لَهُمْ ؛ فَمُرْ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُغَادِرَ مَدِينَتَهُمْ ...
وَأَدْعُ الْمُسْلِمِينَ الْمُقِيمِينَ بَيْنَهُمْ إِلَى التَّزْوِجِ ^(١) عَنْهُمْ ... وَاعُودُوا كَمَا
كُنْتُمْ وَكَانُوا ؛ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ دِيَارَهُمْ « قَتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيُّ » .
فَلَمَّا قَدِمَ الْوَفْدُ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ... بَادَرُ ^(٢) فَأَجْلَسَ لَهُمْ قَاضِيَ الْقَضَاةِ « جَمِيعَ بْنِ حَاضِرِ النَّاجِيِّ » .
فَنَظَرَ فِي شَكْوَاهُمْ ، وَاسْتَقْصَى ^(٣) خَبَرَهُمْ ...
وَاسْتَمَعَ إِلَى شَهَادَةِ طَائِفَةٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَقَادَتِهِمْ ...
فَاسْتَبَانَ لَهُ صِحَّةُ مُدَّعَاهُمْ ...
وَقَضَى لَهُمْ ...

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ الْوَالِي جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُخْلُوا لَهُمْ دِيَارَهُمْ ، وَأَنْ يَعُودُوا
إِلَى مُعَسَّكَرَاتِهِمْ ، وَأَنْ يَتَابَذُوهُمْ ^(٤) كَرَّةً أُخْرَى ...
فَإِذَا أَنْ يَدْخُلُوا بِلَادَهُمْ صُلْحًا ...
وَإِذَا أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا حَرْبًا ...
وَإِذَا أَلَّا يُكْتَبَ لَهُمُ الْفَتْحُ .

(١) التَّزْوِجُ عَنْهُمْ : مَغَادِرَةُ بِلَادِهِمْ .

(٢) بَادَرُ : أَسْرَعَ .

(٣) اسْتَقْصَى خَبَرَهُمْ : بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْبَحْثِ عَنْ خَبَرِهِمْ .

(٤) يَتَابَذُوهُمْ : يَحَارِبُونَهُمْ .

فَلَمَّا سَمِعَ وَجْوهُ^(١) الْقَوْمِ حُكْمَ قَاضِي قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ ، قَالَ
بَغْضَهُمْ لِبَعْضٍ :

وَيَحْكُمُ^(٢) ... لَقَدْ خَالَطْتُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَأَقَمْتُمْ مَعَهُمْ ، وَرَأَيْتُمْ مِنْ
سَيْرَتِهِمْ وَعَدْلِهِمْ وَصِدْقِهِمْ مَا رَأَيْتُمْ ...
فَاسْتَبَقُوهُمْ عِنْدَكُمْ ...

وَطَيَّبُوا^(٣) بِمُعَاشِرَتِهِمْ نَفْسًا ...

وَقَرَّوْا^(٤) بِصُحْبَتِهِمْ عَيْنًا ...

* * *

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ صُورِ حَيَاةِ عُمَرَ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَيَزُودُهَا لَنَا ابْنُ
عَبْدِ الْحَكَمِ فِي كِتَابِهِ النَّفِيسِ الْمُسَمَّى « سِيرَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ » فَيَقُولُ :
لَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ مَسْلَمَةُ^(٥) بَنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ :
إِنَّكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ فَطَمْتَ^(٦) أَفْوَاهَ أَوْلَادِكَ عَنْ هَذَا الْمَالِ .
فَحَبَّذَا لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى مَنْ تُفَضِّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ...
فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ كَلَامِهِ قَالَ عُمَرُ : أَجْلِسُونِي ...

فَأَجْلَسُوهُ فَقَالَ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَاتَكَ يَا مَسْلَمَةُ ، أَمَّا قَوْلُكَ :

إِنِّي قَدْ فَطَمْتُ أَفْوَاهَ أَوْلَادِي عَنْ هَذَا الْمَالِ ...

(١) وجوه القوم : سادة القوم .

(٢) ويحكم : ما أعجب أمركم ؟ .

(٣) طيبوا نفساً : استريحوا .

(٤) قرأوا عيناً : اطمئنوا واسعدوا .

(٥) هو مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَحَدِ كِبَارِ أَمْرَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَعُقَلَاءِهِمْ وَقَادَةُ جِيوشِهِمْ .

(٦) فطمت أفواه أولادك : منعتهن من اغتنام الفرس ، وامتلاك الأموال .

فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا مَنَعْتُهُمْ حَقًّا هُوَ لَهُمْ ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيَهُمْ شَيْئًا لَيْسَ لَهُمْ ...
وَأَمَّا قَوْلُكَ : لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى مَنْ تَفَضَّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ...
فَإِنَّمَا وَصِيَّتِي وَوَلِيِّي فِيهِمْ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى ^(١)
الصَّالِحِينَ .

وَاعْلَمْ يَا مَسْلَمَةُ أَنَّ أَبْنَائِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ :
إِمَّا رَجُلٌ صَالِحٌ مُتَّقٍ ، فَسَيُعِينِي اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ
مَخْرَجًا ^(٢) ...

وَأَمَّا رَجُلٌ طَالِحٌ ^(٣) مُكِبٌّ عَلَى الْمَعَاصِي ، فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُعِينُهُ
بِالْمَالِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

ثُمَّ قَالَ : ادْعُوا لِي بَنِيَّ ...

فَدَعَوْهُمْ ، وَهُمْ بِضْعَةَ ^(٤) عَشَرَ وَلَدًا .

فَلَمَّا رَأَاهُمْ تَرَفَّرَتْ ^(٥) عَيْنَاهُ وَقَالَ :

بِنَفْسِي فِتْنَةٌ تَرَكْتُهُمْ عَالَةً لَا شَيْءَ لَهُمْ ...

وَبَكَى بُكَاءً صَامِتًا ... ثُمَّ التَّمَّتْ إِلَيْهِمْ وَقَالَ : أَيُّ بَنِيَّ ^(٦) ...

إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ خَيْرًا كَثِيرًا ...

فَإِنَّكُمْ لَا تَمُوتُونَ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ ذِمَّتِهِمْ إِلَّا رَأَوْا أَنَّ لَكُمْ
عَلَيْهِمْ حَقًّا .

(١) يتوَلَّى الصَّالِحِينَ : يحفظ الصالحين ويعينهم .

(٢) مَخْرَجًا : سَبِيلًا يَسْلُكُهُ .

(٣) طَالِحٌ : الطالِح ضِدُّ الصالح ، تقول هَذَا خَيْرٌ صَالِحٍ وَذَاكَ شَرٌّ طَالِحٍ .

(٤) بِضْعَةُ عَشَرَ : نحو من تسعة عشر . (٥) تَرَفَّرَتْ عَيْنَاهُ : دَمَعَتْ عَيْنَاهُ . (٦) أَيُّ بَنِيَّ : يَا أَبْنَائِي .

يَا بَنِيَّ ، إِنَّ أَمَامَكُمْ خِيَاراً بَيْنَ أَمْرَيْنِ :
فَإِمَّا أَنْ تَسْتَغْنُوا ، وَتَدْخُلَ أَبُوكُمُ النَّارَ ...
وَإِمَّا أَنْ تَفْتَخِرُوا ، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ ...
وَلَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّكُمْ تُؤْثِرُونَ^(١) إِنْقَادَ أَبِيكُمْ مِنَ النَّارِ عَلَى الْغِنَى .
ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رَفْقٍ وَقَالَ : قُومُوا عَصَمَكُمُ اللَّهُ ...
قُومُوا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...
فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ مَسْلَمَةُ وَقَالَ :
عِنْدِي مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟؟ .
قَالَ : لَدَيَّ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ ... وَإِنِّي أَهْبِهَا لَكَ فَفَرَّقَهَا فِيهِمْ ...
أَوْ تَصَدَّقَ بِهَا إِذَا شِئْتَ .
فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَوْ خَيْرٌ^(٢) مِنْ ذَلِكَ يَا مَسْلَمَةُ ؟ .
فَقَالَ : وَمَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .
فَقَالَ : تَرُدُّهَا إِلَى مَنْ أَخَذَتْ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ بِحَقٍّ ...
فَتَرَفَّرَتْ عَيْنَا مَسْلَمَةَ وَقَالَ :
رَحِمَكَ اللَّهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - حَيًّا وَمَيِّتًا ...
فَقَدْ أَلَنْتَ مِنَّا قُلُوبًا قَاسِيَةً ...

(١) تُؤْثِرُونَ : تفضلون .

(٢) أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ : بل عندي ما هو خير مما عندك .

وَذَكَرَتْهَا ، وَقَدْ كَانَتْ نَاسِيَةً ...

وَأَبْقَيْتَ لَنَا فِي الصَّالِحِينَ ذِكْرًا ...

* * *

ثُمَّ تَتَّبِعَ النَّاسُ أَخْبَارَ أَبْنَاءِ عُمَرَ مِنْ بَعْدِهِ ...

فَرَأَوْا أَنَّهُ مَا احتَاجَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا افْتَقَرَ ...

وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا

اللَّهَ ...

وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(١) ... (*) .

(١) سورة النساء : آية ٩ .

(*) للاستزادة من أخبار عُمرَ بنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ انظر :

١ - سيرة عُمرَ بنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لابنِ عَبْدِ الْحَكَمِ .

٢ - سيرة عُمرَ بنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لابنِ الْجَوْزِيِّ .

٣ - سيرة عُمرَ بنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِلْأَجْرِيِّ .

٤ - الطبقات الكبرى لابنِ سَعْدٍ : ٣٣٠ / ٥ .

٥ - تاريخ خليفة : ٣٢١ - ٣٢٢ .

٦ - التاريخ الكبير : ١٧٤ / ٦ .

٧ - تاريخ الفسوي : ٥٦٨ / ١ ، ٦٢٠ .

٨ - الطبري : ٥٦٥ / ٦ - ٥٧٣ .

٩ - الجرح والتعديل : ١٢٢ / ٦ .

١٠ - الطبقات للشيرازي : ٦٤ .

مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

« لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَخَذَ عَنْ عَلِيٍّ وَأَفَادَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ »

[ابن الجُنَيْدِ]

وَقَعَتْ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ وَأَخِيهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ جَفْوَةٌ^(١)، فَأَرْسَلَ
ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى الْحَسَنِ يَقُولُ :

إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكَ عَلَيَّ ...

فَأُمُّكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ .

وَأُمِّي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي « حَنِيفَةَ » .

وَجَدُّكَ لِأُمِّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَصَفْوَةُ خَلْقِهِ ...

وَجَدِّي لِأُمِّي جَعْفَرُ بْنُ قَيْسٍ .

فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا ؛ فَتَعَالَ إِلَيَّ وَصَالِحِي ، حَتَّى يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ
عَلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

فَمَا أَنْ بَلَغْتُ رِسَالَتَهُ الْحَسَنَ ... حَتَّى بَادَرَ إِلَى يَتِيمِهِ وَصَالِحِهِ ...

فَمَنْ هَذَا الْأَدِيبُ الْأَرِيبُ^(٢) اللَّبِيقُ^(٣) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ؟ .

تَعَالَ نَسْتَعْرِضُ قِصَّةَ حَيَاتِهِ مِنْ أَوَّلِهَا .

* * *

(١) الجفوة: الإعراض، وجفا فلان فلاناً: أعرض عنه ونقل عليه .

(٢) الأريب: الذكي الماهر .

(٣) اللَّبِيقُ: ذو الأخلاق اللينة .

تَبْدَأُ هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنْذُ أَوَاخِرِ حَيَاةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .
فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي جَلْسَةٍ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

أَرَأَيْتَ إِنْ وُلِدَ لِي وَلَدٌ مِنْ بَعْدِكَ أَفَأُسَمِّيهِ بِاسْمِكَ ...
وَأَكْنِيهِ بِكُنْيَتِكَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ .

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ...

فَلَحِقَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالرَّفِيقِ ^(١) الْأَعْلَى ...
وَتَلَتْهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ مَعْدُودَاتٍ ابْنَتُهُ وَرِيحَانَتُهُ فَاطِمَةُ الْبَتُولُ ^(٢) أُمُّ الْحَسَنِ
وَالْحُسَيْنِ .

فَأَضْهَرَ ^(٣) عَلِيٌّ إِلَى بَنِي « حَنِيفَةَ » .

وَتَزَوَّجَ حَوْلَةَ بِنْتِ جَعْفَرِ بْنِ قَيْسِ الْحَنْفِيَّةِ ، فَوَلَدَتْ لَهُ مَوْلُوداً ذَكَراً .
فَدَعَاهُ مُحَمَّدًا .

وَكَنَّاهُ ^(٤) بِأَبِي الْقَاسِمِ بِإِذْنِ مَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ طَفِقُوا يُنَادُونَهُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ ؛ تَفْرِيقاً لَهُ عَنْ أَخَوَيْهِ
الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ^(٥) .

(١) يُقَالُ لِحَقِّ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى : أَيِ انْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ .

(٢) الْبَتُولُ : التَّقِيَّةُ النَّقِيَّةُ .

(٣) أَضْهَرَ إِلَى الْقَوْمِ : تَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ وَتَزَوَّجَ ابْنَتَهُمْ .

(٤) كَنَّاهُ : سَمَّاهُ بِأَبِي كَذَا .

(٥) فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ : انْظُرْهَا فِي كِتَابِ « صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابِيَّاتِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاشِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ .

ثُمَّ عُرِفَ فِي التَّارِيخِ بِذَلِكَ .

* * *

وُلِدَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الصُّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
وَنَشَأَ وَتَرَبَّى فِي كَنَفِ^(١) أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَتَخَرَّجَ عَلَى يَدَيْهِ .
فَأَخَذَ عَنْهُ عِبَادَتَهُ وَزَهَادَتَهُ ...
وَوَرِثَ مِنْهُ قُوَّتَهُ وَشَجَاعَتَهُ ...
وَتَلَقَّى مِنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَغَتَهُ ...
فَإِذَا هُوَ مِسْعَرُ^(٢) حَرْبٍ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ ...
وَفَارِسُ مِنبَرٍ فِي مَحَافِلِ الرِّجَالِ ...
وَرَاهِبٌ مِنْ رُهْبَانِ اللَّيْلِ إِذَا أَسْدَلَ الظَّلَامُ سُدُولَهُ عَلَى الْكَوْنِ ، وَنَامَتْ
الْعُيُونُ .

* * *

وَلَقَدْ أَقْحَمَهُ^(٣) أَبُوهُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي حُرُوبِهِ الَّتِي خَاضَهَا .
وَحَمَلَهُ مِنْ أَعْبَائِهَا مَا لَمْ يُحْمَلْهُ لِأَخَوَيْهِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ .
فَمَا لَأَنْتَ لَهُ قَنَآةٌ^(٤) ، وَلَا وَهَنٌ^(٥) لَهُ عَزْمٌ .
وَلَقَدْ قِيلَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ :
مَا لِأَيِّكَ يُقْحِمُكَ فِي الْمَهَالِكِ ، وَيُولِجُكَ^(٦) فِي الْمَضَايِقِ ؛ دُونَ
أَخَوَيْكَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ؟ .

(١) في كنف : في رعاية .

(٢) مشعر الحرب : بطلها وموقد نارها .

(٣) أقحمه : رماه .

(٤) القنآة : الرمح ، وما لأنت له قنآة : ما غلب .

(٥) وهن : ضعف ولان .

(٦) يولجك : يدخلك ويحملك ما لا يطلق .

فَقَالَ : ذَلِكَ لِأَنَّ أَحْوَى يَنْزِلَانِ مِنْ أَبِي مَنْزِلَةً عَيْنِيهِ ...
وَأَنْزَلُ أَنَا مِنْهُ مَنْزِلَةً يَدَيْهِ ...
فَهُوَ يَقِي ^(١) عَيْنِيهِ بِيَدَيْهِ .

* * *

وَفِي مَعْرَكَةِ « صِفِّينَ » الَّتِي دَارَتْ رَحَاهَا بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةَ
ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ يَحْمِلُ رَايَةَ أَبِيهِ .
وَفِيمَا كَانَتْ رَحَى الْحَرْبِ ^(٢) دَائِرَةً تَطْحَنُ النَّاسَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ طَحْنًا
وَقَعَتْ لَهُ قِصَّةٌ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ :

لَقَدْ رَأَيْتُنَا فِي « صِفِّينَ » ، وَقَدْ التَقَيْنَا مَعَ أَصْحَابِ مُعَاوِيَةَ ، فَأَقْتَتَلْنَا حَتَّى
ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَنْ يَبْقَى مِنَّا وَمِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَاسْتَفْظَعْتُ الْأَمْرَ وَاسْتَكْبَرْتُهُ .

ثُمَّ مَا لَيْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَائِحًا مِنْ خَلْفِي يَصِيحُ :
يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُ اللَّهُ ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟ .

مَنْ لِلدِّينِ وَالْأَعْرَاضِ ؟ .

مَنْ لِلرُّومِ وَالْدِّيْلَمِ ^(٣) ؟ .

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

اللَّهُ ، اللَّهُ وَالْبَقِيَّةَا ^(٤) ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ .

(١) يقى : يصون .

(٢) رحى الحرب : حزمة الحرب .

(٣) الدِّيْلَم : شعب كبير شمالي قزوین حاربه المسلمون ثُمَّ اعتنق الإسلام .

(٤) اللَّهُ اللَّهُ وَالْبَقِيَّةَا : احذروا الله ، وأبقوا على المسلمين .

فَعَاهَدْتُ نَفْسِي أَلَّا يُزْفَعَ لِي سَيْفٌ فِي وَجْهِ مُسْلِمٍ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ عَلَيَّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَدِ آئِمَّةِ ظَالِمَةٍ^(١) ...

وَأَلَّ الْأَمْرُ إِلَيَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَبَايَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ^(٢) وَالْمَكْرَهِ ، رَغْبَةً فِي رَأْبِ^(٣) الصَّدْعِ ...

وَجَمْعِ الشَّمْلِ ...

وَعِزَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ...

وَلَقَدْ اسْتَشْعَرَ مُعَاوِيَةُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ صِدْقَ هَذِهِ الْبَيْعَةِ وَصَفَاءَهَا ، وَاطْمَأَنَّ إِلَى صَاحِبِهَا أَشَدَّ الْإِطْمِئْنَانِ ؛ مِمَّا جَعَلَهُ يَسْتَرِيرُ^(٤) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ .

فَزَارَهُ فِي « دِمَشْقَ » أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ...

وَلَا أَكْثَرَ مِنْ سَبَبٍ ...

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ « الرُّومِ » كَتَبَ إِلَيَّ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ :

إِنَّ الْمُلُوكَ عِنْدَنَا تُرَاسِلُ الْمُلُوكَ ، وَيُطْرِفُ^(٥) بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِغَرَائِبِ مَا عِنْدَهُمْ ...

وَيُنَافِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِعَجَائِبِ مَا فِي مَمَالِكِهِمْ .

فَهَلْ تَأْذُنُ لِي بِأَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ ؟

فَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِالْإِيجَابِ وَأَذِنَ لَهُ .

(١) هي يَدُ غَيْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَلْجَمٍ .

(٢) المنشط والمكره : ما تحبه النفس وما تكرهه .

(٤) يَسْتَرِيرُ فَلَانًا : يدعوه لزيارته .

(٥) يطرف : يمتنع ويُسِرُّ .

(٣) رَأْبُ الصَّدْعِ : إصلاح الأمر وجمع الكلمة .

فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَلِكُ « الرُّومِ » رَجُلَيْنِ مِنْ عَجَائِبِ الرِّجَالِ :
أَحَدُهُمَا طَوِيلٌ مُفْرِطٌ فِي الطُّولِ ، جَسِيمٌ مَوْغِلٌ^(١) فِي الْجَسَامَةِ .
حَتَّى لَكَأَنَّهُ دَوْحَةٌ^(٢) بَاسِقَةٌ فِي غَايَةِ ، أَوْ بِنَاءٌ مَبْنِيٌّ .

وَالثَّانِي قَوِيٌّ غَايَةُ الْقُوَّةِ ، صُلْبٌ مَتِينٌ كَأَنَّهُ وَحْشٌ مُفْتَرَسٌ ...
وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعَهُمَا رِسَالَةً يَقُولُ فِيهَا :

أَفِي مَمْلَكَتِكَ مَنْ يُسَاوِي هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ طُولاً وَقُوَّةً ؟
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ^(٣) :

أَمَّا الطَّوِيلُ فَقَدْ وَجَدْتُ مَنْ يُكَافِيهِ^(٤) وَيَزِيدُ عَلَيْهِ ...
وَهُوَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ .

وَأَمَّا الْقَوِيُّ فَقَدْ اخْتَجْتُ إِلَيَّ رَأْيِكَ فِيهِ .

فَقَالَ عَمْرُو : هُنَاكَ رَجُلَانِ لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرُ أَنْ كِلَيْهِمَا عَنْكَ بَعِيدٌ ...
هُمَا : مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ .

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ لَيْسَ عَنَّا بِبَعِيدٍ .

فَقَالَ عَمْرُو : وَلَكِنْ ، أَتَنْظُرُ أَنَّهُ يَرْضَى عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَسُمُو مَنْزِلَتِهِ أَنْ
يُقَاوِيَ^(٥) رَجُلًا مِنْ « الرُّومِ » عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ ؟

(١) مَوْغِلٌ : مَمِجٌّ مُبْعِدٌ .

(٢) دَوْحَةٌ بَاسِقَةٌ : شَجَرَةٌ مَفْرُطَةٌ فِي الطُّولِ .

(٣) عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : انظُرْهُ فِي كِتَابِ « صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاشِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الطَّبَعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

(٤) يُكَافِيهِ : يَغَالِبُ رَجُلًا بِالْقُوَّةِ .

(٥) يُقَاوِيهِ : يَمِثِّلُهُ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ :

إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ إِذَا وَجَدَ فِيهِ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ مُعَاوِيَةَ دَعَا كُلاًّ مِنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ .

فَلَمَّا انْعَقَدَ الْمَجْلِسُ قَامَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ فَتَزَعَّ سَرَاوِيلَهُ وَرَمَى بِهَا إِلَى الْعِلْجِ (١) الرُّومِيِّ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْبِسَهَا ، فَلَبِسَهَا ... فَعَطَّتْ إِلَى مَا فَوْقَ ثَدْيَيْهِ فَضَحِكَ النَّاسُ مِنْهُ .

وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ : قُلْ لِلرُّومِيِّ ...

إِنْ شَاءَ أَنْ يَجْلِسَ وَأَكُونَ أَنَا قَائِماً ثُمَّ يُعْطِينِي يَدَهُ .

فَإِذَا أَنْ أُقِيمَهُ وَإِنَّمَا أَنْ يُفْعِدَنِي ...

وَإِنْ شَاءَ فَلْيَكُنْ هُوَ الْقَائِمُ وَأَنَا الْقَاعِدُ ...

فَاخْتَارَ الرُّومِيُّ الْقُعُودَ .

فَأَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ بِيَدِهِ ، وَأَقَامَهُ ... وَعَجَزَ الرُّومِيُّ عَنْ إِقْعَادِهِ ...

فَدَبَّتِ الْحَمِيَّةُ (٢) فِي صَدْرِ الرُّومِيِّ ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْقَائِمُ وَمُحَمَّدُ

الْقَاعِدَ ، فَأَخَذَ مُحَمَّدُ بِيَدِهِ وَجَذَبَهُ (٣) جَذْبَةً كَادَتْ تَفْصِلُ سَاعِدَهُ عَنْ كَتِفِهِ ...

وَأَقْعَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ .

فَانْصَرَفَ الْعِلْجَانِ الرُّومِيَّانِ إِلَى مَلِكِهِمَا مَعْلُوبَيْنِ مَخْذُولَيْنِ .

* * *

(١) العِلْجُ : الرجل القوي الضخم من كفار العجم .

(٢) الحمية : الأنفة .

(٣) جذبه : ضُدَّ دفعه .

ثُمَّ دَارَتْ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا كَرَّةً أُخْرَى ...

وَلَحِقَ مُعَاوِيَةُ وَابْنُهُ يَزِيدُ ، وَمَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ بِجَوَارِ رَبِّهِمْ ... وَآلَتْ
رِعَامَةُ بَنِي « أُمَيَّة » إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَتَادَى بِنَفْسِهِ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ ،
فَبَايَعَهُ أَهْلُ الشَّامِ .

وَكَانَ أَهْلُ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ قَدْ بَايَعُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ^(١) .

وَطَفِقَ كُلُّ مِنْهُمَا يَدْعُو مَنْ لَمْ يُبَايَعْهُ لِيَتَّبِعْهُ ...

وَيَزْعُمُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ صَاحِبِهِ ...

فَانْشَقَّ صَفُّ الْمُسْلِمِينَ كَرَّةً ^(٢) أُخْرَى ...

وَهُنَا طَلَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ أَنْ يُبَايَعَهُ كَمَا بَايَعَهُ
أَهْلُ الْحِجَازِ .

غَيْرَ أَنَّ ابْنَ الْحَنْفِيَّةِ لَمْ يَكُنْ يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ الْبَيْعَةَ تَجْعَلُ فِي عُنُقِهِ لِمَنْ
يُبَايَعُهُ حُقُوقًا كَثِيرَةً ...

مِنْهَا سَلُّ سَيْفِهِ دُونَهُ ^(٣) ، وَقِتَالُ مُخَالِفِيهِ .

وَمَا مُخَالِفُوهُ إِلَّا مُسْلِمِينَ قَدِ اجْتَهَدُوا ؛ فَبَايَعُوا لِغَيْرِ مَنْ بَايَعَ ...

وَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ الْكَامِلُ قَدْ نَسِيَ يَوْمَ « صِفِّينَ » .

وَلَمْ تَكُنِ السُّنُونُ ^(٤) الطَّوِيلَةُ قَدْ مَحَتْ مِنْ مَسْمَعِيهِ ذَلِكَ الصَّوْتِ الْأَجَشِّ
الرَّصِينِ الْحَزِينِ وَهُوَ يُنَادِي مِنْ خَلْفِهِ :

(١) هو ابن أسماء بنت الصديق ثم فتح إفريقيا على يديه ، اقرأ طرفاً من أخباره في كتاب « صور من حياة الصحابيَّات » للمؤلف .

(٢) كَرَّةً أُخْرَى : مَرَّةً ثَانِيَةً .

(٣) دُونَهُ : دَفَاعاً عَنْهُ وَتَأْيِيداً لَهُ .

(٤) السُّنُونُ : السَّنَوَاتُ .

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

اللَّهُ ... اللَّهُ ... يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ .

مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟ .

مَنْ لِلدِّينِ وَالْأَعْرَاضِ ؟ .

مَنْ لِلرُّومِ وَالْدِّيْلَمِ ؟ .

نَعَمْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَسِيَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ قَطُّ .

فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ :

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَيْسَ لِي فِي هَذَا الْأَمْرِ أَرْبٌ ^(١) وَلَا مَطْلَبٌ ...

وَأِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَيْكَ أَوْ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، بَايَعْتُ مِنْ اجْتَمَعَتْ
كَلِمَتُهُمْ عَلَيْهِ .

أَمَّا الْآنَ فَلَا أَبَايُكَ ...

وَلَا أَبَايُعُهُ .

فَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ يُعَاشِرُهُ وَيَلَايِنُهُ ^(٢) تَارَةً ، وَيُعْرِضُ ^(٣) عَنْهُ وَيُجَافِيهِ ^(٤) تَارَةً

أُخْرَى .

* * *

غَيْرَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ مَا لَبِثَ أَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِ رِجَالٌ كَثِيرُونَ رَأَوْا رَأْيَهُ ،

وَأَسْلَمُوا قِيَادَهُمْ ^(٥) إِلَيْهِ .

(١) أرب : غرض وغاية .

(٢) يلاينه : يعامله باللين والخشني .

(٣) يُعرض عنه : يصدُّ عنه .

(٤) يجافيه : يغليظ عليه في المعاشرة .

(٥) قيادهم : قيادتهم وزعامتهم .

حَتَّى بَلَغُوا سَبْعَةَ آلَافٍ رَجُلٍ مِمَّنْ آثَرُوا اعْتِرَالَ الْفِتْنَةِ .

وَأَبَوْا أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَطْبًا لِنَارِهَا الْمُتَّقِدَةِ .

وَكَانَ كُلُّمَا أَرْدَادَ أَتْبَاعُ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَدَدًا ؛ أَرْدَادَ ابْنِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ غَيْظًا وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي طَلَبِ الْبَيْعَةِ .

فَلَمَّا يَمَسُّ مِنْ ذَلِكَ أَمْرُهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي « هَاشِمٍ » وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَلْزَمُوا شِعْبَهُمْ ^(١) بِمَكَّةَ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الرُّقَبَاءَ .

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :

وَاللَّهِ لَتُبَايَعُنَّ أَوْ لَأُحْرَقَنَّكُمْ بِالنَّارِ ...

ثُمَّ حَبَسَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ ، وَجَمَعَ لَهُمُ الْحَطَبَ ، وَأَحَاطَ بِهِ الْمَنَازِلَ إِلَى أَنْ بَلَغَ رُؤُوسَ الْجُدْرَانِ .

حَتَّى إِنَّهُ لَوْ أَشْعَلَ مِنْهُ حَطْبَةً وَاحِدَةً لَأُحْرَقَهُمْ جَمِيعًا .

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَقَالُوا :

دَعْنَا نَقْتُلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَنُرِجَ النَّاسَ مِنْهُ .

فَقَالَ : أَفَنُوقِدُ بِأَيْدِينَا نَارَ الْفِتْنَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا اعْتَرَلْنَا ^(٢) ...

وَنَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبْنَاءِ صَحَابَتِهِ ؟ ...

لَا ، وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ شَيْئًا يُغْضِبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ مَا يُعَانِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ

(١) الشعب : مكانٌ منفرج بين جبلين .

(٢) اعتزلنا : تنحينا .

بَأْسٍ (١) عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، رَأَى الْفُرُصَةَ سَانِحَةً (٢) لَا سِتِمَالِيَهُمْ إِلَيْهِ .
فَارْسَلَ إِلَيْهِ كِتَابًا مَعَ رَسُولٍ مِنْ عِنْدِهِ لَوْ كَتَبَهُ لِأَحَدِ أَبْنَائِهِ لَمَا كَانَ أَرْقَى
لَهْجَةً ، وَلَا أَلْطَفَ خِطَابًا .
وَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِيهِ :

لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ مَعَكَ الْخِنَاقَ (٣) ...
وَقَطَعَ رَحِمَكَ ...
وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّكَ ...

وَهَذِهِ بِلَادُ الشَّامِ مَفْتُوحَةٌ أَمَامَكَ تَسْتَقْبِلُكَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الرَّحْبِ
وَالسَّعَةِ ... فَأَنْزِلَ فِيهَا حَيْثُ تَشَاءُ تَلْقَ بِالْأَهْلِ أَهْلًا ، وَبِالْجِيرَانِ أَحْبَابًا .
وَسَتَجِدُنَا عَارِفِينَ لِحَقِّكَ ...
مُقَدِّرِينَ لِفَضْلِكَ ...
وَاصِلِينَ لِرَحِمِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

* * *

سَارَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ وَمَنْ مَعَهُ مُيَمِّمِينَ (٤) وَجُوهَهُمْ شَطْرَ (٥) بِلَادِ
الشَّامِ ... فَلَمَّا بَلَغُوا «أُبْلَةَ» (٦) ، اسْتَقَرُّوا فِيهَا .
فَأَنْزَلَهُمْ أَهْلُهَا أَكْرَمَ مَنْزِلٍ ، وَجَاوَزُوهُمْ أَحْسَنَ جَوَارٍ .

(١) بَأْسٌ عَبْدُ اللَّهِ : قسوة عَبْدُ اللَّهِ .

(٢) سَانِحَةٌ : مَوَاتِيَةٌ .

(٣) الْخِنَاقُ : مَا يُخْنَقُ بِهِ كَالْحِلِيزِ .

(٤) مُيَمِّمِينَ : مُوجِّهِينَ وَقاصِدِينَ .

(٥) شَطْرٌ : نَحْوٌ .

(٦) أُبْلَةٌ : بَلَدَةٌ شَمَالِي الْعُقْبَةِ وَهَذَا هُوَ اسْمُهَا الرُّومَانِي ، وَهِيَ الْآنَ إِيلَاتُ .

وَأَحْبَبُوا مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ وَعَظَّمُوهُ ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ عُمُقِ عِبَادَتِهِ ، وَصِدْقِ زَهَادَتِهِ^(١) .

فَطَفِقَ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .

وَيُقِيمُ فِيهِمُ الشَّعَائِرَ ، وَيُصْلِحُ لَهُمْ ذَاتَ الْبَيْنِ^(٢) .

وَلَا يَدْعُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَظْلِمُ أَحَدًا .

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ شَقَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَاسْتَشَارَ خَاصَّتَهُ فَقَالُوا لَهُ :

مَا نَرَى أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يُقِيمَ فِي مَلِكِكَ ، وَسِيرَتُهُ كَمَا عَلِمْتَ ...

فَإِمَّا أَنْ يُبَايَعَ لَكَ ...

وَإِمَّا أَنْ يَعُودَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ يَقُولُ :

إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادِي فَتَزَلَّتْ فِي طَرَفٍ مِنْهَا ، وَهَذِهِ الْحَرْبُ قَائِمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ...

وَأَنْتَ رَجُلٌ لَكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ذِكْرٌ وَمَكَانٌ^(٣) ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَلَّا تُقِيمَ فِي أَرْضِي إِلَّا إِذَا بَايَعْتَنِي ...

فَإِنْ بَايَعْتَنِي ، فَلَكَ مِنِّي مِائَةُ سَفِينَةٍ قَدِمْتَ عَلَيَّ أَمْسٍ مِنْ « الْقَلْزَمِ »^(٤) فَخُذْهَا بِمَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا .

(١) زَهَادَتِهِ : زهده .

(٢) ذات البين : الفرقة والخصومة .

(٣) مكان : منزلة ومقام .

(٤) الْقَلْزَمُ : مرفأ قديم عند مصب النيل رُممه عُمر بن الخطاب لنقل جيوش المسلمين بين الفسطاط ومكة .

وَلَكَ مَعَهَا أَلْفَا أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَعَ مَا تَفَرِّضُهُ مِنْ فَرِيضَةٍ لِنَفْسِكَ ، وَلَا وُلَادِكَ ،
وَلِذَوِي قَرَابَتِكَ ، وَمَوَالِكَ ، وَمَنْ مَعَكَ ...

وَإِنْ أَتَيْتَ فَتَحَوَّلَ عَنِّي إِلَى مَكَانٍ لَا سُلْطَانَ لِي عَلَيْهِ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ يَقُولُ :

مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ؛ سَلَامٌ عَلَيْكَ .

وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ ...

فَلَعَلَّكَ تَتَخَوَّفُ مِنِّي ، وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّكَ عَارِفٌ بِحَقِيقَةِ مَوْقِفِي مِنْ
هَذَا الْأَمْرِ .

وَوَاللَّهِ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ كُلُّهَا ، إِلَّا أَهْلَ قَرْيَةٍ وَاحِدَةٍ مَا قَبِلْتُه ،
وَلَا قَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ .

وَلَقَدْ نَزَلْتُ بِمَكَّةَ فَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنْ أَبَايَعَهُ ، فَلَمَّا أَتَيْتُ أَسَاءَ
جَوَارِي .

ثُمَّ كَتَبْتُ إِلَيْيَ تَدْعُونِي إِلَى الْإِقَامَةِ بِبِلَادِ الشَّامِ ، فَنَزَلْتُ بِبِلَدَةٍ فِي أَطْرَافِ
أَرْضِكَ لِرُخْصِ أَسْعَارِهَا وَبُعْدِهَا عَنْ مَرْكَزِ سُلْطَانِكَ .

فَكَتَبْتُ إِلَيْيَ بِمَا كَتَبْتَ بِهِ ...

وَنَحْنُ مُنْصَرِفُونَ عَنْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

انْصَرَفَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ بِرِجَالِهِ وَأَهْلِهِ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَطَفِقَ ^(١) كَلَمًا

نَزَلَ بِمَنْزِلٍ يُزْعَجُ ^(٢) عَنْهُ ، وَيُدْعَى إِلَى الرَّحِيلِ مِنْهُ .

(٢) يُزْعَجُ عَنْهُ : يُخْرَجُ مِنْهُ .

(١) طَفِقَ : جَعَلَ .

وَكَأَنَّهُ لَمْ تَكْفِهِ هُمُومُهُ كُلُّهَا ؛ فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَخْتَبِرَهُ بِهِمُومٍ أُخْرَى أَشَدَّ وَفَعًا
وَأَثْقَلَ وَطَاقَةً ...

ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَتْبَاعِهِ مِمَّنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ^(١) ، وَأَخْرَجُوا مِمَّنْ فِي
عُقُولِهِمْ غَفْلَةٌ جَعَلُوا يَقُولُونَ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْدَعَ صَدْرَ عَلِيٍّ وَآلِهِ كَثِيرًا مِنْ أَسْرَارِ
الْعِلْمِ ، وَقَوَاعِدِ الدِّينِ ، وَكُنُوزِ الشَّرِيعَةِ .
وَأَنَّهُ خَصَّ آلَ الْبَيْتِ بِمَا لَمْ يُطْلِعْ غَيْرَهُمْ عَلَيْهِ ...

فَأَذْرَكَ الرَّجُلُ الْعَالِمُ الْأَرِيبُ مَا يَحْمِلُهُ هَذَا الْكَلَامُ فِي طَيَّاتِهِ مِنْ
انْحِرَافٍ ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْرُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ مَخَاطِرٍ وَأَضْرَارٍ .
فَجَمَعَ النَّاسَ وَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا ... فَحَمِدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ وَأَتْنَى عَلَيْهِ ،
وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ... ثُمَّ قَالَ :

يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ عِنْدَنَا مَعَشَرَ آلِ الْبَيْتِ عِلْمًا خَصَّنَا بِهِ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا غَيْرَنَا ...
وَأِنَّا - وَاللَّهِ - مَا وَرِثْنَا مِنْ رَسُولِ ﷺ إِلَّا مَا بَيْنَ هَذَيْنِ اللَّوْحَيْنِ ، وَأَشَارَ إِلَى
الْمُصْحَفِ .

وَإِنَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقَرُوهُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ ؛ فَقَدْ كَذَبَ .

* * *

وَكَانَ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَهْدِي .

(١) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : فِي دِينِهِمْ ضَعْفٌ وَنَقْصٌ .

فَيَقُولُ : نَعَمْ أَنَا مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ ...
وَأَنْتُمْ مَهْدِيُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...
وَلَكِنْ إِذَا سَلَّمَ عَلَيَّ أَحَدُكُمْ ، فَلْيَسَمِّنِي بِاسْمِي ، وَلْيَقُلْ :
السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ .

* * *

لَمْ تَطُلْ حَيْرَةُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ هُوَ وَمَنْ
مَعَهُ ... فَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ الْحَجَّاجُ ^(١) بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
الزُّبَيْرِ ...

وَأَنْ يُبَايَعَ النَّاسُ جَمِيعاً لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .
فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ :
إِلَى عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ .

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ أَفْضَى ^(٢)إِلَيْكَ ، وَبَايَعَكَ النَّاسُ ،
كُنْتُ كَرَجُلٍ مِنْهُمْ ؛ فَبَايَعْتُكَ لِيُؤَلِّكَ فِي الْحِجَازِ .
وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِبَيْعَتِي هَذِهِ مَكْتُوبَةً .
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

فَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْكِتَابَ عَلَى أَصْحَابِهِ قَالُوا :

(١) أقرأ خبر عبد الله بن الزبير مع الحججاج في كتاب « صور من حياة الصحابييات » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٢) أفضى إليك : آل إليك .

لَوْ أَرَادَ أَنْ يَشُقَّ عَصَا (١) الطَّاعَةِ وَيُحْدِثَ فِي الْأَمْرِ فَتَقًا (٢) لَقَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَمَا كَانَ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ ...

فَاكْتُبْ إِلَيْهِ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَالْأَمَانِ وَذِمَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَّا يُزَعَجَ ، أَوْ يُهَاجَ (٣) هُوَ أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ .
فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ .

وَكَتَبَ إِلَى الْحَبْجَاجِ بِأَمْرِهِ بِتَعْظِيمِهِ ، وَرِعَايَةِ حُرْمَتِهِ ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي إِكْرَامِهِ .

غَيْرَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ ذَلِكَ طَوِيلًا ...

فَقَدِ اخْتَارَهُ اللَّهُ إِلَى جِوَارِهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

* * *

نَوَّرَ اللَّهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ فِي قَبْرِهِ ، وَنَضَّرَ فِي الْجَنَّةِ رُوحَهُ ...

فَقَدْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُرِيدُونَ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ ...

وَلَا غُلُوبًا بَيْنَ النَّاسِ (*) .

(١) يشق عصا الطاعة : يخرج علينا . (٢) فتقاً : انشقاقاً . (٣) يهاج : يعكر .

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ انظر :

١ - حليّة الأولياء لأبي نُعَيْم : ١٧٤/٣ .

٢ - تهذيب التهذيب : ٣٥٤/٩ .

٣ - صفة الصفوة لابن الجوزي (طبعة حلب) : ٧٧/٢ - ٧٩ .

٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٩١/٥ .

٥ - الوافي بالوفيات (الترجمة) : ١٥٨٣ .

٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ١٦٩/٤ .

٧ - الكامل : ٣٩١/٣ و ٢٥٠/٤ ، وانظر حوادث سنة ٦٦ .

٨ - شذرات الذهب : ٨٩/١ .

٩ - تهذيب الأسماء واللغات : ٨٨/١ - ٨٩ .

١٠ - البدء والتاريخ : ٧٥/٥ - ٧٦ .

١١ - المعارف لابن قتيبة : ١٢٣ .

١٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه - (تحقيق الريان)

انظر الأجزاء : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ .

طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ

حَكَائِهِ مَعَ الْوَالِي مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الشَّقَفِيِّ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ مِثْلَ طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ »

[عَمَرُو بْنُ دِينَارٍ]

بِخَمْسِينَ نَجْمًا مِنْ نُجُومِ الْهِدَايَةِ اسْتَضَاءَ ، فَعَمَرَهُ السَّنَا^(١) وَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ
النُّورُ ... فَتَوَّرَ فِي قَلْبِهِ ...
وَتَوَّرَ فِي لِسَانِهِ ...
وَتَوَّرَ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ ...

* * *

وَعَلَى خَمْسِينَ عِلْمًا مِنْ أَعْلَامِ مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ تَخْرُجُ ؛ فَإِذَا هُوَ صُورَةٌ
لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي رُسُوخِ الْإِيمَانِ ...
وَصِدْقِ اللَّهْجَةِ ...
وَالْتَعَالِي عَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا^(٢) ... وَالتَّقَانِي فِي مَرَضَةِ اللَّهِ ...
وَالْجَهْرِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَهْمَا كَانَ ثَمَنُ كَلِمَةِ الْحَقِّ غَالِيًا .
فَلَقَدْ عَلَّمَتْهُ الْمَدْرَسَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ... النَّصِيحَةُ لِلَّهِ ،
وَكِتَابِهِ ، وَرَسُولِهِ ، وَأُيُومُ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ .
وَهَدَتْهُ التَّجَرِبَةُ إِلَى أَنَّ الصَّلَاحَ كُلَّهُ يَبْدَأُ عِنْدَ وَلِيِّ الْأَمْرِ^(٣) ...

(١) السَّنَا : النُّور .

(٢) عَرَضُ الدُّنْيَا : فَانِيهَا .

(٣) وَلِيُّ الْأَمْرِ : مَنْ يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ خَلِيفَةٍ أَوْ وَالِيٍّ أَوْ أَمِيرٍ .

وَيَنْتَهِي عِنْدَهُ .

فَإِذَا صَلَحَ الرَّاعِي ^(١) صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ ...

وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتْ ...

ذَلِكُمْ هُوَ « ذُكْوَانُ بْنُ كَيْسَانَ » الْمَلَقَّبُ بِطَاوُوسٍ ^(٢) .

وَهُوَ لَقِبْتُ خُلِيعَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ طَاوُوسَ الْفُقَهَاءِ ...

وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ فِي عَصَرِهِ .

* * *

كَانَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ مِنْ أَهْلِ « الْيَمَنِ » ... وَكَانَتِ الْوَلَايَةُ فِي « الْيَمَنِ » إِذْ ذَاكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ أَخِي الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ .

فَقَدْ أَرْسَلَهُ الْحَجَّاجُ وَإِلَيَّا عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ ، وَقَوِيَتْ شُوكَتُهُ ، وَاسْتَدَّتْ هَيْبَتُهُ ؛ إِثْرَ قَضَائِهِ عَلَى حَرَكَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ^(٣) .

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ يَجْمَعُ فِي ذَاتِهِ كَثِيرًا مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ الْحَجَّاجِ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يَتَحَلَّى بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ .

* * *

وَفِي غَدَاةٍ يَوْمَ بَارِدٍ مِنْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ دَخَلَ عَلَيْهِ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ وَمَعَهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ ^(٤) .

فَلَمَّا أَخَذَا مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ؛ طَفِقَ طَاوُوسُ يَعْظُهُ وَيُرَغِّبُهُ وَيُرْهَبُهُ ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ... فَقَالَ الْوَالِي لِأَحَدِ حُجَّابِهِ :

(١) الراعي : من يَرْعَى أمور المسلمين ويتولأها ، والرعية : من يرعاهم ويتولأ أمورهم .

(٢) الطاووس : طائر حسن الشكل طويل العنق جميل القنبرة ، وقد سمي به كثير من العلماء والصلحاء .

(٣) اقرأ خبر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه مع الحجاج في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٤) وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ : تابعي يمني فارسي الأصل عارف بأخبار أهل الكتاب .

يَا غُلَامُ أَحْضِرْ طَيْلَسَانًا^(١)، وَأَلْقِهِ عَلَى كَتِفِي أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ .
فَعَمَدَ الْحَاجِبُ إِلَى طَيْلَسَانِ ثَمِينٍ، وَأَلْقَاهُ عَلَى كَتِفِي طَاوُوسٍ .
فَظَلَّ طَاوُوسٌ مُتَدَفِّقًا فِي مَوْعِظَتِهِ، وَجَعَلَ يُحَرِّكُ كَتِفِيهِ فِي تَوْدَةٍ^(٢) حَتَّى
أَلْقَى الطَّيْلَسَانَ عَنْ عَاتِقِهِ^(٣)، وَهَبَّ وَاقِفًا، وَأَنْصَرَفَ ...
فَغَضِبَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ غَضَبًا ظَهَرَ فِي احْمِرَارِ عَيْنَيْهِ، وَاحْتِقَانِ^(٤)
وَجْهِهِ ... غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا ...
فَلَمَّا صَارَ طَاوُوسٌ وَصَاحِبُهُ خَارِجَ الْمَجْلِسِ، قَالَ وَهَبُ لِطَاوُوسٍ :
وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا فِي غِنَى عَنْ إِثَارَةِ غَضَبِهِ عَلَيْنَا ...
فَمَاذَا كَانَ يُضِيرُكَ^(٥) لَوْ أَخَذْتَ الطَّيْلَسَانَ مِنْهُ، ثُمَّ بَغْتَهُ، وَتَصَدَّقْتَ
بِثَمَنِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ !؟
فَقَالَ طَاوُوسٌ : هُوَ مَا تَقُولُ ...
لَوْلَا أَنَّنِي خَشِيتُ أَنْ يَقُولَ الْعُلَمَاءُ مِنْ بَعْدِي :
نَأْخُذُ كَمَا أَخَذَ طَاوُوسٌ ... ثُمَّ لَا يَصْنَعُونَ فِيمَا أَخَذُوهُ مَا تَقُولُ .

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنْ يَرُدَّ لِطَاوُوسٍ الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ^(٦)،
فَنَصَبَ لَهُ شَرَكًا مِنْ شِرَاكِهِ^(٧) ... حَيْثُ أَعَدَّ صُرَّةً فِيهَا سَبْعُمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا ...
وَاخْتَارَ رَجُلًا حَازِقًا مِنْ رِجَالِ حَاشِيَّتِهِ وَقَالَ لَهُ :

(١) الطيلسان : كساء أخضر اللون غالي الثمن تلبسه الخاصة .

(٢) تودة : هُدوء .

(٣) العاتق : ما بين المنكب والعنق، والمراد به الكتف . (٦) يرد الحجر من حيث جاء : يقابل الأمر بمثله ،

وينتقم منه .

(٤) احتقان وجهه : احتباس الدَّم في وَجْهِهِ .

(٧) شَرَكًا مِنْ شِرَاكِهِ : حبلًا من حبال صَيِّدِهِ .

(٥) يضيرك : يؤذيك ويحط من قدرك .

إِمضِ بِهِذِهِ الصُّرَّةَ إِلَى طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ ، وَاحْتَلْ عَلَيْهِ فِي أَخْذِهَا ...
فَإِنْ أَخْذَهَا مِنْكَ أَجَزَلْتُ^(١) عَطِيَّتَكَ ... وَكَسَوْتُكَ ، وَقَرَّبْتُكَ .
فَخَرَجَ الرَّجُلُ بِالصُّرَّةِ ؛ حَتَّى أَتَى طَاوُوساً فِي قَرْيَةٍ كَانَ يُقِيمُ بِهَا بِالْقُرْبِ
مِنْ « صَنْعَاءَ » يُقَالُ لَهَا « الْجَنْدُ » .

فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ حَيَّاهُ ، وَآنَسَهُ^(٢) ، وَقَالَ لَهُ :
يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، هَذِهِ نَفَقَةٌ بَعَثَ بِهَا الْأَمِيرُ إِلَيْكَ .
فَقَالَ : مَالِي بِهَا مِنْ حَاجَةٍ .

فَاحْتَالَ عَلَيْهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ لِيَقْبَلَهَا ؛ فَأَتَى ...
وَأَذَلَّنِي^(٣) لَهُ بِكُلِّ حُجَّةٍ ؛ فَرَفَضَ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ اعْتَنَمَ^(٤) غَفْلَةً مِنْ طَاوُوسٍ ... وَرَمَى بِالصُّرَّةِ فِي
كُوَّةِ^(٥) كَانَتْ بِجِدَارِ الْبَيْتِ ، وَعَادَ رَاجِعاً إِلَى الْأَمِيرِ وَقَالَ :
لَقَدْ أَخَذَ طَاوُوسٌ الصُّرَّةَ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ .

فَسَرَّ لِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ، وَسَكَتَ عَلَيْهِ .
فَلَمَّا مَضَتْ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامٌ عِدَّةٌ ، أَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ أَغْوَانِهِ^(٦) ، وَمَعَهُمَا
الرَّجُلُ الَّذِي حَمَلَ إِلَيْهِ الصُّرَّةَ ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقُولَا لَهُ :
إِنَّ رَسُولَ الْأَمِيرِ قَدْ أَخْطَأَ فَدَفَعَ إِلَيْكَ الْمَالَ ، وَهُوَ مُرْسَلٌ لِعَيْرِكَ ...
وَقَدْ أَتَيْنَا لِنَسْتَرِدَّهُ مِنْكَ ، وَنَحْمِلَهُ إِلَى صَاحِبِهِ .

(١) أَجَزَلْتُ عَطِيَّتَكَ : أَكْرَمْتُكَ وَأَكْثَرْتُ هِبَتَكَ .
(٢) آنَسَهُ : لَاطَفَهُ .
(٣) أَذَلَّنِي بِالْحُجَّةِ : أَحْضَرَ الْحُجَّةَ وَأَقْنَعَ بِهَا .
(٤) اعْتَنَمَ : انْتَهَزَ .
(٥) الْكُوَّةُ : النَافِذَةُ الصَّغِيرَةُ فِي الْجِدَارِ .
(٦) مِنْ أَغْوَانِهِ : مِنْ رَجَالِهِ .

فَقَالَ طَاوُوسٌ : مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِ الْأَمِيرِ شَيْئًا حَتَّى أَرُدَّهُ إِلَيْهِ .
فَقَالَا : بَلْ أَخَذْتَهُ .

فَالْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي حَمَلَ إِلَيْهِ الصُّرَّةَ ، وَقَالَ لَهُ :
هَلْ أَخَذْتُ مِنْكَ شَيْئًا ؟ !

فَأَصَابَ الرَّجُلَ دُغْرٌ^(١) وَقَالَ : كَلَّا ...

وَأِنَّمَا وَضَعْتُ الْمَالَ فِي هَذِهِ الْكُؤَةِ فِي غَفْلَةٍ مِنْكَ .

فَقَالَ طَاوُوسٌ : دُونَكُمْ^(٢) الْكُؤَةُ ، فَانْظُرَا فِيهَا .

فَنَظَرَا فِي الْكُؤَةِ ، فَوَجَدَا فِيهَا الصُّرَّةَ كَمَا هِيَ ، وَقَدْ ضَرَبَ عَلَيْهَا
الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهِ^(٣) ... فَأَخَذَاهَا ، وَعَادَا بِهَا إِلَى الْأَمِيرِ .

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ يُوسُفَ عَلَى فَعْلَيْهِ هَذِهِ ،
وَأَنْ يَجْعَلَ قِصَاصَهُ مِنْهُ عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ وَمَشْهَدٍ ... فَكَيْفَ وَقَعَ ذَلِكَ ؟ !

حَدَّثَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ قَالَ :

بَيْنَمَا أَنَا فِي مَكَّةَ حَاجًّا بَعَثَ إِلَيَّ الْحَبَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ
عَلَيْهِ رَحَّبَ بِي ... وَأَذْنَى^(٤) مَجْلِسِي مِنْهُ ...

وَطَرَحَ لِي وَسَادَةً^(٥) ، وَدَعَانِي لِأَنْ أَتَكِيَّ عَلَيْهَا ...

ثُمَّ رَاحَ يَسْأَلُنِي عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاسِكِ^(٦) الْحَجِّ ، وَغَيْرِهَا .

(١) الذعر : الخوف والقلق .

(٢) دون : اسم فعل بمعنى خذ ، ودونكما الكؤة : انظرا فيها .

(٣) بنسجه : بخيوطه .

(٤) أذننى : مخدئة ومثكأ .

(٥) وسادة : قرب مقامي منه .

(٦) منايك الحج : عبادات الحج وأركانه .

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ ، سَمِعَ الْحَجَّاجُ مُلَبِّيًّا يُلَبِّي حَوْلَ الْبَيْتِ ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ
بِالتَّلْبِيَةِ ، وَلَهُ نَبْرَةٌ^(١) تَهْزُ الْقُلُوبَ هَزًّا ... فَقَالَ : عَلَيَّ بِهِذَا الْمُلَبِّي .

فَأُتِيَ لَهُ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ الْمُسْلِمِينَ .

فَقَالَ : لَمْ أَسْأَلْكَ عَنْ هَذَا ، وَإِنَّمَا سَأَلْتُكَ عَنِ الْبَلَدِ .

فَقَالَ : مِنْ أَهْلِ « الْيَمَنِ » .

فَقَالَ : كَيْفَ تَرَكْتَ أَمِيرَكُم [يَعْنِي أَخَاهُ] ؟ .

فَقَالَ : تَرَكْتُهُ عَظِيمًا ، جَسِيمًا^(٢) ...

لَبَّاسًا ، رَكَّابًا ...

خَرَّاجًا ، وَلَاجًا^(٣) ...

فَقَالَ : لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلْتُكَ .

فَقَالَ : عَمَّ سَأَلْتَنِي إِذَنْ ؟ .

فَقَالَ : سَأَلْتُكَ عَنْ سِيرَتِهِ فَيَكُم .

فَقَالَ : تَرَكْتُهُ ظُلُومًا غَشُومًا^(٤) ...

مُطِيعًا لِلْمَخْلُوقِ ، عَاصِيًا لِلْخَالِقِ .

فَاخْمَرَتْ وَجْهَهُ الْحَجَّاجُ خَجَلًا مِنْ جُلَسَائِهِ ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ :

مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُولَ فِيهِ مَا قُلْتَهُ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَكَانَهُ مِنِّي ؟ ! .

(١) النبوة : رفع الصوت بعد خفضه للتأثير في السامعين .

(٣) خَرَّاجًا وَلَاجًا : كَثِيرُ الْمَدَاجِلِ وَالْمَخَارِجِ .

(٤) غَشُومًا : شَدِيدُ الظُّلَمِ .

(٢) جَسِيمًا : بَدِينًا مَمْتَلًى الْجَسَمِ .

فَقَالَ : أَتَرَاهُ بِمَكَانِهِ مِنْكَ أَعَزَّ مِنِّي بِمَكَانِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ! .
وَأَنَا وَافِدٌ بِنَبِيِّهِ (١) ...

وَمُصَدِّقٌ بِنَبِيِّهِ ...

وَقَاضِي دَيْنِهِ (٢) .

فَسَكَتَ الْحَجَّاجُ ، وَلَمْ يُجِرْ (٣) جَوَاباً .

قَالَ طَاوُوسٌ :

ثُمَّ مَا لَيْتَ الرَّجُلُ أَنْ قَامَ ، وَانْصَرَفَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَأْذِنَ أَوْ يُؤْذَنَ لَهُ .

فَقُمْتُ فِي إِثْرِهِ (٤) ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

إِنَّ الرَّجُلَ صَالِحٌ ، فَاتَّبَعُهُ وَأَظْفَرُ (٥) بِهِ قَبْلَ أَنْ تُغَيِّبَهُ عَنْ عَيْنَيْكَ جُمُوعُ
النَّاسِ ... فَتَبِعْتُهُ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ أَتَى الْبَيْتَ وَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِهِ (٦) ، وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى
جِدَارِهِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ (٧) ... وَبِجَنَابِكَ أَلُودُ (٨) ...

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي الْإِطْمِئْنَانِ إِلَى جُودِكَ ، وَالرِّضَا بِضَمَانِكَ (٩)
مَنْدُوحَةً (١٠) عَنْ مَنَعَ الْبَاخِلِينَ (١١) ، وَغَنَى عَمَّا فِي أَيْدِي الْمُسْتَائِرِينَ (١٢) ...

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَرَجَكَ الْقَرِيبَ ... وَمَعْرُوفَكَ الْقَدِيمَ ...

وَعَادَتَكَ الْحَسَنَةَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

(١) وافد بيته : مقبل على بيت الله ، نازل في رحابه .

(٢) قاضي دينه : مؤدٍ لدَيْنِهِ .

(٣) لم يجر جواباً : لم ينطق بجواب .

(٤) إثره : ورائه .

(٥) أظفر به : أجده وأحظي به .

(٦) بأستاره : بكساء الكعبة .

(٧) أعوذ : أعتصم .

(٨) ألود : ألتجى وأتخصن .

(٩) بضمانك : بكفالتك .

(١٠) مندوحة : سعة وخلاصاً .

(١١) الباخلين : البخلاء الأشحاء .

(١٢) المستأثرين : محبي أنفسهم .

ثُمَّ ذَهَبَتْ بِهِ مَوْجَةٌ مِنَ النَّاسِ وَأَخْفَتْهُ عَنْ عَيْنِي ؛ فَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَيَّ
لِقَائِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ...

فَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ « عَرَفَةَ » ، رَأَيْتُهُ وَقَدْ أَفَاضَ ^(١) مَعَ النَّاسِ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ
فَإِذَا هُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ لَمْ تَقْبَلْ حَجَّيْ ، وَتَعَيِّي ، وَنَصِيي ... فَلَا تَحْرِمْنِي الْأَجَرَ
عَلَى مُصِيبَتِي ؛ بِتَرْكِكَ الْقَبُولَ مِنِّي .

ثُمَّ ذَهَبَ فِي النَّاسِ ، وَسَتَرَهُ الظَّلَامُ عَنِّي ...

فَلَمَّا يَعِشْتُ مِنْ لِقَائِهِ قُلْتُ :

اللَّهُمَّ اقْبَلْ دُعَائِي وَدُعَاءَهُ ...

وَاسْتَجِبْ رَجَائِي وَرَجَاءَهُ ...

وَتَبَّتْ قَدَمَيَّ وَقَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُلُّ الْأَقْدَامُ ^(٢) ...

وَاجْمَعْنِي مَعَهُ عَلَى حَوْضِ الْكَوْثَرِ ^(٣) يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ .

* * *

وَالِإِلَى لِقَاءِ آخَرَ مَعَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ « ذُكْوَانَ بْنِ كَيْسَانَ » .

الْمُلَقَّبِ بِطَاوُوسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ...

وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ ^(٤) .

(١) أَفَاضَ النَّاسُ : انطلقوا وتفرقوا .

(٢) تَزُلُّ الْأَقْدَامُ : تزلق الأقدام ، وتسقط الأجسام .

(٣) الْكَوْثَرُ : نهر في الجنة .

(٤) مَثْوَاهُ : مقره ومقامه .

طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ

الْوَاعِظُ الْمُرْتَشِدُ

«رَأَيْتَكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي الْحُلَمِ، وَأَنْتَ تُصَلِّي فِي الْكَعْبَةِ وَالنَّبِيِّ عَلَى بَابِهَا وَهُوَ يَقُولُ لَكَ : اكْشِفْ قِنَاعَكَ وَبَيِّنْ قِرَاءَتَكَ يَا طَاوُوسُ»

[مُجَاهِدٌ]

مَا كَادَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يُلْقِي رِحَالَهُ^(١) فِي أَكْنَافِ^(٢) الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ...

وَيَبْلُ أَسْوَاقَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ حَتَّى التَّمَتْ إِلَى حَاجِبِهِ وَقَالَ : ابْتَغِ^(٣) لَنَا عَالِمًا يُفَقِّهُنَا فِي الدِّينِ ، وَيَذَكِّرُنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْأَعْرَ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

فَمَضَى الْحَاجِبُ إِلَى وُجُوهِ أَهْلِ الْمَوْسِمِ^(٤) ، وَطَفِقَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ بُغْيَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ... فَقِيلَ لَهُ :

هَذَا طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ سَيِّدُ فُقَهَاءِ عَصْرِهِ ...

وَأُضِدُّهُمْ لَهُجَةً فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ... فَعَلَيْكَ بِهِ .

فَأَقْبَلَ الْحَاجِبُ عَلَى طَاوُوسٍ وَقَالَ :

أَجِبْ دَعْوَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيُّهَا الشَّيْخُ .

فَاسْتَجَابَ طَاوُوسٌ لَهُ مِنْ غَيْرِ إِبْطَاءٍ .

(١) الرُّحْلُ : مَا يَجْعَلُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ عِنْدَ السَّفَرِ ، وَيُلْقِي رِحَالَهُ : يَصِلُ وَيَسْتَقِر .

(٢) أَكْنَافُ الْبَيْتِ : أَطْرَافُهُ .

(٣) ابْتَغِ لَنَا : اطْلُبْ لَنَا .

(٤) الْمَوْسِمُ : مَجْتَمَعُ النَّاسِ لِلْحَجِّ أَوْ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ .

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَلَّا تَعْرِضَ لَهُمْ فُرْصَةً
إِلَّا اغْتَنَّمُوهَا ...

وَأَلَّا تَسْنَحَ ^(١) لَهُمْ بَادِرَةً ^(٢) إِلَّا ابْتَدَرُوهَا ^(٣) ...

وَكَانَ يُوقِنُ أَنَّ أَفْضَلَ كَلِمَةٍ تُقَالُ هِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ ؛ أُرِيدَ بِهَا تَقْوِيمُ اعْوِجَاجِ
ذَوِي السُّلْطَانِ ...

وَتَجْنِيهِهُمْ الْحَيْفَ ^(٤) وَالْجَوْرَ ...

وَتَقْرِئُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ...

* * *

مَضَى طَاوُوسٌ مَعَ الْحَاجِبِ ...

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَيَّاهُ ، فَرَدَّ الْخَلِيفَةُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنِ مِنْهَا ...
وَأَكْرَمَ اسْتِقْبَالَ زَائِرِهِ ، وَأَذْنَى مَجْلِسِهِ .

ثُمَّ أَخَذَ يُسَائِلُهُ عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ ، وَيُنْصِتُ إِلَيْهِ فِي تَوْقِيرٍ
وِاجْتِلَالٍ .

قَالَ طَاوُوسٌ :

فَلَمَّا شَعَرْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَلَغَ بُغْيَتَهُ ^(٥) ، وَلَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ مَا يَسْأَلُ
عَنْهُ ، قُلْتُ فِي نَفْسِي :

إِنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ لَمَجْلِسٌ يَسْأَلُكَ اللَّهُ عَنْهُ يَا طَاوُوسُ ...

ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ :

(١) تَسْنَحَ لَهُمْ : تُلَوِّحَ لَهُمْ .

(٢) بَادِرَةٌ : فُرْصَةٌ .

(٣) ابْتَدَرُوهَا : عَجَلُوا إِلَيْهَا وَأَفَادُوا مِنْهَا .

(٤) الْحَيْفُ : الظُّلْمُ .

(٥) بُغْيَتُهُ : غَايَتُهُ وَغَرَضُهُ .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ صَحْرَةً كَانَتْ عَلَى شَفِيرِ^(١) بئرٍ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ...
وَقَدْ ظَلَّتْ تَهْوِي فِي هَذِهِ الْبئرِ سَبْعِينَ خَرِيفاً^(٢) حَتَّى بَلَغَتْ قَرَارَهَا ...
أَتَدْرِي لِمَنْ أَعَدَّ اللَّهُ هَذِهِ الْبئرَ مِنْ آبَارِ جَهَنَّمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟
فَقَالَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ : لَا ... ثُمَّ عَادَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَقَالَ :

وَيْلَكَ ، لِمَنْ أَعَدَّهَا ؟!

فَقُلْتُ : أَعَدَّهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لِمَنْ أَشْرَكَهُ^(٣) فِي حُكْمِهِ ، فَجَارَ ...
فَأَخَذَتْ سُلَيْمَانَ لِذَلِكَ رَعْدَةً ، ظَنَنْتُ مَعَهَا أَنَّ رُوحَهُ سَتَصْعَدُ مِنْ بَيْنِ
جَنْبَيْهِ ... وَجَعَلَ يَهْكِي ؛ وَلِبِكَائِهِ نَشِيجٌ^(٤) يُقَطِّعُ نِيَاطَ^(٥) الْقُلُوبِ ...
فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ ...
وَهُوَ يُجْزِينِي^(٦) خَيْراً .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٧) الْخِلَافَةَ ؛ بَعَثَ إِلَى طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ
يَقُولُ : أَوْصِنِي يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ طَاوُوسٌ رِسَالَةً فِي سَطْرِ وَاحِدٍ قَالَ فِيهَا :
« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ عَمَلُكَ خَيْراً كُلُّهُ ، فَاسْتَغْمِلْ أَهْلَ الْخَيْرِ ،
وَالسَّلَامُ » .

(١) شفير بئر : فوق بئر .

(٢) خريفاً : عاماً .

(٣) أشركه في حكمه : ولأه أمور الناس .

(٤) النشيج : الفضة بالياء من غير صوت .

(٥) النياط : جمع مفرد نوط ، وهو عرق غليظ معلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه .

(٦) يجزيني خيراً : يقول لي : جزيت خيراً ويكرر ذلك .

(٧) عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ الرِّسَالَةَ قَالَ :

كَفَى بِهَا مَوْعِظَةٌ ...

كَفَى بِهَا مَوْعِظَةٌ ...

* * *

وَلَمَّا آلَتْ^(١) الْخِلَافَةُ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَتْ لِبَطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ مَعَهُ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ مَأْتُورَةٌ^(٢).

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هِشَامًا قَدِمَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ حَاجًّا ... فَلَمَّا صَارَ فِي الْحَرَمِ ، قَالَ لِخَاصَّتِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ :

الْتَمِسُوا^(٣) لَنَا رَجُلًا مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَقَالُوا لَهُ : إِنَّ الصَّحَابَةَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ تَلَا حُقُوقًا بِرَبِّهِمْ وَاحِدًا إِثْرًا^(٤) آخَرَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

فَقَالَ : إِذَنْ ؛ فَمِنْ التَّابِعِينَ ... فَأُتِيَ بِبَطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، خَلَعَ نَعْلَيْهِ بِحَاشِيَةٍ^(٥) بِسَاطِهِ ...

وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُوهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَحَاطَبَهُ بِاسْمِهِ دُونَ أَنْ يُكْنِيَهُ^(٦) ...

وَجَلَسَ قَبْلَ أَنْ يُأْذَنَ لَهُ بِالْجُلُوسِ ...

فَاسْتَشَاطَ^(٧) هِشَامٌ غَضَبًا حَتَّى بَدَا الْغَيْظُ فِي عَيْنَيْهِ .

(١) آلت الخِلافة : انتقلت الخِلافة .

(٢) مأثورة : مروية معروفة .

(٣) التمسوا : ابحثوا .

(٤) إثر : بعد .

(٥) حاشية بساطه : طرف بساطه .

(٦) يكنيه : الكنية ما صُدِّرت بأب أو أم كأبي القاسم وأم المؤمنين .

(٧) استشاط : اشتعل .

ذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى فِي تَصَرُّفَاتِهِ تِلْكَ اجْتِرَاءَ عَلَيْهِ ، وَنَيْلًا مِنْ هَيْبَتِهِ أَمَامَ
جُلَسَائِهِ ، وَرِجَالِ حَاشِيَتِهِ ...

بَيَّنَّ أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ تَذَكَّرَ أَنَّهُ فِي حَرَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ لَطَاوُوسُ :

مَا حَمَلَكَ يَا طَاوُوسُ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟!

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي صَنَعْتُهُ ؟!

فَعَادَ إِلَى الْخَلِيفَةِ غَضَبُهُ وَغَيْظُهُ ، وَقَالَ :

خَلَعْتَ نَعْلَيْكَ بِحَاشِيَةِ بَسَاطِي ...

وَلَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ بِإِمْرَةٍ^(١) الْمُؤْمِنِينَ ...

وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِي ، وَلَمْ تُكْنِّني ...

ثُمَّ جَلَسْتَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِي ...

فَقَالَ طَاوُوسُ يَهُدُوِي :

أَمَّا خَلَعُ نَعْلَيَّ بِحَاشِيَةِ بَسَاطِكَ ، فَأَنَا أَخْلَعُهُمَا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّ الْعِزَّةِ كُلَّ يَوْمٍ

خَمْسَ مَرَّاتٍ ... فَلَا يُعَاتِبُنِي ، وَلَا يَغْضَبُ عَلَيَّ ...

وَأَمَّا قَوْلُكَ أَنِّي لَمْ أُسَلِّمْ عَلَيْكَ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَلِأَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسُوا رَاضِينَ بِإِمْرَتِكَ ...

وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَاذِبًا إِذَا دَعَوْتُكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَأَمَّا مَا أَخَذْتَهُ عَلَيَّ مِنْ أَنِّي نَادَيْتُكَ بِاسْمِكَ ، وَلَمْ أَكُنْكَ ...

فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَادَى أَنْبِيَاءَهُ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَقَالَ :

(١) إمرة المؤمنين : الخلافة .

يَا دَاوُودُ ... يَا يَحْيَى ... يَا عِيسَى ...

وَكَتَلَى أَعْدَاءَهُ فَقَالَ :

﴿ تَبَّتْ ^(١) يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢)، وَتَبَّ ^(٣) ...

وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي جَلَسْتُ قَبْلَ أَنْ تَأْذَنَ لِي ... فَإِنِّي سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ :

« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَانْظُرْ إِلَى رَجُلٍ جَالِسٍ ،
وَحَوْلَهُ قَوْمٌ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ » .

فَكَرِهْتُ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي عُدَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ...

فَأُطْرِقَ ^(٤) هِشَامٌ إِلَى الْأَرْضِ خَجَلًا ... ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :

عِظْنِي يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

« إِنَّ فِي جَهَنَّمَ حَيَاتٍ كَالْقِلَالِ ^(٥) ... وَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ ...

تَلْدَغُ كُلَّ رَاعٍ لَا يَعْدِلُ فِي رَعِيَّتِهِ » .

ثُمَّ قَامَ وَانْصَرَفَ .

* * *

وَكَمَا كَانَ طَاوُوسٌ يُقْبَلُ عَلَى بَعْضِ أَوْلِي الْأَمْرِ تَذَكِيرًا لَهُمْ وَتَوْجِيهًا ...

فَقَدْ كَانَ يُعْرِضُ ^(٦) عَنْ بَعْضِهِمُ الْآخِرَ تَبْكِيتًا ^(٧) وَتَأْنِيًا ...

(١) تَبَّتْ : خَسِرَتْ .

(٢) أَبُو لَهَبٍ : غَمَ الرِّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَحَدُ عُتَاةِ الْمُشْرِكِينَ ، آذَى النَّبِيَّ أَشَدَّ الْإِذَاءِ هُوَ وَزَوْجَتُهُ .

(٣) سُورَةُ الْمَسَدِ : ١ .

(٤) أُطْرِقَ : نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ .

(٦) يُعْرِضُ : يَتَعَدَّى وَيَتَعَالَى .

(٧) تَبْكِيتًا : اسْتِهَانَةً بِهِمْ ، وَتَحْقِيرًا لَهُمْ .

(٥) الْقِلَالُ : الْأَعْمِدَةُ الطَّوِيلَةُ الْغَلِيظَةُ .

حَدَّثَ ابْنُهُ قَالَ :

خَرَجْنَا ذَاتَ سَنَةٍ مَعَ أَبِي حُجَّاجاً مِنْ «الْيَمَنِ» ، فَتَزَلْنَا فِي بَعْضِ الْمُدُنِ وَعَلَيْهَا غَامِلٌ يُقَالُ لَهُ «ابْنُ نَجِيحٍ» ... وَكَانَ مِنْ أَخْبَثِ الْعُمَالِ ، وَأَكْثَرِهِمْ جُرْأَةً عَلَى الْحَقِّ ، وَأَشَدَّهُمْ إِغْلَالاً^(١) فِي الْبَاطِلِ ...

فَأَتَيْنَا مَسْجِدَ الْبَلَدِ نُرِيدُ أَدَاءَ الْمَكْتُوبَةِ^(٢) ، فَإِذَا «ابْنُ نَجِيحٍ» قَدْ عَلِمَ بِقُدُومِ أَبِي ، فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ... فَلَمْ يُجِبْهُ أَبِي ، وَأَدَارَ لَهُ ظَهْرَهُ ...

فَأَتَاهُ عَنْ يَمِينِهِ وَكَلَّمَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ...

فَعَدَلَ إِلَى يَسَارِهِ وَكَلَّمَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَيْضاً ...

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُمْتُ إِلَيْهِ ، وَمَدَدْتُ يَدِي نَحْوَهُ ، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ أَبِي لَمْ يَعْرِفَكَ ...

فَقَالَ : بَلْ إِنَّ أَبَاكَ يَعْرِفُنِي ...

وَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ بِي هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَصْنَعُ مَا رَأَيْتَ ...

ثُمَّ مَضَى وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَقُولُ شَيْئاً .

فَلَمَّا عُدْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ التَقْتُ إِلَيَّ أَبِي وَقَالَ :

يَا لُكْعُ^(٣) ... تَسْلِقُ^(٤) هَؤُلَاءِ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ فِي غَيْبَتِهِمْ ...

فَإِذَا حَضَرُوا خَضَعْتَ لَهُمْ بِالْقَوْلِ !! ...

(١) إِغْلَالًا : دَخُولًا وَتَعَمُّقًا .

(٢) الْمَكْتُوبَةُ : الْفَرِيضَةُ .

(٣) يَا لُكْعُ : يَا أَحْمَقُ .

(٤) تَسْلِقُهُمْ : تَبَالُغُ فِي ذَمِّهِمْ .

وَهَلِ النَّفَاقُ غَيْرُ هَذَا !؟ .

* * *

هَذَا ، وَإِنَّ طَاوُوسَ بْنِ كَيْسَانَ لَمْ يَخُصَّ الْخُلَفَاءَ وَالْوُلَاةَ بِمَوَاعِظِهِ ،
وَإِنَّمَا بَذَلَهَا لِكُلِّ مَنْ آتَسَ^(١) بِهِ حَاجَةً إِلَيْهَا أَوْ رَغْبَةً فِيهَا .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ^(٢) قَالَ :

رَأَيْتُ طَاوُوسَ بْنَ كَيْسَانَ فِي مَوْقِفٍ لَمْ يَزْتَخْ لَهُ ، فَقَالَ :

يَا عَطَاءُ ، إِيَّاكَ أَنْ تَرْفَعَ حَوَائِجَكَ إِلَى مَنْ أَعْلَقَ فِي وَجْهِكَ بَابُهُ ...

وَأَقَامَ دُونَكَ حُجَابَهُ^(٣) ...

وَإِنَّمَا اطْلُبْهَا مِمَّنْ أَسْرَعَ^(٤) لَكَ أَبْوَابُهُ ...

وَطَالَبَكَ بِأَنْ تَدْعُوهُ ... وَوَعَدَكَ بِالْإِجَابَةِ ...

* * *

وَكَانَ يَقُولُ لِابْنِهِ :

يَا بُنَيَّ ، صَاحِبِ الْعُقَلَاءِ تُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ...

وَلَا تُصَاحِبِ الْجُهَّالَ ، فَإِنَّكَ إِنْ صَحِبْتَهُمْ نُسِبْتَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ...

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةً^(٥) ...

وَأَنَّ غَايَةَ الْمَرْءِ تَمَامُ دِينِهِ ، وَكَمَالُ خُلُقِهِ .

وَقَدْ نَشَأَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى مَا رَبَّاهُ عَلَيْهِ أَبُوهُ ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ ، وَسَارَ

بِسِيرَتِهِ ... مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْعَبَّاسِيَّ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ اسْتَدْعَى وَلَدَهُ

(١) آتَسَ : شَغَرَ .

(٢) عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ : انظره ص ٩ .

(٣) حُجَابَتُهُ : الواقفين على بابه من عُمَّاله وجنده .

(٤) أَسْرَعَ : القصد والتمرة .

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ طَاوُوسٍ ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ^(١) لِرِيَارَتِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَا مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ؛ التَفَتَ الْخَلِيفَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُوسٍ وَقَالَ :
إِزُولِي شَيْئًا مِمَّا كَانَ يُحَدِّثُكَ بِهِ أَبُوكَ .

فَقَالَ : « حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ ^(٢) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُلْطَانِهِ ، فَأَدْخَلَ الْجَوْزَ فِي حُكْمِهِ » .
قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ :

فَلَمَّا سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ هَذِهِ ؛ ضَمَمْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي خَوْفًا مِنْ أَنْ يُصِيبَنِي شَيْءٌ مِنْ دَمِهِ ... يَبْدَأُ أَبَا جَعْفَرٍ أُنْسَكَ ^(٣) سَاعَةً لَا يَتَكَلَّمُ .
ثُمَّ صَرَفْنَا بِسَلَامٍ .

* * *

وَقَدْ امْتَدَّتِ الْحَيَاةُ بِطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ حَتَّى بَلَغَ الْمِائَةَ ، أَوْ جَاوَزَهَا قَلِيلًا ... غَيْرَ أَنَّ الْكِبَرَ وَالشَّيْخُوخَةَ لَمْ يَنَالَا شَيْئًا مِنْ صَفَاءِ ذَهَبِهِ ، وَجِدَّةِ خَاطِرِهِ ^(٤) ، وَسُرْعَةِ بَدِيدَتِهِ ^(٥) .

حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ الشَّامِيُّ قَالَ :
أَتَيْتُ طَاوُوسًا فِي بَيْتِهِ لِأَخْذِ عَنْهُ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُهُ ... فَلَمَّا طَرَفْتُ الْبَابَ خَرَجَ إِلَيَّ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ : أَأَنْتَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ ؟ .
فَقَالَ : بَلَى أَنَا ابْنُهُ ...

(١) مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : هُوَ أَحَدُ تَابِعِي الثَّالِعِينَ ، وَعَلِمَ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ، وَصَاحِبُ مَذْهَبِ مَالِكٍ .
(٢) أَشْرَكَهُ فِي سُلْطَانِهِ : وَلَّاهُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ .
(٣) أَمْسَكَ : تَوَقَّفَ وَضَمَّتْ .
(٤) جِدَّةُ خَاطِرِهِ : دَقَّةُ فِكْرِهِ .
(٥) سُرْعَةُ الْبَدِيدَةِ : الْإِجَابَةُ مِنْ غَيْرِ جَهْدِ فِكْرٍ .

فَقُلْتُ : إِنْ كُنْتُ ابْنُهُ ؛ فَلَا آمَنْ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ قَدْ هَرِمَ وَخَرِفَ ^(١) ، وَإِنِّي
قَصَدْتُهُ مِنْ أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ لِأُفِيدَ مِنْ عِلْمِهِ ...

فَقَالَ : وَيَحَكَ ...

إِنَّ حَمَلَةَ كِتَابِ اللَّهِ لَا يَخْرُفُونَ ... ادْخُلْ عَلَيْهِ ...

فَدَخَلْتُ عَلَى طَاوُوسٍ وَسَلَّمْتُ ، وَقُلْتُ :

لَقَدْ أَتَيْتُكَ طَالِبًا عِلْمَكَ رَاغِبًا فِي نُصْحِكَ .

فَقَالَ : سَلْ وَأَوْجِزْ ^(٢) .

فَقُلْتُ : سَأَوْجِزُ مَا وَسِعَنِي الْإِيجَازُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

فَقَالَ : أَتُرِيدُ أَنْ أَجْمَعَ لَكَ صَفْوَةَ ^(٣) مَا فِي التَّوْرَةِ ، وَالزَّبُورِ ^(٤) ،
وَالْإِنْجِيلِ ، وَالْقُرْآنِ ؟

فَقُلْتُ : نَعَمْ ...

فَقَالَ : خَفِ اللَّهَ تَعَالَى خَوْفًا يَحِثُّ لَا يَكُونُ شَيْءٌ أَخَوْفَ لَكَ مِنْهُ ...

وَارْجُهُ رَجَاءً أَشَدَّ مِنْ خَوْفِكَ إِيَّاهُ ...

وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ...

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَمِائَةٍ ، أَفَاضَ ^(٥) الشَّيْخُ الْمُعَمَّرُ
طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ مَعَ الْحَجِيجِ مِنْ « عَرَفَاتٍ » إِلَى « الْمُزْدَلِفَةِ » لِلْمَرَّةِ
الْأَرْبَعِينَ .

(١) خَرِفَ : فسد عقله من الكبر .

(٢) أَوْجِزَ : اختصر .

(٣) صَفْوَةُ الشَّيْءِ : خلاصته وأعمقه وأثمنه .

(٤) الزَّبُورُ : كتاب نبي الله داود عليه السلام .

(٥) أَفَاضَ : انطلق .

فَلَمَّا حَطَّ رِحَالَهُ فِي رِحَابِهَا الطَّاهِرَةِ ، وَأَدَّى الْمَغْرِبَ مَعَ الْعِشَاءِ ...
وَأَسْلَمَ جَنْبَهُ إِلَى الْأَرْضِ ؛ يَلْتَمِسُ ^(١) شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةِ ...
أَتَاهُ الْيَقِينُ ^(٢) ...

فَلَقِيَهُ بَعِيداً عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ؛ تَقَرُّباً لِلَّهِ ...
مُلبِّياً مُحَرِّماً ؛ رَجَاءً لِنَوَابِ اللَّهِ ...

خَارِجاً مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ؛ يَفْضِلُ اللَّهُ ...
فَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ الصُّبْحُ ، وَأَرَادُوا دَفْنَهُ ... لَمْ يَتِمَّ كُنُوتُهُ مِنْ إِخْرَاجِ جَنَازَتِهِ
لِكثْرَةِ مَا أَرْدَحَمَ عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ .
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ أَمِيرُ مَكَّةَ حَرَساً لِيَذُودُوا ^(٣) النَّاسَ عَنِ الْجَنَازَةِ حَتَّى يُتَاحَ ^(٤)
لَهُمْ دَفْنُهَا ...

وَقَدْ صَلَّى عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ ...
وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمُصَلِّينَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ ...
هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (*) .

(١) يَلْتَمِسُ : يَتَغَيُّ . (٢) الْيَقِينُ : الْمَوْتُ . (٣) لِيَذُودُوا : لِيُدْفَعُوا . (٤) يُتَاحَ لَهُمْ : يَسْهُلُ لَهُمْ .

(*) للاستزادة مِنْ أَخْبَارِ طَاوُوسِ بْنِ كَيْمَانَ انظر :

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥/٥٣٧ .
- ٢ - طبقات خليفة بن خياط : ٢٨٧ .
- ٣ - تاريخ خليفة بن خياط : ٢٣٦ .
- ٤ - التاريخ الكبير : ٤/٣٦٥ .
- ٥ - تاريخ الفسوي : ١/٧٠٥ .
- ٦ - الجرح والتعديل : ٤/٥٠٠ .
- ٧ - حلية الأولياء : ٤/٣ ، ٢٣ .
- ٨ - طبقات الفقهاء للشيرازي : ٧٣ .
- ٩ - اللباب : ١/٢٤١ .
- ١٠ - تهذيب التهذيب : ٢/١٠١ .
- ١١ - تاريخ الإسلام : ٤/١٢٦ .
- ١٢ - تذكرة الحفاظ : ١/٩٠ .
- ١٣ - العبر : ١/١٣٠ .
- ١٤ - طبقات القراء : ١/٣٤١ .
- ١٥ - النجوم الزاهرة : ١/٢٦ .
- ١٦ - شذرات الذهب : ١/١٣٣ .

القَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ

«لَوْ كَانَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْخِلَافَةَ» .

[عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ هَذَا التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ ؟ .

إِنَّهُ فَتَى جَمَعَ الْمَجْدَ مِنْ أَطْرَافِهِ كُلِّهَا ؛ حَتَّى لَمْ يَفْتُهُ مِنْهُ شَيْءٌ ...

فَأَبُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ...

وَأُمُّهُ بِنْتُ كِسْرَى «يَزْدَجُرْدَ» آخِرِ مُلُوكِ «الْفُوسِ» ...

وَعَمَّتُهُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَوَجَّ هَامَتُهُ^(١) بِتَاجِ الثَّقَلَيْنِ وَالْعِلْمِ .

أَفْتَحَسِبُ أَنَّ فَوْقَ هَذَا الْمَجْدِ مَجْدًا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ^(٢) ؟ .

ذَلِكُمْ هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ .

أَحَدُ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ^(٣) ... وَأَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ عِلْمًا ...

وَأَحَدُهُمْ^(٤) ذَهْنًا ... وَأَشَدَّهُمْ وَرَعًا ...

فَتَعَالَ نَبْدَأُ قِصَّةَ حَيَاتِهِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

(١) هَامَتُهُ : رَأَسَتْهُ .

(٢) يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ : يَتَفَاخَرُ فِيهِ الْمُتَفَاخِرُونَ .

(٣) فُقَهَاءُ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ هُمْ : سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، وَغُرُورَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَزْرَمِيُّ ، وَخَارِجَةُ

ابْنُ زَيْدٍ ، وَشَلَيْطَانُ بْنُ يَسَارٍ ، وَغُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَةَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ .

(٤) أَحَدُهُمْ ذَهْنًا : أَنْفَذَهُمْ قَرِيحَةً .

وُلِدَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ... لَكِنَّ الطُّفْلَ الصَّغِيرَ مَا كَادَ يَدْرُجُ^(١) فِي عُشِّهِ ، حَتَّى عَصَفَتْ^(٢) فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ رِيحُ الْفِتْنَةِ الْهُوجَاءِ^(٣) ...

فَاسْتُشْهِدَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَادُ الرَّهَّادُ ذُو الثَّوَرَيْنِ^(٤) وَهُوَ مُنَحْنٍ بِصُلْبِهِ^(٥) عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ .

وَنَشِبَ^(٦) الْخِلَافُ الْكَبِيرُ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَمِيرِ بِلَادِ الشَّامِ ...

وَفِي سِلْسِلَةٍ مُفْرِعَةٍ مُذْهِلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُتَلَاخِقَةِ ... وَجَدَ الطُّفْلُ الصَّغِيرُ نَفْسَهُ يُحْمَلُ مَعَ أُخْتِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى « مِصْرَ » ... فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُلْحَقَا بِأَبِيهِمَا ؛ بَعْدَ أَنْ غَدَا وَإِلَيْهَا عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

ثُمَّ رَأَى أَظَاغِيرَ الْفِتْنَةِ الْحُمْرِ تَمْتَدُّ إِلَى أَبِيهِ ؛ فَتَقَتَّلَهُ شَرُّ قِتْلَةٍ .
ثُمَّ أَلْقَى^(٧) نَفْسَهُ يُنْقَلُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ « مِصْرَ » إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ بَعْدَ أَنْ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا أَنْصَارُ مُعَاوِيَةَ ... وَقَدْ أَصْبَحَ يَتِيمًا لَطِيمًا^(٨) ...

* * *

حَدَّثَ الْقَاسِمُ نَفْسَهُ عَنْ رِحْلَةِ الْعَذَابِ هَذِهِ وَمَا تَلَاَهَا ، فَقَالَ :

(١) يدرج : يمشي .

(٢) عصفت : هبَّت واشتدت .

(٣) الريح الهوجاء : الريح الشديدة التي تقلع البيوت .

(٤) ذو الثورين : هو عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٥) صُلْبُهُ : عَظْمُ ظَهْرِهِ .

(٦) نشب الخلاف : ثار الخلاف .

لَمَّا قُتِلَ أَبِي بِمِصْرَ جَاءَ عَمِّي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فَاحْتَمَلَنِي
أَنَا وَأُخْتِي الصَّغِيرَةَ ... وَمَضَى بِنَا إِلَى الْمَدِينَةِ .

فَمَا أَنْ بَلَّغْنَاهَا حَتَّى بَعَثَتْ إِلَيْنَا عَمَّتِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَحَمَلْتَنَا مِنْ
مَنْزِلِ عَمِّي إِلَى بَيْتِهَا ... وَرَبَّتْنَا فِي حِجْرِهَا ^(١) .

فَمَا رَأَيْتُ وَالِدَةً قَطُّ وَلَا وَالِدًا أَكْثَرَ مِنْهَا بِرًّا ...
وَلَا أَوْفَرَ ^(٢) شَفَقَةً ...

كَانَتْ تُطْعِمُنَا بِيَدَيْهَا ، وَلَا نَأْكُلُ مَعَنَا ...
فَإِذَا بَقِيَ مِنْ طَعَامِنَا شَيْءٌ أَكَلْتُهُ .

وَكَانَتْ تَحْنُو عَلَيْنَا حُنُوَ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ ^(٣) ، فَتَغْسِلُ
أَجْسَادَنَا ... وَتُمْشِطُ شُعُورَنَا ...

وَتُلْبِسُنَا الْأَبْيَضَ النَّاصِعَ مِنَ الثِّيَابِ .

وَكَانَتْ لَا تَفْتَأُ تَحْضُنُنَا عَلَى الْخَيْرِ ، وَتُمْرُسُنَا ^(٤) بِفِعْلِهِ ...

وَتَنْهَانَا عَنِ الشَّرِّ ، وَتَحْمِلُنَا عَلَى تَرْكِهِ .

وَقَدْ دَأَبْتُ عَلَى تَلْقِينِنَا مَا نُطِيقُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَتَرْوِيَّتِنَا ^(٥) مَا نَعْقِلُهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَكَانَتْ تَرِيدُنَا بِرًّا وَإِتْحَافًا ^(٦) فِي الْعِيدَيْنِ ...

فَإِذَا كَانَتْ عَشِيَّةُ « عَرَفَةَ » حَلَقْتُ لِي شَعْرِي ...

(١) الحِجْرُ: الحضن، وفي حِجْرِهَا: في كَنَفِهَا ورعايتها . (٤) تُمْرُسُنَا: تَدْرِبُنَا .

(٢) أَوْفَرَ شَفَقَةً: أَكْثَرَ حَنَانًا . (٥) تَرْوِيَّتُنَا: جَعَلْنَا نَرْوِي الْحَدِيثَ .

(٣) الْفَطِيمُ: الصَّغِيرُ الْمَقْطُومُ عَنِ الرُّضَاعِ . (٦) إِتْحَافًا: إِهْدَاءً .

وَعَسَلْتَنِي أَنَا وَأُخْتِي ...

فَإِذَا أَصْبَحْنَا أَلْبَسْتَنَا الْجَدِيدَ ...

وَبَعَثْتُ بِنَا إِلَى الْمَسْجِدِ لِنُؤَدِّي صَلَاةَ الْعِيدِ .

فَإِذَا عُدْنَا مِنْهُ جَمَعْتَنِي أَنَا وَأُخْتِي وَضَعْتَ يَدَيْنَا أَيْدِينَا .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَلْبَسْتَنَا ثِيَابًا بَيْضًا ، ثُمَّ أَجْلَسْتَنِي عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا ...

وَأَجْلَسْتُ أُخْتِي عَلَى رُكْبَتِهَا الْأُخْرَى .

وَكَانَتْ قَدْ دَعَتْ عَمِّي عَبْدَ الرَّحْمَنِ ... فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا حَيْثُهُ ، ثُمَّ

تَكَلَّمَ : فَحَمِدَتِ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ^(١) .

فَمَا رَأَيْتُ مُتَكَلِّمًا قَطُّ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا ؛ أَفْصَحَ مِنْهَا

لِسَانًا ... وَلَا أَعَذَبَ^(٢) بَيَانًا ...

ثُمَّ قَالَتْ : أَيُّ أَخِي^(٣) ...

إِنِّي لَمْ أَزَلْ أَرَاكَ مُعْرِضًا^(٤) عَنِّي مُنْذُ أَخَذْتُ هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ مِنْكَ ،

وَضَمَمْتُهُمَا إِلَيَّ ...

وَوَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ تَطَاوُلًا^(٥) عَلَيْكَ ...

وَلَا سُوءَ ظَنٍّ بِكَ ...

وَلَا اتَّهَمًا لَكَ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمَا ...

(١) بما هو أهله : بما يليق بذاته .

(٢) أعذب بياناً : أحلى كلاماً وأبلغ قولاً .

(٣) أي أخي : يا أخي .

(٤) معرضاً عني : مباحداً لي .

(٥) تطاولاً عليك : اعتلاءً عليك .

وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ ذُو نِسَاءٍ^(١)...

وَهُمَا صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ لَا يَقُومَانِ بِأَمْرِ^(٢) نَفْسَيْهِمَا .

فَخَشِيتُ أَنْ يَرَى نِسَاؤُكَ مِنْهُمَا مَا يَتَقَدَّرُ^(٣)نُهُ ؛ فَلَا يَطْبَنَ بِهِمَا نَفْسًا .

وَوَجَدْتُ أَنِّي أَحَقُّ مِنْهُنَّ بِالْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمَا فِي هَذِهِ الْحَالِ ...

وَهَاهُمَا الْآنَ قَدْ شَبَّا ، وَأَصْبَحَا قَادِرَيْنِ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ نَفْسَيْهِمَا ...

فَأَخَذَهُمَا وَضَمَّهُمَا^(٤) إِلَيْكَ .

فَأَخَذَنَا عَمِّي عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَضَمَّنَا إِلَى بَيْتِهِ .

* * *

يَبْدَأَنَّ الْعُلَامَ « الْبُكَرِيُّ » ظِلًّا مُعَلَّقَ الْقَلْبِ بَبَيْتِ عَمَّتِهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهَا ... فَعَلَى أَرْضِ بَيْتِهَا الْمُضْمَحَّةِ^(٥) بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ دَرَجٍ^(٦)...

وَفِي أَكْنَافِ^(٧) صَاحِبَتِهِ تَرَبَّى وَتَرَعَّرَعَ ...

وَمِنْ حَنَانِهَا الْمُتَدَفِّقِ نَهْلٍ^(٨) وَازْتَوَى .

فَصَارَ يُورِّعُ وَقْتُهُ بَيْنَ بَيْتِهَا وَبَيْتِ عَمِّهِ .

* * *

وَقَدْ ظَلَّتْ ذِكْرِيَّاتُ مَنْزِلِ عَمَّتِهِ الشَّدِيدَةِ^(٩) النَّدِيدَةِ الرَّفَافَةِ^(١٠) تَحِيًّا فِي
خَاطِرِهِ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ...

فَاسْتَمِعَ إِلَى بَعْضِ حَدِيثِهِ عَنْ تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتِ حَيْثُ يَقُولُ :

(١) ذُو نِسَاءٍ : مُتَعَدِّدُ الزَّوْجَاتِ .

(٢) بِأَمْرِ نَفْسَيْهِمَا : بِخِدْمَةِ ذَاتَيْهِمَا .

(٣) مَا يَتَقَدَّرُ : مَا لَا يَتَحَقَّقُ مِنْ أَوْسَاحِهِمَا .

(٤) ضَمَّهُمَا إِلَيْكَ : أَمْسَكَهُمَا عِنْدَكَ .

(٥) الْمُضْمَحَّةُ : الْمُعْطَرَّةُ .

(٦) دَرَجٍ : نَشَأَ وَتَرَعَّى .

(٧) أَكْنَافٍ : رَحَابٍ .

(٨) نَهْلٍ : اسْتَقَى .

(٩) الشَّدِيدَةُ : الْعَبْقَةُ بِرِيحِ الْمَسْكِ .

(١٠) الرَّفَافَةُ : الْمَتَلَأَلَةُ .

قُلْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِعَمَّتِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :
يَا أُمَّةَ^(١)، اكْشِفِي لِي عَنْ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَبْرِي
صَاحِبِيهِ ... فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَرَاهَا .

وَكَانَتِ الْقُبُورُ الثَّلَاثَةُ مَا زَالَتْ دَاخِلَ بَيْتِهَا ، وَقَدْ عَطَّتْهَا بِمَا يَسْتُرُهَا عَنِ
الْعَيْنِ ... فَكَشَفْتُ لِي عَنْ ثَلَاثَةِ قُبُورٍ لَا مُشْرِفَةَ^(٢) وَلَا وَاطِئَةَ .

قَدْ مُهِدَتْ بِصِغَارِ الْحَصَى الْحُمْرِ مِمَّا كَانَ فِي بَاحَةِ الْمَسْجِدِ .

فَقُلْتُ : أَتَيْنَ قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ .

فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا وَقَالَتْ : هَذَا .

ثُمَّ تَحَدَّرَتْ^(٣) عَلَى حَدِيثِهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ ...

فَبَادَرَتْ^(٤)، فَمَسَحَتْهُمَا حَتَّى لَا أَرَاهُمَا .

وَكَانَ قَبْرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقَدِّمًا عَلَى قَبْرِي صَاحِبِيهِ .

فَقُلْتُ : وَأَيْنَ قَبْرُ جَدِّي أَبِي بَكْرٍ ؟ !

فَقَالَتْ : هَا هُوَ ذَا .

وَكَانَ مَدْفُونًا عِنْدَ رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَقُلْتُ : وَهَذَا قَبْرُ عُمرَ ؟ .

فَقَالَتْ : نَعَمْ .

(١) يَا أُمَّة : يَا أُمِّي .

(٢) لَا مُشْرِفَةَ : مَا هِيَ مُرْتَفَعَةٌ عَالِيَةً .

(٣) تَحَدَّرَتْ : انْسَكَبَتْ .

(٤) بَادَرَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَعَاجَلَتْ .

وَكَانَ رَأْسُ عُمَرَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ عِنْدَ خَصْرِ جَدِّي ، قَرِيباً مِنْ رَجُلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

وَلَمَّا شَبَّ الْفَتَى « الْبَكْرِيُّ » كَانَ قَدْ حَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَأَخَذَ عَنْ عَمَّتِهِ عَائِشَةَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَانْقَطَعَ إِلَى حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الَّتِي
كَانَتْ تَنْتَبِهُ^(١) فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ كَمَا تَنْتَبِهُ الثُّجُومُ الزُّهْرُ^(٢) عَلَى صَفْحَةِ
السَّمَاءِ ...

فَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ الزُّبَيْرِ^(٣) ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ ، وَرَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ، وَأُسْلَمَ
مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ...
حَتَّى غَدَا إِمَاماً مُجْتَهِداً ...

وَأَصْبَحَ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ زَمَانِهِ بِالسُّنَّةِ^(٤) .
وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يُعَدُّ رَجُلًا عِنْدَهُمْ حَتَّى يُتَقِنَ السُّنَّةَ ...

* * *

وَلَمَّا اكْتَمَلَتْ لِلشَّابِّ الْبَكْرِيِّ أَدَوَاتُ الْمَعْرِفَةِ ؛ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ
يَلْتَمِسُونَ^(٥) عِنْدَهُ الْعِلْمَ بِشَغَفٍ^(٦) ...

(١) تنتشر : تتفوق .

(٢) الثُّجُومُ الزُّهْرُ : الثُّجُومُ الزَاهِيَةُ الْمُضِيئَةُ .

(٣) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) السُّنَّةُ : ما صح من حديث رسول الله ﷺ .

(٥) يلتمسون : يطلبون وينشدون .

(٦) بشغف : بشوق ورغبة .

وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَيْهِمْ يَبْذُلُهُ لَهُمْ بِسَخَاءٍ ...
فَكَانَ يَأْتِي مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ كُلِّ يَوْمٍ فِي
مَوْعِدٍ لَا يُخْلِفُهُ ... فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ يُحْيِي بِهِمَا الْمَسْجِدَ ...
ثُمَّ يَأْخُذُ مَكَانَهُ أَمَامَ خَوْخَةِ^(١) عُمَرَ فِي الرُّوْضَةِ الْغُرَاءِ بَيْنَ قَبْرِ النَّبِيِّ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَيَبْنِي مِنْبَرَهُ^(٢).
فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ طُلَّابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...
وَيَنْهَلُونَ مِنْ مَوَارِدِهِ الْعَذْبَةِ الْمُصَفَّاءِ مَا يَمْلَأُ الثُّفُوسَ الْعَطْشَى رِيًّا .
وَلَمْ يَمُضِ طَوِيلٌ وَقْتٍ حَتَّى أَصْبَحَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَابْنُ خَالَتِهِ سَالِمُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ^(٣) إِمَامِي الْمَدِينَةِ الْمُؤْتَوَّقِينَ^(٤) ...
وَسَيِّدَيْهَا الْمُطَاعَيْنِ ، وَرَجُلَيْهَا النَّافِذِينَ^(٥) ...
عَلَى الرَّغَمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِي أَيْدِيهِمَا وَلَايَةٌ وَلَا سُلْطَانٌ .
فَقَدْ سَوَّدَهُمَا^(٦) النَّاسُ لِمَا كَانَا يَتَحَلَّىانِ بِهِ مِنَ الثَّقَلَى وَالْوَرَعِ ...
وَمَا يَحْمِلَانِيهِ فِي صَدْرَيْهِمَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ ...
وَمَا يَزِدَانِي بِهِ مِنَ الزَّهَادَةِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَالرَّغْبَةِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ...

* * *

(١) الخوخة: نافذة صغيرة في البيت تؤدي إليه الضوء، وهي الباب الصغير في الباب الكبير .
(٢) بين قبر النبي ومنبره: وهو مكان مبارك حيث يقول النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ « بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » وقد أصبح بيته هو قبره عليه الصلاة والسلام .
(٣) سالم بن عبد الله بن عمر: انظره ص ٣٦٨ ، ٣٧٨ .
(٤) المؤتوقين: اللذين يثق بهما الناس .
(٥) النافذين: المسموعي الكلمة .
(٦) سودهما الناس: أَمَرَهُمَا النَّاسُ عَلَيْهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَكَانَتَيْهِمَا فِي الثُّفُوسِ أَنَّ حُلَفَاءَ بَنِي « أُمَيَّةَ » وَوَلَاتَهُمْ كَانُوا لَا يَقْطَعُونَ أَمْرًا ذَا بَالٍ (١) فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الْمَدِينَةِ إِلَّا بِرَأْيَيْهِمَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى تَوْسِيعَةِ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِ أَنْ يُحَقِّقَ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةَ (٢) الْعَالِيَةَ إِلَّا إِذَا هَدَمَ الْمَسْجِدَ الْقَدِيمَ مِنْ جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ ...

وَأَزَالَ مَبُوتَ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَضَمَّهَا إِلَى الْمَسْجِدِ .

وَهِيَ أُمُورٌ تَشُقُّ (٣) عَلَى النَّاسِ ...

وَلَا تَطِيبُ (٤) نُفُوسُهُمْ بِهَا ...

فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَإِلَيْهِ عَلَى الْمَدِينَةِ يَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَوْسَعَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يُصْبِحَ مِائَتِي ذِرَاعٍ فِي مِائَتِي ذِرَاعٍ .

فَاهْدِمِ جُدْرَانَهُ الْأَرْبَعَةَ ، وَأَدْخِلْ فِيهِ حُجْرَ (٥) زَوْجَاتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَاشْتَرِ مَا فِي نَوَاحِيهِ مِنَ الْبُيُوتِ ...

وَقَدِّمِ الْقِبْلَةَ إِنْ قَدَرْتَ .

(١) ذَا بَالٍ : ذَا شَأْنٍ .

(٢) الْأُمْنِيَّةُ : مَا يَتَغَيَّرُ الْإِنْسَانُ وَيَتَمَنَاهُ .

(٣) تَشُقُّ عَلَى النَّاسِ : تَصْعَبُ عَلَيْهِمْ .

(٤) لَا تَطِيبُ نُفُوسَهُمْ بِهَا : لَا يَسْرُونَ بِهَا ، وَلَا يَرْتاحُونَ إِلَيْهَا . (٥) حُجْرٌ : غُرْفٌ .

وإِنَّكَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ لِمَكَانٍ^(١) أَخْوَالِكَ آلِ الْخَطَّابِ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ فِي قُلُوبِ النَّاسِ .

فَإِذَا أَبَى عَلَيْكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ ؛ فَاسْتَعِزْ بِالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَأَشْرِكْهُمَا مَعَكَ فِي الْأَمْرِ ...
وَادْفَعْ إِلَى النَّاسِ أَثْمَانَ يُبَيِّتُهُمْ بِسَخَاءٍ ...
وَإِنَّ لَكَ فِي ذَلِكَ سَلَفِي صِدْقٍ ...
هُمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ .

* * *

فَدَعَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَسَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَطَائِفَةً مِنْ وَجُوهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ... فَسُرُّوا بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ ، وَهَبُّوا لِإِنْفَازِهِ^(٢) .

فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ عَالِمِي الْمَدِينَةِ وَإِمَامَيْهَا الْكَبِيرَيْنِ ؛ يُبَاشِرَانِ هَذَمَ الْمَسْجِدِ بِأَيْدِيهِمَا ، قَامُوا مَعَهُمَا قَوْمَةٌ رَجُلٍ وَاحِدٍ ...
وَأَنْفَذُوا مَا جَاءَ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ الْمُظْفَرَةُ تَدُقُّ آتِيزِ أَبْوَابِ الْحُصُونِ الْمُفْضِيَةِ^(٣) إِلَى مَدِينَةِ « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » ...

وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ بِقِيَادَةِ الْأَمِيرِ الْبَاسِلِ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ^(٤) ... وَذَلِكَ تَمْهِيدًا لِفَتْحِ « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » نَفْسَهَا .

(١) لِمَكَانٍ أَخْوَالِكَ : لِمَقَامِهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ .

(٢) هَبُّوا لِإِنْفَازِهِ : انْطَلَقُوا لِلْقِيَامِ بِهِ .

(٣) الْمُفْضِيَةُ : الْمَوْصَلَةُ .

(٤) هُوَ أَحَدُ كِبَارِ قَادَةِ الْمُسْلِمِينَ ، غَزَا بِلَادَ أَرْمِينِيَا كَمَا

غَزَا بِلَادَ الرُّومِ حَتَّى بَلَغَ خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

فَلَمَّا عَلِمَ مَلِكُ « الرُّومِ » بِعَزْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَوْسِيعَةِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ
الشَّرِيفِ ، أَحَبَّ أَنْ يُصَانِعَهُ^(١) ، وَيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمَا يَسْرُهُ ...

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ ...

وَأَرْسَلَ مَعَهَا مِائَةَ عَامِلٍ مِنْ أَمْهَرِ الْبَنَائِينَ فِي بِلَادِ « الرُّومِ » ...

وَزَوَّدَ الْعُمَّالَ بِأَرْبَعِينَ حِمْلًا مِنَ الْفُسْفِسَاءِ^(٢) ...

فَأَرْسَلَ الْوَلِيدُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى بِنَاءِ
الْمَسْجِدِ ... فَأَنْفَقَهُ عُمَرُ بِمُشُورَةِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَشَدَّ النَّاسِ تَأْسِيًا^(٣) بِجَدِّهِ الصَّدِيقِ رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهِ ، حَتَّى قَالَ النَّاسُ :

لَمْ يَلِدْ أَبُو بَكْرٍ وَلَدًا أَشَبَّهُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفَتَى .

فَلَقَدْ أَشَبَّهُهُ فِي كَرَمِ شَمَائِلِهِ^(٤) ، وَنُبْلِ خَصَائِلِهِ^(٥) ...

وَصَلَابَةِ إِيْمَانِهِ ، وَشِدَّةِ وَرَعِهِ ...

وَسَمَاحَةِ نَفْسِهِ^(٦) ، وَسَخَاءِ يَدِهِ ...

وَقَدْ أَثَّرَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ تَشْهَدُ لَهُ بِهِذَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَالَ :

أَيُّمَا أَعْلَمُ أَنْتَ أَمْ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

(١) يصانعه : يداريه ويداهنه .

(٢) الفُسْفِسَاءُ : قطع صغيرة من الرخام زاهية الألوان يؤلَّفُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فِي أَشْكَالٍ رَاقِعَةٍ بَدِيعَةٍ ، وَتَرْتِيزُ بِهَا جُدُرَانَ الْقُصُورِ .

(٣) تَأْسِيًّا بِفُلَانٍ : تَشَبُّهُ بِهِ ، وَجَرِيًّا عَلَى مَنْهَجِهِ .

(٤) كَرَمِ شَمَائِلِهِ : سَمُوَ أَخْلَاقَهُ .

(٥) نُبْلِ خَصَائِلِهِ : رَفَعَةُ صِفَاتِهِ .

(٦) سَمَاحَةِ نَفْسِهِ : جُودُ نَفْسِهِ وَسَخَاءُ يَدِهِ .

فَتَشَاغَلَ عَنْهُ .

فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ ...

فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ .

فَأَعَادَهَا كَرَّةً ثَالِثَةً ، فَقَالَ لَهُ : ذَاكَ سَالِمٌ يَا بَنَ أَخِي يَجْلِسُ هُنَاكَ .

فَقَالَ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ :

لِلَّهِ أَبُوهُ^(١) ... لَقَدْ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ : أَنَا أَعْلَمُ مِنْهُ ؛ فَيَزَكِّي نَفْسَهُ^(٢) ...

وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ : هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي ؛ فَيَكْذِبُ ...

وَكَانَ أَعْلَمَ مِنْ سَالِمٍ .

* * *

وَلَقَدْ رُئِيَ ذَاتَ مَرَّةٍ « بِيَمْنَى » ، وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنْ حُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ يُطَبِّقُونَ^(٣) عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَهُمْ يَسْأَلُونَهُ .

فَكَانَ يُجِيبُهُمْ بِمَا يَعْلَمُ ، وَيَقُولُ لَهُمْ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ :

لَا أَدْرِي ... لَا أَعْلَمُ ... لَا أَدْرِي ... فَأَخَذَهُمْ مِنْهُ الْعَجَبُ .

فَقَالَ لَهُمْ : مَا نَعْلَمُ كُلُّ مَا تَسْأَلُونَ عَنْهُ ...

وَلَوْ عَلِمْنَاهُ مَا كَتَمْنَاهُ ...

وَلَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَكْتُمَهُ ...

وَلَأَنْ يَعِيشَ الرَّجُلُ جَاهِلًا - بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ

يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ .

* * *

(١) لله أبوه : كلمة تقال في مجال المدح والتعظيم .

(٢) يزكِّي نفسه : يمدح نفسه .

(٣) يطبقون عليه : يتكاثرون عليه ويلتفتون حوله .

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ ، عَهْدٌ^(١) إِلَيْهِ بِقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ^(٢) بَيْنَ مُسْتَحِقِّهَا ؛
فَاجْتَهَدُ فِي ذَلِكَ مَا وَسِعَهُ الْإِجْتِهَادُ ...

وَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ...

غَيْرَ أَنَّ أَحَدَهُمْ لَمْ يَرْضَ عَنْ نَصِيْبِهِ الَّذِي أُعْطِيَ لَهُ .

فَأَتَاهُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، وَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الصَّدَقَةِ .
فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ :

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَتَكَلَّمُ فِي رَجُلٍ مَا نَالَ مِنْ صَدَقَتِكُمْ دِرْهَمًا وَلَا دَانِقًا^(٣) ...
وَلَا أَصَابَ مِنْهَا تَمْرَةً وَاحِدَةً .

فَأَوْجَزَ^(٤) الْقَاسِمُ صَلَاتَهُ ، وَالتَفَتَ إِلَى ابْنِهِ وَقَالَ :

يَا بُنَيَّ ، لَا تَتَكَلَّمُ بَعْدَ الْيَوْمِ فِيمَا لَا تَعْلَمُ .

فَقَالَ النَّاسُ : صَدَقَ ابْنُهُ ...

وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرَبِّيَهُ ، وَأَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ مِنَ التَّوَسُّعِ^(٥) فِي الْكَلَامِ .

* * *

وَقَدْ عُمِّرَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَيْفَ^(٦) عَلَى الثَّانِيَةِ وَالسَّبْعِينَ ...

لَكِنَّهُ كَفَّ بَصْرُهُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ .

وَفِي آخِرِ سَنَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ ، قَصَدَ مَكَّةَ يُرِيدُ الْحَجَّ ... وَفِيمَا هُوَ فِي بَعْضِ
طَرِيقِهِ أَتَاهُ الْيَقِينُ^(٧) ...

(١) عَهْدٌ إِلَيْهِ : أَوْكَلَ إِلَيْهِ .

(٢) الصَّدَقَاتُ : أَمْوَالُ الزَّكَاةِ .

(٣) الدَانِقُ : سُدُسُ الدَّرْهَمِ .

(٤) أَوْجَزَ : قَصَّرَ .

(٥) التَّوَسُّعُ فِي الْكَلَامِ : قَوْلُ مَا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ .

(٦) نَيْفٌ : زَادٌ .

(٧) الْيَقِينُ : الْإِنْتِقَالُ إِلَى الْآخِرَةِ .

فَلَمَّا أَحَسَّ بِالْأَجْلِ^(١) التَفَتَ إِلَى ابْنِهِ وَقَالَ :

إِذَا أَنَا مِتُّ ؛ فَكَفِّنِّي بِثِيَابِي الَّتِي كُنْتُ أُصَلِّي فِيهَا :

فَمِصِّي ...

وَأَزَارِي ...

وَرِدَائِي ...

فَذَلِكَ كَانَ كَفَنُ جَدِّكَ أَبِي بَكْرٍ .

ثُمَّ سَوَّ عَلَيَّ لَحْدِي .

وَالْحَقُّ بِأَهْلِكَ .

وَأَيَّاكُمْ أَنْ تَقْفُوا عَلَى قَبْرِي ، وَتَقُولُوا :

كَانَ ...

وَكَانَ ...

فَمَا كُنْتُ شَيْئًا (*) .

(١) الأجل : الوفاة .

- (*) للاستزادة من أخبار القاسم بن محمد بن أبي بكر انظر :
- ١ - حلية الأولياء : ١٨٣/٢ .
 - ٢ - صفة الصفوة (الطبعة الحلبية) : ٨٨/٢ .
 - ٣ - تهذيب التهذيب : ٣٣٣/٨ .
 - ٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٥٩/٤ - ٦٠ ، و(انظر الفهارس في الجزء الثامن) .
 - ٥ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٨٧/٥ .
 - ٦ - شذرات الذهب للعماد الحنبلي : ١٣٥/١ .
 - ٧ - نكت الهميان للصفدي : ٢٣٠ .
 - ٨ - الكامل في التاريخ : ١١٤/٥ .
 - ٩ - تاريخ الطبري (طبعة دار المعارف) : ٤٢٢/٣ و(انظر الفهارس) .
 - ١٠ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (طبعة صادر) : ٢٧٩/٢٠ .

صَلَةُ بَنِ أَشِيمِ الْعَدَوِيِّ

« تَلَقَّى صَلَّةُ بَنِ أَشِيمٍ عَنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ ،
وَأَقْبَسَ مِنْ خِلَالِهِمْ ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ »

[الأصبهاني]

صَلَّةُ بَنِ أَشِيمِ الْعَدَوِيِّ عَابِدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّيْلِ ...
وَفَارِسٌ مِنْ فُرَسَانِ النَّهَارِ ...

كَانَ إِذَا نَشَرَ الظَّلَامَ أَسْتَارَهُ عَلَى الْكَوْنِ ، وَأُسْلِمَتْ (١) الْجُنُوبُ إِلَى
الْمَضَاجِعِ ... قَامَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ (٢) ، ثُمَّ صَفَّ فِي مِخْرَابِهِ ، وَدَخَلَ فِي صَلَاتِهِ ،
وَهَامَ وَجَدًا بِرَبِّهِ .

فَيُشْرِقُ فِي نَفْسِهِ سَنَا (٣) إِلَهِي ؛ يُبَيِّرُ لِبَصِيرَتِهِ أَرْجَاءَ الْكَوْنِ ...
وَيُرِيهِ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ .

وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ مُوَلِّعًا بِقُرْآنِ الْفَجْرِ ...
فَإِذَا أَقْبَلَ الْهَزِيعُ (٤) الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ ؛ انْحَنَى بِصُلْبِهِ عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ...
وَانْطَلَقَ يُرْتِّلُ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ بِصَوْتٍ نَدِيٍّ ، وَجَرَسٍ شَجِيٍّ ...
فَتَارَةً يَجِدُ لِلْقُرْآنِ حَلَاوَةً تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ (٥) قَلْبِهِ ، وَتَسْتَأْثِرُ بِمَكَامِنِ لُبِّهِ (٦)
مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...

(١) أُسْلِمَتْ الجُنُوبُ إِلَى المضاجع : غَرِقَ النَّاسُ فِي النُّومِ .

(٢) أَسْبَغَ الْوُضُوءَ : أَتَمَّ الْوُضُوءَ وَأَتَقَنَهُ .

(٣) السُّنَا : النُّورُ .

(٤) الْهَزِيعُ الْأَخِيرُ : الثَّلَاثُ الْأَخِيرُ .

(٥) مَجَامِعُ قَلْبِهِ : جَوَانِبُ فَوَادِهِ كُلِّهَا .

(٦) اللَّبُّ : الْعَقْلُ الصَّافِي .

وَأُخْرَى يَسْتَشْعِرُ لِلْقُرْآنِ خَشَعَةً تُصَدِّعُ فُؤَادَهُ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صِلَةً بَيْنَ أَشْيَمَ يَقْتُرُ عَنْ عِبَادَتِهِ هَذِهِ قَطُّ ...

لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ جُلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ، وَشُغْلِهِ وَفَرَاغِهِ .

حَكَى جَعْفَرُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ :

خَرَجْنَا مَعَ جَيْشٍ مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزَاةٍ^(١) إِلَى مَدِينَةِ
« كَابُل »^(٢) رَجَاءً أَنْ يَفْتَحَهَا اللَّهُ لَنَا ؛ وَكَانَ فِي الْجَيْشِ صِلَةٌ بَيْنَ أَشْيَمَ .

فَلَمَّا أَرَخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ^(٣) - وَنَحْنُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ - حَطَّ الْجُنْدُ
رِحَالَهُمْ ، وَأَصَابُوا شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَدَّوْا الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ ...

ثُمَّ مَضَوْا إِلَى رِحَالِهِمْ يَلْتَمِسُونَ عِنْدَهَا حَطًّا مِنَ الرَّاحَةِ ...

فَرَأَيْتُ صِلَةً بَيْنَ أَشْيَمَ يَمْضِي إِلَى رَحْلِهِ كَمَا مَضَوْا ...

وَيُسَلِّمُ جَنْبَهُ إِلَى الرُّقَادِ كَمَا فَعَلُوا .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَيْنَ الَّذِي يَزُودُونَهُ مِنْ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَعِبَادَتِهِ ، وَيُشِيعُونَهُ
مِنْ قِيَامِهِ حَتَّى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ !؟ .

وَاللَّهِ لَا زُمُقَتَهُ^(٤) اللَّيْلَةَ حَتَّى أَرَى مَا يَكُونُ مِنْهُ .

فَمَا أَنْ غَرِقَ الْجُنْدُ فِي نَوْمِهِمْ ... حَتَّى رَأَيْتُهُ يَسْتَيْقِظُ مِنْ رَقْدَتِهِ ،
وَيَنْحَازُ^(٥) عَنِ الْعُسْكَرِ مُسْتَبْرَأً بِالْعَتَمَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي غَابَةِ لَفَاءٍ^(٦) ، بِاسِيقَةٍ

(١) غَزَاةٌ : غَزْوَةٌ .

(٢) كَابُل : عاصمة أفغانستان ، وهي واقعة عَلَى نهر كَابُل .

(٣) أَرَخَى سُدُولَهُ : أَشْدَلَ ظِلَامَهُ عَلَى الْكَوْنِ . (٥) يَنْحَازُ عَنِ الْعُسْكَرِ : يَمِيلُ إِلَى جِهَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْعُسْكَرِ .

(٤) لَا زُمُقَتَهُ : لَا تُنْظَرُنْ إِلَيْهِ . (٦) لَفَاءٌ : مَلَفَةٌ الْأَشْجَارِ ، مُتَعَانِقَةُ الْأَغْصَانِ .

الأشجارِ ، وَخَشِيَّةِ الأعْشَابِ ، كَأَنَّهَا لَمْ تَطَّأْهَا قَدَمَانِ مُنْذُ دَهْرٍ طَوِيلٍ .
فَمَضَيْتُ فِي إِثْرِهِ ^(١) ...

فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهَا مَكَانًا قَصِيًّا ؛ التَّمَسَ ^(٢) الْقِبْلَةَ وَاتَّجَهَ إِلَيْهَا ، وَكَبَّرَ لِلصَّلَاةِ ،
وَاسْتَعْرَقَ فِيهَا ... فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ بُعْدٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ مُشْرِقَ الْوَجْهِ ...

سَاكِنَ الْأَعْضَاءِ ...

هَادِي النَّفْسِ ...

كَأَنَّمَا يَجِدُ فِي الْوَحْشَةِ أَنْسَاءً ...

وَفِي الْبُعْدِ قُرْبًا ...

وَفِي الظُّلْمَةِ ضِيَاءٌ مُنِيرًا ...

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ ... طَلَعَ عَلَيْنَا أَسَدٌ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ لِلْعَابَةِ ، فَمَا أَنْ
أُثْبِتُهُ ^(٣) حَتَّى انْخَلَعَ فُؤَادِي هَلَعًا ^(٤) مِنْهُ ، فَعَلَوْتُ شَجَرَةً بَاسِقَةً ^(٥) لِيُوَاذًا ^(٦) مِنْ
شَرِّهِ .

فَمَا زَالَ الْأَسَدُ يَدْنُو مِنْ صِلَةٍ بَيْنَ أَشْيَمٍ ، وَهُوَ غَارِقٌ فِي صَلَاتِهِ حَتَّى أَصْبَحَ
عَلَى قَيْدٍ ^(٧) خُطُوبَاتٍ مِنْهُ ... فَوَاللَّهِ مَا التَّقَتْ إِلَيْهِ ...

وَلَا حَفَلَ ^(٨) بِهِ ...

فَلَمَّا سَجَدَ قُلْتُ : الْآنَ يَفْتَرِسُهُ .

فَلَمَّا نَهَضَ مِنْ سُجُودِهِ ، وَجَلَسَ ؛ وَقَفَ الْأَسَدُ بِإِزَائِهِ ^(٩) كَأَنَّهُ يَتَأَمَّلُهُ .

(١) فِي إِثْرِهِ : وَرَاءَهُ .

(٢) هَلَعًا : جَزَعًا وَخَوْفًا .

(٣) أَثْبِتُهُ : تَأَكَّدْتُ مِنْهُ .

(٤) بَاسِقَةً : مَرْتَفَعَةً الْأَغْصَانِ .

(٥) لِيُوَاذًا : لِيُؤَاوِيَنِي .

(٦) حَفَلَ : تَوَلَّى .

(٧) عَلَى قَيْدٍ : عَلَى بَعْدٍ .

(٨) مَا حَفَلَ بِهِ : مَا أَهْتَمَّ بِهِ .

(٩) بِإِزَائِهِ : أَمَامَهُ .

فَلَمَّا سَلَّمَ نَظَرَ إِلَى الْأَسَدِ فِي سُكُونٍ ...

وَحَرَكَ شَفَتَيْهِ بِكَلامٍ لَمْ أَسْمَعُهُ ...

فَإِذَا بِالْأَسَدِ يَنْصَرِفُ عَنْهُ فِي هُدُوءٍ، وَيَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ...

* * *

وَلَمَّا انْبَلَجَ^(١) الْفَجْرُ، نَهَضَ فَأَدَّى الْمَكْتُوبَةَ .

ثُمَّ طَفِقَ^(٢) يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمَحَامِدٍ لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ .

ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ ...

وَهَلْ يَجْتَرِي عَبْدٌ خَاطِئٌ مِثْلِي أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ !؟ .

وَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى بَكَى وَأَبْكَانِي .

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْجَيْشِ دُونَ أَنْ يَفْطَنَ لَهُ أَحَدٌ ...

وَبَدَا لِعُيُونِ الْقَوْمِ كَأَنَّهُ بَاتَ عَلَى الْحَشَايَا^(٣)، وَعُدْتُ أَنَا فِي إِثْرِهِ وَبِي مِنْ

سَهَرِ اللَّيْلِ ... وَفُتُورِ الْجِسْمِ ... وَخَوْفِ الْأَسَدِ ... مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَ صِلَةً بَيْنَ أَشْيَمٍ إِلَى هَذَا كُلِّهِ لَا يَدْعُ سَانِحَةً^(٤) مِنْ سَوَانِحِ

الْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ، إِلَّا اغْتَنَمَهَا ...

وَكَانَ أَسْلُوبُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

الْحَسَنَةِ، فَيَسْتَمِيلُ النُّفُوسَ النَّافِرَةَ ...

وَيَسْتَلِينَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ...

* * *

(٣) الحشايَا : الفرش .

(٤) لَا يَدْعُ سَانِحَةً : لَا يترك فرصة .

(١) انبلاج : أشرق وأضاء .

(٢) طفق : أخذ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ فِي ظَاهِرِ « الْبَصْرَةِ » لِلْخُلُوةِ وَالتَّعَبُّدِ ...

فَكَانَتْ تَمُرُّ بِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الشَّبَابِ أَرْخَتْ لِلصَّبَا عَنَانَهُ^(١) ...

فَتَلَهُوْا وَتَلَعَبُوا ... وَتَسْرَحُوا وَتَمَرَّحُوا ...

فَكَانَ يُحْيِيهِمْ بِأُنْسٍ ...

وَيُخَاطِبُهُمْ فِي رَفْقٍ وَيَقُولُ لَهُمْ :

مَا تَقُولُونَ فِي قَوْمِ أَرْمَعُوا^(٢) سَفَرًا لِأَمْرِ عَظِيمٍ ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي النَّهَارِ
يَحِيدُونَ عَنِ الطَّرِيقِ لِيَلْهُوْا وَيَلْعَبُوا ...

وَفِي اللَّيْلِ يَبِيتُونَ لِيَسْتَرِيحُوا ...

فَمَتَى تَرَوْنَهُمْ يُنْجِزُونَ رِحْلَتَهُمْ ...

وَيَتَلَعَّبُونَ غَايَتَهُمْ !؟ .

وَدَأَبَ عَلَى قَوْلِ ذَلِكَ الْمَرْءِ تَلَوَ الْمَرْءَ ...

فَلَقِيَهُمْ ذَاتَ مَرَّةٍ وَقَالَ لَهُمْ مَقَالَتُهُ تِلْكَ ...

فَنَهَضَ شَابٌّ مِنْهُمْ وَقَالَ :

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - مَا يَغْنِي بِذَلِكَ أَحَدًا غَيْرَنَا ؛ فَتَحَنُّ بِالنَّهَارِ نَلْهُو ...

وَبِاللَّيْلِ نَنَامُ ...

ثُمَّ انْحَارَ الشَّابُّ عَنْ رِفَاقِهِ .

وَاتَّبَعَ صِلَةَ بَنِ أَشْيَمٍ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

(١) أَرْخَتْ لِلصَّبَا عَنَانَهُ : أَطْلَقَتْ لِلشَّبَابِ رَغْبَاتِهِ .

(٢) أَرْمَعُوا : عَزَمُوا ، وَأَزْمَعَ عَلَى الْأَمْرِ : عَزَمَ عَلَيْهِ .

وَمَا زَالَ فِي صُحْبَتِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ^(١).

* * *

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّهُ كَانَ يَمْضِي ذَاتَ نَهَارٍ فِي ثُلَّةٍ^(٢) مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى غَايَةِ
لَهُمْ ، فَمَرَّ بِهِمْ شَابٌّ رَائِعُ الشَّبَابِ ... رَيَّانُ الصَّبَا .

قَدْ أَطَالَ إِزَارَهُ حَتَّى جَعَلَ يَجُرُّهُ عَلَى الْأَرْضِ جَرَّ الْخِيَلَاءِ^(٣) ...
فَهُمْ أَصْحَابُهُ بِالشَّابِّ ...

وَأَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوهُ^(٤) بِالسِّنْتِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ أَخْذاً شَدِيداً .
فَقَالَ لَهُمْ صِلُهُ : دَعُونِي أَكْفِكُمْ أَمْرَهُ .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الشَّابِّ ، وَقَالَ فِي رَفْقِ الْأَبِ الشَّفِيقِ ...
وَنَبْرَةٍ^(٥) الصَّدِيقِ الْحَمِيمِ :

يَا بَنَ أَخِي ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً .

فَتَوَقَّفَ الْفَتَى ، وَقَالَ : وَمَا هِيَ يَا عَمُّ ؟ .

فَقَالَ : أَنْ تَرْفَعَ إِزَارَكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْقَى لِنَوْبِكَ ...
وَأَنْقَى لِرَبِّكَ ...

وَأَذْنَى لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ .

فَقَالَ الْفَتَى فِي خَجَلٍ : نَعَمْ ، وَنِعْمَةً عَيْنٍ^(٦) ...

ثُمَّ بَادَرَ وَرَفَعَ إِزَارَهُ .

(١) اليقين : الموت .

(٢) ثُلَّةٌ : جماعة .

(٤) أَنْ يَأْخُذُوهُ : أَنْ يَتَاوَلُوهُ وَيُؤْذُوهُ .

(٥) نَبْرَةُ الصديق الحميم : لهجة الصديق الصدوق .

(٦) نِعْمَةُ عَيْنٍ : مسرة عين .

(٣) الخيلاء : الإعجاب بالنفس ، والتبخثر بالمشي .

فَقَالَ صَلِّهِ لِأَصْحَابِهِ : إِنَّ هَذَا أَمْثَلُ^(١) مِمَّا أَرَدْتُمْ ...
وَلَوْ أَنَّكُمْ ضَارَبْتُمُوهُ وَشَاتَمْتُمُوهُ لَضَارَبَكُمْ وَشَاتَمَكُمْ ...
وَأَبْقَى إِزَارَهُ مُسَدَلًا^(٢) يَمْسَحُ بِهِ الْأَرْضَ .

* * *

وَلَقَدْ جَاءَهُ مَرَّةً فَتَى مِنْ فِتْيَانِ « الْبَصْرَةِ » فَقَالَ :
عَلَّمَنِي يَا أَبَا الصَّهْبَاءِ مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ...
فَهَشَّ لَهُ صَلِّهِ وَبَشَّ^(٣) وَقَالَ :
لَقَدْ أَدَّكَرْتَنِي يَا بَنَ أَخِي مَاضِيًا لَا أُنْسَاهُ ...
حَيْثُ كُنْتُ إِذْ ذَاكَ شَابًا مِثْلَكَ ...
فَأَتَيْتُ مَنْ بَقِيَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقُلْتُ لَهُمْ : عَلِّمُونِي مِمَّا
عَلَّمَكُمْ اللَّهُ .

فَقَالُوا لِي : اجْعَلِ الْقُرْآنَ عِصْمَةً^(٤) نَفْسِكَ ، وَرَبِيعَ^(٥) قَلْبِكَ ...
وَانْتَصَحْ لَهُ ، وَانصَحِ الْمُسْلِمِينَ بِهِ .
وَأَكْثَرُ مِنْ دُعَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا اسْتَطَعْتَ .
فَقَالَ لَهُ الْفَتَى : أَدْعُ لِي ، جُزِيتَ خَيْرًا .
فَقَالَ : رَغَبَكَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا يَنْفَى ...
وَزَهَّدَكَ فِيمَا يَفْنَى ...

(١) أَمْثَلُ : أَحْسَنُ وَأَجُود .

(٢) مُسَدَلًا : مُوَسَّلًا وَمُرْخِيًا عَلَى الْأَرْضِ .

(٣) هَشَّ وَبَشَّ : تَبَسَّمَ وَأَطْلَقَ وَجْهَهُ .

(٤) عِصْمَةُ نَفْسِكَ : حِمَاةُ نَفْسِكَ .

(٥) رَبِيعُ قَلْبِكَ : مَتْعَةُ قُودَاكَ .

وَوَهَبَ لَكَ الْيَقِينَ^(١) الَّذِي تَشْكُرُ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَيُعَوِّلُ عَلَيْهِ فِي
الدِّينِ ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِمِصَلَّةَ بْنِ أَشِيمٍ ابْنَةُ عَمِّ تُدْعَى « مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ » ...
وَكَانَتْ هِيَ الْأُخْرَى تَابِعِيَّةٌ مِثْلُهُ ... حَيْثُ لَقِيتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ
رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَأَخَذَتْ عَنْهَا ...
ثُمَّ لَقِيتُهَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ^(٢) نَضَرَ اللَّهُ رُوحَهُ ، وَسَمِعَ مِنْهَا .
وَكَانَتْ تَقِيَّةً نَقِيَّةً ... عَابِدَةً زَاهِدَةً .
وَكَانَ مِنْ عَادَتِهَا إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا اللَّيْلُ أَنْ تَقُولَ :
قَدْ تَكُونُ هَذِهِ آخِرَ لَيْلَةٍ لِي ؛ فَلَا تَنَامُ حَتَّى تُصْبِحَ ...
وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا النَّهَارُ أَنْ تَقُولَ :
قَدْ يَكُونُ هَذَا آخِرَ يَوْمٍ لِي ؛ فَلَا يَطْمَئِنُّ لَهَا جَنْبٌ حَتَّى تُنْمِيَ .
وَكَانَتْ تَلْبَسُ رَقِيقَ الثِّيَابِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ حَتَّى يَمْنَعَهَا الْبَرْدُ مِنَ الرُّكُونِ
إِلَى النَّوْمِ ، وَالْانْقِطَاعِ عَنِ الْعِبَادَةِ .
وَكَانَتْ تُحْيِي اللَّيْلَ صَلَاةً وَاقْتِرَاءً^(٣) .
فَإِذَا غَلَبَهَا النَّعَاسُ قَامَتْ فَجَالَتْ فِي الدَّارِ وَهِيَ تَقُولُ :
أَمَامَكَ يَا نَفْسُ نَوْمٌ طَوِيلٌ ...
غَدًا تَطُولُ رَقْدُكَ فِي الْقَبْرِ ...

(١) اليقين : الاطمئنان .

(٣) الاقتراء : التعبد بكثرة قراءة القرآن .

(٢) الحسن البصري : انظره ص ٩٥ .

إِمَّا عَلَى حَسْرَةٍ ، وَإِمَّا عَلَى سُرُورٍ .

فَاخْتَارِي يَا مُعَاذَةَ لِنَفْسِكَ الْيَوْمَ مَا تُحِبِّينَ أَنْ تَكُونِي عَلَيْهِ غَدًا .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صَلَٰهُ بْنُ أَشْيَمَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ عِبَادَتِهِ ، وَفَرَطِ زَهَادَتِهِ ^(١) ؛
لِيُرْغَبَ عَنْ سُتَّةِ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، فَخَطَبَ ابْنَةَ عَمِّهِ « مُعَاذَةَ »
لِنَفْسِهِ .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ إِهْدَائِهَا إِلَيْهِ ؛ قَامَ ابْنُ أَخٍ لَهُ بِشَائِهِ ، فَمَضَى بِهِ إِلَى الْحَمَّامِ ،
ثُمَّ أَدْخَلَهُ عَلَيْهَا فِي بَيْتٍ مُطَيَّبٍ ...
فَلَمَّا صَارَا مَعًا ، قَامَ يُصَلِّي الرُّكْعَتَيْنِ الْمَسْنُونَتَيْنِ ، فَقَامَتْ تُصَلِّي بِصَلَاتِهِ
وَتَقْتَدِي بِهِ .

ثُمَّ اجْتَذَبَهُمَا سِحْرُ الصَّلَاةِ ؛ فَمَضَيَا يُصَلِّيَانِ مَعًا حَتَّى بَرَقَ ^(٢) الْفَجْرُ .
فَلَمَّا كَانَتِ الْغَدَاةُ ^(٣) جَاءَهُ ابْنُ أَخِيهِ وَقَالَ :

يَا عَمُّ ، لَقَدْ أُهْدِيْتُ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمِّكَ ؛ فَقُمْتُ تُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَتَرَكْتُهَا .
فَقَالَ : يَا بَنَ أَخِي ... إِنَّكَ أَدْخَلْتَنِي أُمْسٍ بَيْتًا أَذْكُرْتَنِي بِهِ النَّارَ ...
ثُمَّ أَدْخَلْتَنِي آخَرَ أَذْكُرْتَنِي بِهِ الْجَنَّةَ ...

فَمَا زَالَتْ فِكْرَتِي فِيهِمَا حَتَّى أَصْبَحْتُ .

فَقَالَ الْفَتَى : وَمَا ذَاكَ يَا عَمُّ ؟ !

فَقَالَ : لَقَدْ أَدْخَلْتَنِي الْحَمَّامَ ؛ فَأَذْكُرْنِي حَرُّهُ حَرَّ جَهَنَّمَ ...

(١) زهادته : إعراضه عن الدنيا .

(٢) برق الفجر : لمع وتلاؤلأ .

(٣) الغداة : أول النهار .

ثُمَّ أَذْخَلْتَنِي بَيْتَ الْعُرْسِ ؛ فَأَذْكَرْنِي طَيْبُهُ طِيبَ الْجَنَّةِ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صِلَةٌ بِنُ أَشِيمٍ أَوْاهَا^(١) أَوْاباً^(٢)، عَابِداً زَاهِداً فَحَسِبُ ...

وَإِنَّمَا كَانَ إِلَى ذَلِكَ فَارِساً مُجَالِداً^(٣)، وَبَطَلاً مُجَاهِداً ...

قَلَمَّا عَرَفَتْ سَاحَاتِ الْقِتَالِ كَمِيّاً^(٤) أَشَدَّ مِنْهُ بَأْساً^(٥) ...

أَوْ أَقْوَى نَفْساً ...

أَوْ أَمْضَى سَيْفاً ...

حَتَّى عَدَا قُرَاؤُ الْمُسْلِمِينَ يَتَنَافَسُونَ فِي اجْتِنَادِهِ إِلَيْهِمْ ...

كُلُّ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ فِي عَسْكَرِهِ ؛ لِيَقْطِفَ بِفَضْلِ شَجَاعَتِهِ النَّصْرَ
الْكَبِيرَ الَّذِي يَطْمَحُ إِلَيْهِ .

* * *

رَوَى جَعْفَرُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ :

خَرَجْنَا فِي غَزْوَةٍ ، وَمَعَنَا صِلَةٌ بِنُ أَشِيمٍ ، وَهَشَامُ بْنُ عَامِرٍ ... فَلَمَّا لَقِينَا
الْعَدُوَّ ؛ انْتَبَرَى صِلَةٌ وَصَاحِبُهُ مِنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَوْغَلَا^(٦) فِي جُمُوعِ
الْأَعْدَاءِ طَعْنًا بِالرَّمَاكِ وَضَرْبًا بِالسُّيُوفِ ، حَتَّى أَثَرَا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ أُبْلَغَ
الْأَثَرِ ... فَقَالَ بَعْضُ قَادَةِ الْعَدُوِّ لِبَعْضِ :

رَجُلَانِ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ أَنْزَلَا بِنَا هَذَا كُلَّهُ ، فَكَيْفَ لَوْ قَاتَلُونَا
جَمِيعاً ؟ ! .

(٤) كَمِيّاً : شَجَاعاً .

(٥) بَأْساً : قُوَّة .

(٦) أَوْغَلَا : دَخَلَا وَأَبْعَدَا .

(١) أَوْاهَا : كَثِيرَ التَّأْوِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

(٢) أَوْاباً : صَادِقَ التَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ .

(٣) مُجَالِداً : قَوِيّاً صَلْباً .

انزلوا على حكم المسلمين، ودينوا^(١) لهم بالطاعة.

* * *

وفي سنة ست وسبعين للهجرة خرج صله بن أشيم في غزاة له مع جيوش المسلمين المتوجهة إلى بلاد^(٢) ما وراء النهر، وكان بصحبته ابن له ... فلما التقى الجمعان، وحمي وطيس^(٣) المعركة، قال صله لابنه :
أي بني ... تقدم واجه أعداء الله حتى أحسبك^(٤) عند الذي لا تضيع عنده الودائع .

فانطلق القتلى إلى قتال العدو كما ينطلق السهم عن القوس، وما زال يقاتل حتى خر صريعاً شهيداً .
فما كان من أبيه إلا أن مضى على إثره، وظل يجاهد حتى تولى^(٥) شهيداً إلى جنبه ...

* * *

فلما بلغ نغيهما « البصرة » اتجهت النساء إلى « معاذاة العدو »
ليواسينها^(٦) ... فقالت لهن :
إن كنن جئن لتهنئي ؛ فمرحبا بكن ...
أما إذا كنن قد جئن لغير ذلك ؛ فارجعن وجزين خيراً ...

* * *

(١) دينوا لهم : اخضعوا لهم .
(٢) بلاد ما وراء النهر : البلاد الواقعة اليوم في تركستان التي تحتلها روسيا، وتعدّها قطعة من بلادها .
(٣) حمي الوطيس : اشتدت الحرب .
(٤) أحسبك : أضحي بك مرضاة الله .
(٥) تولى : مات ودفن .
(٦) يواسينها : يغزينها ويصبرنها .

نَضَّرَ اللَّهُ هَذِهِ الْوُجُوهَ النَّبِيلَةَ الْكَرِيمَةَ ...
وَجَزَاهَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ...
فَمَا عَرَفَ تَارِيخُ الْإِنْسَانِيَّةِ أَثْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَثْقَلَ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار صَلَِّ بْنِ أَشْتَمِ انْظُرْ:

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٣٤/٧.
- ٢ - التاريخ الكبير: ٣٢١/٤.
- ٣ - الكنى: ١٣/٢.
- ٤ - المرح والتعديل: ٤٤٧/٤.
- ٥ - حلية الأولياء: ٢٣٧/٢.
- ٦ - أشد الغابة: ٣٤/٤.
- ٧ - تاريخ الإسلام: ١٩/٣.
- ٨ - البداية والنهاية: ١٥/٩.
- ٩ - الإصابة: ٢٠٠/٢.
- ١٠ - وانظر في طبقات خليفة، وصفة الصفوة لابن الجوزي.

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَفَاتِ ثَلَاثٌ مَعَهُ

« كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَسَنَ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ ،
وَافِرَ الْعِلْمِ ، فَفِيهِ النَّفْسُ أَوْاهَا مُنِيباً »

[الذَّهَبِيُّ]

الْحَدِيثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ التَّابِعِيِّ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَدِيثٌ ذُو شُجُونٍ ^(١) .
فَأَنْتَ لَا تَكَادُ تُلِمُّ بِصُورَةٍ مِنْ صُورِ حَيَاتِهِ الْفَذَّةِ حَتَّى تُسَلِّمَكَ ^(٢) إِلَى
أُخْرَى أَكْثَرَ بَهَاءً ...

وَأَعْنِي رُؤَاءً ^(٣) ...

وَأَبْعَدَ تَأْثِيرًا .

وَلَقَدْ كُنَّا رَأَيْنَا فِي الْكِتَابِ السَّابِقِ ثَلَاثًا مِنْ صُورِ حَيَاةِ خَامِسِ
الرَّاشِدِينَ ...

فَتَعَالَ نَنَعَمِ الْآنَ بِثَلَاثٍ أُخَرَ لَا تَقِلُّ عَنْ سَابِقَاتِهَا تَأْلَفًا ^(٤) وَوَضَاءَةً .

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الْأُولَى ؛ فَيَزَوِيهَا لَكَ « ذُكَيْنُ بْنُ سَعِيدِ الدَّارِمِيِّ » أَحَدُ الشُّعْرَاءِ
الرُّجَّازِ الْبِدَاةِ فَيَقُولُ :

امْتَدَحْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمَ كَانَ وَالِيًا عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَمَّرَ لِي بِخُمْسِ
عَشْرَةِ نَاقَةٍ مِنْ كَرَائِمِ الْإِبِلِ .

(١) ذو شجون : ذو ألوان وفنون .

(٣) رؤاء : بهاء .

(٢) تسلمك : تنقلك .

(٤) تألفاً : نوراً وتأثيراً .

فَلَمَّا صِرْنَا فِي يَدَي تَأَمَّلْتُهُنَّ ؛ فَرَاعَنِي ^(١) مَنَظَرُهُنَّ ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَمْضِيَ
 بِهِنَّ وَخِدِي فِي فِجَاجِ ^(٢) الْأَرْضِ خَوْفًا عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ تَطِبْ ^(٣) نَفْسِي بِيَبِعِهِنَّ .
 وَفِيمَا أَنَا كَذَلِكَ ، قَدِمَتْ عَلَيْنَا رُفْقَةٌ تَبْتَغِي السَّفَرَ نَحْوَ دِيَارِنَا فِي
 « نَجْدٍ » .

فَسَأَلْتُهُمُ الصُّحْبَةَ ، فَقَالُوا :

مَرْحَبًا بِكَ ، وَنَحْنُ نَخْرُجُ اللَّيْلَةَ ، فَأَعِدَّ نَفْسَكَ لِلْخُرُوجِ مَعَنَا .
 فَمَضَيْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُودِّعًا ، فَأَلْفَيْتُ ^(٤) فِي مَجْلِسِهِ شَيْخَيْنِ
 لَا أَعْرِفُهُمَا ... فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ ؛ التَفَتَ إِلَيَّ عُمَرُ وَقَالَ :
 يَا ذَكِينُ ، إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً ^(٥) ...

فَإِنْ عَرَفْتَ أَنَّنِي بَلَغْتُ أَكْثَرَ مِمَّا أَنَا فِيهِ الْآنَ ؛ فَأَتِنِي ، وَلَكَ مِنِّي الْبُرُ
 وَالْإِحْسَانُ .

فَقُلْتُ : أَشْهَدُ لِي بِذَلِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : أَشْهَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ .

فَقُلْتُ : وَمِنْ خَلْقِهِ .

فَقَالَ : هَذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ .

فَأَقْبَلْتُ عَلَى أَحَدِهِمَا وَقُلْتُ :

بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي ، قُلْ لِي مَا اسْمُكَ حَتَّى أَعْرِفَكَ ؟ .

(١) راعني : أدهشني .

(٢) فجاج الأرض : الفجاج جمع مفردة فج ، وهو الطريق الضيق بين جبلين .

(٣) لم تطب نفسي : لم تسمح نفسي ببيعهن ولم ترخ لذلك .

(٤) ألفتيت : وجدت .

(٥) تواقفة : رغبة عالية المطامح .

فَقَالَ : سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (١) .

فَالْتَفَتُ إِلَى الْأَمِيرِ وَقُلْتُ : لَقَدْ اسْتَسَمَنْتُ الشَّاهِدَ (٢) ...

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخِ الْآخَرِ ، وَقُلْتُ :

وَمَنْ أَنْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ ؟ .

فَقَالَ : أَبُو يَحْيَى مَوْلَى الْأَمِيرِ .

فَقُلْتُ : وَهَذَا شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهِ .

ثُمَّ حَيَّيْتُ وَانْصَرَفْتُ بِالتُّوقِ إِلَى دِيَارِ قَوْمِي فِي « نَجْدٍ » ...

فَزَمَنِي اللَّهُ فِيهِنَّ الْبَرَكَاتَةَ حَتَّى اقْتَنَيْتُ مِنْ نِتَاجِهِنَّ (٣) الْإِبِلَ وَالْعَبِيدَ .

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ...

فَبَيْنَا أَنَا بِصَحْرَاءَ فَلَجَ مِنْ أَرْضِ الْيَمَامَةِ فِي « نَجْدٍ » إِذَا نَاعٍ يَنْعِي أَمِيرَ

الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقُلْتُ لِلنَّاعِي :

وَمَنْ الْخَلِيفَةُ الَّذِي قَامَ بَعْدَهُ ؟ .

فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

فَمَا أَنْ سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ حَتَّى شَدَدْتُ رِحَالِي نَحْوَ بِلَادِ الشَّامِ .

فَلَمَّا بَلَغْتُ « دِمَشْقَ » لَقَيْتُ جَرِيرًا (٤) مُنْصَرِفًا مِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ ...

فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ :

(١) انظره : ص ٣٦٨ ، ٣٧٨ .

(٢) اسْتَسَمَنْتُ الشَّاهِدَ : ظَفَرْتُ بِشَاهِدٍ مَسْمُوعِ الْكَلِمَةِ .

(٣) مِنْ نِتَاجِهِنَّ : مِمَّا تَوَالَدَ مِنْهُنَّ .

(٤) جَرِيرٌ : أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الثَّلَاثَةِ الْكِبَارِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ ، وَهُمْ جَرِيرٌ ، وَالْفَرَزْدَقُ ، وَالْأَخْطَلُ .

مِنْ أَيْنَ يَا أَبَا حَزْرَةَ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ عِنْدِ خَلِيفَةِ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ ، وَيَمْنَعُ الشُّعْرَاءَ ...

ارْجِعْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ ؛ فَذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ .

فَقُلْتُ : إِنَّ لِي شَأناً^(١) غَيْرَ شَأْنِكُمْ .

فَقَالَ : أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ .

فَانْطَلَقْتُ حَتَّى بَلَغْتُ دَارَ الْخَلِيفَةِ ... فَإِذَا هُوَ فِي بَاحَةِ الدَّارِ ، وَقَدْ أَحَاطَ

بِهِ الْيَتَامَى ، وَالْأَرَامِلُ ، وَأَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ^(٢) ...

فَلَمْ أَجِدْ سَبِيلاً إِلَيْهِ مِنْ تَرَاحِمِهِمْ^(٣) عَلَيْهِ .

فَرَفَعْتُ صَوْتِي قَائِلاً :

يَا عُمَرَ الْخَيْرَاتِ وَالْمَكَارِمِ وَعُمَرَ الدَّسَائِعِ^(٤) الْعَظَائِمِ

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ قَطَنِ^(٥) مِنْ دَارِمِ^(٦) طَلَبْتُ دِينِي مِنْ أَحْيِ الْمَكَارِمِ

فَنَظَرَ إِلَيَّ مَوْلَاهُ أَبُو يَحْيَى نَظْرَةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْهِ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ عِنْدِي لِهَذَا الْبَدَوِيِّ شَهَادَةً عَلَيْكَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَعْرِفُهَا ...

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيَّ وَقَالَ : أَدُنْ مِنِّي يَا ذُكَيْنُ .

فَلَمَّا صِرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَالَ عَلَيَّ وَقَالَ :

(١) شَأناً : منزلة ومقاماً .

(٢) أَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ : الذين أَخَذَتْ أَمْوَالَهُمْ ظُلماً بغير حق .

(٣) تَرَاحِمُهُمْ : تدافعهم .

(٤) الدَّسَائِعُ : جمعٌ مفردة دَسْعَةٌ ، وهي الجفنة العظيمة التي يستعملها الأجواد .

(٥) قَطَنُ : مدينة ذات شَأْنٍ فِي وادي حضرموت . (٦) مِنْ دَارِمِ : بنو دارم من عرب الحجاز .

أَتَذْكُرُ مَا قُلْتُهُ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَنَّ نَفْسِي مَا نَأَلْتُ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا تَأَقَّتْ (١)
إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : وَهَا أَنَا ذَا قَدْ نِلْتُ غَايَةَ مَا فِي الدُّنْيَا ...

وَهُوَ الْمُلْكُ .

فَنَفْسِي تَشُوقُ إِلَى غَايَةِ مَا فِي الْآخِرَةِ ...

وَهُوَ الْجَنَّةُ ...

وَتَسْعَى إِلَى الْفَوْزِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَلَيْنَ كَانَ الْمُلُوكُ يَجْعَلُونَ الْمُلْكَ سَبِيلًا لِبُلُوغِ عِزِّ الدُّنْيَا ...

فَلَا جَعَلْنَاهُ سَبِيلًا إِلَى بُلُوغِ عِزِّ الْآخِرَةِ ...

ثُمَّ قَالَ : يَا ذَكِينُ ، إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا رَزَأْتُ (٢) الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ دِرْهَمًا
وَلَا دِينَارًا مُنْذُ وَلِيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ...

وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَخُذْ نِصْفَهَا ... وَاتْرُكْ لِي نِصْفَهَا ...

فَأَخَذْتُ الْمَالَ الَّذِي أُعْطَانِيهِ .

فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَعْظَمَ مِنْهُ بَرَكََةً .

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ ؛ فَيَزُودُهَا قَاضِي الْمَوْصِلِ « يَحْيَى بْنُ يَحْيَى الْعَسَّانِيُّ »
فَيَقُولُ :

(٢) رَزَأْتُ الْمُسْلِمِينَ : أَخَذْتُ شَيْئًا مِنْ مَالِهِمْ .

(١) تَأَقَّتْ : اشْتَاقَتْ وَرَغِبَتْ .

بَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَطُوفُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَشْوَاقِ « حِمَصَ » ^(١) لِيَتَفَقَّدَ
الْبَاعَةَ وَيَتَعَرَّفَ عَلَى الْأَسْعَارِ ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ عَلَيْهِ بُرْدَانِ ^(٢) أَخْمَرَانِ قَطْرِيَّانِ
وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ أَمَرْتَ مَنْ كَانَ مَظْلُومًا أَنْ يَأْتِيكَ .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَقَالَ : وَهَذَا قَدْ أَتَاكَ رَجُلٌ مَظْلُومٌ بَعِيدُ الدَّارِ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَأَيْنَ أَهْلُكَ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : فِي « عَدَنَ » .

فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ ، إِنَّ مَكَانَكَ مِنْ مَكَانِ عُمَرَ لَبَعِيدٌ .

ثُمَّ نَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ ، وَوَقَفَ أَمَامَهُ وَقَالَ : مَا ظِلَامَتُكَ ^(٣) ؟ .

فَقَالَ : ضَيْعَةٌ لِي وَتَبَّ ^(٤) عَلَيْهَا رَجُلٌ مِمَّنْ يُلَوِّذُونَ ^(٥) بِكَ ، وَانْتَزَعَهَا

مِنْ يَ .

فَكَتَبَ عُمَرُ كِتَابًا إِلَى « عُزْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ » وَإِلَيْهِ عَلَى « عَدَنَ » يَقُولُ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَاسْمَعْ بَيِّنَةً ^(٦) حَامِلَةٍ ، فَإِنْ ثَبَتَ لَهُ
حَقٌّ ، فَادْفَعْ إِلَيْهِ حَقَّهُ .

ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ وَنَاوَلَهُ لِلرَّجُلِ .

(١) حمص : مدينة من كبرى مدن سورية وأوسطها مكاناً ، فيها ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه .

(٢) بُردان : مثني برد ، وهو ثوب مخطط .

(٣) ما ظلامتك : ما الظلم الذي وقع عليك ؟ .

(٤) وتب عليها : عدا عليها وامتلكها .

(٥) يلوذون بك : ينتسبون إليك .

(٦) البينة : الدليل والحجة .

فَلَمَّا هَمَّ الرَّجُلُ بِالْإِنْصِرَافِ قَالَ لَهُ عُمَرُ :
عَلَى رِسْلِكَ ^(١) ...

إِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَنَا مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ ...
وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ اسْتَنْفَذْتَ ^(٢) فِي رِحْلَتِكَ هَذِهِ زَادًا كَثِيرًا ...
وَأَخْلَقْتَ ^(٣) ثِيَابًا جَدِيدَةً ...
وَلَعَلَّهُ نَفَقَتْ ^(٤) لَكَ دَابَّةٌ .

ثُمَّ حَسَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ فَبَلَغَ أَحَدَ عَشَرَ دِينَارًا ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَقَالَ :
أَشِيعَ ذَلِكَ فِي النَّاسِ حَتَّى لَا يَتَنَاقَلَ ^(٥) مَظْلُومٌ عَنْ رَفْعِ ظُلَامَتِيهِ بَعْدَ الْيَوْمِ
مَهْمَا كَانَ بَعِيدَ الدَّارِ .

* * *

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ ؛ فَيُزَوِّجُهَا لَنَا الْعَابِدُ الرَّاهِدُ « زِيَادُ بْنُ مَيْسَرَةَ
الْمَخْزُومِيُّ » بِالْوَلَاءِ فَيَقُولُ :

أَرْسَلَنِي مَوْلَايَ « عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَّاشٍ » مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى « دِمَشْقَ » لِقَاءِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي حَوَائِجَ لَهُ .

وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عُمَرَ صِلَةٌ قَدِيمَةٌ تَرْجِعُ إِلَى عَهْدٍ وَلَايَتِيهِ عَلَى الْمَدِينَةِ ،
فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا عِنْدَهُ كَاتِبٌ يَكْتُبُ لَهُ .

فَلَمَّا صِرْتُ فِي عَتَبَةِ الْحُجْرَةِ قُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَ :
وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ يَا زِيَادُ .

(١) عَلَى رِسْلِكَ : عَلَى مَهْلِك ، أَيْ لَا تَعْجَلْ .

(٢) اسْتَنْفَذْتُ : أَنْفَقْتُ وَاسْتَهْلَكْتُ .

(٣) أَخْلَقْتُ : أَثْبَيْتُ .

(٤) نَفَقَتِ الدَّابَّةُ : هَلَكَتْ وَمَاتَتْ .

(٥) يَتَنَاقَلُ : يَتَبَايَأُ وَيَهْمَلُ .

ثُمَّ مَضَيْتُ نَحْوَهُ خَجِلاً لِأَنِّي لَمْ أُسَلِّمْ عَلَيْهِ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ .
فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَرَكَاتُهُ .
فَقَالَ : يَا زِيَادُ ...

إِنَّنَا لَمْ نُتَكَبَّرْ^(١) عَلَيْكَ السَّلَامَ الْأَوَّلَ ؛ فَمَا الْحَاجَةُ إِلَيَّ الثَّانِي ؟ .
وَكَانَ كَاتِبُهُ إِذْ ذَاكَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ مَظَالِمَ^(٢) بَجَاءَتُهُ مِنْ « الْبَصْرَةِ » مَعَ الْبَرِيدِ
فَقَالَ لِي :

اجْلِسْ يَا زِيَادُ حَتَّى نَفْرُغَ لَكَ .

فَجَلَسْتُ عَلَى خَشَبَةِ الْبَابِ ، وَالْكَاتِبُ يَقْرَأُ عَلَيْهِ ، وَعُمَرُ يَتَنَفَّسُ
الصُّعْدَاءَ^(٣) مِنْ الْهَمِّ .

فَلَمَّا فَرَغَ كَاتِبُهُ مِنْ قِرَاءَةِ الرَّقَاعِ^(٤) الَّتِي مَعَهُ ، وَانْطَلَقَ إِلَى شَأْنِهِ ، قَامَ عُمَرُ
مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَمَشَى إِلَيَّ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيَّ عِنْدَ الْبَابِ ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى
رُكْبَتَيَّ ثُمَّ قَالَ :

هَنِيئًا لَكَ يَا زِيَادُ ...

لَقَدْ اسْتَدْفَأْتَ بِمَدْرَعَتِكَ^(٥) ، وَاسْتَرَحْتَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ .

وَكَانَتْ عَلَيَّ مَدْرَعَةٌ صُوفٍ .

ثُمَّ طَفِقَ يَسْأَلُنِي عَنْ صَلَحَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ : رِجَالِهِمْ ، وَنِسَائِهِمْ وَاحِدًا
وَاحِدًا ... فَمَا تَرَكَ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا سَأَلَنِي عَنْهُ ...

(١) لم تُتَكَبَّرْ عليك : لم تأخذ عليك .

(٢) المَظَالِمُ : ما وقع على النَّاسِ من ظلم .

(٤) الرَّقَاعُ : الرسائل .

(٥) المدرعة : جَبَّةٌ مفتوحة من مقدمها .

(٣) الصُّعْدَاءُ : النفس الطويل من الْهَمِّ والكُزْبِ .

ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْ أَشْيَاءَ كَانَ أَمَرَ بِهَا بِالْمَدِينَةِ حِينَ كَانَ وَالِيًا عَلَيْنَا .
فَأَخْبَرْتُهُ عَنْ كُلِّ مَا سَأَلَ .

ثُمَّ تَنَهَّدَ ^(١) وَقَالَ :

يَا زِيَادُ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا وَقَعَ فِيهِ عُمْرُ ؟ .

فَقُلْتُ : إِنِّي لَأَرْجُو لَكَ فِي ذَلِكَ خَيْرًا وَأَجْرًا .

فَقَالَ : هَيْهَاتَ ^(٢) ...

ثُمَّ بَكَى حَتَّى رَثِيتُ لَهُ وَقُلْتُ :

إِزِفِقْ بِنَفْسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنِّي لَأَرْجُو لَكَ خَيْرًا .

فَقَالَ : مَا أَبْعَدَ مَا تَرْجُوهُ يَا زِيَادُ ...

لَقَدْ أَصْبَحَ فِي وُسْعِي أَنْ أَشْتِمَ وَلَا أُشْتَمَ ...

وَأَنْ أَضْرِبَ وَلَا أُضْرَبَ ...

وَأَنْ أُوْذِيَ النَّاسَ وَلَا يُؤْذِينِي أَحَدٌ .

ثُمَّ بَكَى كَرَّةً ^(٣) أُخْرَى حَتَّى جَعَلْتُ أَرْثِي ^(٤) لَهُ .

وَلَقَدْ أَقَمْتُ عِنْدَهُ أَيَّامًا ثَلَاثَةً حَتَّى قَضَى مَا أَرْسَلَنِي بِهِ مَوْلَايَ .

فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ ، زَوَّدَنِي ^(٥) بِكِتَابٍ إِلَى سَيِّدِي يَسْأَلُهُ فِيهِ : أَنْ

يَبْعَثَنِي مِنْهُ ...

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ فِرَاشِهِ عِشْرِينَ دِينَارًا ، وَقَالَ :

(١) تَنَهَّدَ : مَدَّ نَفْسَهُ حُزْنًا .

(٢) هَيْهَاتَ : اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى بَعْدَ .

(٣) كَرَّةً أُخْرَى : مَرَّةً ثَانِيَةً .

(٤) أَرْثِي لَهُ : أَرْقُ لَهُ وَأَحْزَنُ عَلَيْهِ .

(٥) زَوَّدَنِي بِكِتَابٍ : حَمَلَنِي كِتَابًا .

إِسْتَعِنَ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى دُنْيَاكَ ...
وَلَوْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فِي الْفَيْءِ^(١) لِأَعْطَيْنَاكَ حَقَّكَ .
فَأَيُّتُ أَنْ آخِذَ الْمَالِ مِنْهُ .
فَقَالَ : خُذْهُ ؛ فَمَا هُوَ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ نَفَقَتِي .
فَامْتَنَعْتُ عَنْ أَخْذِهِ ...
وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ بِي حَتَّى أَخَذْتُهُ مِنْهُ ، وَمَضَيْتُ .
فَلَمَّا بَلَغْتُ الْمَدِينَةَ ؛ دَفَعْتُ بِكِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَوْلَايَ ، فَفَضَّه^(٢)
وَقَالَ :

إِنَّمَا سَأَلْنِي أَنْ أُبْعِكَ لَهُ لِيُعْتَقَكَ ...
فَلِمَ لَا أَكُونُ أَنَا الْمُعْتَقَ لَكَ ؟ !
ثُمَّ أَغْتَقَنِي ... (*) .

(١) الفَيْءُ : الخراج .

(٢) فَضَّه : فتحه .

(*) للاستزادة من أخبار عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ انظر :

- ١ - سيرة عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ لابن عَفَّانٍ الحكيم .
- ٢ - سيرة عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ لابن الجوزي .
- ٣ - سيرة عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ للآجري .
- ٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٣٠ / ٥ .
- ٥ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ١١٣ / ٢ - ١٢٦ .
- ٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : المجلدات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، وانظر الفهارس الملحقه بالجزء العاشر .
- ٧ - العقد الفريد لابن عبد ربه : الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، وانظر الفهارس .
- ٨ - البيان والتبيين للمجاط : انظر فهارس الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
- ٩ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : ١١٥ / ٢ - ١٢٧ .

زَيْنُ الْعَابِدِينَ

عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ

« مَا رَأَيْتُ قُرَيْشِيًّا أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ »

[الرُّهْرِيُّ]

لَقَدْ طَوَيْتُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ الْأَعْرُ^(١) آخِرُ صَفْحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ الْأَكَاسِرَةِ .

فَلَقَدْ مَاتَ « يَزْدَجُرْدُ » آخِرُ مُلُوكِ الْفُرْسِ شَرِيداً طَرِيداً ...

وَسَقَطَ أَسَاوِرَتُهُ^(٢) ، وَحَرَسُهُ ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَسَارَى فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ...

وَسِيقَتِ الْغَنَائِمُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ...

وَقَدْ كَانَ سَبْيِي^(٣) ذَلِكَ النَّصِيرَ الْكَبِيرَ كَثِيراً ، وَفِيراً ، ثَمِيناً ، لَمْ تَشْهَدْ

الْمَدِينَةُ أَكْثَرَ مِنْهُ عَدَداً ، وَلَا أَعْظَمَ خَطَراً^(٤) .

وَكَانَ بَيْنَ السَّبَايَا بَنَاتُ « يَزْدَجُرْدَ » الثَّلَاثُ ...

* * *

أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى السَّبْيِ ؛ فَشَرَوْهُ فِي سَاعَاتِ مَعْدُودَاتٍ ، وَرَدُّوا ثَمَنَهُ إِلَى

بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَتَّقِ مِنْهُ إِلَّا بَنَاتُ كِسْرَى « يَزْدَجُرْدَ » .

وَكُنَّ مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ جَمَالاً ...

وَأَنْبَاهُهُنَّ طُلْعَةً ...

وَأَنْصَرِهِنَّ^(٥) سَبَاباً ...

(١) الْأَعْرُ : المشرق الطلعة .

(٢) أَسَاوِرَتُهُ : قاداته .

(٤) خطر : رِفْعَةُ مقام ، وعلو منزلة .

(٥) أَنْصَرِهِنَّ : أَزْهَاهُنَّ .

(٣) السبي : ما يستولي عليه المحاربون من النساء ، والرجال ، والولدان .

وَلَمَّا عُرِضَ لِلْبَيْعِ أَطْرَفْنَ^(١) إِلَى الْأَرْضِ ذَلَّةً ، وَمَهَانَةً ...
وَفَاضَتْ عُيُونُهُنَّ حَسْرَةً ، وَانْكِسَاراً ...
فَرَقَّ لَهُنَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَتَمَنَّى لَوْ شَرَاهُنَّ مَنْ
يُحْسِنُ الْقِيَامَ عَلَيْهِنَّ .
وَلَا غَرَوْ^(٢) ، فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ :
(اَرْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ) ...
فَمَالَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...
إِنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا يُعَامَلْنَ مُعَامَلَةَ غَيْرِهِنَّ ...
فَقَالَ عُمَرُ : صَدَقْتَ ... وَلَكِنْ كَيْفَ ؟
فَقَالَ عَلِيٌّ : يَقُومُنَ^(٣) وَيُعَالِي بِأَثْمَانِهِنَّ^(٤) ، ثُمَّ تُتْرَكُ لَهُنَّ الْحُرِّيَّةُ فِي
اخْتِيَارٍ مَنْ يَشَاءُ مِنْ يَدْفَعُ الثَّمَنَ .
فَارْتَاخَ عُمَرُ لِذَلِكَ ، وَرَضِيَ بِهِ ، وَأَنْفَذَهُ ...
فَاخْتَارَتْ إِحْدَاهُنَّ « عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » .
وَاخْتَارَتِ الثَّانِيَةُ « مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ » .
أَمَّا الثَّلَاثَةُ وَكَانَتْ تُدْعَى « شَاهِ زَنَان » ، فَاخْتَارَتْ « الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ »
سَبْطَ^(٥) الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

* * *

(١) أَطْرَفْنَ : خَفَضْنَ عُيُونَهُنَّ وَنَظَرْنَ إِلَى الْأَرْضِ .

(٢) لَا غَرَوْ : لَا عَجَبَ .

(٤) يُعَالِي بِأَثْمَانِهِنَّ : تُرْفَعُ أَشْعَارُهُنَّ .

(٣) يَقُومُنَ : تَجْعَلُ لَهُنَّ قِيَمَةً مُحَدَّدَةً .

(٥) سَبْطُ الرَّجُلِ : ابْنُ بَنْتِهِ .

أَسْلَمْتُ « شَاهُ زَنَانُ » وَحَسَنَ إِسْلَامُهَا ...
فَفَازَتْ بِدِينِ الْقِيَمَةِ^(١) ... وَأُعْتِقْتُ مِنَ الرِّقِّ ؛ فَصَارَتْ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ
كَانَتْ أَمَةً ، وَظَفِيرَتْ بِالْحُرِّيَّةِ .
ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ أَنْ تَقْطَعَ كُلَّ صِلَةٍ لَهَا بِمَا ضِيهَا الْوَثْنِيُّ ، فَتَخَلَّتْ عَنْ اسْمِهَا
« شَاهُ زَنَانُ » وَمَعْنَاهُ مَلِكَةُ النِّسَاءِ ، وَأَصْبَحَتْ تُدْعَى « غَزَالَةٌ » ...
وَقَدْ سَعِدَتْ « غَزَالَةٌ » بِخَيْرِ الْأَزْوَاجِ ، وَلِأَيِّهِمْ^(٢) بَيِّنَاتُ الْمُلُوكِ .
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَمَانِيَّتِهَا إِلَّا أَنْ تَنْعَمَ بِالْوَلَدِ .
فَأَكْرَمَهَا اللَّهُ ، فَوَلَدَتْ لِلْحُسَيْنِ غُلَامًا وَسِيمَ الْمُحْيَا ، بِهِيَّ الطَّلَعَةُ ؛
فَسَمَّيْتُهُ عَلِيًّا تَيْمُنًا بِاسْمِ جَدِّهِ « عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .
لَكِنَّ فَرْحَةَ « غَزَالَةٍ » لَمْ تَدُمْ سِوَى لَحْظَاتٍ ...
ذَلِكَ لِأَنَّهَا لَبِثَ نِدَاءَ رَبِّهَا إِثْرَ حُمْلَى نِفَاسٍ^(٣) عَاجَلَتْهَا ؛ فَلَمْ تَتْرُكْ لَهَا
فُرْصَةً لِلتَّمَتُّعِ بِمَوْلُودِهَا .

* * *

تَوَلَّتْ رِعَايَةَ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ مَوْلَاةً^(٤) لَهُ ، فَأَحَبَّتْهُ فَوْقَ مَا تُحِبُّ أُمُّ
وَلَدِهَا ...

وَرَعَتْهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَرَعَى وَالِدَةٌ وَحِيدَهَا ...

فَنَشَأَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ لَهُ أُمًّا غَيْرَهَا ...

* * *

(١) دِينِ الْقِيَمَةِ : دِينُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ .

(٢) أَلْيَقِهِمْ : أَجْدَرِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ .

(٣) حُمْلَى النِّفَاسِ : حُمْلَى الْوِلَادَةِ الَّتِي تَصِيبُ بَعْضَ النِّسَاءِ .

(٤) مَوْلَاةٌ لَهُ : أَمَةٌ لَهُ ، وَالْمَوْلَاةُ تَطْلُقُ عَلَى السَّيِّدَةِ وَالْأَمَةِ .

مَا كَادَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَبْلُغُ سِنَّ التَّمْيِيزِ^(١)، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ
بِشَّغْفٍ^(٢) وَشَوْقٍ ...

وَكَانَتْ مَدْرَسَتُهُ الْأُولَى يَتِيئُهُ ، أَكْرَمَ بِهِ مِنْ يَتٍ ...

وَكَانَ مُعَلِّمُهُ الْأَوَّلُ وَالِدُهُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ ، أَعْظَمَ بِهِ مِنْ مُعَلِّمٍ .

أَمَّا مَدْرَسَتُهُ الثَّانِيَةُ ، فَمَسْجِدُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَانَ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ - يَوْمَئِذٍ - يُمُوجُ^(٣) بِالْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ
صَحَابَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، وَيَزْخَرُ^(٤) بِالطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ .

وَكَانَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ؛ يَفْتَحُونَ قُلُوبَهُمْ لِهَذِهِ الْأَكْمَامِ^(٥) الْمُزْدَهَرَةِ مِنْ
أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ ، فَيَقْرَأُونَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَيُنْفِقُهُونَهُمْ فِيهِ ...

وَيَزُودُونَ لَهُمْ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَيَقْفُونَهُمْ عَلَى مَرَامِيهِ^(٦) ...

وَيَقْصُونَ عَلَيْهِمْ سِيرَةَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ وَمَغَازِيهِ^(٧) ...

وَيُنْشِدُونَهُمْ شِعْرَ الْعَرَبِ ، وَيُبَصِّرُونَهُمْ بِمَوَاطِنِ جَمَالِهِ ...

وَيَمْلَأُونَ قُلُوبَهُمْ الْغَضَّةَ بِحُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَشْيَتِهِ ، وَتَقْوَاهُ ...

(١) سن التمييز : سن الوعي والقدرة على طلب العلم .

(٢) بشغف : برغبة وتعلق .

(٣) يموج : يقال ماج المكان بالثاس أي تداخل بعضهم في بعض لشدة الزحام .

(٤) يزخر : يجيش .

(٥) الأكمام : جمع مفردة كم بكسر الكاف ، وهو الغلاف الذي يحيط بالزهر والورد .

(٦) مراميه : مقاصده وأهدافه .

(٧) مغازيه : غزواته .

فَإِذَا هُمْ عُلَمَاءُ عَامِلُونَ ، وَهَذَاةٌ مَهْدِيُونَ .

* * *

لَكِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ لَمْ يَتَعَلَّقْ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ كَمَا تَعَلَّقَ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَلَمْ تَهْتَرْ مَشَاعِرُهُ لِأَمْرِ كَمَا كَانَتْ تَهْتَرْ لَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ^(١) ...

فَإِذَا قَرَأَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ ؛ طَارَ فُؤَادُهُ شَوْقًا إِلَيْهَا ...

وَإِذَا سَمِعَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ ؛ زَفَرَ^(٢) زَفْرَةً كَأَنَّ لِهَيْبِ جَهَنَّمَ فِي أَحْشَائِهِ .

* * *

وَمَا إِنْ اكْتَمَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ شَبَابًا وَعِلْمًا ، حَتَّى ظَفَرَ الْمُجْتَمَعُ الْمَدَنِيُّ الْأَمْثَلُ يَفْتَى مِنْ أَعْمَقِ فِتْيَانِ بَنِي « هَاشِمٍ » عِبَادَةً وَتُقَى ...

وَأَعْظَمِهِمْ فَضْلًا وَخُلُقًا ...

وَأَكْثَرِهِمْ إِحْسَانًا وَبِرًّا ...

وَأَوْسَعِهِمْ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا ...

فَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِبَادَتِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ أَنَّهُ كَانَتْ تَأْخُذُهُ رِغْدَةٌ^(٣) بَيْنَ وُضُوءَيْهِ وَصَلَاتَيْهِ ، فَتَنْفُضُ جَسَدَهُ نَفْضًا .

فَلَمَّا كُتِّمَ فِي ذَلِكَ قَالَ : وَيَحْكُمُ !! ...

كَأَنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ إِلَيَّ مَنْ أَقُومُ ...

وَلَا تَعْلَمُونَ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أَنْاجِي^(٤) ...

* * *

(١) وَغْدِيهِ وَوَعِيدِهِ : الوعد بما يَسُرُّ ، والوعيد بما يخيف . (٣) رِغْدَةٌ : هزة تحصل من الانفعال .

(٢) زفر : أخرج نفساً طويلاً حاراً [متصعداً] . (٤) أَنْاجِي : أفضي بما في فؤادي .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِحْسَانِ الْفَتَى الْهَاشِمِيِّ لِعِبَادَتِهِ وَإِتْقَانِهِ لِشَعَائِرِهِ ؛ أَنْ دَعَاهُ
النَّاسُ : « زَيْنُ الْعَابِدِينَ » ... حَتَّى نَسِيَ قَوْمُهُ اسْمَهُ أَوْ كَادُوا ، وَآثَرُوا ^(١) لَقَبَهُ هَذَا
عَلَى اسْمِهِ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِطَالَتِهِ لِسُجُودِهِ ، وَاسْتِغْرَاقِهِ ^(٢) فِيهِ أَنْ نَادَاهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
بِالسَّجَادِ ^(٣) ...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ صَفَاءِ نَفْسِهِ وَتَقَاءِ قَلْبِهِ أَنْ نَعْتُوهُ بِالرَّكِيِّ ^(٤) .

* * *

وَكَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُوقِنُ أَنَّ مُخَّ ^(٥) الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ ...
وَكَانَ يَطِيبُ لَهُ الدُّعَاءُ أَكْثَرَ مَا يَطِيبُ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ .

فَلَكُمْ التَّزَمَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ، وَجَعَلَ يَقُولُ :

رَبِّ لَقَدْ أَدْقَنْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا أَدْقَنْتَنِي ...

وَأَوْلَيْتَنِي ^(٦) مِنْ إِنْعَامِكَ مَا أَوْلَيْتَنِي ...

فَصَبْرْتُ أَدْعُوكَ آمِنًا مِنْ غَيْرِ وَجَلٍ ^(٧) ...

وَأَسْأَلُكَ مُسْتَأْنِسًا مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ ...

رَبِّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ تَوَسَّلَ مَنْ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ ^(٨) إِلَى رَحْمَتِكَ ...

وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ عَنْ أَدَاءِ حُقُوقِكَ ...

(١) آثَرُوا : فَضَّلُوا .

(٢) مُخَّ الْعِبَادَةِ : رُوحُهَا ، وَأَعْظَمَ مَا فِيهَا .

(٣) السَّجَاد : الْمَغْرَقُ فِي السُّجُودِ ، الْمَطِيلُ لَهُ .

(٤) الرَّكِيِّ : النَفْيُ الْخَالِصُ مِنَ الذُّنُوبِ .

(٥) أَدْقَنْتَنِي : أَسْبَغْتَ عَلَيَّ وَأَقْضَيْتَ .

(٦) وَجَلٍ : خَوْفٍ .

(٧) فَاقَتُهُ : فَقْرُهُ وَاحْتِيَاجُهُ .

فَاقْبَلْ مِنِّي دُعَاءَ الْعَرِيقِ الْغَرِيبِ الَّذِي لَا يَجِدُ لِإِنْقَاذِهِ إِلَّا أَنْتَ يَا أَكْرَمَ
الْأَكْرَمِينَ .

* * *

وَلَقَدْ رَأَهُ « طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ » ^(١) ذَاتَ مَرَّةٍ يَقِفُ فِي ظِلَالِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ
وَهُوَ يَتَمَلَّمُ تَمَلُّمَ السَّلِيمِ ^(٢) ...

وَيَبْكِي بُكَاءَ السَّقِيمِ ... وَيَدْعُو دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ ^(٣) .

فَوَقَفَ يَنْتَظِرُهُ حَتَّى إِذَا كَفَّ عَنْ بُكَائِهِ ، وَفَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ ، تَقَدَّمَ نَحْوَهُ
وَقَالَ لَهُ :

يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ ^(٤) رَأَيْتُكَ عَلَى حَالَتِكَ هَذِهِ ، وَلَكَ فَضَائِلُ ثَلَاثِ أَرْجُو
أَنْ تُؤْمِنَكَ ^(٥) مِنَ الْخَوْفِ .

فَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ : وَمَا هُنَّ يَا طَاوُوسُ ؟ .

فَقَالَ : إِحْدَاهُنَّ أَنَّكَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَالثَّانِيَةُ : شَفَاعَةُ جَدِّكَ لَكَ ...

وَالثَّالِثَةُ : رَحْمَةُ اللَّهِ ...

فَقَالَ لَهُ : يَا طَاوُوسُ إِنَّ ائْتِسَابِي إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
لَا يُؤْمِنُنِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

(١) طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ : انظره ص ٢٨١ ، ٢٨٩ .

(٢) السَّلِيمُ : المشرف على الهلاك ، وقد سُئِيَ بذلك تَقَاوُلًا .

(٣) المضطر : اللاجئ المحتاج .

(٤) يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ : هو ابن الحسين ، والحسين ابن بنت رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

(٥) تُؤْمِنُكَ : تحميكَ .

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ^(١) فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾^(٢).

وَأَمَّا شَفَاعَةُ جَدِّي لِي فَإِنَّ اللَّهَ عَلَتْ كَلِمَتُهُ يَقُولُ :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٣)﴾^(٤).

وَأَمَّا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ يَقُولُ :

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥).

* * *

وَلَقَدْ أَفَاضَتْ^(٦) التَّقْوَى عَلَى زَيْنِ الْعَابِدِينَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تُفِيضَ مِنْ
شَمَائِلِ^(٧) الْفَضْلِ ، وَالتُّبَّلِ ، وَالْحِلْمِ ...

حَتَّى اِزْدَانَتْ^(٨) كُتُبُ السَّيْرِ بِرَوَائِعِ أَخْبَارِهِ ، وَزَهَتْ^(٩) صَفَحَاتُهَا بِبَيِّنِ
مَوَاقِفِهِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَ :

وَقَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّي زَيْنِ الْعَابِدِينَ جَفْوَةً^(١٠) ؛ فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ
وَأَنَا أَتَمِيزُ غَيِظًا مِنْهُ - وَكَانَ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ - فَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا إِلَّا قُلْتُهُ
لَهُ ، وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ ...

ثُمَّ انصَرَفْتُ ...

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ إِذَا طَارِقٌ^(١١) عَلَى الْبَابِ يَقْرَعُهُ ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ لِأَرَى مَنْ

هُوَ ...

-
- (١) نُفِخَ فِي الصُّورِ : قامت القيامة ، والصور : أداة ينفخ فيها فتخرج صوتاً عالياً .
(٢) سورة المؤمنون : آية ١٠١ .
(٣) لمن ارتضى : للذي قبله الله وحظي عنده .
(٤) سورة الأنبياء : آية ٢٨ .
(٥) سورة الأعراف : آية ٥٦ .
(٦) أفاضت : أسبغت عليه .
(٧) الشمائل : الخلال والخصال والصفات .
(٨) ازدانت : تزينت .
(٩) زهت : أشرقت .
(١٠) الجفوة : الخصومة وسوء المعاشرة .
(١١) الطارق : الآتي ليلاً .

فَإِذَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ ...

فَمَا شَكَكَتْ أَنَّهُ جَاءَ يَرُدُّ إِلَيَّ الْأَذَى ... وَلَكِنَّهُ قَالَ :

يَا أَخِي إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا قُلْتَ لِي ؛ فَعَفَرَ اللَّهُ لِي ...

وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ صَادِقٍ ؛ فَعَفَرَ اللَّهُ لَكَ .

ثُمَّ أَلْقَى عَلَيَّ السَّلَامَ وَمَضَى ...

فَلَحِيقْتُ بِهِ وَقُلْتُ لَهُ : لَا جَرَمَ ^(١) ، لَا عُذْتُ إِلَيَّ أَمْرٍ تَكْرَهُهُ .

فَرَّقَ لِي وَقَالَ : وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا قُلْتَ لِي .

* * *

وَرَوَى أَحَدُ أَتْنَاءِ الْمَدِينَةِ قَالَ :

كَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ خَارِجًا مِنَ الْمَسْجِدِ فَتَبِعْتُهُ ، وَجَعَلْتُ أُلْوِحُ ^(٢) لَهُ

بِالشَّتَمِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي سَبَبًا لِذَلِكَ ، فَهَجَمَ عَلَيَّ النَّاسُ يُرِيدُونَ أَخْذِي ^(٣) ...

وَلَوْ أَخَذُونِي لَمْ يُفْلِتُونِي حَتَّى أُحْطَمَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ النَّاسُ وَقَالَ : كُفُّوا عَنِ الرَّجُلِ ...

فَكَفُّوا عَنِّي ...

وَلَمَّا رَأَى مَا أَصَابَنِي مِنَ الذُّعْرِ ^(٤) أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ الطَّلَقِ ؛ وَجَعَلَ يُؤْمِنُنِي

وَيُهْدِي مِنْ رَوْعِي ^(٥) ثُمَّ قَالَ لِي :

لَقَدْ سَبَبْتَنَا بِمَا عَلِمْتَ ، وَمَا سَتَرَ عَنْكَ مِنْ أَمْرِنَا أَكْبَرُ .

ثُمَّ قَالَ لِي : أَلَاكَ حَاجَةٌ نُعِينُكَ عَلَيْهَا ؟ .

(١) لا جرم : أفسيم .

(٢) ألوح له بالشتم : أشتمه وأقول له سئى الكلام .

(٣) أخذني : التَّيْلُ مَبْنِي .

(٤) الذعر : الخوف والهلع .

(٥) روعي : فزعي .

فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ، وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ...

فَلَمَّا رَأَى حَيَّايِ الْقَى عَلَيَّ كِسَاءً^(١) كَانَ عَلَيْهِ ...

وَأَمَرَ لِي بِأَلْفِ دِرْهَمٍ .

فَجَعَلْتُ أَقُولُ كُلَّمَا رَأَيْتُهُ - بَعْدَ ذَلِكَ - أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ أَتْبَاءِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَرَوَى أَحَدُ مَوَالِيهِ قَالَ :

كُنْتُ غُلَامًا لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فَأُرْسَلَنِي فِي حَاجَةٍ فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا
جِئْتُهُ خَفَقَنِي^(٢) بِالسَّوِطِ ... فَبَكَيتُ وَاشْتَدَّ غَيْظِي مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا خَفَقَ أَحَدًا قَبْلِي
قَطُّ ، وَقُلْتُ لَهُ :

اللَّهُ ، اللَّهُ^(٣) ، يَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ...

أَتَسْتَحْدِمُنِي فِي حَاجَةٍ فَأَقْضِيهَا لَكَ ، ثُمَّ تَضْرِبُنِي ؟ !

فَبَكَى وَقَالَ : إِذْهَبْ إِلَى مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَصَلِّ
رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ قُل :

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ...

فَإِذَا ذَهَبَتْ وَفَعَلْتَ ، فَأَنْتَ حُرٌّ لِرُوحِهِ اللَّهُ تَعَالَى .

فَذَهَبْتُ وَصَلَّيْتُ وَدَعَوْتُ ...

وَلَمْ أَعُدْ إِلَى دَارِهِ إِلَّا وَأَنَا حُرٌّ .

* * *

(١) كِسَاءٌ : ثَوْبًا .

(٢) خَفَقَنِي : ضَرَبَنِي ، وَالسَّوِطُ : جِلْدٌ مَضْفُورٌ .

(٣) اللَّهُ ، اللَّهُ : اَتَّقِ اللَّهَ .

وَلَقَدْ وَسَّعَ^(١) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى زَيْنِ الْعَابِدِينَ ، وَأَفَاضَ^(٢) عَلَيْهِ الرِّزْقَ
فَيْضاً ...

فَكَانَتْ لَهُ تِجَارَةٌ رَابِعَةٌ ...

وَزِرَاعَةٌ نَامِيَّةٌ ...

وَكَانَ يَنْهَضُ بِهِمَا غِلْمَانُهُ .

وَكَانَتْ زِرَاعَتُهُ وَتِجَارَتُهُ تُدِيرَانِ^(٣) عَلَيْهِ الْخَيْرَ الْوَفِيرَ^(٤) ، وَالْمَالَ
الْكَثِيرَ ...

لَيْكُنْ زَيْنُ الْعَابِدِينَ لَمْ يَزُهِهُ^(٥) الْغِنَى ...

وَلَمْ تُبْطِرْهُ النِّعْمَةُ ...

وَإِنَّمَا جَعَلَ مَالَ الدُّنْيَا مَطِيَّةً^(٦) لِلْفُوزِ فِي الْآخِرَةِ .

فَكَانَ ثَرَاؤُهُ^(٧) نِعَمَ الثَّرَاءِ الصَّالِحِ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ .

وَكَانَ أَكْثَرَ مَا حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ صَدَقَةُ السِّرِّ^(٨) .

فَكَانَ إِذَا جَنَّ^(٩) اللَّيْلُ يَحْمِلُ أَكْيَاسَ الدَّقِيقِ عَلَى ظَهْرِهِ النَّاحِلِ^(١٠) ،

وَيَخْرُجُ بِهَا فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ...

وَكَانَ يُجُوبُ^(١١) بِهَا أَحْيَاءَ الْمَدِينَةِ لِيَتَصَدَّقَ عَلَى ذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْ

لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا خَافاً^(١٢) .

(١) وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ : أَعَدَّ عَلَيْهِ الْمَالَ .

(٢) أَفَاضَ : أَكْثَرَ .

(٣) تُدِيرَانِ : تَعْدِقَانِ وَتَكْتَرَانِ .

(٤) الْوَفِيرُ : الْكَثِيرُ .

(٥) لَمْ يَزُهِهُ الْغِنَى : لَمْ يَدْفَعْهُ الْمَالُ إِلَى التَّكْبَرِ

عَلَى النَّاسِ .

(٦) مَطِيَّةٌ : وَسِيلَةٌ وَمَرْكَبٌ .

(٧) ثَرَاؤُهُ : غَنَاهُ .

(٨) صَدَقَةُ السِّرِّ : الصَّدَقَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ

إِلَّا اللَّهُ .

(٩) جَنَّ اللَّيْلُ : أَظْلَمَ اللَّيْلُ .

(١٠) النَّاحِلُ : الضَّعِيفُ الْهَزِيلُ .

(١١) يُجُوبُ : يَطُوفُ .

(١٢) إِلَّا خَافاً : إِلَّا خَافَ .

فَكَانَتْ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تَعِيشُ وَهِيَ لَا تَدْرِي مِنْ أَيْنَ
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا^(١).

فَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ؛ فَقَدْ هُوَ لَا مَآ كَانَ يَأْتِيهِمْ مِنْ رِزْقٍ ، فَعَرَفُوا
مَصْدَرَهُ .

وَلَمَّا وُضِعَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلَى الْمُغْتَسَلِ ؛ نَظَرَ غَاسِلُوهُ ... فَوَجَدُوا فِي
ظَهْرِهِ آثَارَ سَوَادٍ ، فَقَالُوا : مَا هَذَا ؟ .

فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّهُ مِنْ آثَارِ حَمْلِ أَكْيَاسِ الدَّقِيقِ^(٢) إِلَى مِائَةِ بَيْتٍ فِي الْمَدِينَةِ
فَقَدَّتْ عَائِلَتَهَا^(٣) بِفَقْدِهِ .

* * *

أَمَّا أَخْبَارُ عَتِيقِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ لِلْأَرْقَاءِ فَقَدْ شَرَقَتْ بِهَا الرُّكَبَانُ^(٤)
وَعَزَبَتْ ...

لِأَنَّ صَنِيعَهُ هَذَا فَاقَ خَيَالَ الْمُتَخَيِّلِينَ ...

وَجَاوَزَ تَطَلُّعَ الْمُتَطَلِّعِينَ^(٥).

فَكَانَ يُعْتِقُ الْعَبْدَ إِذَا أَحْسَنَ ؛ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ ...

وَكَانَ يُعْتِقُ الْعَبْدَ إِذَا أَسَاءَ وَتَابَ ؛ جَزَاءً لَهُ عَلَى تَوْبَتِهِ ...

حَتَّى رَوَى الرَّأْوُونَ أَنَّهُ أَعْتَقَ أَلْفَ عَبْدٍ ...

وَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْدِمْ أَحَدًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَإِمَائِهِ^(٦) أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ وَاحِدٍ .

وَكَانَ عِتْقُهُ لِعَبِيدِهِ يَقَعُ أَكْثَرَ مَا يَقَعُ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ ... حَيْثُ كَانَ يُحْرَرُ

(٤) الرُّكَبَانُ : المسافرون المتنقلون في البلاد .

(٥) المتطلعين : العارفين .

(٦) الإماء : جمع أمة ، وهي المسترقّة من النساء .

(١) رَغَدًا : طيباً واسعاً .

(٢) الدقيق : الطّحين .

(٣) عائلها : من ينفق عليها ويعولها .

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ عَلَى تَحْرِيرِهِ مِنْ رِقَابِ الْأَرْقَاءِ .
وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يَتَوَجَّهُوا إِلَى الْقِبْلَةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا :
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ .

ثُمَّ يَرُودُهُمْ ^(١) بِمَا يَجْعَلُ عِيدَهُمْ عِيدَيْنِ ، وَفَرَحَتَهُمْ فَرَحَتَيْنِ .

* * *

وَلَقَدْ حَلَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ مَنَزِلَةً لَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا إِنْسَانٌ فِي
عَصْرِهِ ...

فَلَقَدْ أَحَبَّهُ النَّاسُ أَصْدَقَ مَا يَكُونُ الْحُبُّ ...

وَأَجَلُّهُ ^(٢) أَعْظَمَ مَا يَكُونُ الْإِجْلَالُ ...

وَتَعَلَّقُوا ^(٣) بِهِ أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّعَلُّقُ ...

وَاشْتَأَقُوا إِلَى رُؤْيَيْهِ أَعَمَقَ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ ...

فَكَانُوا يَتَرَقَّبُونَهُ لِيَنْعَمُوا ^(٤) بِرُؤْيَاهُ خَارِجاً مِنَ الْبَيْتِ أَوْ دَاخِلاً إِلَيْهِ ...

أَوْ غَادِيًا ^(٥) إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَائِحاً مِنْهُ .

* * *

رَوِيَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَدَ عَلَى مَكَّةَ حَاجًّا ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَلِيًّا

لِلْعَهْدِ ... فَأَقْبَلَ يُرِيدُ الطَّوْفَ ، وَيَتَتَبَعِي اسْتِلَامَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ...

وَأَخَذَ الْجُنْدُ الْحَافُونَ ^(٦) بِهِ يُتَبَّهُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيُوسِّعُونَ الطَّرِيقَ لَهُ ...

لَكِنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُوسِّعْ لَهُمْ .

(١) يَرُودُهُمْ : يعطيهم ويكرمهم . (٣) تعلقوا به : أحبوه ، وارتبطوا به . (٥) غادياً : عائداً .
(٢) أجَلُّهُ : عظموه . (٤) لينعموا : ليسعدوا . (٦) الحافون به : المحيطون به .

فَالْبَيْتُ يَبْتَ اللَّهُ ...

وَالنَّاسُ جَمِيعاً عَبِيدُهُ ...

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ سُمِعَتْ أَصْوَاتُ التَّهْلِيلِ ^(١) وَالتَّكْبِيرِ آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ ...

فَأَشْرَأَبَتْ ^(٢) نَحْوَهَا الْأَعْنَاقُ ...

فَإِذَا رَجُلٌ فِي كَوْكَبَةٍ ^(٣) مِنَ النَّاسِ ، قَسِيمٌ ^(٤) وَسِيمٌ ، ضَامِرٌ ^(٥) الْجِسْمِ ،
وَضِيءُ الْوَجْهِ عَلَيْهِ سَكِينَةٌ وَوَقَارٌ ...

قَدْ مَشَى فِي إِزَارٍ وَرْدَاءٍ ^(٦) ...

وَبَدَأَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ ...

فَجَعَلَتْ كُتْلُ النَّاسِ تَنْفَرِجُ ^(٧) لَهُ ، وَتَغْدُو صُفُوفاً صُفُوفاً ، وَهِيَ تَسْتَقْبِلُهُ
بِنَظَرَاتِ الشَّوْقِ وَالْحُبِّ حَتَّى بَلَغَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ ، وَاسْتَلَمَهُ .

وَهُنَا التَّفَتُّ أَحَدُ رِجَالِ الْحَاشِيَةِ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ لَهُ :

مَنْ هَذَا الَّذِي أَكْرَمَهُ النَّاسُ كُلُّ هَذَا الْإِكْرَامِ ، وَأَجْلَوْهُ كُلُّ هَذَا

الْإِجْلَالِ ؟ !

فَقَالَ هِشَامٌ : لَا أَعْرِفُهُ .

وَكَانَ « الْفَرَزْدَقُ » ^(٨) حَاضِراً ؛ فَقَالَ :

إِنْ كَانَ هِشَامٌ لَا يَعْرِفُهُ فَأَنَا أَعْرِفُهُ ...

(١) التهليل : قول لا إله إلا الله .

(٢) اشْرَأَبَتْ الأعناق : تطاولت الرقاب وامتدت .

(٣) كوكبة من الناس : جماعة من الناس ملتفة حوله .

(٤) قسيم وسيم : بهي الطلعة حلو المنظر .

(٥) ضامر الجسم : رقيق الجسم هزيله .

(٦) الإزار : ما يستر أسفل الجسم ، والرداء : ما يستر

الجزء الأعلى من الجسم .

(٧) تنفرج له : تفسح له الطريق .

(٨) الفرزدق : أحد شعراء الطبقة الأولى في العصر

الأموي .

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تَعْرِفُهُ ...

هَذَا عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ وَعَنْ جَدِّهِ .
ثُمَّ أَنْشَدَ :

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ^(١) وَطَأْتُهُ
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِجْلُ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ^(٢) - إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ -
بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خَتَمُوا
فَلَيْسَ قَوْلُكَ « مَنْ هَذَا » بِضَائِرِهِ^(٣)
الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
كَلَّمَا يَدِيهِ غِيَاثُ^(٤) عَمَّ نَفْعُهُمَا
يَسْتَوِ كِفَانِ^(٥) ، وَلَا يَعْرِوهُمَا^(٦) عَدَمُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ^(٧) ، لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ^(٨)
يَزِينُهُ اثْنَانِ : حُسْنُ الْخُلُقِ وَالشَّيْمِ

(١) البطحاء : مكان سيل الماء ، بالقرب من البيت الحرام .

(٢) فاطمة : هي السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ . انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٣) بضائره : بمنقص منه .

(٤) غياث : لا يعرفهما : لا يصيبهما .

(٥) كفان : مغدقة كثيرة العطاء .

(٦) لا يعرفهما : لا يصيبهما .

(٧) الخليفة : الطبيعة .

(٨) البوادر : جمع مفردة بادرة ، وهي الحدة والقسوة .

مَا قَالَ «لَا» قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهَدِهِ^(١)
 لَوْلَا التَّشَهُدُ كَانَتْ لَاءُهُ نَعْمٌ
 عَمَّ الْبَرِّيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَاِنْقَشَعَتْ^(٢)
 عَنْهَا الْغَيَاهِبُ^(٣) وَالْإِمْلَاقُ^(٤) وَالْعَدَمُ
 إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
 إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
 يُغْضِي^(٥) حَيَاءً وَيُغْضِي^(٦) مِنْ مَهَابَتِهِ
 فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
 بِكَفِّهِ خَيْرُ زَانٍ رِيحُهُ عَبِقٌ^(٧)
 مِنْ كَفِّ أَرْوَعٍ^(٨)، فِي عَرْنِينِهِ^(٩) شَمَمٌ^(١٠)
 مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ^(١١)
 طَابَتْ مَعَارِسُهُ^(١٢) وَالْخَيْمُ^(١٣) وَالشَّيْمُ

* * *

(١) في تشهده: في كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

(٢) انقشعت: زالت.

(٣) الغياهب: الظلمات.

(٤) الإملاق: الفقر.

(٥) يغضي: يغض طرفه حياءً.

(٦) يُغْضِي من مهابته: يغض الناس أعينهم فلا ينظرون إليه إجلالاً له.

(٧) العبق: الذي تفوح منه رائحة الطيب.

(٨) الأروع: الشهم الذكي.

(٩) العرنين: الأنف.

(١٠) الشمم: ارتفاع قصبه الأنف وحشنتها، وفي عرنينه شمم: فيه عزة وأنفة.

(١١) النُّبَّة: الأصل الكريم.

(١٢) مَعَارِسُهُ: منابته وأصوله.

(١٣) الخيم: السجدة والطبيعة.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سِبْطِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَرْضَاهُ ...
فَقَدْ كَانَ صُورَةً فَدَّةً لِلَّذِي يَخْشَى اللَّهَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ...
وَيُضْنِي النَّفْسَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ .
وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ (*) ...

-
- (*) للاستزادة من أخبار زَيْنِ العابدين انظر:
١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢١١/٥.
٢ - تاريخ البخاري: ٢٦٦/٦.
٣ - الأسماء واللغات: القسم الأول من الجزء الأول: ٣٤٣.
٤ - الجرح والتعديل: القسم الأول من المجلد الثالث: ١٧٨.
٥ - المعرفة والتاريخ: ١/٣٦٠، ٥٤٤.
٦ - طبقات الفقهاء للشيرازي: ٦٣.
٧ - تاريخ ابن عساكر: ١٢/٥١٥.
٨ - المعارف: ٢١٤.
٩ - وفيات الأعيان: ٣/٢٦٦.
١٠ - تاريخ الإسلام: ٤/٣٤.
١١ - المعبر: ١/١١١.
١٢ - البداية والنهاية: ٩/١٠٣.
١٣ - النجوم الزاهرة: ١/٢٢٩.

أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ تُوبٍ

«لَقَدْ تَفَانَى أَبُو مُسْلِمٍ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّى صَارَ يَقُولُ :
لَوْ رَأَيْتُ الْجَنَّةَ عَيْنَانِ أَوْ النَّارَ عَيْنَانِ مَا كَانَ عِنْدِي مُسْتَرَادٌّ»
[عُثْمَانُ بْنُ أَبِي عَاتِكَةَ]

طَارَتِ الْأَخْبَارُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ثَقُلَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ
بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ .

فَسَوَّلَ الشَّيْطَانُ «لِلْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ» أَنْ يَعُودَ لِلْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...
وَأَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، فَيَزْعُمَ لِقَوْمِهِ فِي «الْيَمَنِ» أَنَّهُ نَبِيُّ مُرْسَلٌ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

* * *

كَانَ «الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ» رَجُلًا شَدِيدَ الْمِرَّةِ^(١)، قَوِيَّ الْبُنْيَةِ، أَسْوَدَ
النَّفْسِ، مُسْتَطِيرَ^(٢) الشَّرِّ .

قَدْ أَتَقَنَ الْكَهَانَةَ^(٣) فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَحَذَقَ الشَّعْبَةَ^(٤) عَلَى النَّاسِ ...
وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ فَصِيحَ اللِّسَانِ، رَائِعَ الْبَيَانِ، ذَكِيَّ الْفُؤَادِ، قَادِرًا عَلَى
اللَّعِبِ بِعُقُولِ الْعَامَّةِ بِأَبَاطِيلِهِ، وَكَسْبِ وَلَائِ الْخَاصَّةِ بِبَهَائِهِ وَعَطَايَاهُ .
وَكَانَ لَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ إِلَّا مُقْنَعًا^(٥) بِقِنَاعِ أَسْوَدَ ؛ لِيُحِيطَ نَفْسُهُ بِهَالَةِ مِنَ
الْعُمُوضِ وَالْهَيْئَةِ .

* * *

(١) المِرَّةُ : الطاقة والقوة .

(٢) مُسْتَطِيرُ الشَّرِّ : سريع الشر كثير السوء . (٤) الشَّعْبَةُ والشعوذة : خفة اليد ، وأعمال كالسحر لا حقيقة لها .

(٣) الْكَهَانَةُ : ادعاء معرفة الغيب . (٥) مُقْنَعًا : متغشياً بثوب يضعه على وجهه .

وَقَدْ انْتَشَرَتْ دَعْوَةُ « الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ » فِي « الْيَمَنِ » انْتِشَارَ النَّارِ فِي
الْهَشِيمِ^(١) وَقَدْ سَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ اتِّبَاعُ قَبِيلَتِهِ مِنْ بَنِي « مَذْحِجٍ » لَهُ .
وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَكْثَرِ قَبَائِلِ « الْيَمَنِ » عَدَدًا ، وَأَوْسَعَهَا نُفُوذًا ، وَأَشَدَّهَا
بُأسًا^(٢) .

كَمَا سَاعَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَى اخْتِرَاعِ الْكَذِبِ وَتَلْفِيقِهِ ، وَاسْتِعَانَتُهُ
بِالْأَذْكِيَاءِ مِنْ أَتْبَاعِهِ عَلَى ذَلِكَ .
فَقَدْ زَعَمَ لِلنَّاسِ أَنَّ مَلَكًا مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ ، وَيُخْبِرُهُ
بِالْمُعْجِبَاتِ .

وَسَلَكَ لِإِقْنَاعِ النَّاسِ بِصِحَّةِ زَعْمِهِ هَذَا ؛ مَسَالِكَ شَتَّى .
فَكَانَ يَبْثُ عُيُونَهُ^(٣) فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ لِيَقْفُوا لَهُ عَلَى شُئُونِ النَّاسِ
وَشُجُونِهِمْ^(٤) ... وَيَكْشِفُوا عَنْ أَسْرَارِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ .
وَيَنْقُذُوا إِلَى مَا يَغْتَلِجُ^(٥) فِي خَبَايَا نَفُوسِهِمْ^(٦) مِنَ الْآمَالِ وَالْآلَامِ .
وَكَانُوا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُعْرَوْنَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ بِاللُّجُوءِ إِلَيْهِ ، وَطَلَبِ الْعَوْنِ
مِنْهُ .

فَكَانُوا إِذَا جَاءُوهُ ، وَاجَهَهُ كُلُّ ذِي حَاجَةٍ بِحَاجَتِهِ ، وَبَدَأَ كُلُّ صَاحِبِ
مُشْكِلَةٍ بِمُشْكِلَتِهِ .
وَأَرَاهُمْ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا خَفِيَ مِنْ أَسْرَارِهِمْ ، وَاقِفٌ عَلَى مَا اسْتَتَرَ مِنْ
خَبَايَا نَفُوسِهِمْ .

(٤) شُجُونُهُمْ : أحوالهم ومشكلاتهم .

(٥) يَغْتَلِجُ : يتلطم .

(٦) خَبَايَا نَفُوسِهِمْ : خفايا نفوسهم .

(١) الْهَشِيمِ : النبات اليابس السريع الاشتعال .

(٢) أَشَدَّهَا بُأسًا : أعظمها قوة .

(٣) يَبْثُ عِيُونَهُ : ينشر رقباءه .

وَأَتَى أَمَامَهُمْ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَرَائِبِ مَا يُذْهِلُ عُقُولَهُمْ ، وَيُحَيِّرُ
الْبَائِبَهُمْ^(١).

فَمَا لَبِثَ أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ ...

وَاسْتَطَارَتْ^(٢) شُهْرَتُهُ ...

وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ ...

فَوَثَّبَ بِهِمْ عَلَى « صَنْعَاءَ » ، ثُمَّ وَثَّبَ مِنْ « صَنْعَاءَ » عَلَى الْمَنَاطِقِ
الْأُخْرَى ...

حَتَّى دَانَتْ^(٣) لَهُ الْبِلَادُ الْوَاقِعَةُ مَا بَيْنَ « حَضْرَمَوْتَ » وَ« الطَّائِفِ » .

وَمَا بَيْنَ « الْبَحْرَيْنِ » وَ« عَدَنَ » ...

* * *

وَلَمَّا اسْتَبَبَّ^(٤) الْأَمْرُ « لِلْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ » ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ .

نَشِطَ^(٥) فِي تَتَبُّعِ مُعَارِضِيهِ ، وَمَمَّنْ آتَاهُمُ اللَّهُ إِيمَانًا رَاسِخًا بِدِينِهِ
الْقَوِيمِ ...

وَيَقِينًا ثَابِتًا بِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ ...

وَوَلَاءَ^(٦) صَادِقًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ...

وَجَهْرًا بِالْحَقِّ ، وَتَصَدِّيًّا^(٧) لِلْبَاطِلِ ...

فَجَعَلَ يَنْطِشُ بِهِمْ فِي قَسْوَةِ قَاسِيَةٍ ، وَيُنْزِلُ بِهِمْ أَشَدَّ النَّكَالِ^(٨) .

(١) أَلْبَابُهُمْ : أَفْكَارُهُمْ .

(٢) اسْتَطَارَتْ : انْتَشَرَتْ .

(٣) دَانَتْ لَهُ : خَضَعَتْ لَهُ .

(٤) اسْتَبَبَّ : اسْتَقَرَّ وَاسْتَقَامَ .

(٥) نَشِطَ : خَفَّ وَأَسْرَعَ .

(٦) وَلَاءَ : انْقِيَادًا وَطَاعَةً .

(٧) تَصَدِّيًّا : مُقَاوَمَةً .

(٨) النَّكَالُ : الْبَطْشُ الشَّدِيدُ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَوْلَاءِ «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَوْبٍ» الْمُكَنَّى «بِأَبِي مُسْلِمٍ
الْحَوْلَانِيِّ» .

* * *

كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الْحَوْلَانِيُّ رَجُلًا صُلْبًا فِي دِينِهِ ...
قَوِيًّا فِي إِيْمَانِهِ ...

عَنِيدًا فِي الْجَهْرِ بِالْحَقِّ ...

قَدْ أَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ...

وَزَهَدَ فِي زُخْرَفِ الْعَيْشِ وَمَتَاعِهِ ...

وَنَذَرَ حَيَاتَهُ لِبَطَاةِ اللَّهِ ، وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ ...

وَبَاعَ الْفَانِيَةَ بِالْبَاقِيَةِ^(١) يَبْعَ السَّمَا ح ...

فَأَحْلَهُ النَّاسُ مِنْ نُفُوسِهِمْ مَنَزَلَةً رَفِيعَةً ، وَرَأَوْا فِيهِ رَجُلًا طَاهِرَ النَّفْسِ
وَالنَّفْسِ^(٢) ، مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ اللَّهِ .

* * *

وَقَدْ أَرَادَ «الْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ» أَنْ يَنْطِشَ بِأَبِي مُسْلِمٍ بِطُشَّةٍ جَبَّارَةٍ ...

تَبُّثُ الْهَلَعِ^(٣) وَالْجَزَعِ فِي نُفُوسِ مُعَارِضِي دَعْوَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ،
وَتَقْمَعُهُمْ^(٤) قَمْعًا .

فَأَمَرَ بِالْحَطَبِ بِأَنْ يُكَدَّسَ فِي سَاحَةِ مِنْ سَاحَاتِ «صَنْعَاءَ» ، وَأَنْ
تُضْرَمَ^(٥) فِيهِ النَّارُ ...

(١) باع الفانية بالباقية : باع الدنيا الفانية بالآخرة الباقية .

(٢) طاهر النفس والنفس : نقي الروح ، وثيق الصلة بالله .

(٣) تَبُّثُ الْهَلَعِ : تنشر الرعب . (٤) تَقْمَعُهُمْ : تقهرهم وتردهم . (٥) تضرم : توقد وتشعل .

وَدَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا اسْتِثَابَةً^(١) فَقِيهِ «الْيَمَنِ» وَعَابِدَهَا أَبِي مُسْلِمٍ
الْخَوْلَانِيَّ ، وَلِإِقْرَارِهِ بِبُتُوتِهِ .

وَفِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ أَقْبَلَ «الْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ» عَلَى السَّاحَةِ الَّتِي
اِكْتَضَتْ^(٢) بِالنَّاسِ اِكْتِظَاطًا .

وَكَانَ يَحْفُ بِه طَوَاغِيَّتُهُ^(٣) ، وَكِبَارُ أَتْبَاعِهِ .

وَيَحُوطُهُ حَرَسُهُ وَقَادَةُ جُنْدِهِ .

فَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي نُصِبَ لَهُ قُبَالَةَ^(٤) النَّارِ .

وَقِيدَ إِلَيْهِ «أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ» عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ وَمَسْمَعٍ ...

فَلَمَّا صَارَ يَنْ يَدِيهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الطَّاعِغَةُ^(٥) الْكَذَّابُ فِي خِيَلَاءٍ^(٦) ...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى النَّارِ الَّتِي تَتَأَجَّجُ أَمَامَهُ فِي ضَرَاوَةٍ^(٧) ...

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْهِ وَقَالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟

قَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ...

وَأَنَّهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ أَيْضًا .

فَقَطَّبَ^(٨) «الْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ» وَجْهَهُ ، وَزَمَّ^(٩) حَاجِبِيهِ وَقَالَ :

وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟

فَقَالَ : إِنَّ فِي أُذُنِي صَمَمًا ، فَلَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ...

(١) الاستثابة : الدعوة إلى التوبة .

(٢) اِكْتَضَتْ بِالنَّاسِ : امتلأت بهم حتى ضاقت .

(٣) يحفُّ به طواغيته : يحيط به شياطينه .

(٤) قُبَالَةَ النَّارِ : تجاه النار .

(٥) الطَّاعِغَةُ : الجبار المتكبر من الناس .

(٦) فِي خِيَلَاءٍ : فِي عَجَب وَتَكْبَر .

(٧) فِي ضَرَاوَةٍ : فِي قَسْوَةٍ وَشِدَّةٍ .

(٨) قَطَّبَ وَجْهَهُ : رَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ .

(٩) زَمَّ : شَدَّ .

فَقَالَ « الْأَسْوَدُ » : إِذَنْ أَقْدِفُكَ فِي هَذِهِ النَّارِ .

فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : إِنْ فَعَلْتَ اتَّقَيْتُ بِهِذِهِ النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا الْحَطَبُ ؛ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

فَقَالَ « الْأَسْوَدُ » : لَنْ أَعْجَلَ عَلَيْكَ ، وَسَأُتِيحُ لَكَ الْفُرْصَةَ لِتُرَاجِعَ عَقْلَكَ .
ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ فَقَالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟
فَقَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَهُ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَخَتَمَ بِرِسَالَتِهِ الرِّسَالَاتِ .

فَارْزَادَ « الْأَسْوَدُ » حَقَّقًا^(١) وَقَالَ : وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ .
فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : أَمَا أَخْبَرْتُكَ أَنَّ فِي أُذُنِي صَمَمًا ، فَلَا أَسْمَعُ مَقَالَاتِكَ هَذِهِ !؟ .

فَاسْتَشَاطَ^(٢) « الْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ » غَيْظًا مِنْ صَرَامَةِ إِجَابَتِهِ ، وَهُدُوِيَ نَفْسِهِ ، وَسَكِينَةُ جَوَارِحِهِ ...

وَهَمَّ بِأَنْ يَأْمُرَ بِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ .
عِنْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ مِنْهُ كَبِيرُ طَوَاغِيَتِهِ^(٣) وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا :
إِنَّ الرَّجُلَ - كَمَا عَرَفْتَ - طَاهِرُ النَّفْسِ ، مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ ...
وَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَخْذُلَ^(٤) مُؤْمِنًا لَمْ يَخْذُلْهُ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الشَّدَةِ ...

(١) الحق : شدة الاغتيال .

(٢) استشاط غيظاً : التهب غيظاً .

(٣) طواغيته : رؤوس الضلال عنده .

(٤) لن يخذل مؤمناً : لن يترك نصرة مؤمن .

وَأَنَّكَ إِنِ الْفَيْتَهُ فِي النَّارِ وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهَا ؛ هَدَمْتَ كُلَّ مَا بَنَيْتَهُ فِي لَحْظَةٍ
وَاحِدَةٍ .

وَدَفَعْتَ النَّاسَ إِلَى الْكُفْرِ بِبُيُوتِكَ دَفْعاً ...

وَإِنْ أَحْرَقْتَهُ النَّارُ أَزْدَادَ النَّاسِ بِهِ إِعْجَاباً ، وَلَهُ إِكْبَاراً ...

وَرَفَعُوهُ إِلَى مَصَافِّ الشُّهَدَاءِ ...

فَمَنْ عَلَيْهِ (١) بِإِطْلَاقِ سَرَّاجِهِ ، وَأَنْفِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَأَرْخَ مِنْهُ ، وَاشْتَرَحَ .

فَأَخَذَ « الْأَسْوَدُ » بِمَشُورَةِ طَاغُوتِهِ ، وَأَمَرَهُ بِمُعَادَرَةِ الْبِلَادِ لِسَاعَتِهِ (٢) .

* * *

يَمَّمُ (٣) أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ وَجْهَهُ شَطْرَ (٤) الْمَدِينَةِ .

وَكَانَ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَهُوَ قَدْ آمَنَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ عَيْنَاهُ (٥) بِرُؤْيَيْهِ ، وَتَفْرَحَ نَفْسُهُ بِصُحْبَتِهِ .

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَبْلُغُ حَوَاشِي (٦) « يَنْتَرِبَ » حَتَّى بَلَغَهُ نَعْيُ (٧) النَّبِيِّ صَلَوَاتُ
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقِيَامُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عَلَى خِلَافَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ .

فَحَزِنَ عَلَى وَفَاةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ حُزْناً خَالِطَ سُوءِدَاءِ قَلْبِهِ (٨) .

* * *

(١) فَمَنْ عَلَيْهِ : فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ .

(٢) تَشِيرُ جُلُ الْمَصَادِرِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا إِلَى أَنَّهُ قَذَفَهُ فِي النَّارِ فَكَانَتْ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَيْهِ كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ .

(٣) يَمُّ وَجْهَهُ : تَوَجَّهَ .

(٤) شَطْرُ : جِهَةٌ .

(٥) تَكْتَحِلُ عَيْنَاهُ بِرُؤْيَيْهِ : يَنْعَمُ بِلِقَائِهِ وَالنَّظَرَ إِلَيْهِ .

(٦) حَوَاشِي يَنْتَرِبُ : أَطْرَافُ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

(٧) نَعْيُ النَّبِيِّ ﷺ : خَبَرُ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ .

(٨) سُوءِدَاءُ قَلْبِهِ : أَعْمَاقُ فُؤَادِهِ وَجِئَةُ قَلْبِهِ .

بَلَغَ أَبُو مُسْلِمٍ « الْمَدِينَةَ » ، وَقَصَدَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
 فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَى الْمَسْجِدِ عَقَلَ^(١) نَاقَتَهُ قَرِيباً مِنْ بَابِهِ ، وَدَخَلَ إِلَى الْحَرَمِ
 النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَسَلَّمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
 ثُمَّ وَقَفَ إِلَى سَارِيَةٍ^(٢) مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ وَجَعَلَ يُصَلِّي ...
 فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ ، تَوَجَّهَ نَحْوَهُ « عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » حَتَّى صَارَ أَمَامَهُ
 وَقَالَ لَهُ :

مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ « الْيَمَنِ » .

فَقَالَ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِصَاحِبِنَا الَّذِي سَجَرَ^(٣) لَهُ عَدُوُّ اللَّهِ النَّارَ ؛ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ
 مِنْهَا ؟ .

فَقَالَ : هُوَ بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٍ ...

فَقَالَ عُمَرُ : نَشَدْتُكَ^(٤) اللَّهُ أَلَسْتَ هُوَ ؟ ! .

فَقَالَ : بَلَى .

فَقَبَّلَ عُمَرُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ :

أَتَدْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ بِعَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّكَ ؟ .

فَقَالَ : كَلَّا ، فَقَدْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنِّي مُنْذُ غَادَرْتُ « الْيَمَنَ » .

فَقَالَ : قَتَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِي الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، وَأَدَالَ^(٥)

دَوْلَتَهُ ...

(١) عقل ناقته : ربط ناقته . (٣) سَجَرَ النَّارَ : أَوْقَدَ النَّارَ .
 (٢) السَّارِيَّةُ : الْأَسْطُوَانَةُ . (٤) نَشَدْتُكَ اللَّهُ : أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ .
 (٥) أَدَالَ دَوْلَتَهُ : أَرَاكَ مُلْكَهُ .

وَرَدَّ أَتْبَاعُهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ ...

فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُخْرِجْنِي مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى قَرَّتْ^(١) عَيْنِي
بِمَصْرِعِهِ ، وَعَوْدَةِ الْمُخْدُوعِينَ^(٢) مِنْ أَهْلِ « الْيَمَنِ » إِلَى أَكْثَافِ^(٣) الْإِسْلَامِ .
فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي أَرَانِي فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ مَنْ فَعَلَ بِهِ كَمَا
فَعَلَ بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ أَيُّنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
ثُمَّ أَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ، وَمَضَى بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ سَلَّمَ عَلَيْهِ
بِالْخِلَافَةِ وَبَايَعَهُ .

فَأَجْلَسَهُ الصَّدِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُمَرَ ...
وَطَفِقَ الشَّيْخَانِ^(٤) يَسْتَعِيدَانِ مَعَ أَبِي مُسْلِمٍ خَبْرَهُ مَعَ « الْأَسْوَدِ
الْعَنْسِيِّ » .

* * *

أَقَامَ أَبُو مُسْلِمٍ الْحَوْلَانِيُّ زَمَنًا فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ؛ لَزِمَ خِلَالَهُ مَسْجِدَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي رَوْضَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَأَخَذَ مَا وَسِعَهُ الْأَخْذُ
عَنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ، وَعُבَادَةَ
ابْنِ الصَّامِتِ ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، وَعَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ .
ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي مُسْلِمٍ أَنْ يُوْحَلَ إِلَى بِلَادِ « الشَّامِ » ، وَأَنْ يَتَّخِذَهَا لَهُ مُقَامًا .
وَكَانَتْ غَايَتُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا مِنَ الثُّغُورِ^(٥) الشَّامِيَّةِ ؛ لِيُشَارِكَ

(١) قرت عيني : شُرِزَتْ .

(٢) المخدوعين : الذين كُذِبَ عليهم وأوهموا بأن الباطل حق .

(٣) أكثاف الإسلام : جزر الإسلام .

(٤) الشَّيْخَانِ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ .

(٥) الثغور : المناطق الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد أعدائهم .

جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوِ «الرُّومِ» ، وَيَفُوزَ بِأَجْرِ الْمُرَابَّطَةِ^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
وَلَمَّا آتَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ «مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ» رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ، أَكْثَرَ أَبُو مُسْلِمٍ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ وَشُهُودِ مَجَالِسِهِ ... فَكَانَتْ لَهُ مَعَهُ مَوَاقِفُ
مَذْكُورَةٌ مَشْهُورَةٌ ؛ تَشْهَدُ لِلرَّجُلَيْنِ بِسُمُو الْمَنْزِلَةِ ...

وَتُبْنِي عَمَّا يَتَحَلَّيَانِ بِهِ مِنْ جَلِيلِ الشَّمَائِلِ^(٢) ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَرَأَاهُ يَتَصَدَّرُ^(٣)
مَجْلِسًا مِنْ مَجَالِسِهِ الْعَامِرَةِ .

وَقَدْ حَفَّ^(٤) بِهِ رِجَالُ دَوْلَتِهِ ، وَقَادَةُ جَيْشِهِ ، وَوُجُوهُ قَوْمِهِ ...

وَرَأَى النَّاسَ يُبَالِغُونَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِجْلَالِهِ ، فَخَشِيَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ
الْخَشْيَةِ ، وَبَادَرَهُ^(٥) قَائِلًا :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَقَالُوا : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ... يَا أَبَا مُسْلِمٍ ...

فَلَمْ يَأْبَهُ^(٧) لَهُمْ وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ النَّاسُ : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَبَا مُسْلِمٍ .

فَلَمْ يُعْرِهِمْ^(٨) سَمْعَهُ ، وَلَمْ يَزِمِ نَحْوَهُمْ بِطَرْفِهِ^(٩) وَقَالَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) المrabطة : الملازمة للغور الأعداء .

(٢) جليل الشمائيل : سامي الصفات .

(٣) يتصدر : يجلس في الصدر .

(٤) حَفَّ به : أحاط به .

(٥) بادره : عاجله .

(٦) الأجير : الذي يخدم بأجره .

(٧) لم يأبه : لم يهتم .

(٨) لم يعرهم سمعه : لم يستمع لكلامهم .

(٩) لم يرم نحوهم بطفه : لم يلتفت إليهم .

فَلَمَّا هَمَّ النَّاسُ بِمُرَاجَعَتِهِ ؛ التَّمَّتْ إِلَيْهِمْ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ :

دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ .

فَمَالَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَقَالَ لَهُ :

إِنَّمَا مَثَلُكَ - بَعْدَ أَنْ وَلَّاكَ اللَّهُ أَمْرَ النَّاسِ - كَمَثَلِ مَنْ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا وَأَوْكَلَ
إِلَيْهِ أَمْرَ غَنَمِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ الْأَجْرَ عَلَى أَنْ يُحْسِنَ رَعِيَّتَهَا ، وَيَحْفَظَ أَبْدَانَهَا ، وَيُوفِّرَ
أَصْوَأَهَا وَالْبَائِنَهَا ...

فَإِنْ هُوَ قَامَ بِمَا عَاهَدَ إِلَيْهِ حَتَّى تَكْبُرَ الصَّغِيرَةُ وَتَسْمَنَ الْعَجْفَاءُ^(١) وَتَصِحَّ
السَّقِيمَةُ ... أَعْطَاهُ أَجْرَهُ ، وَزَادَهُ .

وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحْسِنِ رَعِيَّتَهَا وَغَفَلَ عَنْهَا حَتَّى هَلَكَتْ عِجَافُهَا ، وَهَزَلَتْ
سِمَانُهَا ، وَضَاعَتْ أَصْوَأُهَا وَالْبَائِنُهَا ... مَنَعَ الْأَجْرَ عَنْهُ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُ .
فَاخْتَرْنَا لِنَفْسِكَ مَا فِيهِ خَيْرٌ وَأَجْرُكَ .

فَرَفَعَ مُعَاوِيَةُ رَأْسَهُ وَكَانَ مُطْرِقًا إِلَى الْأَرْضِ ، وَقَالَ :

جَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا وَعَنِ الرَّعِيَّةِ خَيْرًا يَا أَبَا مُسْلِمٍ ، فَمَا عَلِمْنَاكَ إِلَّا نَاصِحًا لِلَّهِ
وَلِرَسُولِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَشَهِدَ أَبُو مُسْلِمٍ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فِي جَامِعِ « دِمَشْقَ » ، وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
مُعَاوِيَةُ يَخْطُبُ النَّاسَ ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ كَرْيِ^(٢) نَهْرِ « بَرْدَى » حَتَّى
تَصْفُو لَهُمْ مَشَارِبُهُ^(٣) .

فَتَادَاهُ أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ بَيْنِ الْجُمُوعِ وَقَالَ :

(١) العجفاء : الهزيلة .

(٢) كَرَى النهر يكرهه كرىاً : حفر فيه حفرة جديدة . (٣) تَصْفُو مَشَارِبُهُ : تنقلى مياهه .

تَذَكَّرُوا يَا مُعَاوِيَةُ أَنَّكَ هَامَةٌ الْيَوْمِ ^(١) أَوْ غَدٍ ، وَأَنْ دَارَكَ قَبْرٌ مِنَ الْقُبُورِ ...
فَإِنْ جِئْتَهَا بِشَيْءٍ كَانَ لَكَ فِيهَا شَيْءٌ ... وَإِنْ جِئْتَهَا صِفْرَ الْيَدَيْنِ ^(٢)
وَجَدْتَهَا قَاعاً صَفْصَفاً ^(٣) .

وَإِنِّي أُعِيدُكَ بِاللَّهِ يَا مُعَاوِيَةُ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ الْخِلَافَةَ كَرِيٌّ الْأَنْهَارِ ...
وَجَمْعُ الْأَمْوَالِ ...

وَإِنَّمَا الْخِلَافَةُ عَمَلٌ بِالْحَقِّ ...
وَقَوْلٌ بِالْمَعْدَلَةِ ^(٤) ...

وَأَخَذَ لِلنَّاسِ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ...
يَا مُعَاوِيَةُ ، إِنَّا لَا نُبَالِي بِكَدَرِ الْأَنْهَارِ إِذَا صَفَتْ رَأْسُ عَيْنِنَا ، وَإِنَّكَ رَأْسُ
عَيْنِنَا ...

فَاجْتَهِدْ فِي أَنْ تَظَلَّ صَافِياً ...
يَا مُعَاوِيَةُ ، إِنَّكَ إِنْ تَحِفَّ ^(٥) عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ ؛ يَذْهَبَ حَيْفُكَ عَلَيْهِ
بِعَدْلِكَ .

فَأَيُّكَ وَالظُّلَمَ ...
فَإِنَّ الظُّلَمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فَلَمَّا انْتَهَى أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ كَلَامِهِ ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ عَنِ الْمِنْبَرِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ

(١) هامة اليوم أو غد : تموت اليوم أو غداً .

(٢) صفر اليدين : خالي اليدين من المال وغيره .

(٣) قاعاً صَفْصَفاً : خالية من كل شيء ، والصَّفْصَف : المستوي من الأرض .

(٤) الْمَعْدَلَةُ : الإنصاف والصدق .

(٥) حاف على فلان : ظلمه وجار عليه .

وَقَالَ : يَرْحُمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُسْلِمٍ ، وَيَجْزِيكَ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ .

* * *

وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى صَعِدَ مُعَاوِيَةُ الْمِنْبَرِ وَشَرَعَ فِي خُطْبَتِهِ ؛ وَكَانَ قَدْ حَبَسَ
عَنِ النَّاسِ عَطَايَاهُمْ^(١) شَهْرَيْنِ .

فَنَادَاهُ أَبُو مُسْلِمٍ وَقَالَ :

يَا مُعَاوِيَةُ ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِكَ وَلَا مَالِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ ...

فَبَيَّ حَقَّ تَحْبِيشِهِ عَنِ النَّاسِ !؟ .

فَبَدَأَ الْغَضَبُ عَلَى وَجْهِ مُعَاوِيَةَ ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَرَقَّبُونَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ
مِنْهُ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَشَارَ إِلَى النَّاسِ أَنْ امْكُثُوا فِي أَمَاكِنِكُمْ
وَلَا تَبْرَحُوهَا^(٢) .

ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ وَتَوَضَّأَ ، وَأَرَاكَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ .

ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرِ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَقَالَ :

إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِي وَلَا مَالِ أَبِي وَأُمِّي ...

وَقَدْ صَدَقَ أَبُو مُسْلِمٍ فِيمَا قَالَ ...

وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

(الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ ...

وَالشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ ...

(١) حبس عطاياهم : منع عنهم حقوقهم .

(٢) لا تفرحوها : لا تغادروها .

وَالْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ ؛ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ ...
 أَيُّهَا النَّاسُ : اغْدُوا عَلَى أُعْطِيَاتِكُمْ ^(١) عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

جَزَى اللَّهُ أَبَا مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ خَيْرَ الْجَزَاءِ ؛ فَقَدْ كَانَ مَثَلًا فَذًا فِي
 الصَّدْعِ ^(٢) بِكَلِمَةِ الْحَقِّ .

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجَزَلَ الرِّضَى ؛ فَقَدْ كَانَ نُمُودَجًا
 رَائِعًا فِي الانْصِياعِ ^(٣) لِكَلِمَةِ الْحَقِّ .

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ :

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ ^(٤)

مِنَ اللَّؤْمِ ، أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا ^(٥) (*) .

(١) اغدوا على أعطياتكم : انطلقوا لأخذ حقوقكم .

(٢) الصَّدْعُ بكلمة الحق : الجهر بكلمة الحق .

(٣) الانصياع : الرجوع .

(٤) لا أبا لأبيكم : كلمة تستعمل للذم والمدح ، وهنا استعملت للذم .

(٥) سدُّوا المكان الذي سدُّوا : قوموا مقامهم وافعلوا فعلهم .

(*) للاستزادة من أخبار أبي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ انظر :

١ - طبقات ابن سعد : ٤٤٨/٧ .

٢ - تاريخ البخاري : ٥٨/٥ .

٣ - المعرفة والتاريخ : ٣٠٨/٢ ، ٣٨٢ .

٤ - الاستيعاب : ت/١٤٧٩ .

٥ - تاريخ ابن عساكر : ١٢/٩ .

٦ - أشد الغابة : ١٢٩/٣ .

٧ - اللباب : ٣٩٥/١ .

٨ - تذكرة الحفاظ : ٤٩/١ .

٩ - البداية والنهاية : ١٤٦/٨ .

١٠ - الإصابة : ت/٦٣٠٢ .

١١ - شذرات الذهب : ٧٠/١ .

سَيِّدُ الْمُنِيبِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ حَفِيفُ الْفَارُوقِ

« كَانَ سَالِمٌ ثَقَّةً ، كَثِيرَ الْحَدِيثِ ، عَلِيًّا فِي الرِّجَالِ ، وَرِعًا »

[ابنُ سَعْدٍ]

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

وَهَا هِيَ ذِي مَدِينَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَعِجُ (١) بِغَنَائِمِ الْحَرْبِ الَّتِي أَخْرَزَهَا
الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَسْلَابٍ « يَزْدَجُودُ » آخِرِ مُلُوكِ « الْفُرْسِ » ...
فَلَقَدْ كَانَ فِيهَا مِنْ تَيْجَانٍ « الْأَكَاسِرَةِ » الْمُرْصَعَةِ بِالْجَوْهَرِ ...
وَمَنَاطِقِهِمُ الْمَرْصُوفَةُ بِاللُّؤْلُؤِ ...

وَسُيُوفِهِمُ الْمُحَلَّلَةُ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ ؛ مَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ ...
وَقَدْ كَانَ مَعَ هَذِهِ الْكُنُوزِ الطَّائِلَةُ الْهَائِلَةُ حَشْدٌ كَبِيرٌ مِنْ سَبَايَا (٢)
« الْفُرْسِ » ...

وَكَانَ بَيْنَهُنَّ بَنَاتُ « يَزْدَجُودَ » الثَّلَاثُ ...
فَشَرَاهُنَّ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثَمَنِ جَزْلِ (٣) ، وَعَرَضَ عَلَيْهِنَّ طَائِفَةً مِنْ
الْمَعِ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ .

فَاخْتَارَتْ إِحْدَاهُنَّ « الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ » سَبْطَ (٤) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَأُنْجِبَتْ لَهُ « زَيْنُ الْعَابِدِينَ » (٥) ...

(١) تعج : تقوم وتقع .

(٢) السبايا : النساء الأسيرات .

(٣) جزل : وأفر كثير .

(٤) سبط الرجل : ابن بنته ، وحفيده : ابن ابنه .

(٥) زين العابدين : انظره ص .

وَاخْتَارَتِ الثَّانِيَةَ «مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...
وَأُنْجِبَتْ لَهُ «الْقَاسِمُ»^(١) أَحَدُ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ .

وَاخْتَارَتِ الثَّالِثَةَ «عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ» خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ ...
وَأُنْجِبَتْ لَهُ سَالِمًا حَفِيدَ الْفَارُوقِ ، وَأَشْبَهَ النَّاسَ سَمْتًا^(٢) بِهِ ...

فَتَعَالَوْا نَقِفْ عَلَى صُورِ وَضَاءَةٍ مِنْ حَيَاةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْ أَبِيهِ وَعَنْ جَدِّهِ .

* * *

وُلِدَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي رِحَابِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَثْوًى^(٣) رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَدَارِ هِجْرَتِهِ .

وَفِي أَجْوَاهِهَا الْعَبَقَةُ بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ ، الْمُتَأَلِّقَةُ بِسَنَا الْوَحْيِ ، دَرَجَ^(٤)
وَشَبَّ ...

وَفِي كَنَفِ أَبِيهِ الْعَبَادِ الزَّهَّادِ صَوَامِ الْهَوَاجِرِ قَوَامِ الْأَسْحَارِ تَرَبَّى ...
وَبِأَخْلَاقِهِ الْعُمَرِيَّةِ تَحَلَّقَ ...

وَلَقَدْ رَأَى فِيهِ أَبُوهُ مِنْ مَخَايِلِ^(٥) الثَّقَفِ ، وَعَلَائِمِ الْهُدَى ... وَأَبْصَرَ فِي
سُلُوكِهِ مِنْ سَمَائِلِ الْإِسْلَامِ ، وَأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ فَوْقَ مَا كَانَ يَرَاهُ فِي إِخْوَتِهِ ...
فَأَحَبَّهُ حُبًّا مَلَكَ عَلَيْهِ شِعَافُ^(٦) قَلْبِهِ ، وَخَالَطَ مِنْهُ حَبَّاتِ^(٧) فُؤَادِهِ ، حَتَّى
لَامَهُ اللَّائِمُونَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ :

(١) القاسم بن محمد بن أبي بكر : انظره ص ٣٠٠ .

(٢) سَمْتًا : هَيْفَةٌ .

(٣) مَثْوًى الرَّسُولِ ﷺ : مَقَامُهُ وَمَدْفَنُهُ .

(٤) دَرَجَ : نَشَأَ وَتَرَعَرَ .

(٥) مَخَايِلِ الثَّقَفِ : مَظَاهِرُ الصَّلَاحِ .

(٦) شِعَافُ قَلْبِهِ : غِلَافُ قَلْبِهِ .

(٧) حَبَّاتِ فُؤَادِهِ : أَعْمَاقُ لُبِّهِ .

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَاللُّومَةُ لَهُمْ
وَجِلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ
وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَبْتُهُ مَا وَعَاهُ صَدْرُهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَيُفَقِّهُهُ فِي دِينِ اللَّهِ ...
وَيُمَلِّئُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...
ثُمَّ دَفَعَ بِهِ إِلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ .

* * *

وَكَانَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا زَالَ مَعْمُورًا بِطَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جِلَّةِ
الصَّحَابَةِ .

فَحَيْثُمَا أَلَمَّ الْفَتَى بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ ؛ أَلْفَى أَمَامَهُ نَجْمًا فِيهِ أَلْقَى^(١) مِنْ
سَنَا^(٢) النُّبُوَّةِ ، وَعَبَّقَ مِنْ طُيُوبِ الرِّسَالَةِ الْغَرَاءِ .

وَأَيْتَمَّا رَمَى بِطَرْفِهِ أَوْ أَلْفَى بِسَمْعِهِ ؛ أَبْصَرَ خَيْرًا وَسَمِعَ بَرًّا .
وَبِذَلِكَ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ عَلَى رَأْسِهِمْ
أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ^(٣) ...

وَأَبُو رَافِعٍ ، وَأَبُو لُبَابَةَ ، وَزَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ .
وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى وَالِدِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .
فَمَا لَبِثَ أَنْ غَدَا عُلَمَاءَ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ...

(١) ألقى : نور وضياء .

(٢) من سنا النبوة : من نور النبوة .

(٣) أبو أيوب ، وأبو هريرة : انظرهما في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

وَسَيِّدًا جَلِيلًا مِنْ سَادَةِ التَّابِعِينَ ...
وَأَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ يَفْزَعُ^(١) إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ ...
وَيَأْخُذُونَ عَنْهُمْ شَرِيعَةً رَبِّهِمْ ...
وَيَزْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي مُعْضَلَاتِ^(٢) الدِّينِ وَالْدُّنْيَا .
وَكَانَ الْوَلَاةُ يَأْمُرُونَ قُضَاتِهِمْ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الْقَضَايَا أَنْ يَدْفَعُوا بِهَا
إِلَيْهِمْ .
فَإِذَا جَاءَهُمُ الْمَسْأَلَةُ اجْتَمَعُوا جَمِيعًا وَنَظَرُوا فِيهَا ، ثُمَّ لَا يَقْضِي الْقَضَاءُ
إِلَّا بِرَأْيِهِمْ .

* * *

وَكَانَ أَسْعَدَ الْوَلَاةِ حَظًّا ، وَأَطْيَبَهُمْ أُحْدُوثَةً ، وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ ،
وَأَوْثَقَهُمْ عِنْدَ الْخُلَفَاءِ ؛ مَنْ يَأْخُذُ بِمَشُورَةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَيَلْتَزِمُ بِتَوْجِيهِهِ .
أَمَّا الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَمْرَهُ ، فَقَدْ كَانَتِ الْمَدِينَةُ تَنْبُو^(٣) بِهِمْ ، وَلَا تَحْمَلُ
وَلَا يَتَتَّبِعُهُمْ .
مِنْ ذَلِكَ أَنَّ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الصُّحَّاكِ » وَلِيَّ الْمَدِينَةِ فِي خِلَافَةِ يَزِيدَ بْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ .

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَضَرَ فِي الْجَنَّةِ رُوحَهُ ؛ قَدْ
تَرَمَّلَتْ ، وَانْقَطَعَتْ إِلَى أَوْلَادِهَا .
فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا ابْنُ الصُّحَّاكِ وَخَطَبَهَا لِنَفْسِهِ .

(١) يَفْزَعُ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ : يُلْجَأُ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ .

(٢) الْمُعْضَلَاتُ : الْمَشْكَلَاتُ .

(٣) تَنْبُو بِهِمْ : تَضْيِقُ بِهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِيهَا قَرَارًا .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَبْغَيْي الزَّوَّاجَ ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ عَلَى بَيْتِي ، وَوَقَفْتُ نَفْسِي عَلَيْهِمْ .

فَجَعَلَ يُلِحُّ عَلَيْهَا وَهِيَ تَحْتَالُ فِي الْإِعْتِدَارِ إِلَيْهِ ؛ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَنَةٍ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِ .

فَلَمَّا وَجَدَهَا تَائِبَةً ، قَالَ لَهَا :

وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَرْضَيْتَنِي لَكَ زَوْجًا لَا أُحَدِّثُ أَكْبَرَ بَيْتِكَ ، وَلَا أُجْلِدُنَّهُ بِتُهْمَةٍ شَرِبِ الْخَمْرِ .

فَاسْتَشَارَتْ سَالِمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي أَمْرِهَا ؛ فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِأَنْ تَكْتُبَ لِلْخَلِيفَةِ كِتَابًا تَشْكُو فِيهِ الْوَالِيَّ ، وَتَذْكُرُ قَرَابَتَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَرَحِمَهَا^(١) فِي آلِ الْبَيْتِ .

فَكَتَبَتْ الْكِتَابَ ، وَأَنْفَذَتْهُ^(٢) مَعَ رَسُولٍ لَهَا إِلَى « دِمَشْق » .

* * *

مَا كَادَ الرَّسُولُ يَمْضِي بِالْكِتَابِ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ إِلَى « ابْنِ هُرْمُز » عَامِلِهِ عَلَى دِيَوَانِ الْمَالِ فِي الْمَدِينَةِ بِأَنْ يَقْدِمَ عَلَيْهِ لِيَرْفَعَ إِلَيْهِ حِسَابَهُ .

فَقَامَ « ابْنُ هُرْمُز » يُودِّعُ أَصْحَابَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ ؛ فَاسْتَأْذَنَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ مُودِّعًا وَقَالَ :

إِنِّي مَاضٍ إِلَى « دِمَشْق » فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ .

فَقَالَتْ : نَعَمْ ...

تُخْبِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَلْقَى مِنْ ابْنِ الضَّحَّاكِ وَمَا يَتَعَرَّضُ بِهِ إِلَيَّ ...

(١) رَحِمَهَا : صَلَّاهَا .

(٢) أَنْفَذَتْهُ : أَوْصَلَتْهُ .

وَأَنَّهُ لَا يَزُوعِلَى حُرْمَةً لِّلْعَمَاءِ الْمَدِينَةِ ، وَخَاصَّةً سَالِمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .
فَلَا مَ « ابْنُ هُرْمُز » نَفْسُهُ عَلَى زِيَارَتِهَا ؛ إِذْ مَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ شَكْوَاهَا
مِنْ ابْنِ الضَّحَّاكِ إِلَى الْخَلِيفَةِ .

* * *

وَصَلَ « ابْنُ هُرْمُز » إِلَى « دِمَشَق » فِي نَفْسِ الْيَوْمِ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ الرَّسُولُ
الَّذِي يَحْمِلُ كِتَابَ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ .
فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ ، اسْتَخْبَرَهُ عَنْ أَحْوَالِ الْمَدِينَةِ ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَالِمِ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَصَحْبِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، وَقَالَ لَهُ :
هَلْ هُنَاكَ أَمْرٌ ذُو شَأْنٍ ^(١) جَدِيدٍ بِأَنْ يُعْلَمَ ، أَوْ خَبَرٌ ذُو خَطَرٍ ^(٢) حَرِيٍّ بِأَنْ
يُذَكَّرَ ؟ .

فَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ شَيْئًا مِنْ قِصَّةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ .
وَلَمْ يُشِرْ بِشَيْءٍ إِلَى مَوْقِفِ الْوَالِيِّ مِنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .
وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ يَزْفَعُ لَهُ حِسَابَهُ ، إِذْ دَخَلَ الْحَاجِبُ وَقَالَ :
أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...
إِنْ بِالْبَابِ رَسُولَ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ .
فَتَغَيَّرَ وَجْهُ « ابْنِ هُرْمُز » وَقَالَ : أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَمِيرِ إِنْ فَاطِمَةَ بِنْتُ
الْحُسَيْنِ حَمَلَتْنِي رِسَالَةً إِلَيْكَ ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ...
فَمَا أَنْ سَمِعَ الْخَلِيفَةُ مَقَالَتَهُ حَتَّى نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ وَقَالَ :
لَا أُمُّ لَكَ ...

(١) ذُو شَأْنٍ : ذُو أَهْمِيَّةِ .

(٢) ذُو خَطَرٍ : ذُو شَأْنٍ وَقِيَمَةٍ .

أَلَمْ أَسْأَلْكَ عَنْ سُئُونِ الْمَدِينَةِ وَأَخْبَارِهَا ؟! ...
أَيُّكُونُ لَدَيْكَ مِثْلُ هَذَا الْخَبَرِ وَتَكْتُمُهُ عَنِّي ؟!! .
فَاعْتَدِرْ إِلَيْهِ بِالنِّسْيَانِ .

ثُمَّ أُذِنَ لِلرَّسُولِ فَأُدْخِلَ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهُ وَفَضَّهْهُ ، وَجَعَلَ يَقْرَأُوهُ
وَالشَّرُّ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَأَخَذَ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِخَيْرَزَانٍ كَانَ فِي يَدِهِ وَهُوَ
يَقُولُ :

لَقَدْ اجْتَرَأَ ابْنُ الضَّحَّاكِ عَلَى آلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَلَمْ يُصِخْ^(١) لِنُصْحِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِيهِمْ !!! ...
هَلْ مِنْ رَجُلٍ يُسْمِعُنِي صَوْتَهُ وَهُوَ يُعَذِّبُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَنَا عَلَى فِرَاشِي
هَذَا فِي « دِمَشَق » ؟ [يَعْنِي صَوْتَ ابْنِ الضَّحَّاكِ] .
فَقِيلَ لَهُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...
لَيْسَ لِلْمَدِينَةِ إِلَّا « عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ بَشِيرِ النَّضْرِيِّ » ...
فَوَلَّهَ إِيَّاهَا ... وَهُوَ مُقِيمٌ الْآنَ فِي « الطَّائِفِ » .
فَقَالَ : نَعَمْ ... وَاللَّهِ نَعَمْ ... إِنَّهُ لَهَا ...
ثُمَّ دَعَا بِقِرْطَاسٍ وَكَتَبَ بِيَدِهِ :

مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ بَشِيرِ النَّضْرِيِّ .
السَّلَامُ عَلَيْكَ ...

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَتَوَجَّهْ إِلَيْهَا ،
وَاعْزِلْ عَنْهَا ابْنَ الضَّحَّاكِ ...

(١) لم يُصِخْ : لم يستمع ولم يستجب .

وَأَفْرِضْ عَلَيْهِ غَرَامَةً مِّقْدَارُهَا أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ...
وَعَذْبُهُ حَتَّى أَسْمَعَ صَوْتَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ .

* * *

أَخَذَ صَاحِبُ الْبَرِيدِ الْكِتَابَ ، وَمَضَى يَحُثُّ ^(١) الْخُطَا نَحْوَ الطَّائِفِ عَنْ
طَرِيقِ الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَدِينَةَ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى وَالِيهَا ابْنِ الضَّحَّاكِ وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ ؛
فَأَوْجَسَ ^(٢) الْوَالِي خِيفَةً فِي نَفْسِهِ .

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَدَّعَاهُ إِلَى بَيْتِهِ ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ قُدُومِهِ فَلَمْ يَبْخُشْ لَهُ بِشَيْءٍ ؛
فَرَفَعَ ابْنُ الضَّحَّاكِ طَرَفَ فِرَاشِهِ وَقَالَ :
انْظُرْ ... فَتَنْظُرَ فَإِذَا كَيْسٌ قَدْ مُلِئَ دَنَانِيرَ .

فَقَالَ : هَذِهِ أَلْفُ دِينَارٍ ...

وَلَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ إِنْ أَنْتَ أَخْبَرْتَنِي عَنْ وَجْهِتِكَ ^(٣) وَمَا فِي يَدِكَ
لَأَدْفَعَنَّهَا إِلَيْكَ ، وَلَا كُتْمَنَّ ذَلِكَ ...

فَأَخْبَرَهُ ... فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمَالَ ، وَقَالَ لَهُ :

تَرَيْتَ هُنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّى أَصِلَ إِلَى « دِمَشْقَ » ، ثُمَّ امْضِ إِلَى مَا أُمِرْتُ

بِهِ ...

* * *

زَمَّ ^(٤) ابْنُ الضَّحَّاكِ رَكَائِبَهُ ، وَغَادَرَ الْمَدِينَةَ لِتَوَّهِ ، وَمَضَى يَحُثُّ الْمَطَايَا
نَحْوَ « دِمَشْقَ » .

(٣) وجهتك : اتجاهك ومقصدك .

(٤) زَمَّ رَكَائِبَهُ : سَدَّ عَلَى رَاحِلَتِهِ .

(١) يحث الخطأ : يمضي مسرعاً .

(٢) أوجس خيفة : دب فيه الفزع .

فَلَمَّا بَلَغَهَا دَخَلَ عَلَى أَخِي الْخَلِيفَةِ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَكَانَ سَيِّدًا
أُرِيحِيًّا^(١) صَاحِبَ نَجْدَةٍ ...

فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ :

أَنَا فِي جِوَارِكَ أَثِقُهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : أَبَشِّرْ بِخَيْرٍ ... وَمَا شَأْنُكَ ؟ !

فَقَالَ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَاقِمٌ عَلَيَّ لِهَنْتِ^(٢) بَدَرْتُ مِنِّي .

فَعَدَا مَسْلَمَةُ عَلَى يَزِيدَ وَقَالَ : إِنَّ لِي لَدَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَاجَةً .

فَقَالَ يَزِيدُ : كُلُّ حَاجَةٍ لَكَ مَقْضِيَّةٌ مَا لَمْ تَكُنْ فِي ابْنِ الصَّحَّاحِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا جِئْتُكَ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أُغْفِيهِ أَبَدًا ...

فَقَالَ : وَمَا ذَنْبُهُ ؟ !

فَقَالَ : لَقَدْ تَعَرَّضَ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ وَهَدَّدَهَا وَتَوَعَّدَهَا وَأَرْهَقَهَا ...

وَلَمْ يُصَبِّحْ لِنُصْحِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي أَمْرِهَا ؛ فَهَبَّ شُعَرَاءُ الْمَدِينَةِ جَمِيعًا
يَهْجُونَهُ ... وَطَفِقَ ضُلْحَاؤُهَا وَعُلَمَاؤُهَا طُرًّا^(٣) يَعِيبُونَهُ ...

فَقَالَ مَسْلَمَةُ :

أَنْتَ وَشَأْنُكَ مَعَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ يَزِيدُ :

(١) أُرِيحِيًّا : سامي الخلق وافر المعروف .

(٢) لِهَنْتَ : لَزَلْتُ .

(٣) طُرًّا : جَمِيعًا .

مُرُهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُنْفِذَ وَابِئَهَا الْجَدِيدُ أَمْرِي فِيهِ ...
وَيَجْعَلَهُ عِبْرَةً^(١) لِبَغْيِهِ مِنَ الْوَلَاةِ ...

* * *

فَرِحَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَكْثَمَ الْفَرَحِ بِوَالِيهِمُ الْجَدِيدِ .
وَسَرَّهُمْ حَزْمُهُ فِي تَنْفِيزِ أَمْرِ الْخَلِيفَةِ بِابْنِ الضَّحَّاكِ .
وَأَزْدَادُوا تَعَلُّقًا بِهِ حِينَ وَجَدُوهُ يَذْهَبُ مَذَاهِبَ الْخَيْرِ ، وَلَا يَقْطَعُ أَمْرًا مِنْ
أُمُورِهِمْ إِلَّا إِذَا اسْتَشَارَ فِيهِ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ، وَسَلَامَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ .

فَمَرَحَى لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...
وَتَجَلَّاهُ لِلْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَبْدَعَ هَذِهِ الْمُثُلَ ، وَصَنَعَ أُولَئِكَ الرُّجَالَ ...
وَالِىَ لِقَاءِ آخَرٍ مَعَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .

(١) عِبْرَةٌ : عِظَةٌ .

سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْعَامِلُ الْعَامِلُ

« لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي زَمَانِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِمَنْ مَضَى مِنْ
الصَّالِحِينَ فِي الزُّهْدِ ، وَالْفَضْلِ ، وَالْعَيْشِ »

[الإمام مالك]

كَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ ، لَكِنَّ ابْنَهُ
عَبْدَ اللَّهِ كَانَ أَشَدَّهُمْ شَبَهَا بِهِ ...

وَكَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَدَدٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ لِأَبِيهِ ... لَكِنَّ ابْنَهُ
سَالِمًا كَانَ أَشَدَّهُمْ شَبَهَا بِهِ .

فَتَعَالَوْا نَتَابِعْ قِصَّةَ حَيَاةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، حَفِيدِ الْفَارُوقِ ، وَأَشْبَهِ النَّاسِ
بِهِ خُلُقًا ، وَخِلَقَةً ، وَدِينًا ، وَسَمَاتًا^(١) .

* * *

عَاشَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي رِحَابِ « طَيْبَةِ »^(٢) الْمُطَبَّيَّةِ ...

وَكَانَتْ « طَيْبَةُ » إِذْ ذَاكَ تَزْفُلُ فِي أَثْوَابِ مِنَ الْغِنَى وَالنِّعْمَةِ لَمْ تَشْهَدْ لَهَا
مَثِيلًا مِنْ قَبْلُ .

فَقَدْ كَانَ رِزْقُهَا يَأْتِيهَا رَغَدًا^(٣) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَكَانَ خُلَفَاءُ بَنِي « أُمَيَّة »
يُتِيحُونَ لَهَا مِنْ أَسْبَابِ الثَّرَاءِ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ .

لَكِنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يُقْبَلْ عَلَى الدُّنْيَا كَمَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا غَيْرُهُ ، وَلَمْ

(١) سماتاً : هيفة وسلوكاً .

(٢) طيبة : المدينة المنورة .

(٣) رغداً : كثيراً وفيراً .

يَحْفِلُ بِعَرَضِهَا الْفَانِي كَمَا حَفِلَ بِهِ سِوَاهُ ؛ وَإِنَّمَا زَهَدَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ رَغْبَةً
بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْعَاجِلَةِ رَجَاءَ الْفَوْزِ بِالْآجِلَةِ (١) .

وَلَقَدْ جَرَّبَ خُلَفَاءُ بَنِي « أُمَيَّة » أَنْ يُغْدِقُوا (٢) عَلَيْهِ الْخَيْرَ كَمَا أَغْدَقُوهُ عَلَى
غَيْرِهِ ؛ فَوَجَدُوهُ زَاهِداً بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ... مُسْتَصْغِراً لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ...

* * *

فَفِي ذَاتِ سَنَةِ قَدِمَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَكَّةَ حَاجًّا ... فَلَمَّا أَخَذَ
يَطُوفُ طَوَافَ الْقُدُومِ ؛ أَبْصَرَ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَجْلِسُ قُبَالَةَ الْكَعْبَةِ فِي
خُضُوعٍ ...

وَيُحَرِّكُ لِسَانَهُ بِالْقُرْآنِ فِي تَبَثُّلٍ (٣) وَخُشُوعٍ ...

وَعَبْرَاتُهُ تَسُحُ (٤) عَلَى خَدَّيْهِ سَحًّا ، حَتَّى لَكَأَنَّ وَرَاءَ عَيْنَيْهِ بَحْراً مِنْ
الدُّمُوعِ .

فَلَمَّا فَرَغَ الْخَلِيفَةُ مِنْ طَوَافِهِ ، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ سُنَّةَ الطَّوَافِ ؛ تَوَجَّهَ إِلَى
حَيْثُ يَجْلِسُ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

فَأَفْسَحَ النَّاسُ لَهُ الطَّرِيقَ حَتَّى أَخَذَ مَكَانَهُ بِجَانِبِهِ ، وَكَادَ يَمَسُّ بِرُكْبَتِهِ
رُكْبَتَهُ .

فَلَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ سَالِمٌ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مُسْتَعْرِقاً بِمَا هُوَ فِيهِ ، مَشْغُولاً
بِذِكْرِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ...

وَطَفِقَ (٥) الْخَلِيفَةُ يَرْقُبُ سَالِمًا بِطَرَفٍ خَفِيِّ ...

(١) الآجلة : الآخرة ، والعاجلة : الدنيا .

(٢) أن يغدقوا عليه الخير : أن يفرقوه بالمال .

(٣) التَّبَثُّلُ : الانقطاع عن الدنيا .

(٤) تَسَحَّ سَحًّا : تنصب انصباباً .

(٥) طَفِقَ : أخذ .

وَيَلْتَمِسُ فُرْصَةً يَتَوَقَّفُ فِيهَا عَنِ التَّلَاوَةِ وَيَكْفُ عَنِ النَّحِيبِ^(١) حَتَّى يُكَلِّمَهُ .

فَلَمَّا وَاتَتْهُ الْفُرْصَةُ مَالَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا عُمَرَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

فَقَالَ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ :

سَلِّني حَاجَةً أَقْضِيهَا لَكَ يَا أَبَا عُمَرَ .

فَلَمْ يُجِبْهُ سَالِمٌ بِشَيْءٍ .

فَطَنَّ الْخَلِيفَةُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ ، فَمَالَ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ وَقَالَ :

رَغِبْتُ بِأَنْ تَسْأَلَنِي حَاجَةً لِأَقْضِيهَا لَكَ .

فَقَالَ سَالِمٌ :

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أَكُونَ فِي بَيْتِ اللَّهِ جَلًّا وَعَزًّا ؛ ثُمَّ أَسْأَلَ أَحَدًا غَيْرَهُ .

فَحَجَلَ الْخَلِيفَةُ وَسَكَتَ ، لَكِنُّهُ ظَلَّ جَالِسًا فِي مَكَانِهِ .

فَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ، نَهَضَ سَالِمٌ يُرِيدُ الْمُضِيَّ إِلَى رَحْلِهِ .

فَلَحِقَتْ بِهِ جُمُوعُ النَّاسِ ...

هَذَا يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَذَلِكَ يَسْتَفْتِيهِ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ...

وَتَالِثٌ يَسْتَنْصِحُهُ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الدُّنْيَا ...

(١) النحيب : شدة البكاء .

وَرَابِعٌ يَطْلُبُ مِنْهُ الدُّعَاءَ ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِّنْ لَّحِقَ بِهِ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ،
فَلَمَّا رَأَاهُ النَّاسُ ؛ وَشَعُّوا لَهُ حَتَّى حَادَى مِنْكِبُهُ مَنَكِبَ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ... فَمَالَ
عَلَيْهِ وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا :

هَا نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ غَدَوْنَا خَارِجَ الْمَسْجِدِ ، فَسَلِّنِي حَاجَةً أَقْضِيهَا لَكَ .
فَقَالَ سَالِمٌ :

مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا أَمْ مِنْ حَوَائِجِ الْآخِرَةِ ؟ .
فَارْتَبَكَ الْخَلِيفَةُ وَقَالَ : بَلْ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا ...
فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ :

إِنِّي لَمْ أَطْلُبْ حَوَائِجَ الدُّنْيَا مِمَّنْ يَمْلِكُهَا ؛ فَكَيْفَ أَطْلُبُهَا مِمَّنْ
لَا يَمْلِكُهَا ؟ .

فَحَجَلَ الْخَلِيفَةُ مِنْهُ وَحَيَّاهُ ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ :
مَا أَعَزُّكُمْ آلَ الْخَطَّابِ بِالزَّهَادَةِ وَالثَّقَلَى ؟ ...
وَمَا أَغْنَاكُمْ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ !! ...
بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ آلِ بَيْتِ .

* * *

وَفِي السَّنَةِ الَّتِي قَبْلَهَا حَجَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَلَمَّا أَفَاضَ ^(١) النَّاسُ مِنْ « عَرَفَاتٍ » ، لَقِيَ الْخَلِيفَةُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي
« الْمُزْدَلِفَةِ » وَهُوَ مُحَرَّمٌ ؛ فَحَيَّاهُ وَبَيَّاهُ ^(٢) ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى جَسَدِهِ الْمَكْشُوفِ

(١) أَفَاضَ النَّاسُ : انْطَلَقَ النَّاسُ .

(٢) بَيَّاهُ : دَعَا لَهُ قَائِلًا : رَفَعَ اللَّهُ مَقَامَكَ .

فَوَجَدَهُ تَامَّ الْبُنْيَةِ ، بَادِي الْقُوَّة ، كَأَنَّهُ بِنَاءٌ مَبْنِيٌّ ؛ فَقَالَ لَهُ :

إِنَّكَ لَحَسَنُ الْجِسْمِ يَا أَبَا عُمَرَ ...

فَمَا أَكْثَرَ طَعَامِكَ ؟!

فَقَالَ :

الْحُبْزُ وَالزَّيْتُ ...

وَإِذَا وَجَدْتُ اللَّحْمَ - أحياناً - أَكَلْتُهُ .

فَقَالَ :

الْحُبْزُ وَالزَّيْتُ ؟!

فَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ : أَوْ تَشْتَهِيهِ ؟!

فَقَالَ :

إِذَا لَمْ أَشْتَهِهِ أَتْرُكُهُ حَتَّى أَجُوعَ فَأَشْتَهِيَهُ .

* * *

وَكَمَا أَشْبَهَ سَالِمٌ جَدَّهُ الْفَارُوقَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا وَالزَّهَادَةِ^(١)
بِعَرَضِهَا الْفَانِي ، فَقَدْ أَشْبَهَهُ أَيْضاً فِي الْجَهْرِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَهْمَا كَانَتْ ثَقِيلَةً
الْوُطْأَةِ شَدِيدَةً التَّبَعَاتِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي حَاجَةٍ مِنْ حَوَائِجِ
الْمُسْلِمِينَ .

فَرَحَّبَ بِهِ الْحَجَّاجُ وَأَذْنَى^(٢) مَجْلِسَهُ وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ ...

(٢) أَدْنَى مَجْلِسُهُ : قَرِيب مَجْلِسُهُ مِنْهُ تَوْقِيراً لَهُ وَإِكْرَاماً .

(١) الزَّهَادَةُ : الزَّهْدُ .

وَفِيمَا هُمَا كَذَلِكَ ؛ إِذْ أَتَى الْحَجَّاجُ بِطَائِفَةٍ مِنَ الرِّجَالِ ؛ شُعْثِ (١)
الشُّعُورِ ، غُبِرِ الْأَجْسَامِ ، صُفِرِ الْوُجُوهِ ، مُقَرَّنِينَ (٢) فِي الْأَصْفَادِ .

فَالْتَفَتَ الْحَجَّاجُ إِلَى سَالِمٍ وَقَالَ :

هَؤُلَاءِ بُعَاةٌ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ؛ مُسْتَبِيحُونَ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الدِّمَاءِ .

ثُمَّ أَعْطَاهُ سَيْفَهُ ، وَأَشَارَ إِلَى أَوْلِيهِمْ وَقَالَ :

عَلَيْكَ بِهِ ...

فَقُمَ إِلَيْهِ وَاضْرِبْ عُنُقَهُ ...

فَأَخَذَ سَالِمٌ السَّيْفَ مِنْ يَدِ الْحَجَّاجِ ، وَمَضَى نَحْوَ الرَّجُلِ ... وَقَدْ
شَخَصَتْ (٣) أَبْصَارُ الْقَوْمِ نَحْوَهُ تَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ ! .

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى الرَّجُلِ قَالَ لَهُ :

أَمْسِلِمَ أَنْتَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

وَلَكِنْ مَا أَنْتَ وَهَذَا السُّؤَالُ ؟ ... اِمْضِ لِإِنْفَادِ مَا أُمِرْتَ بِهِ .

فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ : وَهَلْ صَلَّيْتَ الصُّبْحَ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : قُلْتُ لَكَ إِنِّي مُسْلِمٌ ، ثُمَّ تَسْأَلُنِي : إِنْ كُنْتُ صَلَّيْتُ

الصُّبْحَ !! ...

وَهَلْ تَنْظُرُ أَنَّ هُنَاكَ مُسْلِمًا لَا يُصَلِّي ؟ .

فَقَالَ سَالِمٌ : أَسْأَلُكَ أَصَلَّيْتَ صُبْحَ هَذَا الْيَوْمِ ؟ .

(١) شُعْثُ الشُّعُورِ : متلبدى الشعور .

(٢) مقرَّنين في الأصْفَادِ : مقيدين بالحديد .

(٣) شَخَصَتْ : نظرت .

فَقَالَ الرَّجُلُ : هَذَاكَ اللَّهُ ، قُلْتُ لَكَ نَعَمْ ...
وَسَأَلْتُكَ أَنْ تُنْفِذَ مَا أَمَرَكَ بِهِ هَذَا الظَّالِمُ ، وَإِلَّا عَرَضْتُ نَفْسَكَ لِسَخَطِهِ .
فَرَجَعَ سَالِمٌ إِلَى الْحَجَّاجِ ، وَرَمَى السَّيْفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :
إِنَّ الرَّجُلَ يُقَرِّبُ بَأَنَّهُ مُسْلِمٌ ، وَيَقُولُ : إِنَّهُ صَلَّى صُبْحَ هَذَا الْيَوْمِ ، وَقَدْ بَلَغَنِي
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

(مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ^(١) اللَّهِ) .
وإِنِّي لَا أَقْتُلُ رَجُلًا دَخَلَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ مُغَضَّبًا :

إِنَّا لَا نَقْتُلُهُ عَلَى تَرْكِ صَلَاةِ الصُّبْحِ ...
وإِنَّمَا نَقْتُلُهُ لِأَنَّهُ مِمَّنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ^(٢) .
فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ :

إِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنِّي وَمِنْكَ بِدَمِ عُثْمَانَ .
فَسَكَتَ الْحَجَّاجُ ، وَلَمْ يُجِرْ^(٣) جَوَابًا .
ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ شُهُودِ الْمَجْلِسِ قَدِمَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ
بِمَا طَلَبَهُ الْحَجَّاجُ مِنْ ابْنِهِ سَالِمٍ .
فَلَمْ يَتَرَيَّثْ^(٤) حَتَّى يَسْمَعَ بَقِيَّةَ الْخَبَرِ ...

(١) ذِمَّةُ اللَّهِ : حفظ الله .
(٢) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .
(٣) لم يُجِرْ جواباً : لم يرد جواباً .
(٤) لم يَتَرَيَّثْ : لم ينتظر .

وإنَّمَا بَادَرَ^(١) مُحَدِّثُهُ فَأَيْلًا: وَمَا صَنَعَ سَالِمٌ بِأَمْرِ الْحَجَّاجِ ؟ .

فَقَالَ لَهُ : صَنَعَ كَذَا وَكَذَا .

فَسُرِّي^(٢) عَنْهُ ، وَقَالَ :

كَيْسٌ كَيْسٌ^(٣) ...

عَاقِلٌ عَاقِلٌ ...

* * *

وَلَمَّا آلَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٤) كَتَبَ إِلَى سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَانِي بِمَا ابْتَلَانِي بِهِ مِنْ وَلَايَةِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنِّي وَلَا طَلَبٍ .

فَأَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي ابْتَلَانِي بِهِذَا الْأَمْرِ أَنْ يُعِينَنِي عَلَيْهِ .

فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا ؛ فَابْعَثْ لِي بِكُتُبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَأَقْضِيَّتِهِ ، وَسِيرَتِهِ ...

فَإِنِّي عَازِمٌ عَلَى أَنْ أَتْبَعَ سِيرَتَهُ ...

وَأَسِيرُ عَلَى نَهْجِهِ إِنْ أَعَانَنِي اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ... وَالسَّلَامُ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَالِمٌ يَقُولُ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَقَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ الَّذِي تَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَاكَ

(١) بَادَرَ : عاجل .

(٢) سُرِّي عنه : زال عنه الهم والقلق .

(٣) كَيْسٌ كَيْسٌ : حسن حسن .

(٤) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

بِإِمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْكَ وَلَا مَشُورَةٍ ... وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَسِيرَ بِسِيرَةِ
عُمَرَ ...

فَلَا يَفُتِّكَ أَنَّكَ فِي زَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِ عُمَرَ ...

وَأَنْتَ لَيْسَ فِي رِجَالِكَ مَنْ يُمَائِلُ رِجَالَ عُمَرَ ...

وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ نَوَيْتَ الْحَقَّ وَأَرَدْتَهُ ؛ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَتَاكَ ^(١) لَكَ
عَمَلًا يَقُومُونَ لَكَ بِهِ ...

وَأَتَاكَ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ ^(٢) ...

فَإِنَّ عَوْنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى قَدَرِ نِيَّتِهِ ...

فَمَنْ تَمَّتْ نِيَّتُهُ فِي الْخَيْرِ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ ، وَمَنْ قَصُرَتْ نِيَّتُهُ نَقَصَ مِنْ
عَوْنِ اللَّهِ لَهُ بِقَدَرِ نَقْصِ نِيَّتِهِ ...

وَإِذَا نَازَعْتَكَ ^(٣) نَفْسُكَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا لَا يُرْضِي اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ ؛ فَادْكُرْ مَنْ
كَانَ قَبْلَكَ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الَّذِينَ سَبَقُوكَ إِلَى الرَّحِيلِ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ...

وَسَلْ نَفْسَكَ كَيْفَ تَفْقَأْتُ ^(٤) عُيُونُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَشْهَدُونَ بِهَا اللَّذَاتِ ،
وَكَيْفَ تَمَزَّقَتْ بُطُونُهُمُ الَّتِي كَانُوا لَا يَشْبَعُونَ بِهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ ...

وَكَيْفَ صَارُوا جِيفًا لَوْ تُرِكَتْ إِلَى جَانِبِ مَسَاكِينِنَا وَلَمْ تُوَارِهَا آكَامُ ^(٥)
الْأَرْضِ ؛ لَضَجَجْنَا مِنْ رِيحِهَا .

وَلَمَسْنَا الضُّرَّ مِنْ نَتْنِهَا .

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

(٣) نازعتك : مالت بك .

(١) أتاح : هيأ .

(٥) الآكام : المرتفعات .

(٢) لا تحتسب : لا تظن ولا تتربص . (٤) تَفْقَأْتُ : قُلِّعْتُ .

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ عَاشَ سَالِمٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عُمَرًا مَدِيدًا حَافِلًا^(١)
بِالتَّقَى ...

عَامِرًا بِالْهُدَى ...

أَعْرَضَ فِيهِ عَنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ...

وَأَقْبَلَ خِلَالَهُ عَلَى مَا يُوضِي اللَّهَ ...

فَأَكَلَ مِنَ الطَّعَامِ مَا غُلِظَ ...

وَلَيْسَ مِنَ الثِّيَابِ مَا خَشُنَ ...

وَعَزَا «الرُّومَ» مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ جُنْدِيًّا ...

وَقَضَى حَوَائِجَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَنَّا^(٢) عَلَيْهِمْ حُنُوءَ الْأُمَهَاتِ ...

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ^(٣) سَنَةً سِتٍّ وَمِائَةً لِلْهِجْرَةِ؛ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ حُزْنًا
عَلَيْهِ ...

وَتَرَكَ نَفْيَهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ لَوْعَةً ...

وَعَلَى كُلِّ خَدٍّ دَمْعَةً ...

وَهَبَّ النَّاسُ، كُلُّ النَّاسِ يُشَيِّعُونَ جَنَازَتَهُ، وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ ...

وَكَانَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمئِذٍ مُوجُودًا فِي الْمَدِينَةِ؛ فَخَرَجَ لِلصَّلَاةِ
عَلَيْهِ وَتَشْيِيعِهِ .

(١) حافلاً : ممتلئاً .

(٢) حننا عليهم : مال إليهم وعطف عليهم .

(٣) اليقين : الموت .

فَلَمَّا رَأَى تَزَاحَمَ النَّاسِ وَتَدَفَّقَهُمْ ؛ هَالَتْهُ كَثْرَتُهُمْ ، وَأَثَارَتْ فِي صَدْرِهِ شَيْئًا
مِنَ الْحَسَدِ ، فَسَاءَلَ نَفْسَهُ قَائِلًا :

تُرَى كَمْ يَخْرُجُ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ لَوْ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مَاتَ فِي بَلَدِهِمْ
هَذَا ؟ .

ثُمَّ قَالَ « لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هِشَامٍ الْمَخْزُومِيِّ » وَإِلَيْهِ عَلَى الْمَدِينَةِ :
إِفْرِضْ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَتَعَثُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ رَجُلٍ إِلَى الثُّغُورِ .
فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْعَامَ عَامَ أَرْبَعَةِ الْآلَافِ (*) ...

-
- (*) للاستزادة من أخبار سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ انظر :
- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٩٥ / ٥ .
 - ٢ - تهذيب الأسماء واللغات ، القسم الأول من الجزء الأول : ٢٠٧ .
 - ٣ - الجرح والتعديل ، القسم الأول من المجلد الثاني : ١٨٤ .
 - ٤ - المعرفة والتاريخ : ٥٥٤ / ١ .
 - ٥ - حلية الأولياء : ١٩٢ / ٢ .
 - ٦ - طبقات الفقهاء للشيرازي : ٦٢ .
 - ٧ - تاريخ البخاري : ١١٥ / ٤ .
 - ٨ - وفيات الأعيان : ٣٤٩ / ٢ .
 - ٩ - تاريخ الإسلام : ١١٥ / ٤ .
 - ١٠ - طبقات الحفاظ للسيوطي : ٣٣ .
 - ١١ - شذرات الذهب : ١٣٣ / ١ .

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ أَمِيرُ الْأَنْدَلُسِ

« الْغَافِقِيُّ صُورَةٌ صَادِقَةٌ لِمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، وَطَارِقِ بْنِ زِيَادٍ ،
فِي غُلُوِّ الْهِمَّةِ وَسُمُوِّ الْمَقْصِدِ »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

مَا كَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَامِسُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ^(١) عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ الْعَزِيزِ ^(٢) يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ سَلَفِهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، حَتَّى بَادَرَ
يُعِيدُ النَّظَرَ فِي أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ ^(٣) ، وَيَعْزِلُ وَيُوَلِّي .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ « السَّمُحُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيُّ » .
فَلَقَدْ أَسْنَدَ إِلَيْهِ وَلَايَةَ « الْأَنْدَلُسِ » وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ الْمُدُنِ الْمَفْتُوحَةِ مِنْ
بِلَادِ « فَرَنْسَا » .

* * *

أَلْقَى الْأَمِيرُ الْجَدِيدُ رِحَالَهُ فِي بِلَادِ « الْأَنْدَلُسِ » ، وَانْطَلَقَ يُفْتَتِّشُ عَنْ
أَعْوَانِ الصَّدَقِ وَالْخَيْرِ ؛ فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ :

أَبْقَى فِي هَذِهِ الدِّيَارِ أَحَدٌ مِنَ التَّابِعِينَ ؟

فَقَالُوا : نَعَمْ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ .

إِنَّهُ مَا يَزَالُ فِينَا التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيُّ .

ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَفَهْمِهِ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ،

(١) الخلفاء الراشدون أربعة ، وقد أضيف إليهم عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليهم وعليه .

(٢) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ . (٣) الأمصار : الأصقاع والولايات .

وَبَلَاءِهِ ^(١) فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ ، وَتَشَوُّقِهِ إِلَى الْإِسْتِشْهَادِ ، وَزُهْدِهِ بِعَرَضِ ^(٢) الدُّنْيَا
الشَّيْءِ الْكَثِيرِ .

ثُمَّ قَالُوا لَهُ :

إِنَّهُ لَقَبِي الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَعَنْ أَبِيهِ ، وَأَنَّهُ أَخَذَ عَنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ .
وَتَأَسَّى بِهِ ^(٤) أَعْظَمَ النَّاسِي .

* * *

دَعَا السَّمُوحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْعَافِيَّ إِلَى لِقَائِهِ ، فَلَمَّا
جَاءَهُ رَحَّبَ بِهِ أَكْرَمَ التَّرْجِيْبِ وَأَذْنَى ^(٥) مَجْلِسُهُ مِنْهُ ، ثُمَّ قَعَدَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ
يَسْأَلُهُ عَنْ كُلِّ مَا عَنَّ لَهُ ^(٦) ...

وَيَسْتَشِيرُهُ فِي كَثِيرٍ مِمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ ...

وَيُرْوِزُهُ ^(٧) لِيَقِفَ عَلَى طَوَاقَاتِهِ ...

فَإِذَا هُوَ فَوْقَ مَا أُخْبِرَ عَنْهُ ، وَأَعْظَمُ مِمَّا ذُكِرَ لَهُ ؛ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَلِّيَهُ
عَمَلًا مِنْ كَبِيرِ أَعْمَالِهِ فِي « الْأَنْدَلُسِ » .

فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ ...

وَلَقَدْ وَفَدْتُ إِلَى هَذِهِ الدِّيَارِ لِأَقِفَ عَلَى ثَغْرِ مِنْ ثُغُورِ ^(٨) الْمُسْلِمِينَ ...

وَنَذَرْتُ نَفْسِي لِمَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

(١) بلائه : خبرته .

(٢) عَرَضُ الدُّنْيَا : مَا لَا دَوَامَ لَهُ وَلَا بَقَاءَ .

(٣) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) تَأَسَّى بِهِ : اقْتَدَى بِهِ وَسَلَكَ مَسْلَكَهُ .

(٥) أَذْنَى مَجْلِسُهُ : قُرْبَ مَجْلِسِهِ مِنْهُ تَقْدِيرًا لَهُ . (٧) يَرْوِزُهُ : يَقْدَرُهُ وَيَقْوُمُهُ .

(٦) عَنَّ لَهُ : خَطَرَ عَلَى بَالِهِ . (٨) ثُغُورُ الْمُسْلِمِينَ : الْمَنَافِدُ بَيْنَ حُدُودِ الْمُسْلِمِينَ وَحُدُودِ أَعْدَائِهِمْ .

وَحَمَلْتُ سَيْفِي لِإِغْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ ...
وَسَتَجِدُنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - أَلْزَمَ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ مَا لَزِمْتَ الْحَقَّ ...
وَأَطُوعَ لَكَ مِنْ بَنَانِكَ ^(١) مَا أَطَعَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...
مِنْ غَيْرِ وَلَايَةٍ وَلَا إِمَارَةٍ .

* * *

لَمْ يَمُضِ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّى عَزَمَ السَّمُوحُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيُّ عَلَى غَزْوِ
« فَرَنْسَا » كُلِّهَا ، وَضَمَّهَا إِلَى عَقْدِ ^(٢) دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الْعُظْمَى .
وَأَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دِيَارِهَا الرَّحْبَةَ طَرِيقاً إِلَى دَوْلِ « الْبَلْقَانِ » ^(٣) ...
وَأَنْ يُفْضِيَ مِنْ دَوْلِ « الْبَلْقَانِ » إِلَى « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » ، تَحْقِيقاً لِبِشَارَةِ
الرَّسُولِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ ^(٤) .
وَكَانَتْ الْخُطْوَةُ الْأُولَى لِتَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ الْكَبِيرِ ، إِنَّمَا تَتَوَقَّفُ عَلَى
اِخْتِلَالِ مَدِينَةِ « أَرْبُونَةَ » ^(٥) .
ذَلِكَ أَنَّ « أَرْبُونَةَ » كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْمُدُنِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » الَّتِي تُجَاوِرُ بِلَادَ
« الْأَنْدَلُسِ » .
وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا انْحَدَرُوا ^(٦) مِنْ جِبَالِ « الْبِرْنِيَّةِ » ^(٧) ؛ وَجَدُوهَا

(١) بنانك : إصبعك ، يُقَالُ : فلان أطوع من بناني : [أي إنه يفعل كل ما أمره به] .

(٢) العَقْدُ : القلادة الثمينة .

(٣) دَوْلُ الْبَلْقَانِ : شبه جزيرة واقعة جنوب شرق أوروبا ، تقسمها اليوم رومانيا ، وألبانيا ، ويوغوسلافيا ، وبلغاريا ، وتركيا ، واليونان .

(٤) قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (لتفتحن عليكم القسطنطينية ، فنعلم الجيش جيشها ، ونعم الأمير أميرها) .

(٥) NARBONNE : مدينة في جنوب فرنسا قرب المتوسط بسهل لنغودوك .

(٦) انحدروا : نزلوا .

(٧) PYRENEES : سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا تمتد من خليج غاسكونيا في الأطلسي حتى خليج ليون في المتوسط ٤٣٠ كم عرفها المسلمون باسم برانس .

تَنْتَصِبُ أَمَامَهُمْ كَمَا يَنْتَصِبُ الْمَارِدُ^(١) الْجَبَّارُ .

وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ مِفْتَاحُ « فَرْنَسَا » الْكُبْرَى ...

وَمَطْمَحُ الطَّامِحِينَ^(٢) إِلَيْهَا ...

* * *

حَاصِرَ السَّمْحِ بْنِ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ مَدِينَةَ « أَرْبُونَةَ » ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَى أَهْلِهَا
الْإِسْلَامَ أَوْ الْجِزْيَةَ ... فَعَزَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَأَبَوْهُ .

فَهَبَ يُهَاجِمُهُمُ الْهَجْمَةَ تِلْوَ الْأُخْرَى ، وَيَقْذِفُهُمُ بِالْمَنْجَنِيقَاتِ^(٣) حَتَّى
سَقَطَتِ الْمَدِينَةُ الْعَرِيقَةُ الْحَصِينَةُ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَسَابِيعَ مِنَ
الْجِهَادِ الْبُطُولِيِّ الَّذِي لَمْ تَشْهَدْ « أَوْرُبَّا » نَظِيرًا لَهُ مِنْ قَبْلُ .

ثُمَّ بَادَرَ الْقَائِدُ الْمُظَفَّرُ الْمُتَنَصِّرُ؛ فَتَوَجَّهَ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ^(٤) إِلَى مَدِينَةِ
« تُولُوزَ » عَاصِمَةِ مُقَاطَعَةِ « أُوْكَتَانِيَّةَ » .

فَنَصَبَ حَوْلَهَا الْمَنْجَنِيقَاتِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

وَقَذَفَهَا بِآلَاتِ الْحَرْبِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ لَهَا « أَوْرُبَّا » نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ .

حَتَّى أَوْشَكَتِ الْمَدِينَةُ الْمَنِيعَةُ الْحَصِينَةُ أَنْ تَخِرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ .

عِنْدَ ذَلِكَ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِ أَحَدٍ .

فَلْتَشْرِكِ الْحَدِيثَ لِلْمُسْتَشْرِقِ الْفَرَنْسِيِّ « رَيْنُو » لِيَشُوقَ لَنَا خَبَرَ تِلْكَ
الْمَعْرَكَةِ .

قَالَ « رَيْنُو » :

(٣) المنجنيقات : آلات حربية تُرمَى بها القذائف .

(٤) الجرار : الكثير الذي يجر وراءه الغبار لكثرتِه .

(١) المارد : القوي الجبار الذي لا يقهر .

(٢) مطمح الطامحين : سبيل الراغبين .

لَمَّا أَصْبَحَ النَّصْرُ قَابَ قَوْسَيْنِ^(١) مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَدْنَى ، هَبَّ « دُوقُ
أُورُكْتَانِيَّةَ » يَسْتَنْفِرُ^(٢) لِحَرْبِهِمُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ .

وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فَطَافُوا « أُورُبَّا » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا .

وَأَنْذَرُوا مُلُوكَهَا وَأَمْرَاءَهَا بِاخْتِلَالِ دِيَارِهِمْ ، وَسَبَّي نِسَائِهِمْ وَوَلَدَانِهِمْ .
فَلَمْ يَتَّقِ شَعْبٌ فِي « أُورُبَّا » إِلَّا أَسْهَمَ مَعَهُ بِأَشَدِّ مُقَاتِلِيهِ بَأْسًا ، وَأَكْثَرِهِمْ
عَدَدًا ...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَفْرَةٍ^(٣) الْجَيْشِ ، وَعُغِفَ حَرَكَتِهِ ، وَثَقُلَ وَطْأَتِهِ ، مَا لَمْ تَعْرِفْ
لَهُ الدُّنْيَا نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ ... حَتَّى إِنَّ الْغُبَارَ الْمُتَطَايِرَ تَحْتَ أَقْدَامِهِ قَدْ حَجَبَ عَنْ
مِنْطَقَةِ « الرُّونِ »^(٤) عَيْنَ الشَّمْسِ ...

وَلَمَّا تَدَانَى^(٥) الْجَمْعَانِ خُيِّلَ لِلنَّاسِ أَنَّ الْجِبَالَ ثُلَاقِي الْجِبَالِ ، ثُمَّ دَارَتْ
بَيْنَ الْقَرِيقَيْنِ رَحَى مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ^(٦) لَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ لَهَا مَثِيلًا مِنْ قَبْلُ .
وَكَانَ السَّمْحُ أَوْ « دَامَا » كَمَا كُنَّا نُسَمِّيهِ ؛ يَظْهَرُ أَمَامَ جُنُودِنَا فِي كُلِّ
مَكَانٍ .

وَيَتَوَاتَبُ أَمَامَ عَسْكَرِهِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ .

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ أَصَابَتْهُ رَمِيَّةٌ مِنْ سَهْمٍ ، فَخَرَّ صَرِيحًا عَنْ جَوَادِهِ .

(١) قَابَ قَوْسَيْنِ : شديد القرب .

(٢) يستنفر : يستعين .

(٣) وفرة الجيش : كثرة الجيش وكثافته .

(٤) RHONE : نهر في سويسرا وفرنسا ٨١٢ كم من أغزر أنهار فرنسا ، يروي جينيف ، وليون LYON ،
وقالنس ، وإفينيون ، وأرل ARLES ويصب في المتوسط غرب مرسيليا .

(٥) تدانَى الجمعان : اقترب الجيشان .

(٦) معركة ضروس : معركة شديدة مهلكة .

فَلَمَّا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ مُجْنَدِلًا^(١) فَوْقَ الثَّرَى، فَتَّ الْمَوْقِفُ فِي
عَضْدِهِمْ^(٢)...

وَبَدَأَتْ صُفُوفُهُمْ تَتَدَاعَى^(٣)...

وَأَصْبَحَ فِي وَسْعٍ جَيْشِنَا الْجَوَارِ أَنْ يُبِيدَهُمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ^(٤)...
لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُمْ الْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِقَائِدِ عِبْقَرِي عَرَفْتُهُ «أُورُبَّا» فِيمَا بَعْدُ،
هُوَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ.

فَتَوَلَّى أَمْرَ انْسِحَابِهِمْ بِأَقْلٍ قَدِيرٍ مِنَ الْحَسَائِرِ، وَعَادَ بِهِمْ إِلَى «إِسْبَانِيَا».
لَكِنَّهُ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يُعِيدَ الْكَرَّةَ عَلَيْنَا مِنْ جَدِيدٍ...

* * *

وَبَعْدُ...

فَهَلْ رَأَيْتَ الْغُيُومَ كَيْفَ تَنْقَشِعُ^(٥) عَنِ الْبَدْرِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ.

فَيَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ التَّائِهُونَ...

وَيَهْتَدِي بِسَنَاهُ الْحَيَارَى^(٦)؟

هَكَذَا انْقَشَعَتْ مَعْرَكَةُ «تُولُوز» عَنْ بَطْلِ الْإِسْلَامِ الْفَذِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ الْعَافِقِيِّ...

وَهَلْ أَبْصَرْتَ الْعِطَاشَ الْمُؤِيفِينَ^(٧) عَلَى الْهَلَاكِ فِي جَوْفِ الصَّحَرَاءِ كَيْفَ
يُلُوحُ لَهُمُ الْمَاءُ.

(١) مجندلاً: صريعاً.

(٢) فتَّ في عضدهم: مرَّق قواهم وأضعف مشاعرهم.

(٣) تنقشع: تنكشف.

(٤) الحيارى: التائهون، والذين لا يعرفون الطريق.

(٥) تنقشع: تنصدع.

(٦) المؤفين على الهلاك: المقبلين على الموت.

(٧) بكرة أبيهم: جميعاً.

فَيَمْدُونُ أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ ؛ لِيَعْتَرِفُوا مِنْهُ غَرْفَةً تَرُدُّ إِلَيْهِمُ الْحَيَاةَ ؟ .
هَكَذَا مَدَّ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى الْقَائِدِ الْعَظِيمِ يَنْشُدُونَ عِنْدَهُ
النَّجَاةَ ... وَبَيَّاعُونَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...
وَلَا غَزَوْ فَقَدْ كَانَتْ مَعْرَكَةُ « تُولُوز » أَوَّلَ جُورِحِ غَايِرٍ ^(١) أَصِيبَ بِهِ
الْمُسْلِمُونَ مُنْذُ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ « أَوْرَبَّا » .

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ بَلَسَمَ ^(٢) هَذَا الْجُورِحِ ...
وَالْيَدَ الْحَايِيَّةَ الَّتِي أَحَاطَتْهُ بِالْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ ...
وَالْقَلْبَ الْكَبِيرَ الَّذِي أَفَاضَ عَلَيْهِ الْحَنَانَ ...

* * *

أَرْمَضَتْ ^(٣) أَنْبَاءُ النُّكْسَةِ الْكُبْرَى الَّتِي مُنِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ فِي « فَرَنْسَا »
فُؤَادَ الْخِلَافَةِ فِي « دِمَشَقَ » .
وَأَجَّجَ ^(٤) مَضْرَعُ الْبَطْلِ الْكَمِيِّ ^(٥) السَّمْحِ بْنِ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ فِي
صَدْرِهَا نَارَ الْحَمِيَّةِ لِلْأَخْذِ بِالثَّأْرِ .

فَأَصْدَرَتْ أَوْامِرَهَا بِإِقْرَارِ الْجُنْدِ عَلَى مُبَايَعَتِهِمْ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ .
وَعَهْدَتْ إِلَيْهِ بِإِمَارَةِ « الْأَنْدَلُسِ » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا .
وَضَمَّتْ إِلَيْهِ مَا جَاوَرَهَا مِنَ الْأَرَاضِي « الْفَرَنْسِيَّةِ » الْمَفْتُوحَةِ .
وَأَطْلَقَتْ يَدَهُ فِي الْعَمَلِ كَيْفَمَا يَشَاءُ .

لَا غَزَوْ فَقَدْ كَانَ الْغَافِقِيُّ حَازِمًا صَارِمًا ، تَقِيًّا نَفِيًّا ، حَكِيمًا مَقْدَامًا ...

* * *

(١) غايِر : عميق .
(٢) بلسم الجرح : دواء النكبة .
(٣) أرمضت : أوجعت .
(٤) أجج : أوقد .
(٥) الكمي : الشجاع .

بَادَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ مُنْذُ أُسْنِدَتْ إِلَيْهِ إِمَارَةُ « الْأَنْدَلُسِ » ؛ يَعْمَلُ عَلَى
اسْتِعَادَةِ ثِقَةِ الْجُنْدِ بِأَنْفُسِهِمْ ...

وَاسْتِزْدَادِ شُعُورِهِمْ بِالْعِزَّةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالْعَلَبِ .

وَتَحْقِيقِ الْهَدَفِ الْكَبِيرِ الَّذِي طَمَحَ ^(١) إِلَيْهِ قَادَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي
« الْأَنْدَلُسِ » .

ابْتِدَاءً مِنْ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ^(٢) ...

وَانْتِهَاءً بِالسَّمْحِ بْنِ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ .

فَلَقَدْ انْعَقَدَتْ هِمَمُ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ عَلَى الْإِنْطِلَاقِ مِنْ « فَرَنْسَا » إِلَى
« إِيْطَالِيَا » وَ« أَلْمَانِيَا » .

وَالْإِفْضَاءِ ^(٣) مِنْهُمَا إِلَى « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » .

وَجَعَلَ الْبَحْرَ الْأَبْيَضَ الْمُتَوَسِّطَ بُحَيْرَةً إِسْلَامِيَّةً ، وَتَسَمِيَّتُهُ بِبَحْرِ الشَّامِ ...
بَدَلًا مِنْ بَحْرِ « الرُّومِ » ...

* * *

لَكِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيَّ كَانَ يُوقِنُ بَأَنَّ الْإِعْدَادَ لِلْمَعَارِكِ الْكُبْرَى إِنَّمَا
يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ النُّفُوسِ ، وَتَرْكِيبَتِهَا ...

وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَقِّقَ غَايَاتِهَا فِي النَّصْرِ إِذَا كَانَتْ
خُصُونَهَا مُصَدَّعَةً ^(٤) ، مُهَدَّدَةً مِنَ الدَّاخِلِ ...

(١) طَمَحَ إِلَيْهِ : تَطَلَّعَ إِلَيْهِ وَعَمَلَ عَلَى نَيْلِهِ .

(٢) مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ : فَاتِحُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَالْأَنْدَلُسِ .

(٣) الْإِفْضَاءُ مِنْهَا : الْإِتِّقَالَ مِنْهَا .

(٤) مُصَدَّعَةٌ : مَشَقَّةٌ .

لِذَلِكَ هَبَّ يَطُوفُ بِلَادَ «الْأَنْدَلُسِ» بِلْدَاءَ إِثْرِ بَلَدٍ ، وَيَأْمُرُ الْمُنَادِينَ أَنْ
يُنَادُوا فِي النَّاسِ :

مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ^(١) عِنْدَ وَالٍ مِنَ الْوَلَاةِ ، أَوْ قَاضٍ مِنَ الْقَضَاةِ ، أَوْ أَحَدٍ
مِنَ النَّاسِ ؛ فَلْيَرْفَعْهَا إِلَى الْأَمِيرِ .

وَأَنَّهُ لَا فَوْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ^(٢) .

ثُمَّ طَفِقَ يَنْظُرُ فِي الْمَظَالِمِ^(٣) مَظْلَمَةً مَظْلَمَةً .

فَيَقْتَضِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ ... وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ .

ثُمَّ جَعَلَ يُحَقِّقُ فِي أَمْرِ الْكَتَائِسِ الْمُعْتَصِبَةِ ، وَالْمُسْتَحْدَثَةِ .

فَيَرُدُّ مَا قَضَتْ بِهِ الْعُهُودُ إِلَى أَصْحَابِهِ ...

وَيَهْدِمُ مَا بُنِيَ مِنْهَا بِالرُّشُوءِ ...

ثُمَّ نَظَرَ فِي أَمْرِ عُمَّالِهِ وَاحِدًا وَاحِدًا ...

فَعَزَلَ مَنْ ثَبَّتَ لَهُ خِيَانَتُهُ وَانْحِرَافُهُ .

وَوَلَّى مَكَانَهُ مَنْ اسْتَوْثَقَ مِنْ حِكْمَتِهِ ، وَحُنُوكِيهِ ، وَصَلَاحِهِ .

وَكَانَ كُلَّمَا أَمَّ^(٤) بِلْدَاءَ مِنَ الْبُلْدَانِ دَعَا النَّاسَ إِلَى صَلَاةٍ جَامِعَةٍ ، ثُمَّ وَقَفَ

فِيهِمْ خَطِيبًا ، وَانْطَلَقَ يَحُضُّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ ...

وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الْاسْتِشْهَادِ ...

وَيُمْنِيهِمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ ، وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهِ .

* * *

(١) مظلمة : أمر فيه ظلم .

(٣) المظالم : الشكاوى .

(٢) المعاهدون : الذين يبتهم وبين المسلمين عهد .

(٤) أمَّ بِلْدَاءَ : دَخَلَ بِلْدَاءَ وَزاره .

وَقَدْ قَرَنَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ ، وَدَعَّمَ الْأَمَالَ بِالْأَعْمَالِ .
فَطَفِقَ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِوَلَايَتِهِ ؛ يُعِدُّ الْعِتَادَ ، وَيَسْتَكْمِلُ السَّلَاحَ .
وَيُرْمِمُ^(١) الْمَعَاقِلَ ، وَيَتَنَبَّى الْحُصُونَ .
وَيُشَيِّدُ الْجُسُورَ ، وَيُقِيمُ الْقَنَاظِرَ^(٢) ...
وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا بَنَاهُ قَنْطَرَةٌ « قَرْطَبَةٌ » عَاصِمَةٌ « الْأَنْدَلُسِ » .
وَقَدْ شَادَهَا عَلَى نَهْرِ « قَرْطَبَةٍ » الْعَظِيمِ ؛ لِيَعْبُرَ عَلَيْهَا النَّاسُ وَالْجُنْدُ ...
وَتَقِيَ الْبِلَادَ ، وَتَصُونَ الْعِبَادَ مِنْ شَرِّ الْفَيْضَانِ^(٣) .
وَتُعَدُّ هَذِهِ الْقَنْطَرَةُ مِنْ أَعَاجِبِ الدُّنْيَا .
فَقَدْ بَلَغَ طُولُهَا ثَمَانِمِائَةَ بَاعٍ^(٤) ...
وَارْتَفَاعُهَا سِتِينَ بَاعاً ...
وَعَرْضُهَا عِشْرِينَ ...
وَبَلَغَ عَدَدُ حَنَائِيهَا^(٥) ثَمَانِي عَشْرَةَ حَنِيَّةً ...
وَعَدَدُ أَبْرَاجِهَا^(٦) تِسْعَةَ عَشَرَ بُرْجاً ...
وَهِيَ مَا تَرَالُ قَائِمَةٌ تَنْعُمُ بِهَا « إِسْبَانِيَا » حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا ...

* * *

وَقَدْ دَأَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ عَلَى الْاجْتِمَاعِ بِقَادَةِ الْجُنْدِ وَوُجُوهِ الْقَوْمِ
فِي كُلِّ بَلَدٍ يَحُلُّهُ .

(١) يرمم المعادل : يصلح مرائب الجند في الجبال المشرفة على العدو .

(٢) القناطر : ما يبني فوق الماء للعبور عليه .

(٥) حناياها : أقواسها .

(٣) الفيضان : الشبل .

(٦) أبراجها : الحصون التي تحصنها .

(٤) الباع : مقدار مدّ اليدين .

وَكَانَ يُنْصِتُ بِجَوَارِحِهِ إِلَى كُلِّ مَا يَقُولُونَ ...

وَيُدَوِّنُ جَمِيعَ مَا يَقْتَرِحُونَ ...

وَيَتَمَلَّى^(١) مِنْ سَائِرِ مَا يَنْصَحُونَ .

وَقَدْ أَخَذَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ بِأَنْ يَسْمَعَ كَثِيراً ، وَأَنْ يَتَكَلَّمَ قَلِيلاً .

وَكَمَا كَانَ يَلْتَقِي الْغَافِقِيُّ بِأَعْيَانِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَدْ كَانَ يَجْتَمِعُ مَعَ كِبَارِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ .

وَكَثِيراً مَا كَانَ يُسَائِلُهُمْ عَمَّا خَفِيَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ بِلَادِهِمْ ، وَمَا يَشْغَلُ بَالَهُ مِنْ أَحْوَالِ مُلُوكِهِمْ ، وَقَوَادِيهِمْ .

* * *

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ اسْتَدْعَى أَحَدَ كِبَارِ الْمُعَاهِدِينَ مِنْ أَتْنَاءِ « فَرَنْسَا » ، وَأَدَارَ مَعَهُ حَدِيثاً مُتَشَعِّباً^(٢) ثُمَّ قَالَ لَهُ :

مَا بَالُ مَلِكِكُمْ الْأَكْبَرِ « شَارْلَ » لَا يَتَصَدَّى لِحَرْبِنَا ...

وَلَا يَنْصُرُ مُلُوكَ الْمُقَاتِلِينَ عَلَيْنَا ؟ !

فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

إِنَّكُمْ وَفَيْتُمْ لَنَا بِمَا عَاهَدْتُمُونَا عَلَيْهِ ، فَمِنْ حَقِّكُمْ عَلَيْنَا أَنْ نَصْدُقَكُمْ الْقَوْلَ فِيمَا تَسْأَلُونَنَا عَنْهُ ...

إِنَّ قَائِدَكُمْ الْكَبِيرَ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ قَدْ أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ^(٣) عَلَى « إِسْبَانِيَا »

(١) يتَمَلَّى : يَنْتَفِعُ .

(٢) مُتَشَعِّباً : مُتَوَعِّداً مُتَعَدِّدَ الْمَوْضِعَاتِ .

(٣) أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ : شَدَّ يَدَيْهِ .

كُلَّهَا، ثُمَّ طَمَحَتْ^(١) هِمَّتُهُ لِأَنْ يَجْتَازَ جِبَالَ «البرنيه» الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ دِيَارِ
«الأنْدَلُسِ» وَبِلَادِنَا الْجَمِيلَةِ.

فَجَفَلَ^(٢) مُلُوكُ الْمُقَاطَعَاتِ وَقُسُسُهَا إِلَى مَلِكِنَا الْأَعْظَمِ، وَقَالُوا لَهُ:
مَا هَذَا الْخِزْيُ الَّذِي لَصِقَ بِنَا وَبَحَفَدَتِنَا أَبَدَ الدَّهْرِ أَتَيْهَا الْمَلِكُ؟! ...
فَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ بِالْمُسْلِمِينَ سَمَاعاً ...

وَنَخَافُ وَتُبَّتْهُمْ عَلَيْنَا مِنْ جِهَةِ مَشْرِقِ الشَّمْسِ، وَهَذَا هُمْ أَوْلَاءُ قَدْ جَاءُواَنَا
الآنَ مِنْ مَغْرِبِهَا ...

فَاسْتَوَلُوا عَلَى «إِسبَانِيَا» كُلَّهَا، وَامْتَلَكُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ،
وَاعْتَلَوْا قِمَمَ الْجِبَالِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.
مَعَ أَنَّ عَدَدَهُمْ قَلِيلٌ ...

وَسِلَاحَهُمْ هَزِيلٌ ...

وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَمْلِكُ دِرْعاً تَقِيهِ ضَرْبَاتِ السُّيُوفِ، أَوْ جَوَاداً يَمْتَطِيهِ إِلَى
سَاحَاتِ الْقِتَالِ.

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ:

لَقَدْ فَكَّرْتُ فِيمَا عَنِ^(٣) عَلَى بَالِكُمْ كَثِيراً ...
وَأُنْعِمْتُ^(٤) النَّظَرَ فِيهِ طَوِيلاً.

فَرَأَيْتُ أَلَّا نَتَعَرَّضَ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي وَتُبَّتْهُمْ هَذِهِ، فَإِنَّهُمْ الآنَ كَالسَّيْلِ
الْجَارِفِ يَفْتُلِعُ كُلَّ مَا يَغْتَرِضُ طَرِيقَهُ، وَيَحْتَمِلُهُ مَعَهُ، وَيُلْقِي بِهِ حَيْثُ يَشَاءُ.

(١) طمحت: امتدت، وشمخت.

(٢) جَفَلَ: لجأ، وأُجِه.

(٣) عَنِ عَلَى بالهم: خطر لهم.

(٤) أُنْعِمْتُ النَّظَرَ: أطلت النظر وتعمقت في التفكير.

وَوَجَدْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَهُمْ عَقِيدَةٌ وَنِيَّةٌ ؛ تُغْنِيَانِ عَنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَوَفْرَةِ
الْعُدَدِ ...

وَلَهُمْ إِيْمَانٌ ، وَصِدْقٌ ؛ يَقُومَانِ مَقَامَ الدُّرُوعِ ، وَالْخِيُولِ ...
وَلَكِنْ أَمْهَلُوهُمْ حَتَّى تَمْتَلِئَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ ...
وَيَتَّخِذُوا لِأَنْفُسِهِمُ الدُّورَ وَالْقُصُورَ ...
وَيَسْتَكْثِرُوا مِنَ الْإِمَاءِ وَالْخَدَمِ ...
وَيَتَنَافَسُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الرَّئَاسَةِ ...
فَعِنْدَ ذَلِكَ تَتِمَكَّنُونَ مِنْهُمْ بِأَيْسَرِ السَّبِيلِ ، وَأَقْلَ الْجُهْدِ .
فَاطْرَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِيَّ إِطْرَاقَةً حَرِيئَةً ، وَتَنَهَّدَ تَنَهُّدًا عَمِيقًا ، وَفَضَّ
الْمَجْلِسَ وَقَالَ :

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، فَقَدِ اقْتَرَبَ وَقْتُهَا .

* * *

لَبِثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِيَّ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلْغَزْوِ الْكَبِيرِ ...
فَكَتَبَ (١) الْكِتَابَ ، وَعَبَأَ الْجُنُودَ ...
وَشَحَذَ (٢) الْهِمَمَ ، وَعَمَّرَ الْقُلُوبَ ...
وَاسْتَنْجَدَ بِأَمِيرِ « إِفْرِيقِيَّة » فَأَمَدَّهُ بِنُخْبَةٍ مِنَ الْجُنْدِ ؛ يَتَلَطَّوْنَ (٣) شَوْقًا إِلَى
الْجِهَادِ ...

وَيَتَحَرَّقُونَ لَهْفَةً عَلَى الْاسْتِشْهَادِ ...

(١) كَتَبَ الْكِتَابَ : أَعَدَ الْحِيُوشَ .

(٢) شَحَذَ الْهِمَمَ : قَوَّى الْهِمَمَ ، وَأَعَدَّهَا كَمَا تَعِدُّ السَّكَاكِينُ .

(٣) يَتَلَطَّوْنَ : يَتَقَدُّونَ وَيَتَحَرَّقُونَ .

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى «عُثْمَانَ بْنِ أَبِي نُسْعَةَ» أَمِيرِ الثُّغُورِ بِأَنْ يُشَاغِلَ الْعَدُوَّ بِغَارَاتِهِ إِلَى أَنْ يَفْقَدَ عَلَيْهِ هُوَ بِجَمَهْرَةِ الْجَيْشِ .

لَكِنَّ عُثْمَانَ هَذَا كَانَ يَنْضَوِي عَلَى^(١) ضَغِينَةٍ لِكُلِّ أَمِيرٍ بَعِيدٍ^(٢) الْهِمَّةِ عَظِيمِ الطَّمُوحِ ؛ يُقَدِّمُ عَلَى عَمَلٍ كَبِيرٍ يَزْفَعُ ذِكْرَهُ فِي الْأَنَامِ ، وَيُخْمِلُ^(٣) غَيْرُهُ مِنَ الْوَلَاةِ وَالْعَمَالِ .

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ فِي إِحْدَى غَارَاتِهِ السَّابِقَةِ عَلَى «فَرْنَسَا» بِائْتَةِ دُوقِ أُكْتَانِيَّةٍ ، وَتُدْعَى : «مِينِن» .

وَكَانَتْ «مِينِنُ» هَذِهِ فَتَاةَ رِيَانَةِ^(٤) الشَّبَابِ ، بَارِعَةَ الْجَمَالِ .

قَدْ جَمَعَتْ إِلَى فِتْنَةِ الْحُسْنِ عِزَّةَ الْمُلِكِ ...

وَمَزَجَتْ بَيْنَ رَوْنَقِ^(٥) الصُّبَا ، وَدَلَالِ بَنَاتِ الْقُصُورِ .

فَشَغَفَتْ^(٦) فُؤَادَهُ حُبًّا ، وَهَامَ بِهَا وَجْدًا ، وَحَظِيثُ^(٧) عِنْدَهُ كَمَا لَمْ تَحْظَ زَوْجَةً .

وَقَدْ زَيَّنَتْ لَهُ أَنْ يُهَادِنَ أَبَاهَا ، فَعَقَدَ مَعَهُ مَعَاهَدَةً ؛ أَمَّنَهُ فِيهَا مِنْ غَارَاتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مُقَاتَلَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تُتَاجِمُ الثُّغُورَ «الْأَنْدَلُسِيَّةَ» .

فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ بِالزَّخْفِ عَلَى بِلَادِ حِمِيهِ^(٨) «دُوقِ أُكْتَانِيَّةٍ» سَقِطَ فِي يَدِهِ^(٩) ...

وَبَاتَ حَيْرَانَ لَا يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ ؟ .

(١) ينضوي عَلَى صَغِينَةٍ : يمتلىء حقدًا .

(٢) بعيد الهمة : عالي الهمة سامي المقاصد .

(٣) يخمل : يخفي ويُسقط .

(٤) رِيَانَةُ الشَّبَابِ : غُضَّةُ الشَّبَابِ .

(٥) رَوْنَقُ الصُّبَا : بهاء الفتوة .

(٦) شَغَفَتْ فُؤَادَهُ : استولت عَلَى قلبه .

(٧) حَظِيثُ عَنْده : أَصْبَحَتْ ذَاتَ مَكَانَةٍ مَرْمُوقَةٍ عَنْده .

(٨) حِمِيهِ : أَبُو زَوْجَتِهِ .

(٩) سَقِطَ فِي يَدِهِ : تَحِيرَ فَمَا عَادَ يَدْرِي مَا يَفْعَلُ .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ بَادَرَ فَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ الْعَافِقِيِّ يُرَاجِعُهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ،
وَيَقُولُ لَهُ :

إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْفِرَ^(١) عَهْدَ « دُوقِ أُكْتَانِيَّةَ » قَبْلَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ ...
فَاسْتَشَاطَ^(٢) عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ مِنْهُ غَضَباً ...
وَبَعَثَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي قَطَعْتَهُ لِلْفِرَنْجَةِ دُونَ عِلْمِ أَمِيرِكَ لَا يُلْزِمُهُ ، وَلَا يُلْزِمُ جُيُوشَ
الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ .

وَأَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُبَادِرَ إِلَى إِنْفَازِ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا تَلَكُّو^(٣) ...
فَلَمَّا يَمَسَّ ابْنُ أَبِي نُسْعَةَ مِنْ حَمْلِ الْأَمِيرِ عَلَى الْإِقْلَاعِ عَنْ عَزَمِهِ ؛ بَعَثَ
إِلَى حَمِيهِ رَسُولاً يُخْبِرُهُ بِمَا جَرَى .
وَيَدْعُوهُ لِأَنْ يَأْخُذَ حِذْرَهُ^(٤) ...

* * *

لَكِنَّ عُيُونَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيِّ كَانَتْ تَرُصُّ حَرَكَاتِ ابْنِ أَبِي نُسْعَةَ
وَسَكَاتِهِ ... فَتَقَلَّتْ إِلَى الْأَمِيرِ أَخْبَارُ اتِّصَالِهِ مَعَ الْعَدُوِّ .
فَبَادَرَ الْعَافِقِيُّ وَجَّهَ كَتِيبَةً اخْتَارَ رِجَالَهَا مِنْ ذَوِي الشُّدَّةِ وَالْبَأْسِ^(٥) ...
وَعَقَدَ لِيَوَاءِهَا لِمُجَاهِدٍ مِنَ الْكَمَاةِ الْمُجَرَّبِينَ .
وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ بِعُثْمَانَ بْنِ أَبِي نُسْعَةَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا .

* * *

(١) يخفر: ينقض العهد .

(٢) اسْتَشَاطَ : اتقد واشتمل .

(٣) تَلَكُّو : توقف .

(٤) يأخذ حذره : يعد نفسه ويحذر من عدوه .

(٥) البأس : القوة والقدرة .

بَاغَتْ كَتِيبَةُ مُعْسَكَرِ ابْنِ أَبِي نُسْعَةَ ، وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَظْفَرَ بِهِ لَوْلَا أَنَّهُ
نَذِرٌ^(١) بِهَا فِي آخِرِ لَحْظَةٍ ...

فَفَرَّ إِلَى الْجِبَالِ يَصْحَبُهُ عَدَدٌ مِنْ رِجَالِهِ ...
وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ الْحَسَنَاءُ « مِينُنُ » الَّتِي كَانَتْ لَا يُفَارِقُهَا أَبَدًا ، وَلَا يَرَى الدُّنْيَا
إِلَّا بِهَا .

فَمَضَتْ كَتِيبَةُ فِي إِثْرِهِ^(٢) ، وَأَحَاطَتْ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ .
فَدَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ زَوْجَتِهِ دِفَاعَ الْأَسَدِ عَنْ شِبْلِهِ^(٣) ...
وَوَظَلَ يُنَاضِلُ دُونَهَا حَتَّى سَقَطَ قَتِيلًا ..
وَفِي جِسْمِهِ مَا لَا يُحْصَى مِنْ ضَرْبَاتِ السُّيُوفِ ، وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ ...
فَاحْتَزَّ الْجُنُودُ رَأْسَهُ ، وَحَمَلُوهُ مَعَ الْأَمِيرَةِ الْحَسَنَاءِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ
الْغَافِقِيِّ .

فَلَمَّا صَارَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرَأَى جَمَالَهَا الْبَاهِرَ ؛ غَضَّ مِنْ طَرَفِهِ ...
وَأَشَاحَ عَنْهَا بِوَجْهِهِ ...
ثُمَّ أَرْسَلَهَا هَدِيَّةً إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ ...
فَانتَهَتْ حَيَاةُ الْأَمِيرَةِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » الْحَسَنَاءِ فِي حَرَمِ الْخَلِيفَةِ الْأَمَوِيِّ فِي
« دِمَشْقَ » .

(١) نَذِرٌ بِهَا : وَقَفَ عَلَى أَمْرِهَا وَعَلِمَهُ .

(٢) فِي إِثْرِهِ : وِرَاءَهُ .

(٣) شِبْلُهُ : وَلَدُهُ .

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ

بَطْلُ مَعْرَكَةِ بِلَاطِ الشُّهَدَاءِ

« لَوْلَا انتِصَارُ شَاوَلٍ مَارِزِلَ الْهَمْجِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَائِدِهِمُ الْغَافِقِيِّ ؛ لَطَلَّتْ
إِسْبَانِيَا تَنْعَمُ بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَمَّا تَأَخَّرَ سَيَرُ الْمَدِينَةِ فِي أَوْرُبَا ثَمَانِيَةَ قُرُونٍ »
[أَحَدُ مُؤَرِّخِي الْفِرَنْجَةِ]

قَالَ الشَّاعِرُ الْإِنْكِلِيزِيُّ « سُودِي » يَصِفُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي عَزَتْ
« أَوْرُبَا » بَعْدَ فَتْحِ « الْأَنْدَلُسِ » (*) :
« جُمُوعٌ لَا تُحْصَى ...

« مِنْ عَرَبٍ ، وَبَرْبَرٍ ، وَزُومٍ خَوَارِجٍ ...
« وَفُزُسٍ ، وَقَبْطٍ ، وَتَتَرٍ ، قَدْ انْضَمَوْا ^(١) جَمِيعاً تَحْتَ لِوَاءٍ وَاحِدٍ ...
« يَجْمَعُهُمْ إِيْمَانٌ ثَائِرٌ ، رَاسِخُ الْفُتُوَّةِ ...
« وَحِمِيَّةٌ مُتَلَطِّئَةٌ ^(٢) كَالشَّرَرِ ، وَأُخُوَّةٌ مُذْهَلَةٌ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَشَرِ ...

* * *

« وَلَمْ يَكُنْ قَادَتُهُمْ أَقَلٌّ مِنْهُمْ ثِقَةً بِالنَّصْرِ بَعْدَ أَنْ ثَمِلُوا بِحِمَايَا ^(٣) الظَّفَرِ ...
« وَاحْتَالُوا بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا يَقِفَ أَمَامَهَا شَيْءٌ ...
« وَأَيَّقَنُوا أَنَّ جُيُوشَهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُلِمَّ بِهَا الْكَالَالُ ^(٤) ...

(*) من منظومة « سودي » Southy: Roderic the Last 08 Gorths الخاصة « يردريك »
أو « لودوريك » آخر ملوك القوط في « إسبانيا » .

(١) انْضَمَوْا : انضموا .

(٣) ثَمِلُوا بِحِمَايَا الظَّفَرِ : سَكَرُوا بِخَمْرِ الْغَلْبَةِ .

(٤) الْكَالَالُ : العناء والتعب .

(٢) مُتَلَطِّئَةٌ : متقدمة .

« فَهِيَ دَائِمًا فَيِّئُهُ مَشْبُوبَةٌ^(١) كَمَا انْطَلَقَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...
 « وَآمَنُوا بِأَنَّهَا حَيْثُمَا تَحَرَّكَتْ مَشَى فِي رِكَابِهَا النَّصْرُ وَالْغَلَبُ ...
 « وَأَنَّهَا سَتَنْدَفِعُ دَائِمًا إِلَى الْأَمَامِ ...
 « حَتَّى يُصْبِحَ الْغَرْبُ الْمَغْلُوبُ كَالشَّرْقِ ...
 « يُطَأْطِئُ الرَّأْسَ إِجْلَالًا لِاسْمِ مُحَمَّدٍ ...
 « وَحَتَّى يَنْهَضَ الْحَاجُّ مِنْ أَقَاصِي الْمُتَجَمِّدِ^(٢) ...
 « إِلَى أَنْ يَطَأَ بِأَقْدَامِ الْإِيمَانِ الرَّمَالَ الْمُحْرِقَةَ ...
 « الْمُنْتَشِرَةَ^(٣) عَلَى صَحْرَاءِ الْعَرَبِ ...
 « وَيَقِفَ فَوْقَ صُخُورِ مَكَّةَ الصَّلْدَةِ ... » .

* * *

لَمْ تَكُنْ أَثْنَاهَا الشَّاعِرُ بَعِيدًا عَنِ الْحَقِيقَةِ .
 أَوْ هَائِمًا فِي أَوْدِيَةِ الْخَيَالِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قُلْتَ .
 فَقَدْ كَانَتِ الْجُيُوشُ الَّتِي قَادَهَا الْمُجَاهِدُونَ لِإِخْرَاجِ آبَائِكَ مِنْ جَاهِلِيَّتِهِمْ
 الْجَهْلَاءِ^(٤) كَمَا وَصَفْتَ ...

فَفِيهَا عَرَبٌ أَقْوِيَاءُ بِاللَّهِ هَبُّوا إِلَيْكُمْ .
 مِنَ الشَّامِ ...
 مِنَ الْحِجَازِ ...
 مِنْ نَجْدٍ ...

(٣) الْمُنْتَشِرَةُ : التَّسَاقُطَةُ .
 (٤) الْجَهْلَاءُ : الْمَغْرَقَةُ فِي الْجَهْلِ .

(١) مَشْبُوبَةٌ : مُتَقَدَّةٌ .
 (٢) الْمُتَجَمِّدُ : الْقُطْبُ الشَّمَالِي .

مِنَ الْيَمَنِ ...

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ...

كَمَا تَهْبُ الرِّيحُ الْمُرْسَلَةُ .

وَفِيهَا « بَرْبَرٌ » أَعِزَّةٌ بِالْإِسْلَامِ ؛ تَدْفُقُوا عَلَيْكُمْ مِنْ فَوْقِ جِبَالِ الْأَطْلَسِ ^(١)
كَمَا يَتَدَفَّقُ السَّيْلُ الْعَرِمُ ^(٢) ...

وَفِيهَا « فُرْسٌ » عَافَتْ ^(٣) عُقُولُهُمْ وَثَنِيَّةُ الْأَكَاسِرَةِ ^(٤) ، وَفَاءَتْ إِلَى دِينِ
التَّوْحِيدِ ...

وَصِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

وَفِيهَا « رُومٌ » خَوَارِجٌ ، كَمَا قُلْتَ ...

وَلَكِنَّهُمْ خَرَجُوا عَلَى الظُّلْمِ ، وَالظُّلُمَاتِ ...

وَانْحَارُوا إِلَى نُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...

وَهَدُّوا إِلَى دِينِ الْقِيَمَةِ ^(٥) .

وَفِيهَا « قِبْطٌ » رَفَعُوا عَنْ رِقَابِهِمْ نِيرَ الْعُبُودِيَّةِ لِلْقِيَاصِرَةِ ^(٦) .

لِيَعِيشُوا كَمَا وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا فِي أَكْنَافِ ^(٧) الْإِسْلَامِ ...

نَعَمْ لَقَدْ كَانَ الْجَيْشُ الَّذِي قَادَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ وَأَسْلَافُهُ لِإِنْقَادِ
أَجْدَادِكَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ ... فِيهِ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ ، وَالْعَرَبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ .

(١) جبال الأطلس : الجبال الواقعة بين المغرب العربي وإسبانيا .

(٢) السيل العرم : السيل المتدفق الجارف .

(٣) عَافَتْ : كرهت واشمأزت .

(٤) الأكاسرة : ملوك الفرس .

(٥) دين القيمة : الدين المستقيم الذي لا يأتيه الباطل .

(٦) القياصرة : ملوك الروم .

(٧) أكناف الإسلام : حمى الإسلام وجزره .

لَكِنَّهُمْ انصَهَرُوا جَمِيعاً فِي بَوْتَقَةِ (١) الْإِسْلَامِ ...
فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَاناً .
وَقَدْ كَانَ هَمُّهُمْ - كَمَا ذَكَرْتُ - أَنْ يُدْخِلُوا الْعَرَبَ فِي دِينِ اللَّهِ كَمَا
أَدْخَلُوا الشَّرْقَ مِنْ قَبْلُ .
وَأَنْ يَجْعَلُوا الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا تُطَاطِئُ (٢) الرَّأْسَ لِإِلَهِ النَّاسِ .
وَأَنْ يُعَمَّ نُورُ الْإِسْلَامِ بِطَاحِكُمْ (٣) وَأَوْدِيَّتْكُمْ .
وَأَنْ تُشْرِقَ شَمْسُهُ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِكُمْ .
وَأَنْ يُسَوِّيَ عَدْلُهُ بَيْنَ مُلُوكِكُمْ وَسُوقَتِكُمْ (٤) .
وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا أَرْوَاحَهُمْ ثَمناً لِهَدَايَتِكُمْ إِلَى اللَّهِ ...
وَلِإِنْفَادِكُمْ مِنَ النَّارِ ...

* * *

وَبَعْدُ ... فَالْيَكُمُ الْقِصَّةُ الْأَخِيرَةُ لِهَذَا الْجَيْشِ .
وَحَبَرَ بَطْلِهِ الْفَذُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيِّ .
تَنَاهَتْ إِلَى « دُوقِ أُكْتَانِيَّةِ » الْأَخْبَارُ الْمُفْرِعَةُ عَنْ مَضْرَعِ صِهْرِهِ عُثْمَانَ بْنِ
أَبِي نُسْعَةَ (٥) .
وَبَلَغَتْهُ أَنْبَاءُ النَّهَائِيَةِ الْحَزِينَةِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيْهَا ابْنَتُهُ الْحَسَنَاءُ « مِينِينُ » (٦) ...

(١) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ الذهب والفضة .

(٢) تطاطئ : تخفض .

(٣) بطاحكم : سهولكم .

(٤) سوقتكم : عامتكم .

(٥) انظر خبره في : « عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس » .

(٦) انظر خبرها في : « عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس » .

فَأَدْرَكَ أَنَّ طُبُولَ الْحَرْبِ قَدْ دَقَّتْ ...

وَأَيَّقَنَ أَنَّ أَسَدَ الْإِسْلَامِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيَّ مُمَسِّ فِي دِيَارِهِ ،
أَوْ مُضْبِحٌ ...

فَتَأَهَّبَ لِلدَّفَاعِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَرْضِهِ ؛ دِفَاعَ الْمُسْتَمِيمِ .

وَاسْتَعَدَّ لِلنُّضَالِ دُونَ نَفْسِهِ وَمَمْلَكَتِهِ ؛ اسْتِعْدَادَ الْمُسْتَبْسِلِ ...

فَقَدْ كَانَ يَخْشَى أَنْ يُسَاقَ هُوَ الْآخِرُ أُسِيرًا إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ فِي الشَّامِ كَمَا
سَيَقْتِ ابْنَتُهُ .

أَوْ أَنْ يُحْمَلَ رَأْسُهُ عَلَى طَبَقٍ ، وَيُطَافَ بِهِ فِي أَسْوَاقِ « دِمَشْقَ » كَمَا طِيفَ
بِرَأْسِ « لُذْرِيْقَ » مَلِكِ إِسْبَانِيَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

لَمْ يُكْذِبْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيَّ ظَنُّ الدُّوقِ ...

فَانْطَلَقَ بِجَيْشِهِ اللَّجَبِ^(١) مِنْ شِمَالِ « الْأَنْدَلُسِ » كَمَا يَنْطَلِقُ
الْإِعْصَارُ^(٢) .

وَانْصَبَّ عَلَى جَنُوبِ « فَرَنْسَا » مِنْ فَوْقِ جِبَالِ « الْبَرْنِيَّةِ » كَمَا يَنْصَبُّ
السَّيْلُ .

وَكَانَتْ عِدَّةُ جَيْشِهِ مِائَةَ أَلْفٍ مُجَاهِدٍ .

يَبْنَ جَوَانِحِ كُلِّ مِنْهُمْ قَلْبُ أَسَدٍ ...

وَفِي عُزُوقِهِ عَزْمَةٌ مَارِدٍ^(٣) ...

* * *

(١) اللَّجَبُ : الكثيف الجرار .

(٢) الإِعْصَارُ : ريح تقذف مياه البحار والتراب .

(٣) المارد : القوي الذي لَا يُغْلَبُ .

يَمَّمُ ^(١) الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيَّ وَجْهَهُ شَطْرَ مَدِينَةِ «آرِل» ^(٢) الْوَاقِعَةِ عَلَى
ضِفَافِ نَهْرِ «الرُّون» .

فَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَعَهَا حِسَابٌ ...

ذَلِكَ أَنَّ «آرِل» هَذِهِ كَانَتْ قَدْ صَالَحَتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ تَدْفَعَ لَهُمْ
الْجِزْيَةَ .

فَلَمَّا اسْتُشْهِدَ «السَّمُحُ بْنُ مَالِكِ الْحَوْلَانِيُّ» فِي مَعْرَكَةِ «تُولُوز» ^(٣) ،
وَتَضَعَضَعَ الْمُسْلِمُونَ لِمَضْرَعِهِ ؛ نَبَذَ ^(٤) أَهْلُ «آرِل» الطَّاعَةَ ، وَنَكَثُوا الْعَهْدَ ،
وَامْتَنَعُوا عَنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ .

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ ضَوَاحِيَ الْمَدِينَةِ ، وَجَدَ أَنَّ «أَوْدَ» «دُوقَ
أُكْتَانِيَّةَ» قَدْ عَبَأَ قُوَاتِهِ الْكَثِيفَةَ عِنْدَهَا .

وَحَشَدَهَا حَوْلَ تُخُومِهَا ...

وَتَصَدَّى ^(٥) لِرِدِّ الرَّحْفِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَيْهَا ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ التَّقَى الْجَيْشَانِ وَجْهًا لِيُوجِهُ .

وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ طُحُونٌ ^(٦) ...

قَذَفَ خِلَالَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ بِكَتَائِبٍ مِنْ جَيْشِهِ تُحِبُّ الْمَوْتَ
أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ أَعْدَاؤُهَا الْحَيَاةَ ، فَزَلَزَ أَقْدَامَ الْعَدُوِّ ... وَمَزَقَ صُفُوفَهُ ...

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ حَرْبًا .

(١) يَمَّمُ وَجْهَهُ : وَلَّى وَجْهَهُ ، وَاتَّجَهَ .

(٢) ARLES : مدينة في جنوب فرنسا على نهر الرون شمالي مرسيليا .

(٣) TOULOUSE : مدينة في جنوب فرنسا على نهر الغارون وهي قاعدة محافظة غارون العليا .

(٤) نَبَذُوا الطَّاعَةَ : غَضُّوا وَخَرَجُوا عَلَى الطَّاعَةِ . (٥) تَصَدَّى : اتَّجَهَ وَتَعَرَّضَ . (٦) طُحُون : طاحنة ، قاسية .

فَأَعْمَلَ السَّيْفَ فِي رِقَابِ أَهْلِهَا .

وَأُتْخِرَ^(١) فِيهِمْ إِثْحَانًا .

وَعَنِمَ مِنْهُمْ غَنَائِمَ عَزَّتْ عَلَى الْحَصْرِ .

أَمَّا الدُّوقُ « أَوْدُ » فَقَدْ فَرَّ بِمَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْ جُنُودِهِ ...

وَوَظَّفَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلِقَاءِ آخَرَ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ .

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مَعْرَكَةَ « آرِل » كَانَتْ بِدَايَةِ الطَّرِيقِ ، وَلَيْسَتْ نِهَائِيَّةً .

* * *

عَبَّرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ نَهْرَ « الْجَارُون »^(٢) ، وَطَفِقَتْ

كُتَائِبُهُ الظَّافِرَةُ تَجُوسُ^(٣) مُقَاطَعَةَ « أُكْتَانِيَّة » ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَذَاتَ الشَّمَالِ .

وَأَخَذَتِ الْمُدُنُ وَالْقُرَى تَتَسَاقُطُ تَحْتَ سَنَابِكِ^(٤) خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقُطُ

أُورَاقُ الشَّجَرِ فِي فَضْلِ الْخَرِيفِ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهَا الرِّيحُ الْهُوجُ^(٥) .

وَأُضَافَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى غَنَائِمِهِمُ السَّابِقَةِ غَنَائِمَ لَاحِقَةٍ لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ مِنْ

قَبْلُ ...

وَلَمْ تَسْمَعْ بِهَا أَدُنْ ...

وَقَدْ حَاوَلَ دُوقُ « أُكْتَانِيَّة » أَنْ يَتَصَدَّى لِهَذَا الزَّحْفِ الْكَبِيرِ مَرَّةً أُخْرَى

فَاشْتَبَكَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ ضَرْوَسِ .

(١) أُتْخِرَ : اشدُّ في قتلهم وبالغ فيه اشدُّ المبالغة .

(٢) GARONNE : نهر في جنوب غربي فرنسا ٦٥٠ كم ينبع من اسبانيا ويروي تولوز ، وآجن وبوردو ،

ويصب في الأطلسي .

(٣) تجوس : تجول وتستقصي .

(٤) سنايك خيله : حوافر جياده .

(٥) الهوج : التي تفلع البيوت .

لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا لَبِثُوا أَنْ هَزَمُوهُ هَزِيمَةً طَاحِنَةً^(١)...

وَأَنْزَلُوا بِهِ نَكْبَةً سَاحِقَةً مُدْمِرَةً...

وَمَزَقُوا جَيْشَهُ شَرَّ مَزَقٍ...

وَتَرَكُوا جُنْدَهُ بَيْنَ قَتِيلٍ، وَأَسِيرٍ، وَهَزِيمٍ^(٢).

* * *

ثُمَّ اتَّجَهَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَدِينَةِ «بُورْدُو»^(٣) كُتِبَ الْمُدْنِ «الإِفْرَنْسِيَّة»
آنَ ذَاكَ، وَعَاصِمَتِهَا مَقَاطَعَةُ «أُكْتَانِيَّة».

وَحَاضُوا مَعَ أَمِيرِهَا مَعْرَكَةً لَا تَقِلُّ هَوْلًا عَنِ الْمَعَارِكِ السَّابِقَةِ...

اسْتَبَسَلَ فِيهَا الْمُهَاجِمُونَ وَالْمُدَافِعُونَ اسْتَبَسَالًا يُثِيرُ الْعَجَبَ
وَالِإِعْجَابَ^(٤)...

لَكِنَّ الْمَدِينَةَ الْكَبِيرَةَ الْخَطِيرَةَ مَا لَبِثَتْ أَنْ سَقَطَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ
كَمَا سَقَطَتْ أَخَوَاتُهَا مِنْ قَبْلُ.

وَمَا لَبِثَتْ أَمِيرُهَا أَنْ قُتِلَ فِي جُمْلَةِ الْقَتْلَى.

وَأَحْزَرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ غَنَائِمِ «بُورْدُو» مَا هَوَّنَ^(٥) فِي أَعْيُنِهِمْ كُلَّ
مَا أَحْزَرُوهُ مِنْ غَنَائِمٍ.

وَقَدْ كَانَ سَقُوطُ «بُورْدُو» فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ فَاتِحَةً لِسُقُوطِ مُدْنٍ
أُخْرَى كَثِيرَةٍ خَطِيرَةٍ.

(١) الطاحنة : التي تطحن ما تقع عليه طحناً .

(٢) هزيم : مهزوم .

(٣) BORDEAUX : مرفأ في فرنسا على نهر الغارون وهي الآن قاعدة محافظة جيونده .

(٤) الإعجاب : الإعجاب والدعشة . (٥) ما هَوَّنَ في أعينهم : ما جعلهم يستخفون به ويعتبرونه قليلاً .

أَهْمُهَا « لِيُونُ » ^(١) وَ « بِيَزَانْسُونُ » ^(٢) وَ « سَانْسُ SENS » .
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَخِيرَةُ لَا تَبْعُدُ عَنْ « بَارِيسَ » أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مِيلٍ .

* * *

اهْتَرَّت « أُورُبَّا » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا لِسُقُوطِ نِصْفِ « فَرَنْسَا »
الْجَنُوبِيِّ كُلِّهِ فِي يَدَيِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيِّ خِلَالَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ ...
وَفَتَحَ الْفِرَنْجَةُ أَعْيُنَهُمْ عَلَى الْخَطَرِ الدَّاهِمِ ^(٣) .
وَدَبَّ الصَّرِيخُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَدْعُو الْعَجْزَةَ وَالْقَادِرِينَ إِلَى الْوُقُوفِ فِي وَجْهِ
هَذَا الْهَوْلِ ^(٤) الْقَادِمِ مِنَ الشَّرْقِ .

وَيُحْضِثُهُمْ عَلَى التَّصَدِّي لَهُ بِالْصُّدُورِ إِذَا عَزَّتِ الشُّيُوفُ .
وَيَدْعُوهُمْ إِلَى سَدِّ الطَّرِيقِ أَمَامَهُ بِالْأَجْسَادِ إِذَا انْعَدَمَ الْعَتَادُ ^(٥) .
فَاسْتَجَابَتْ « أُورُبَّا » لِدَعْوَةِ الدَّاعِي .

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَاءِ « شَارْلَ مَارْتِلِ » وَمَعَهُمُ الشَّجَرُ ،
وَالْحَجَرُ ، وَالشُّوكُ ، وَالسَّلَاحُ .

* * *

كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ آنَذَاكَ قَدْ بَلَغَ مَدِينَةَ « تُورُ TOURS » طَلِيعَةَ مُدُنِ
« فَرَنْسَا » وَفُرَةَ فِي الشُّكَّانِ ، وَقُوَّةً فِي الْبُنْيَانِ ، وَعِرَاقَةً ^(٦) فِي التَّارِيخِ ...
وَكَانَتْ الْمَدِينَةُ - فَوْقَ ذَلِكَ - تَخْتَالُ ^(٧) عَلَى أَكْثَرِ مُدُنِ « أُورُبَّا »
بِكَيْسِيَّتِهَا الْفَحْمَةِ ، الصُّحْمَةِ ، الْعَامِرَةِ بِجَلِيلِ الْأَعْلَاقِ ^(٨) ، وَكَرِيمِ النَّفَائِسِ .

(١) LYON : مدينة في جنوب شرقي فرنسا على ملتقى الرون والسون وهي قاعدة محافظة الرون .

(٢) BESANCON : مدينة في شرق فرنسا على نهر دو قاعدة محافظة دو .

(٣) الدَّاهِمُ : المفاجئ . (٦) عِرَاقَةٌ : قَدَمًا وَمَكَانَةً وَسَمَوًّا .

(٤) الْهَوْلُ : الخطر المرعب . (٧) تَخْتَالُ : تعتز وتباهي .

(٥) الْعَتَادُ : كل ما أعد من سلاح ودواب وآلة حرب . (٨) الْأَعْلَاقُ : الآثار القديمة ، النفيسة الثمينة .

فَأَحَاطَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ إِحَاطَةً الْعُلَّ^(١) بِالْعُنُقِ ...
وَانْصَبُّوا عَلَيْهَا انْصِبَابَ الْمُئُونِ إِذَا جَاءَ الْأَجَلُ ...
وَاسْتَرْخَصُوا فِي سَبِيلِ افْتِتَاحِهَا الْأَرْوَاحَ وَالْمُهَجَ ...
فَمَا لَبِثْتُ أَنْ سَقَطْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَلَى مَوَأًى « شَارْلَ مَارْتِل » وَمَسْمَعِهِ ...

* * *

وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَمِائَةِ لِلْهِجْرَةِ ؛ زَحَفَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ بِجَيْشِهِ اللَّجْبِ عَلَى مَدِينَةِ « بُوَاتِييه POITIERS » .
وَهُنَاكَ التَّقَى مَعَ جُيُوشِ أَوْرُبَّا الْجَزَارَةَ بِقِيَادَةِ « شَارْلَ مَارْتِل » .
وَوَقَعَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِحْدَى الْمَعَارِكِ الْفَاصِلَةِ لَا فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ
وَالْفَرِنجَةِ فَحَسِبُ ...

وَأِنَّمَا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا .
وَقَدْ عُرِفَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ بِمَعْرَكَةِ « بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ » .

* * *

كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ يَوْمَئِذٍ فِي ذُرْوَةِ انْتِصَارَاتِهِ الْبَاهِرَةِ .
لَكِنَّ كَاهِلَهُ^(٢) كَانَ مُثْقَلًا بِتِلْكَ الْغَنَائِمِ الَّتِي انْصَبَّتْ عَلَيْهِ انْصِبَابَ
الْعَيْثِ ...

وَتَكَدَّسَتْ فِي أَيْدِي جُنُودِهِ تَكَدُّسَ السُّحْبِ ...
وَقَدْ نَظَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ إِلَى هَذِهِ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ نَظْرَةً قَلْبِي
وِإِشْفَاقِي^(٣) .

(٣) إِشْفَاقٌ : خَوْفٌ وَحَذَرٌ .

(٢) كَاهِلُهُ : ظَهْرُهُ .

(١) الْعُلُّ : الْقَيْدُ .

وَتَوَجَّسَ^(١) مِنْهَا خِيفَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

فَقَدْ كَانَ لَا يَأْمُنُ أَنْ تَشْغَلَ هَذِهِ النَّفَائِسُ قُلُوبَهُمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ ...

وَأَنْ تُوزَّعَ نُفُوسُهُمْ فِي لَحْظَاتِ الْبَأْسِ^(٢) ...

وَأَنْ تَجْعَلَ إِحْدَى عَيْنَيْ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ عَلَى الْعَدُوِّ الْمُقْبِلِ عَلَيْهِ ...

وَعَيْنُهُ الْأُخْرَى عَلَى الْغَنَائِمِ الَّتِي فِي يَدَيْهِ ...

وَلَقَدْ هَمَّ بِأَنْ يَأْمُرَ جُنُودَهُ بِالتَّخْلُصِ مِنْ هَذِهِ الثَّرَوَاتِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ ...

وَلَكِنَّهُ خَشِيَ أَلَّا تَطِيبَ قُلُوبُهُمْ^(٣) بِذَلِكَ الْقَرَارِ الْخَطِيرِ ...

وَأَلَّا تَسْمَحَ نُفُوسُهُمْ بِالتَّخْلِي عَنْ ذَلِكَ الْكَثْرِ الثَّمِينِ .

فَلَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً خَيْرًا مِنْ أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ الْمَغَانِمَ فِي مُحَيَّمَاتٍ خَاصَّةٍ ...

وَأَنْ يَجْعَلَهَا وَرَاءَ الْمُعَسْكَرِ قَبْلَ إِنْشَابِ^(٤) الْقِتَالِ .

* * *

وَقَفَ الْجَيْشَانِ الْكَبِيرَانِ بِضَعَةِ أَيَّامٍ كُلُّ مِنْهُمَا قُبَالَةَ^(٥) الْآخَرِ فِي سُكُونٍ ،

وَتَرَقَّبَ وَصُمَّتْ ، كَمَا تَقِفُ سِلْسِلَتَانِ مِنَ الْجِبَالِ إِحْدَاهُمَا فِي وَجْهِ الْأُخْرَى .

فَقَدْ كَانَ كُلُّ مِنَ الْجَيْشَيْنِ يَخْشَى بَأْسَ عَدُوِّهِ ، وَيَحْسِبُ لِلِقَائِهِ أَلْفَ

حِسَابٍ .

فَلَمَّا طَالَ الْوَقْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، وَوَجَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ

(١) تَوَجَّسَ خِيفَةً : أَحَسَّ بِالْفَزَعِ .

(٢) الْبَأْسُ : الشَّدَّةُ .

(٣) تَطِيبَ قُلُوبَهُمْ : تَرْتَاحَ نَفُوسَهُمْ وَتَجُودَ أَيْدِيَهُمْ .

(٤) إِنْشَابَ الْقِتَالِ : إِثَارَةَ الْحَرْبِ .

(٥) قُبَالَةَ الْآخَرِ : فِي مَوَاجِهَةِ الْآخَرِ .

مَرَّاجِلَ^(١) الْحَمِيَّةِ وَالْإِقْدَامِ تَغْلِي فِي صُدُورِ رِجَالِهِ ، آثَرَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْبَادِي
بِالْهُجُومِ مُعْتَمِداً عَلَى مَنَاقِبِ^(٢) جُنْدِهِ ...
مُتَفَائِلًا بِحُسْنِ طَالِعِهِ^(٣) فِي النَّصْرِ .

* * *

انْقَضَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ الْعَاقِبِيُّ بِفُرْسَانِهِ عَلَى صُفُوفِ الْفِرَنْجَةِ انْقِضَاضَ
الْأَسُودِ الْكَاسِرَةِ .

وَصَمَدَ لَهُمُ الْفِرَنْجَةُ صُمُودَ الْأَطْوَادِ^(٤) الرَّاسِخَةِ .
وَانْقَضَى الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ الْمَعْرَكَةِ دُونَ أَنْ تَرْجَحَ فِيهِ كَفَّةٌ عَلَى
كَفَّةٍ ...

وَلَمْ يَحْجُزْ بَيْنَ الْمُتَقَاتِلِينَ غَيْرُ هُبُوطِ الظَّلَامِ عَلَى مَيْدَانِ الْقِتَالِ ...
ثُمَّ تَجَدَّدَ النَّزَالُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِي ، وَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْفِرَنْجَةِ
حَمَلَاتٍ بَاسِلَةً ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا مِنْهُمْ وَطَرًا^(٥) .
وَوَلَّتِ الْمَعْرَكَةُ تَدَوُّرًا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ طَوِيلَةً ثَقِيلَةً .
فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ كَرَّرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَرَّةً وَاحِدَةً .
فَفَتَحُوا فِي صُفُوفِهِ ثُغْرَةً كَبِيرَةً لَاحَ لَهُمْ مِنْ خِلَالِهَا النَّصْرُ كَمَا يَلُوحُ ضَوْءُ
الصُّبْحِ مِنْ خِلَالِ الظَّلَامِ .

عِنْدَ ذَلِكَ أَغَارَتْ فِرْقَةٌ مِنْ كَتَائِبِ الْفِرَنْجَةِ عَلَى مُعَسِكَرَاتِ الْغَنَائِمِ .
فَلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ أَنَّ غَنَائِمَهُمْ قَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَقَعَ فِي أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ .

(١) المَرَّاجِلُ : المَوَاقِدُ ، وَالْمِرْجَلُ : الْقِدْرُ أَيْضًا .

(٤) الْأَطْوَادُ : الْجِبَالُ .

(٢) الْمَنَاقِبُ : الْمَزَايَا وَالْخِصَالُ .

(٥) وَطَرًا : بُعِيَّةً .

(٣) طَالِعُهُ : حُظُّهُ .

انْكَفَأَ^(١) كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِاسْتِخْلَاصِهَا مِنْهُ .

فَتَصَدَّعَتْ لِذَلِكَ صُفُوفُهُمْ ...

وَتَضَعَضَعَتْ جُمُوعُهُمْ ...

وَذَهَبَتْ رِيحُهُمْ^(٢) ...

فَهَبَ الْقَائِدُ الْعَظِيمُ يَعْمَلُ عَلَى رَدِّ الْمُتَكَبِّفِينَ ...

وَمُدَافَعَةِ الْمُهَاجِمِينَ ...

وَسَدِّ الثُّغُورِ^(٣) ...

وَفَيْمَا كَانَ بَطْلُ الْإِسْلَامِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَاقِبِيُّ يَذَرُغُ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ عَلَى صَهْوَةٍ^(٤) جَوَادِهِ الْأَشْهَبِ^(٥) جَيْتَةً وَذَهَاباً ...

وَكُرّاً وَفَرّاً ...

أَصَابَهُ سَهْمٌ نَافِذٌ فَهَوَى عَنْ مَتْنِ فَرَسِهِ كَمَا يَهْوِي الْعُقَابُ^(٦) مِنْ فَوْقِ قِمَمِ الْجِبَالِ .

وَتَوَلَّى صَرِيحاً شَهِيداً عَلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ .

فَلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ عَمَّهُمُ الدُّعْرُ وَسَادَهُمُ الْإِضْطِرَابُ .

وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ وَطْأَةُ الْعَدُوِّ ، وَلَمْ يُوقِفْ بِأَسْهُ عَنْهُمْ إِلَّا حُلُولُ الظَّلَامِ .

* * *

(١) انْكَفَأَ : تراجع .

(٢) ريحهم : قوتهم وغلبيتهم .

(٣) الثغور : الأماكن التي ينفذ منها العدو .

(٤) الصهوة : مقعد الفارس من الفرس .

(٥) الأشهب : الذي خالط بياضه سواده .

(٦) العقاب : طائر من الجوارح قوي الخالب ذو منقار أعقف انظر كتاب « الصيد عند العرب » للمؤلف .

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ وَجَدَ « شَارُلُ مَارْتِلُ » أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ انْسَحَبُوا مِنْ
« بُوَانِيَه » .

فَلَمْ يَجْزُوا عَلَى مُطَارَدَتِهِمْ ...
وَلَوْ طَارَدَهُمْ لَأَفْنَاهُمْ .

ذَلِكَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ انْسِحَابُهُمْ مَكِيدَةً مِنْ مَكَائِدِ الْحَرْبِ دُبِّرَتْ (١)
فِي لَيْلٍ ...

فَأَثَرُ الْبَقَاءِ فِي مَوَاقِعِهِ مُكْتَفِيًا بِذَلِكَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ .
لَقَدْ كَانَ يَوْمُ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ يَوْمًا حَاسِمًا فِي التَّارِيخِ .
أَضَاعَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ أَمَلًا مِنْ أَعَزِّ الْأَمَالِ ...
وَفَقَدُوا خِلَالَهُ بَطَلًا مِنْ أَعْظَمِ الْأَبْطَالِ ...
وَتَكَرَّرَتْ فِيهِ مَأْسَاءُ يَوْمِ « الْأَحَدِ » (٢) ...
سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ...
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ...

* * *

هَزَّتْ أَنْبَاءُ فَاجِعَةِ يَوْمِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ هَزًّا
عَنيفًا ...

وَزُلْزِلَتْ (٣) لِهَوْلِهَا أَفْعِدَتْهُمْ زَلْزَالًا شَدِيدًا ...
وَعَمَّ الْحُزْنَ بِسَبَبِهَا كُلَّ مَدِينَةٍ ، وَكُلِّ قَرْيَةٍ ، وَكُلِّ بَيْتٍ .

(١) دُبِّرَتْ فِي لَيْلٍ : حِيلَةٌ احْتِيلَ بِهَا يَمِينًا .

(٢) لَقَدْ كَانَ الْحَرْصُ عَلَى الْغَنَائِمِ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَفِي يَوْمِ « الْأَحَدِ » سَبَبًا فِي هَرِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ .

(٣) زُلْزِلَتْ : أَوْجِعَتْ .

وَمَا زَالَ جُرْحُهَا الْمُمِضُ (١) يَنْزِفُ (٢) مِنْ قُلُوبِهِمْ دَمًا حَتَّى الْيَوْمِ .
وَسَيَظَلُّ يَنْزِفُ مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مُسْلِمًا .

* * *

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هَذَا الْجُرْحَ الْعَمِيقَ الْغَائِرَ قَدْ أَمَضَّ أَفْعَدَةَ الْمُسْلِمِينَ
وَوَحَدَهُمْ .

وَأِنَّمَا شَارَكَهُمْ فِي ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ عُقَلَاءِ الْفِرَنْجَةِ .
رَأَوْا فِي انْتِصَارِ أَجْدَادِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي « بُوَاتِيَّةِ » مُصِيبَةٍ كُبْرَى
رُزِئَتْ (٣) بِهَا الْإِنْسَانِيَّةُ .

وَحَسَارَةٌ عَظُمَى أَصَابَتْ « أُورُبَّا » فِي صَمِيمِهَا ...

وَنَكْبَةٌ جَلِيٌّ نُكِبَتْ بِهَا الْحَضَارَةُ .

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَقِفَ عَلَى رَأْيِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ فِي فَجِيعَةِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ
فَاسْتَمِعْ إِلَى « هِنري دي شامبون » مَدِيرِ مَجَلَّةِ « رِيشي بارلمنتير » الْفَرَنْسِيَّةِ
حَيْثُ قَالَ :

« لَوْلَا انْتِصَارُ جَيْشِ « شَارْلَ مَارْتِلْ » الْهَمَجِيِّ عَلَى الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ فِي
« فَرَنْسَا » لَمَا وَقَعَتْ بِلَادُنَا فِي ظُلُمَاتِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى (٤) ...

وَلَمَا أُصِيبَتْ بِفَظَائِعِهَا .

وَلَا كَابَدَتْ الْمَذَابِحَ الْأَهْلِيَّةَ الَّتِي دَفَعَ إِلَيْهَا التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ الْمَذْهَبِي ...

(١) الْمُمِضُ : الْمَوْجِعُ .

(٢) يَنْزِفُ : يَقْطُرُ دَمًا .

(٣) رُزِئَتْ : فَجِعَتْ .

(٤) الْقُرُونِ الْوُسْطَى : وَهِيَ الْقُرُونُ الْمَظْلُومَةُ الَّتِي تَمْتَدُّ مِنْ سَنَةِ ٤٧٦ إِلَى سَنَةِ ١٥٠٠ م .

نَعَمْ ، لَوْلَا ذَلِكَ الْإِنْتِصَارُ الْوَحْشِيُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي « بُوَاتِيهِ » لَظَلَّتْ
« إِسْبَانِيَا » تَنْعَمُ بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ .

وَلَنَجَتْ مِنْ وَصْمَةِ مَحَاكِمِ التَّقْطِيشِ (١) .

وَلَمَّا تَأَخَّرَ سَيْرُ الْمَدِينَةِ ثَمَانِيَةَ قُرُونٍ .

وَمَهْمَا اخْتَلَفَتِ الْمَشَاعِيرُ وَالْآرَاءُ حَوْلَ انْتِصَارِنَا ذَاكَ .

فَنَحْنُ مَدِينُونَ لِلْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ مَحَامِدٍ حَضَارَتِنَا فِي الْعِلْمِ ، وَالْفَنِّ ،
وَالصُّنَاعَةِ .

مَدْعُوُونَ لِأَنْ نَعْتَرِفَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مِثَالِ الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ .

فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ مِثَالِ الْهَمَجِيَّةِ .

وَأَفْتِرَاءَ مَا نَدَّعِيهِ الْيَوْمَ مِنْ أَنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ (٢) .

وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَصَلُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الْعُصُورِ
الْوُسْطَى « (*) » .

(١) محاكم التفتيش: هي المحاكم التي عقدها فرديناند والملكة إيزابيلا للمسلمين في الأندلس وارتكبا فيها من
الجرائم الإنسانية ما يندى له جبين التاريخ .
(٢) استدار: قد عاد إلى ما كان عليه .

(*) للاستزادة من أخبار عَجْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ ووقعة بُوَاتِيهِ انظر :

- ١ - ابن الأثير: ٦٤/٥ .
- ٢ - غزوات العرب: ٨٧ - ١٠٢ .
- ٣ - البيان المغرب: ٢٦/٢ - ٢٨ .
- ٤ - نفح الطيب: ٤٨٠/١ .
- ٥ - جمهرة الأنساب: ٣٠٩ .
- ٦ - علماء الأندلس لابن الفَرُضِيِّ: ٢١٤ .
- ٧ - جذوة المقتبس: ٢٥٣ - ٢٥٥ .

النَّجَاشِيُّ

أَصْحَمَةُ بْنُ أَبَجَرَ

«لَمَّا مَاتَ النَّجَاشِيُّ كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُرَى عَلَى قَبْرِهِ نُورٌ...»
[عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ]

عَلَّمْنَا هَذَا تَابِعِيٍّ إِذَا ذُكِرَ التَّابِعُونَ...

صَحَابِيٍّ إِذَا عُذَّ الصَّحَابَةُ...

رَأَسَلَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَرَأَسَلَهُ النَّبِيُّ...

وَلَمَّا لَحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى^(١) صَلَّى عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ صَلَاةَ الْغَائِبِ؛ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ عَلَى غَائِبٍ سِوَاهُ.

إِنَّهُ «أَصْحَمَةُ بْنُ أَبَجَرَ» الْمَعْرُوفُ بِالنَّجَاشِيِّ^(٢)، فَتَعَالَوْا نَقْضِ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْمُبَارَكَاتِ مَعَ هَذَا الْعَلَمِ^(٣) الْفَذِّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ.

* * *

كَانَ وَالِدُ «أَصْحَمَةَ» مَلِكًا «لِلْأَحْبَاشِ» وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ.

فَقَالَ بَعْضُ زُرَعَمَاءِ «الْحَبَشَةِ» لِبَعْضٍ:

إِنَّ مَلِكَنَا لَا وَلَدَ لَهُ غَيْرَ هَذَا الْغُلَامِ...

وَأَنَّ ذَلِكَ سَيَقُتُّ فِي عَصْدِهِ^(٤) وَهُوَ حَيٌّ، وَيَقْضِي عَلَى مُلْكِهِ إِذَا مَاتَ، وَيَسُوقُنَا إِلَى مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ^(٥).

(١) لحق بالرفيق الأعلى: توفّي.

(٢) أصحمة: اسمه، والنجاشي: لقب له وللك الحبشة، مثل كسرى: لملك الفرس، وقيصر: لملك الروم.

(٣) العلم: سيد القوم، والفذ: الفزد.

(٤) سيقط في عصبه: يضعفه.

(٥) لا تحمد عقباه: لا يشتر.

فَحَبَدًا لَوْ قَتَلْنَاهُ ، وَمَلَكْنَا أَخَاهُ ؛ فَإِنَّ لَهُ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا يُؤَاذِرُونَهُ فِي حَيَاتِهِ ، وَيَرْتُونَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ .

وَمَا زَالَ يُوسُوسُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَيَبْتَثُّ فِي رُوعِهِمْ مِنْ رُوعِهِ^(١) ، حَتَّى قَتَلُوا مَلِكَهُمْ ، وَبَايَعُوا أَخَاهُ مِنْ بَعْدِهِ .

* * *

نَشَأَ « أَصْحَمَةُ » فِي كَنْفِ^(٢) عَمِّهِ ، وَأَخَذَتْ بِرَاعِمُهُ تَتَفَتَّحُ عَنْ ذَكَاءٍ لَامِعٍ ، وَحَزْمٍ رَائِعٍ ، وَبَيَانٍ مُشْرِقٍ ، وَشَخْصِيَّةٍ فَدَّةٍ .

حَتَّى مَلَأَ قُرَادَ عَمِّهِ إِعْجَابًا بِهِ ، وَتَقْدِيرًا لِمَزَايَاهُ ، وَتَفْضِيلًا لَهُ عَلَى أَبْنَائِهِ .

ثُمَّ وَسَّوسَ^(٣) الشَّيْطَانُ مَرَّةً أُخْرَى لِسَادَةِ « الْأَحْبَاشِ » فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

وَاللَّهِ إِنَّا لَنَخْشَى أَنْ يُفْضِيَ^(٤) الْمُلْكُ إِلَي هَذَا الشَّابِّ .

وَلَعِنَ تَمَّ لَهُ ذَلِكَ ؛ لِيَنْتَقِمَ مِنَّا سَرَّ انْتِقَامٍ ...

وَلِيَقْتُلُنَا أَجْمَعِينَ جَزَاءَ مَا قَتَلْنَا أَبَاهُ .

ثُمَّ مَضَوْا إِلَى الْمَلِكِ وَقَالُوا :

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّا لَا تَطِيبُ نُفُوسُنَا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا ، إِلَّا إِذَا قَتَلْتَ « أَصْحَمَةَ » ، أَوْ أَخْرَجْتَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِنَا ...

فَهَا هُوَ ذَا قَدْ سَبَّ ، وَإِنَّا لَنَخْشَى أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَّا جَزَاءَ مَا قَتَلْنَا أَبَاهُ .

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ : بِئْسَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ ...

(١) يَبْتَثُّ فِي رُوعِهِمْ مِنْ رُوعِهِ : يَبْرِئُ مَخَافَهُمْ .

(٢) فِي كَنْفِ عَمِّهِ : فِي رِعَايَةِ عَمِّهِ وَحِرْزِهِ .

(٣) وَسَّوسَ لَهُ : حَدَّثَهُ الشَّيْطَانُ بِالشَّرِّ وَأَغْرَاهُ بِهِ .

(٤) يُفْضِي : يَنْتَهِي .

لَقَدْ قَتَلْتُمْ آبَاءَ بِالْأُمْسِ ، وَتَطْلُبُونَ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَهُ الْيَوْمَ !! ...
وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ .

فَقَالُوا : إِذَنْ نَأْخُذْهُ ، وَنَرْمِي بِهِ خَارِجَ بِلَادِنَا ...
فَأَذَعَنَ ^(١) لَهُمْ عَلَى كُرْهِ مِنْهُ وَعَجْزٍ .

* * *

لَمْ يَمُضِ عَلَى إِنْعَادٍ « أَصْحَمَةَ » غَيْرُ يَوْمٍ وَبَعْضِ يَوْمٍ حَتَّى وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ
فِي الْحُسْبَانِ .

فَلَقَدْ تَلَبَّدَ ^(٢) الْأَفْقُ بِالْغُيُومِ الدُّكْنِ ...

وَهَاجَتِ السَّمَاءُ بِالصَّوَاعِقِ وَمَاجَتْ ^(٣) ...

ثُمَّ سَقَطَتْ إِحْدَاهَا عَلَى عَمِّهِ الْحَزِينِ عَلَى فِرَاقِهِ ، فَأَرَدَتْهُ قَتِيلًا ...

فَهَبَ « الْأَحْبَاشُ » إِلَى أَوْلَادِ الْمَلِكِ ؛ لِيَعْهَدُوا إِلَيْهِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْمُلْكِ ،
فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِمْ خَيْرًا .

فَاسْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْكَرْبُ ^(٤) ، وَضَاقَ فِي وُجُوهِهِمُ الْأَمْرُ .

وَقَدْ زَادَهُمْ ضِيقًا وَكَرْبًا أَنَّ بَعْضَ الشُّعُوبِ الْمُجَاوِرَةِ « لِلْحَبَشَةِ » ؛ هَمَّتْ
بِأَنْ تَعْتِمَ الْفُرُوسَةَ ، وَأَنْ تَغْزُو دِيَارَهُمْ ...

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا يُقِيمُ أَمْرَكُمْ ^(٥) ، وَيَحْفَظُ مُلْكَكُمْ أَحَدٌ
غَيْرُ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي رَمَيْتُمْ بِهِ فِي الْأُمْسِ .

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِي أَمْرِ « الْحَبَشَةِ » حَاجَةٌ ^(٦) فَأَذْرِ كُرْهُهُ ، وَأَعِيدُوهُ ...

(١) أذعن : انقاد .

(٢) تلبَّد بالغيوم الدكن : تكاثفت عليه الغيوم .

(٣) هاجت وماجت : ثارت ، واضطربت .

(٤) الكرب : الحزن .

(٥) لَا يُقِيمُ أَمْرَكُمْ : لَا يَحْقُقُ غَرْضَكُمْ .

(٦) حاجة : أرب .

ثُمَّ خَرَجُوا فِي طَلَبِهِ ، وَأَعَادُوهُ إِلَى وَطَنِهِ ...
وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ التَّاجَ ، وَبَايَعُوهُ بِالْمُلْكِ ، وَدَعَوْهُ بِالنَّجَاشِيِّ .
فَسَاسَ (١) الْبِلَادَ بِالْحُنْكَةِ (٢) وَالْحِكْمَةِ ...
وَأَرَاخَ الْعِبَادَ مِنَ الْاضْطِرَابِ وَالْفَوْضَى ...
وَمَلَأَ « الْحَبَشَةَ » عَذْلًا وَخَيْرًا ؛ بَعْدَ أَنْ امْتَلَأَتْ ظُلْمًا وَشَرًّا ...

* * *

لَمْ يَكِدِ النَّجَاشِيُّ يَسْتَقِرُّ عَلَى كُرْسِيِّ مُلْكِهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَأَخَذَ الْمَهْدِيُّونَ السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ
يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَاحِدًا إِثْرَ (٣) آخَرَ ...

فَهَبَّتْ قُرَيْشٌ تُلْحِقُ بِهِمُ الْأَذَى ، وَتُنْزِلُ بِهِمُ الضَّرَّ (٤) .

فَلَمَّا صَافَتْ عَلَيْهِمْ مَكَّةُ بِمَا رَحِبَتْ (٥) ، وَأَنْزَلَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ
الْأَذَى مَا يُزْلِزُ (٦) الصُّمَّ الصُّلَابَ (٧) ، قَالَ لَهُمُ الرُّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ :

(إِنَّ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ...

فَالْحَقُّوا بِلَادِهِ ، وَلُودُوا بِحِمَاهُ (٨) ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ
فَرَجًا ، وَيُهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ ضَيْقِكُمْ مَخْرَجًا (٩) .

* * *

(١) سَاسَ الْبِلَادَ : دَبَّرَ أُمُورَ الْبِلَادِ .

(٢) الْحُنْكَةُ : الْحَبِيرَةُ .

(٣) إِثْرُهُ : بَعْدُهُ .

(٤) الضَّرُّ : ضِدُّ النِّفْعِ .

(٧) الصُّمُّ الصُّلَابُ : الْجِبَالُ الرَّاسِيَةُ .

(٨) لُودُوا بِحِمَاهُ : الْجَاؤُوا إِلَيْهِ .

(٥) رَحِبَتْ : اتَّسَعَتْ .

(٩) مَخْرَجًا : مَنْفَذًا وَسَبِيلًا إِلَى الْخُرُوجِ .

(٦) يُزْلِزُ : يَرْجِفُ وَيَهْزُ .

مَضَى رَكْبُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى أَرْضِ « الْحَبَشَةِ » .

وَكَانُوا ثَمَانِينَ بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ .

فَتَذَوُّقُوا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ طَعْمَ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ ...

وَتَمَتَّعُوا بِحَلَاوَةِ الثَّقَلَى وَالْعِبَادَةِ ؛ دُونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوُ عِبَادَتِهِمْ مُعَكِّرٌ ،
أَوْ يُكَدِّرَ حَلَاوَةَ إِيْمَانِهِمْ مُكَدِّرٌ .

لَكِنْ قُرَيْشًا مَا كَادَتْ تَعْلَمُ بِرَحِيلِ هَذَا النَّفَرِ ^(١) الثَّمَانِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى
أَرْضِ « الْحَبَشَةِ » ، وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِيهَا ... حَتَّى هَبَّتْ تَأْتِمُرُ ^(٢) بِهِمْ لِتَقْضِي
عَلَيْهِمْ ، أَوْ تَسْتَرِدَّهُمْ إِلَى مَكَّةَ .

* * *

أَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّجَاشِيِّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَفْذَاذِ ^(٣) رِجَالِهَا ذَكَاءَ وَحُنْكَةَ ^(٤) .

هُمَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ^(٥) ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ .

وَبَعَثَتْ مَعَهُمَا بِهَدَايَا وَفِيرَةٍ لِلنَّجَاشِيِّ وَبَطَارِقَتِهِ ^(٦) مِمَّا كَانُوا
يَسْتَطْرِفُونَهُ ^(٧) مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ .

فَلَمَّا قَدِمَا « الْحَبَشَةَ » بَادَرَا إِلَى لِقَاءِ الْبَطَارِقَةِ قَبْلَ أَنْ يَلْقُوا النَّجَاشِيَّ .

وَدَفَعَا إِلَى كُلِّ بَطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ ، وَقَالَا لَهُ :

(١) النفر : الجماعة .

(٢) تأتمر بهم : يأمر بعضها بعضاً بقتلهم .

(٣) الأفذاذ : سادة القوم ودهاتهم .

(٤) الحنكة : الحكمة والدهاء .

(٥) عمرو بن العاص : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٦) البطارقة : جمع بطريق وهو القائد وذو الرتبة .

(٧) يستطرفونه : يرغبون فيه ويجدون له حديثاً .

إِنَّهُ قَدْ حَلَّ فِي أَرْضِكُمْ غِلْمَانٌ مِنْ سُفَهَائِنَا ؛ صَبُّوا^(١) عَنْ دِينِ آبَائِهِمْ
وَأَجْدَادِهِمْ ، وَمَزَقُوا كَلِمَةَ قَوْمِهِمْ ...

فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا دُونَ أَنْ
يَسْأَلَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، فَإِنَّ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ أَبْصَرُوا بِهِمْ ...
وَأَعْلَمُوا بِمَا يَدِينُونَ .

* * *

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَسَجَدَا
لَهُ كَمَا كَانَ يَسْجُدُ لَهُ قَوْمُهُ .

فَرَحَّبَ بِهِمَا النَّجَاشِيُّ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ لِمَا كَانَ يَتَّبِعُهُ وَيَبْغِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ
مِنْ وَدِّ سَابِقٍ .

ثُمَّ قَدَّمَا لَهُ الْهَدَايَا مَشْفُوعَةً^(٢) بِتَحِيَّاتِ كِبَارِ رِجَالِ مَكَّةَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ
« أَبُو سُفْيَان »^(٣) زَعِيمُ قُرَيْشٍ .

فَاسْتَطَرَفَ^(٤) هَدَايَاهُمْ وَأَعْجَبَ بِهَا .

ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَدْ أَوَى إِلَى مَمْلَكَتِكَ نَفَرٌ مِنْ أَشْرَارِ
غِلْمَانِنَا^(٥) قَدْ فَارَقُوا دِينَنَا ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ...

وَجَاءُوا بِدِينٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ ، وَلَا تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ ...

وَقَدْ بَعَثْنَا أَشْرَافَ قَوْمِنَا يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَرْدَهُمْ إِلَيْهِمْ ...

فَهُمْ أَعْلَمُوا بِمَا ابْتَدَعُوهُ^(٦) مِنْ دِينٍ ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنْ فِتْنَةٍ .

(١) صَبُّوا : خرجوا .

(٢) مشفوعة : مقرونة .

(٣) أبو سُفْيَان : زعيم من زعماء قُرَيْشٍ في الجاهلية ، وسيد من ساداتهم في الإسلام .

(٤) استطرف هداياهم : استحسناها . (٥) الغلمان : الصبيان . (٦) ابتدعوه : اخترعوه .

فَنَظَرَ النَّجَاشِيُّ إِلَى بَطَارِقَتِهِ ؛ فَقَالُوا :

صَدَقَ أَتْيَها الْمَلِكُ ، فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي اسْتَحْدَثُوهُ ...
وَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَذْرَى بِهِمْ مِثًّا ، وَأَعْلَمُ بِمَا ابْتَدَعُوهُ .

فَقَالَ النَّجَاشِيُّ :

لَا وَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ لِأَحَدٍ حَتَّى أَسْمَعَ كَلَامَهُمْ ، وَأَقِفَ عَلَى عَقِيدَتِهِمْ .
فَإِنْ كَانُوا عَلَى شَرٍّ أَسْلَمْتُهُمْ لِقَوْمِهِمْ ...

وَإِنْ كَانُوا عَلَى خَيْرٍ حَمَيْتُهُمْ وَأَحْسَنْتُ جَوَارَهُمْ مَا دَامُوا فِي بِلَادِي ...
ثُمَّ أَرْدَفَ (١) يَقُولُ :

إِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَنْسَى فَضْلَ اللَّهِ عَلَيَّ ...

فَلَقَدْ رَدَّنِي إِلَى أَرْضِي ، وَحَمَانِي مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ لِي ...
وَصَانَنِي مِنْ بَغْيِ الْبَاغِينَ عَلَيَّ .

* * *

دَعَا النَّجَاشِيُّ الصَّحَابَةَ إِلَى لِقَاءِ بَنِي قَوْمِهِمْ عِنْدَهُ ...

فَأَوْجَسُوا (٢) خِيفَةً مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

مَا تَقُولُونَ لَهُ إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ؟

فَقَالَ مُقَدِّمُوهُمْ : نَقُولُ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ ...

وَنُغْلِنُ مَا جَاءَنَا بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ .

ثُمَّ مَضَوْا إِلَيْهِ ؛ فَوَجَدُوا عِنْدَهُ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ...

(١) أَرْدَفَ : أَتْبَعَ .

(٢) أَوْجَسُوا خِيفَةً : شَعَرُوا بِالْخَوْفِ .

وَأَلْفُوا بِطَارِقَتُهُ جَالِسِينَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ .

وَقَدْ اعْتَجَرُوا^(١) قَلَانِسَهُمْ ...

وَنَشَرُوا كُتُبَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .

فَحَيَّوْهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَجَلَسُوا حَيْثُ انْتَهَى بِهِمُ الْمَجْلِسُ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَقَالَ :

مَا لَكُمْ لَا تَسْجُدُونَ لِلْمَلِكِ ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ .

فَهَزَّ النَّجَاشِيُّ رَأْسَهُ إِعْجَابًا بِمَا قَالُوا ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رِفْقٍ وَقَالَ :

مَا هَذَا الَّذِي اسْتَحْدِثْتُمُوهُ^(٢) لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ دِينٍ ، وَفَارَقْتُمْ بِسَبَبِهِ دِينَ

قَوْمِكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي ؟ ! .

فَاسْتَأْذَنَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٣) وَقَالَ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّا لَمْ نَسْتَحْدِثْ لِأَنْفُسِنَا دِينًا ، وَإِنَّمَا جَاءَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ

عَبْدِ اللَّهِ ، مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَأَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ ...

فَلَقَدْ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ^(٤) ، وَنَأْكُلُ

الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ^(٥) ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ ، وَيَبْطِشُ الْقَوِيُّ مِنَّا بِالضَّعِيفِ .

وَلَقَدْ بَقِينَا عَلَى حَالِنَا تِلْكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ،

(١) اعتجروا قلاتسهم : تعلموا بما يضعونه على رؤوسهم .

(٢) استحدثتموه : ابتدعتموه .

(٣) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) تقطع الأرحام : نهجر أهلنا ، ونعق آباءنا وأمهاتنا .

(٥) الفواحش : جمع فاحشة ، وهي الكبيرة من الذنوب .

وَنَبِئُكَ بِصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعِقَّتِهِ ؛ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ ، وَأَمَرَنَا بِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ...
وَحَضَّنَا عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَأَنْ نَخْلَعَ^(١)
مَا كُنَّا نَعْبُدُهُ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ .
كَمَا أَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ
الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَصَوْنِ الدِّمَاءِ ...
وَنَهَانَا عَنْ إِيْتَانِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ^(٢) ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ...
فَصَدَّقْتَنَاهُ ، وَأَمَنَّا بِرِسَالَتِهِ ، وَاتَّبَعْنَا مَا جَاءَ بِهِ ...
وَجَعَلْنَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحْلَلْنَا
مَا أَحَلَّ لَنَا .
فَمَا كَانَ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا أَنْ عَدَوْا^(٣) عَلَيْنَا ، وَأَنزَلُوا بِنَا أَشَدَّ الْعَذَابِ ؛
لِيَفْتِنُونَا^(٤) عَنْ دِينِنَا ، وَيَرْدُونَنَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بَعْدَ أَنْ عَبَدْنَا الْوَاحِدَ الدِّيَّانَ^(٥) .
فَلَمَّا قَهَرُونَا ، وَظَلَمُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا^(٦) بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا .
رَغِبْنَا فِي اللُّجُوءِ إِلَى جَوَارِكَ ، وَالْإِقَامَةِ فِي دِيَارِكَ .
وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَجَوْنَا^(٧) إِلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ .
فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ عَنْ رَبِّهِ ؟
قَالَ : نَعَمْ .

(١) نخلع : نتبرأ .

(٢) الزور : الباطل والكذب .

(٣) عَدَوْا عَلَيْنَا : ظلمونا واضطهدونا .

(٤) فتنه عن دينه : أضله .

(٥) الدِّيَّان : اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ ، وهو المحاسب والمجازي .

(٦) حَالُوا بَيْنَنَا : أَمْلَأُوا .

(٧) رَجَوْنَا : منعونا .

قَالَ : فَأَقْرَأَهُ عَلَيَّ .

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ ، وَكَانَ مِمَّا قَرَأَهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ (١) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (٢)﴾ *
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا (٣) ...

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا (٤) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (٥) *

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ (٦) مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (٧) *

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ (٨) وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٩) *

قَالَ كَذَلِكَ (١٠) قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *

فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَعَتْهُ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا *

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ (١١) إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا
وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا *

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (١٢) ﴿١٣﴾ .

(١) اتَّخَذَتْ : اغْتَرَلَتْ وانفردت .

(٢) شَرْقِيًّا : من جهة مشرق الشمس .

(٣) مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا : من دون أهلها سترًا يَشْتَرُهَا عَنْهُمْ .

(٤) مِنْ رُوحِنَا : أي جبريل عليه السَّلام .

(٥) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا : فَبَدَا لَهَا فِي صُورَةِ رَجُلٍ مُتَعَدِّلِ الْخَلْقَةِ .

(٦) أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ : أَسْتَجِيرُ بِاللَّهِ .

(٧) زَكِيًّا : طَاهِرًا مُطَهَّرًا بَرِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ .

(٨) لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ : لَمْ يَقْتَرِبْ مِنِّي إِنْسَانٌ .

(٩) وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا : لَمْ أَكُنْ مُقَارَفَةً لِلْغَيْبِ .

(١٠) قَالَ كَذَلِكَ : قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ إِنْ أَمَرَ كَمَا تَقُولِينَ . (١٣) سورة مريم : من الآية ١٦ - ٢٤ .

فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ ^(١) لِحْيَتُهُ ...
وَبَكَى أَسَافِقَتُهُ حَتَّى بَلَّلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَّى عَلَيْهِمْ ...
وَهُنَا التَّمَتَّ النَّجَاشِيُّ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَصَاحِبِهِ وَقَالَ :
إِنَّ هَذَا الَّذِي تَلَّى عَلَيْنَا ، وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى ؛ لِيَخْرِجَانِ مِنْ مِشْكَاةٍ ^(٢)
وَاحِدَةٍ .

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا :
وَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا أَبَدًا ، وَلَا أُحْمَلُ ^(٣) عَلَى ذَلِكَ مَا حَيْثُ ...
ثُمَّ نَهَضَ قَائِمًا فَنَهَضَ مَنْ كَانَ مَعَهُ ، وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ .

* * *

خَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ ^(٤) مِنَ الْغَيْظِ ...
ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ : وَاللَّهِ لَأَلْقِيَنَّ النَّجَاشِيَّ غَدًا ، وَلَأُحَدِّثَنَّ عَنْهُمْ حَدِيثًا
يَجْتَنُّ ^(٥) شَجَرَتَهُمْ ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ .
فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - وَكَانَ أَرْقَ مِنْهُ قَلْبًا - : لَا تَفْعَلْ يَا عَمْرُو ...
فَإِنَّ لَهُمْ فِيْنَا أَرْحَامًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا .
فَقَالَ : وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ شَيْئًا ...
وَكَتَمُوا شَيْئًا ... وَأَنَّهُمْ يَنَالُونَ ^(٦) مِنْهُ ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّهُ عَبْدٌ .
فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلَ عَمْرُو عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَقَالَ :

(١) اخضلت : نديت وابتلت .
(٢) المشكاة : كوة غير نافذة ، أي من مصدر واحد .
(٣) لَا أُحْمَلُ : لَا أُغْرَى بِذَلِكَ .
(٤) يتميز : يقطع .
(٥) يجتث شجرتهم : يقطع شجرتهم من أصولها .
(٦) ينالون منه : يتهمونه .

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، لَقَدْ أَسْمَعُوكَ بِالْأَمْسِ شَيْئًا وَأَخْفَوُا عَنْكَ شَيْئًا ...
فَهُمْ يَقُولُونَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ أَنَّهُ عَبْدٌ ...

فَدَعَاهُمُ النَّجَاشِيُّ وَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ؟ !
فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

نَقُولُ فِيهِ مَا جَاءَنَا بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ ؟ .

فَقَالَ جَعْفَرُ :

إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ ^(١) .

فَقَالَ النَّجَاشِيُّ : وَاللَّهِ مَا خَرَجَ عِيسَى عَمَّا قُلْتَ قِيدَ ^(٢) أَنْمَلَةٍ .

فَتَنَاحَرَ ^(٣) الْبَطَارِقَةُ مِنْ حَوْلِهِ مُسْتَشْكِرِينَ قَوْلَهُ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ شَزْرًا ^(٤) وَقَالَ : وَإِنْ تَنَاحَرْتُمْ .

ثُمَّ قَالَ لِيَجْعَفِرَ وَمَنْ مَعَهُ :

اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ آمِنُونَ فِي أَرْضِي ...

مَنْ نَالَ مِنْكُمْ غَرَمَ ^(٥) ...

مَنْ نَالَ مِنْكُمْ غَرَمَ ...

وَإِنِّي مَا أُحِبُّ أَنْ أُعْطِيَ جَبَلًا مِنْ ذَهَبٍ ، وَأُوذِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ .

(١) البتول : الطاهرة النقية ، وهو يطلق على مريم العذراء .

(٢) قيد أنملة : مقدار رأس الإصبع .

(٣) تناحر البطارقة : كلم بعضهم بعضاً وأخرجوا من أفواههم أصواتاً كريهة .

(٤) شَزْرًا : النظر بمؤخرة العين حال الغضب أو السخرية . (٥) غَرِمَ : خسر .

ثُمَّ قَالَ لِحُجَّابِهِ :

رُدُّوا عَلَيَّ عَمْرِي وَصَاحِبِي هَدَايَاهُمَا ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا ، وَإِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ مِنِّي رِشْوَةً حِينَ رَدَّنِي إِلَى مُلْكِي حَتَّى أَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ ...
وَمَا أَطَاعَ النَّاسُ فِي أَمْرِي حَتَّى أُطِيعَهُمْ فِي أَمْرِهِ .

* * *

هَبَّ الْبَطَارِقَةُ يُعْلِنُونَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ فَارَقَ دِينَهُ ، وَاسْتَبَدَلَ بِهِ دِينًا آخَرَ ...

وَطَفِقُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَى خَلْعِهِ ...
فَتَأَلَّبَ ^(١) « الْأَحْبَاشُ » عَلَيْهِ ، وَعَزَمُوا عَلَى نَقْضِ بَيْعَتِهِ .
فَارْسَلَ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ يُخْبِرُهُمْ بِالْأَمْرِ .
وَأَعَدَّ لَهُمْ سُفْنًا .
وَقَالَ لَهُمْ :

ارْكَبُوهَا وَاسْتَعِدُّوا لِمَا سَيَحْدُثُ ...
فَإِنْ هَزِمْتُ ؛ فَاْمْضُوا حَيْثُ شِئْتُمْ ...
وَإِنْ ظَفِرْتُ ؛ فَاسْتَقِرُّوا كَمَا كُنْتُمْ .
ثُمَّ أَخْضَرَ رَقًّا ^(٢) مِنْ جِلْدِ الْغَزَالِ وَكَتَبَ فِيهِ :
« أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ .
وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَرُوحُهُ ، وَكَلِمَتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ » .

(١) تألبوا عليه : تجمعوا عليه ، وحشدوا له .

(٢) الرُّق : جلد رقيق يُكتب فيه .

ثُمَّ حَزَمَ الرَّقَّ عَلَى صَدْرِهِ ، وَلَيْسَ فَوْقَهُ قِبَاءُهُ^(١) ، وَمَضَى إِلَى لِقَاءِ
الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا غَدَا أَمَامَهُمْ نَادَاهُمْ قَائِلًا :

يَا مَعْشَرَ « الْحَبَشَةِ » كَيْفَ رَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ ؟ .

فَقَالُوا : خَيْرَ سِيرَةٍ .

قَالَ : فَمَا الَّذِي أَثَارَكُمْ عَلَيَّ ؟ .

فَقَالُوا : لَقَدْ فَارَقْتَ دِينَنَا ، وَزَعَمْتَ أَنَّ عِيسَى عَبْدٌ .

قَالَ : مَا تَقُولُونَ أَنتُمْ فِي عِيسَى ؟ .

فَقَالُوا : هُوَ ابْنُ اللَّهِ .

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قِبَائِهِ ، وَجَعَلَهَا فَوْقَ الرَّقِّ وَقَالَ :

وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا شَيْئًا [وَهُوَ يَعْنِي مَا كَتَبَهُ فِي الرَّقِّ] .

فَسُرُّوا بِمَا قَالَ ، وَانْفَضُّوا^(٢) رَاضِينَ مُطْمَئِنِّينَ .

* * *

وَقَفَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَا كَانَ بَيْنَ النَّجَاشِيِّ وَقَوْمِهِ .

وَأَكْبَرَ رِعَايَتَهُ لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى دِيَارِهِ ، وَأَطْمَأْنَنُوا فِي جَوَارِهِ .

وَلَقَدْ سُرَّ بِمَا نُقِلَ إِلَيْهِ مِنْ انْحِيَاظِهِ لِلإِسْلَامِ ، وَاعْتِقَادِهِ بِصِحَّةِ مَا جَاءَ فِي

الْقُرْآنِ .

ثُمَّ أَخَذَتِ الصَّلَاتُ تَتَعَمَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَتَوَلَّى .

وَفِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ لِلْهِجْرَةِ ، عَزَمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب كالמעطف . (٢) انفضوا : تفرقوا .

دَعْوَةَ سِتَّةٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأَمْرَائِهَا ؛ لِلدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ .

فَكَتَبَ لِكُلِّ مِنْهُمْ رِسَالَةً يَحُضُّهُ فِيهَا عَلَى الْإِسْلَامِ .

وَيُزَيِّنُ لَهُ الْإِيمَانَ ، وَيُحَذِّرُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ .

وَكَانَ قَدْ أَعَدَّ لِهَذَا الْغَرَضِ سِتَّةٌ مِنْ خَيْرِةِ الصَّحَابَةِ .

فَفَعَّلَهُمْ كُلٌّ مِنْهُمْ لُغَةَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيَمُضِي إِلَيْهِمْ ...

ثُمَّ خَرَجُوا لِأَدَاءِ هَذِهِ الْمِهْمَةِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ .

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضُّمَرِيُّ هُوَ الَّذِي أُوفِدَ إِلَى مَلِكِ « الْحَبَشَةِ » .

* * *

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَرَحَّبَ بِهِ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ قَدَّمَ لِلنَّجَاشِيِّ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَبَادَرَ إِلَى فَضِّهِ (١) ... فَوَجَدَ أَنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيَتْلُو عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ .

فَوَضَعَ النَّجَاشِيُّ الْكِتَابَ عَلَى عَيْنَيْهِ إِجْلَالاً لَهُ ...

وَنَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ تَوَاضِعاً لِمَا جَاءَ فِيهِ ...

ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَى مَلَأٍ (٢) مِنْ مُجَلَّاسِهِ ...

وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَقَالَ :

(٢) عَلَى مَلَأٍ : عَلَى مشهد جماعة .

(١) فَضُّهُ : فَتَحَهُ .

لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ...
وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ...

وَتَمَرَّغْتُ^(١) عَلَى قَدَمَيْهِ ...

ثُمَّ كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ رِسَالَةً رَقِيقَةً ؛ يُجِيبُهُ فِيهَا إِلَى
دَعْوَتِهِ ...

وَيُعَرِّبُ عَنْ إِيمَانِهِ السَّابِقِ بِنُبُوتِهِ ...

عِنْدَ ذَلِكَ أَخْرَجَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ كِتَابًا آخَرَ مِنَ الرُّسُولِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ
يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْ رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ .
وَلِأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ الْمُكَنَّاةِ « يَا أُمَّ حَبِيبَةَ » قِصَّةَ حَزِينَةٍ فِي بَدَايَتِهَا ...
فَرِحَتْ مُسْتَبَشِّرَةً فِي نَهَايَتِهَا .

فَتَعَالَوْا نُلِمَّ بِهَا إِلِمَامًا سَرِيعًا^(٢) ...

* * *

كَفَرَتْ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بِآلِهَةِ أَبِيهَا سَيِّدِ قُرَيْشٍ ...
وَأَمْنَتْ هِيَ وَزَوْجُهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...
وَصَدَّقَتْ رِسَالَةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .
فَأَزْهَقَتْهُمَا قُرَيْشٌ مِنْ أَمْرِهِمَا عُسْرًا ...

وَأَنْزَلَتْ بِهِمَا أَشَدَّ الْعَذَابِ حَتَّى بَاتَا لَا يُطِيقَانِ الْبَقَاءَ فِي مَكَّةَ .
فَكَانَا فِي عِدَادِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى اللَّهِ بِدِينِهِمْ ، اللَّاحِظِينَ إِلَى النَّجَاشِيِّ
بِإِيمَانِهِمْ .

(١) تمرغت : وضعت رأسي على قدميه .

(٢) للاستزادة من أخبار رَمْلَةَ وزوجها : انظر كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

فَلَقَيْنَا عِنْدَهُ مَا لَقِيَهُ إِخْوَانُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ كَرَمِ الْوِفَادَةِ ، وَحُسْنِ
الْجَوَارِ .

حَتَّى نُخِيلَ لِأُمِّ حَبِيبَةَ أَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ صَفَتْ لَهَا بَعْدَ عُبُوسٍ ^(١) .

إِذْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا خَبَّأَتْ لَهَا الْمَقَادِيرُ .

فَلَقَدْ سَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْتَحِنَ أُمُّ حَبِيبَةَ امْتِحَاناً قَاسِيَا
تَطْيِيشٍ ^(٢) فِيهِ الْعُقُولُ .

ذَلِكَ أَنَّ زَوْجَهَا عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ قَدْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وَتَنَصَّرَ ، وَجَعَلَ
يَهْزَأُ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

ثُمَّ أَكَبَ ^(٣) عَلَى حَانَاتِ الْخَمَّارِينَ ، يُعَاقِرُ أُمَّ الْخَبَائِثِ ^(٤) ؛ فَلَا يَزْتَوِي
مِنْهَا وَلَا يَشْبَعُ .

وَقَدْ خَيْرَهَا بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مَرًّا ...

فَإِمَّا أَنْ تُطَلَّقَ ...

وَإِمَّا أَنْ تَتَنَصَّرَ ...

* * *

وَجَدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ نَفْسَهَا بَيْنَ ثَلَاثٍ ...

فَإِمَّا أَنْ تَسْتَجِيبَ لِرِزْوَجِهَا فَتَتَنَصَّرَ ؛ وَبِذَلِكَ تَبُوُّهُ بِخِزْيِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابِ
الْآخِرَةِ ...

(١) العبوس : التقطيب والبشاعة .

(٢) تطييش : تذهب .

(٣) أكب على الشيء : أقبل عليه ولزمه .

(٤) يعاقر أم الخبائث : يشرب الخمر ، وقد دعيت بأم الخبائث لأنها تقود شاربها إلى ضروب من الشر .

وَأَمَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى يَتِّبَ أَيْبَهَا فِي مَكَّةَ ، وَهُوَ مَا زَالَ قَلْعَةَ الشُّرْكِ ...
وَأَمَّا أَنْ تَبْقَى فِي بِلَادِ « الْحَبَشَةِ » وَحِيدَةً شَرِيدَةً ، وَمَعَهَا ابْنَتُهَا الصَّغِيرَةُ
حَبِيبَةٌ .

فَأَثَرَتْ رِضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ ...
وَأَزْمَعْتُ^(١) الْبَقَاءَ فِي « الْحَبَشَةِ » حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِفَرْجٍ مِنْ عِنْدِهِ .

* * *

لَمْ تَطُلْ مَأْسَاءً أُمِّ حَبِيبَةٍ كَثِيرًا
فَلَقَدْ قَضَى زَوْجُهَا نَحْبَهُ وَهُوَ سَكْرَانٌ مَحْمُورٌ ...
ثُمَّ إِنَّهَا مَا إِنْ أَتَمَّتْ عِدَّتَهَا مِنْهُ حَتَّى أَتَاهَا الْفَرْجُ .
فَفِي ذَاتِ ضُحَى فَضِي السَّنَا بِهِي الْقَسَمَاتِ ... طُرِقَ عَلَيْهَا الْبَابُ ، فَلَمَّا
فَتَحَتْهُ ، فُوجِئَتْ بِأُبْرَهَةَ وَصِيفَةٍ^(٢) النَّجَاشِيِّ وَهِيَ تُحَيِّيهَا وَتَقُولُ لَهَا :
إِنَّ الْمَلِكَ يُهْدِيكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ :
إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَطَبَكَ لِنَفْسِهِ ...
وَوَكَّلَهُ أَنْ يَغْفِدَ لَهُ عَلَيْكَ ...

فَوَكَّلِي عَنْكَ مَنْ تُرِيدِينَ إِذَا شِئْتَ .
فَاسْتَطَارَتْ أُمُّ حَبِيبَةٍ فَرَحًا ... وَهَتَفَتْ :

بَشْرِكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ...

بَشْرِكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ...

(١) أزمعت : عزمت .

(٢) الوصيفة : المرأة التي تتقن الخدمة .

ثُمَّ قَالَتْ : لَقَدْ وَكَّلْتُ عَنِّي خَالِدَ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ (١).

فَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ .

* * *

وَفِي قَصْرِ النَّجَاشِيِّ ، اجْتَمَعَ الصَّحَابَةُ الْمُقِيمُونَ فِي « الْحَبَشَةِ » لِيَشْهَدُوا
عَقْدَ أُمِّ حَبِيبَةَ عَلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا اكْتَمَلَ الْجَمْعُ حَمِدَ النَّجَاشِيُّ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُزَوِّجَهُ رَمْلَةً
بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ ، فَأَجَبْتُهُ إِلَى مَا طَلَبَ .

وَأَمَهَرْتُهَا (٢) نِيَابَةً عَنْهُ أَرْبَعِمِائَةَ دِينَارٍ ذَهَبًا عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

ثُمَّ قَامَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَاسْتَعَانَ بِهِ ، وَصَلَّى وَسَلَّمْ
عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَقَدْ أَجَبْتُ طَلَبَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَزَوَّجْتُهُ مَوْكَلَّتِي رَمْلَةً بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ ...

فَبَارَكَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ فِي زَوْجَتِهِ ...

وَهَنِيئًا لِرَمْلَةٍ بِمَا أَحْظَاهَا (٣) اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ .

* * *

أَعَدَّ النَّجَاشِيُّ سَفِينَتَيْنِ مِنْ سُفْنِهِ ...

(١) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) أمهرتها : أعطيتها صداقها ، والصداق : ما يعطى للمرأة من المال مهرأ لها .

(٣) أحظاها : منحها وأكرمها وخصها .

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ وَابْنَتَهَا حَبِيبَةَ ، وَمَنْ بَقِيَ
عِنْدَهُ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

كَمَا أَرْسَلَ مَعَهُمْ طَائِفَةً مِنْ « الْأَحْبَاشِ » الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

وَتَشَوَّقُوا لِلِقَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ ، وَأَزْكَى السَّلَامِ ...

وَالْتَّمَلِي ^(١) مِنْهُ ...

وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُ ...

وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ جَمِيعاً جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ أَهْدَى إِلَى رَمْلَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَ مَا عِنْدَ نِسَائِهِ مِنْ نَفِيسِ الطِّيبِ ،
وَالْوَرَسِ ، وَالْعُودِ ، وَالْعَنْبَرِ ^(٢) .

كَمَا حَمَلَهُمْ بَعْضَ الْهَدَايَا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِمَّا أَهْدَاهُ إِلَيْهِ ثَلَاثُ عِصِيٍّ مِنْ رَوَائِعِ عِصِيٍّ « الْحَبَشَةِ » .

فَأَمْسَكَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا .

أَمَّا الثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ ؛ فَأَهْدَاهُمَا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا .

وَقَدْ كَانَ بِلَالٌ ^(٣) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ بِالْعَصَا الَّتِي
اسْتَبَقَاهَا لِنَفْسِهِ ... وَيَزُكُّهَا أَمَامَهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ...

وَذَلِكَ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي لَا يَكُونُ فِيهَا مَسْجِدٌ وَلَا بِنَاءٌ يُحَدِّدَانِ الْقِبْلَةَ .

(١) التَّمَلَّى مِنْهُ : التمتع به أمدأ طويلاً .

(٢) الورس ، والعود ، والعنبر : أنواع من الطيب .

(٣) بلال بن رباح : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

وَفِي أَشْفَارِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَفِي الْعِيدَيْنِ ، وَفِي صَلَاةِ الْاسْتِسْقَاءِ .

وَقَدْ ظَلَّ بِلَالٌ يَمْشِي بِهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا آلَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَإِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ مَشَى بِهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمَا « سَعْدُ الْقَرْظِيُّ » .

ثُمَّ تَتَابَعَ الْخُلَفَاءُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا طَوِيلًا .

كَمَا أَهْدَى النَّجَاشِيُّ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِلْيَةً فِيهَا خَاتَمٌ مِنْ

ذَهَبٍ ...

فَأَخَذَهُ ، وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ .

ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى « أُمَامَةَ » ابْنَةِ بَنِيهِ زَيْنَبَ ، وَقَالَ لَهَا :

(تَحْلِي بِهَذَا يَا بَنِيَّةُ) .

* * *

وَقُبِيلَ فَتَحَ مَكَّةَ بِقَلِيلٍ انْتَقَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ .

فَدَعَا الرَّسُولُ ﷺ الصَّحَابَةَ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ :

(إِنَّ أَخَاكُمْ « أَصْحَمَةَ » النَّجَاشِيَّ قَدْ تُوفِّي فَصَلُّوا عَلَيْهِ) .

ثُمَّ أَمَّهُمْ ؛ فَصَلُّوا عَلَيْهِ صَلَاةَ الْغَائِبِ .

مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُصَلِّ عَلَى غَائِبٍ قَبْلَ النَّجَاشِيِّ ،

وَلَا بَعْدَهُ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ « أَصْحَمَةَ » النَّجَاشِيِّ ، وَأَرْضَاهُ ...

وَجَعَلَ جَنَّاتٍ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ .
فَلَقَدْ قَوَّى الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ مِنْ ضَعْفٍ ...
وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ...
وَابْتَغَى فِي ذَلِكَ مَرْضَاةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (*).

-
- (*) للاستزادة من أخبار التَّجَانِيهِ انظر:
- ١ - السيرة النبوية لابن هشام: ٣٥٦/١، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٩ و ٣٣/٢
 - و ٣/٤ - ١٠، ٢٩٥.
 - ٢ - أعلام النبلاء للذهبي: ٨١، ١٢٣، ٢٥١.
 - ٣ - تاريخ خليفة: ٩٩١.
 - ٤ - أسد الغابة: ١١٩/١.
 - ٥ - تهذيب الأسماء واللغات: ٢٨٧/٩.
 - ٦ - مجمع الزوائد: ٤١٩/٩.
 - ٧ - الإصابة: ١٠٩/١ أو الترجمة (٤٧٣).

رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ

أَبُو الْعَالِيَةِ

«لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ أَعْلَمُ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ مِنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ،
ثُمَّ يَلِيهِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ»

[أَبُو بَكْرٍ بْنُ دَاوُدَ]

رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ الْمُكَنَّى بِأَبِي الْعَالِيَةِ عَلَّمَ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ...
وَرَأْيُهُ مِنْ رَوَائِعِ الْقُرَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ .
كَانَ مِنْ أَعْلَمِ التَّابِعِينَ يَكْتَابُ اللَّهُ ...
وَأَذْرَاهُمْ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَأَقْدَرِهِمْ عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ ، وَالثَّقُودِ إِلَى أَغْوَارِهِ (١) ...
وَأَعَمَّقِهِمْ فِي إِدْرَاكِ مَرَامِيهِ (٢) وَأَسْرَارِهِ .
فَتَعَالَوْا نَبْدَأْ حَيَاتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا .
فَحَيَاتُهُ غَنِيَّةٌ بِرَوَائِعِ الْمَوَاقِفِ وَالصُّوَرِ ...
حَافِلَةٌ بِثَمِينِ الْعِظَاتِ وَالْعَبَرِ ...

* * *

وُلِدَ رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ فِي بِلَادِ «فَارِسَ» ، وَعَلَى أَرْضِهَا نَشَأَ وَتَرَعَرَ ، وَلَمَّا
شَرَعَ الْمُسْلِمُونَ بِغَزْوِ بِلَادِ «الْفُرسِ» لِيُخْرِجُوا أَهْلَهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...
كَانَ رُفَيْعٌ هَذَا أَحَدَ الشُّبَّانِ الْأَرْقَاءِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ
الْحَانِيَةِ (٣) ، وَآلُوا إِلَى رِحَابِهِمُ الْخَيْرَةَ الْبَانِيَةَ .

(٣) الحانية : الرحيمة الشفوقة .

(٢) مرامي : مقاصده .

(١) أغواره : أعماقه .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَقَفَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ عَلَى سُمُوّ الْإِسْلَامِ ...
 وَوَارِثُو بَيْتِهِ وَبَيْنَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ...
 فَطَفِقُوا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ...
 ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ...
 وَجَعَلُوا يَتِمَّلُونَ^(١) مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ...

* * *

حَدَّثَ رُفِيعٌ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَمَا آلَ إِلَيْهِ ، قَالَ :
 وَقَعْتُ أَنَا وَنَفَرٌ مِنْ بَنِي قَوْمِي أَسَارَى فِي أَيْدِي الْمُجَاهِدِينَ ، ثُمَّ مَا لَبِثْنَا أَنْ
 غَدَوْنَا مَمْلُوكِينَ لِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي « الْبَصْرَةِ » .
 فَلَمْ يَمُضْ عَلَيْنَا طَوِيلٌ وَقَتٍ حَتَّى آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَتَعَلَّقْنَا بِحِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ ...
 وَكَانَ مِنَّا مَنْ يُودِّي الضَّرَائِبَ^(٢) لِمَالِكِيهِ ، وَمِنَّا مَنْ يَقُومُ عَلَى
 خِذْمَتِهِمْ ...

وَكُنْتُ وَاحِداً مِنْ هَؤُلَاءِ .

فَكُنَّا نَخْتِمُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَرَّةً ، فَشَقَّ^(٣) عَلَيْنَا ذَلِكَ ...
 فَجَعَلْنَا نَخْتِمُهُ مَرَّةً كُلَّ لَيْلَتَيْنِ ، فَشَقَّ عَلَيْنَا أَيْضاً ...

فَجَعَلْنَا نَخْتِمُهُ كُلَّ ثَلَاثٍ ، فَشَقَّ عَلَيْنَا لِمَا كُنَّا نُعَانِيهِ مِنْ جُهْدٍ فِي
 النَّهَارِ ...

(١) يَتِمَّلُونَ : يَتَشَبِعُونَ .

(٢) الضَّرَائِبُ : جَمْعُ ضَرِيَّةٍ وَهِيَ مَبْلَغٌ مِنَ الْمَالِ يَدْفَعُهُ الْإِنْسَانُ نَظِيرَ خِدْمَةِ تَوْدِي لَهُ ، أَوْ إِعْفَاءِهِ مِنْ مَهْمَةٍ وَاجِبَةٍ عَلَيْهِ .

(٣) شَقَّ : صَعَبَ .

وَسَهَّرَ فِي اللَّيْلِ ...

فَلَقِينَا بَعْضَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَشَكُونَا لَهُمْ مِمَّا
نُكَابِدُهُ مِنَ السَّهَرِ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ .

فَقَالُوا : اخْتِمُوهُ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ؛ فَأَخَذْنَا بِمَا أُرْسِدُونَا إِلَيْهِ ...
وَجَعَلْنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ طَرَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، وَنَنَامُ طَرَفًا آخَرَ مِنْهُ .
فَلَمْ يَشُقَّ عَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

وَلَقَدْ آلَ (١) رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » .
وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سَيِّدَةً رَصَانًا رَزَانًا (٢) ...
مُفْعَمَةً (٣) تُقَى وَإِيمَانًا ...

فَكَانَ يَخْدِمُهَا بَعْضُ النَّهَارِ ، وَيَزْنَاهُ فِي بَعْضِهِ الْآخَرِ .
فَاتَّقَنَ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ فِي أَوْقَاتِ فَرَاحِهِ ، وَتَلَقَّى خِلَالَهَا طَرَفًا مِنْ عُلُومِ
الدِّينِ ، دُونَ أَنْ يَنَالَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعِ (٤) تَوَضَّأَ رُفَيْعُ ؛ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ .
ثُمَّ اسْتَأْذَنَ سَيِّدَتَهُ بِالْانْصِرَافِ .
فَقَالَتْ : إِلَى أَيْنَ يَا رُفَيْعُ ؟
فَقَالَ : ابْتَغِي الْمَسْجِدَ .

(١) آل : انتهى أمره .

(٢) رصاناً رزاناً : رصينة عاقلة وقوراً .

(٣) مفعمة : ممتلئة .

(٤) أيام الجمع : جمع مفردة الجمعة .

فَقَالَتْ : أَيَّ الْمَسَاجِدِ تُرِيدُ ؟ .

فَقَالَ : الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ ^(١) .

فَقَالَتْ : هَيَّا بِنَا .

ثُمَّ مَضَيَا مَعًا ، وَدَخَلَا الْمَسْجِدَ مَعَ الدَّاحِلِينَ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا تُرِيدُ .
فَمَا إِنْ امْتَلَأَ الْجَامِعُ ، وَارْتَقَى الْإِمَامُ الْمِنْبَرَ حَتَّى أَمْسَكَتْ بِيَدِ رُفَيْعٍ ،
وَقَالَتْ :

اشْهَدُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنِّي أَعْتَقْتُ غُلَامِي هَذَا رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ ...
وَطَمَعًا بِعَفْوِهِ وَرِضَاهُ ...

وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ إِلَّا سَبِيلَ الْمَعْرُوفِ .

ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْخِرُهُ عِنْدَكَ لِيَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...

وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ؛ انْطَلَقَ رُفَيْعٌ إِلَى سَبِيلِهِ ، وَانْطَلَقَتْ هِيَ الْأُخْرَى إِلَى
سَبِيلِهَا أَيْضًا .

* * *

دَأَبَ رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى التَّرَدُّدِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

فَحَظِيَ بِإِلْقَاءِ الصَّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ بِقَلِيلٍ .

كَمَّا سَعِدَ بِالاجْتِمَاعِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنَ ، وَصَلَّى خَلْفَهُ .

* * *

(١) الجامع : المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة .

وَكَمَا أَكْبَرُ رُفِيعَ الْمُكَنَّى بِأَبِي الْعَالِيَةِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ؛ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِحَدِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ ...

فَجَعَلَ يَسْمَعُ رِوَايَتَهُ مِنَ التَّابِعِينَ الَّذِينَ كَانَ يَلْقَاهُمْ فِي « الْبَصْرَةِ » .

لَكِنَّهُ مَا لَبَثَ أَنْ طَمَحَتْ (١) نَفْسُهُ لِمَا هُوَ أَثْبَتُ (٢) مِنْ ذَلِكَ .

فَأَخَذَ يَمْضِي إِلَى الْمَدِينَةِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ ؛ لِيَسْمَعَهُ مِنْ أَفْوَاهِ صَحَابَةِ
الرَّسُولِ ﷺ أَنْفُسِهِمْ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
إِلَّا شَخْصٌ وَاحِدٌ هُوَ الصَّحَابِيُّ .

فَأَخَذَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ ، وَأَبِي أَيْوُبَ الْأَنْصَارِيِّ ،
وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (٣) ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ...

* * *

وَلَمْ يَقْتَصِرْ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَى رِوَاةِ الْحَدِيثِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

وَلِئَلَّا كَانَ يَنْشُدُ حَدِيثَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

فَإِذَا وُصِفَ لَهُ رَجُلٌ بِالْعِلْمِ ؛ ضَرَبَ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْإِبِلِ (٤) مَهْمَا كَانَ بَعِيدَ
الدَّارِ ، نَائِي الْمَزَارِ .

فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ بَادَرَهُ فَصَلَّى خَلْفَهُ .

فَإِذَا وَجَدَهُ لَا يُتَقِنُ صَلَاتَهُ أَحْسَنَ الْإِثْقَانِ ...

وَلَا يُؤْفِيهَا حَقَّهَا أَكْمَلَ التَّوْفِيَةِ ؛ أَعْرَضَ عَنْهُ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

(١) طمحت نفسه : ارتقت نفسه وشمخت .

(٢) أثبت : أشدُّ ثبوتاً وأقوى صحّةً .

(٣) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) ضرب إليه أكباد الإبل : قطع إليه المسافات البعيدة .

إِنَّ الَّذِي يَتَهَاوَنُ فِي صَلَاتِهِ يَكُونُ أَشَدَّ تَهَاوُنًا فِي غَيْرِهَا ...
ثُمَّ يَحْمِلُ عَصَاهُ ، وَيَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ...

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ أَبُو الْعَالِيَةِ مَنْزِلَةً فِي الْعِلْمِ فَاقَ بِهَا جَمِيعَ أَقْرَانِهِ ...
مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ أَصْحَابِهِ قَالَ :
رَأَيْتُ أَبَا الْعَالِيَةِ يَتَوَضَّأُ ، وَالْمَاءُ يَقْطُرُ مِنْ وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ .
وَالطَّهَارَةُ تَتَأَلَّقُ^(١) عَلَى كُلِّ غُضْبٍ مِنْ أَعْضَائِهِ ...
فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .
فَقَالَ يَا أَخِي :

لَيْسَ الْمُتَطَهِّرُونَ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ بِالْمَاءِ مِنَ الدَّرَنِ^(٢) ...
وَلِئِنَّمَا هُمْ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ بِالتَّقْوَى مِنَ الذُّنُوبِ .
فَتَأَمَّلْتُ مَا قَالَهُ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ أَصَابَ وَأَخْطَأْتُ ، وَقُلْتُ :
جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، وَزَادَكَ عِلْمًا وَفَهْمًا .

* * *

وَلَقَدْ دَابَّ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَى حَضِّ النَّاسِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَجَعَلَ يَرْسُمُ
لَهُمْ سُبُلَ الْوُضُوءِ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ :
رَوْضُوا^(٣) أَنْفُسَكُمْ عَلَى تَلْقَى الْعِلْمِ ، وَأَكْثِرُوا مِنَ السُّؤَالِ عَنْهُ .
وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَخْفِضُ جَنَاحِيهِ لِمُسْتَحٍ ، أَوْ مُتَكَبِّرٍ .
فَالْمُسْتَحِي لَا يَسْأَلُ لِحَيَاتِهِ ...

(٣) رَوْضُوا : ذَلُّوا وَطَوَّعُوا .

(٢) الدَّرَنُ : الْوَسْخُ .

(١) تَأَلَّقَى : تَلَمَّعَ ، وَتَبَرَّقَ .

وَالْمُتَكَبِّرُ لَا يَسْأَلُ لِكِبْرِيَائِهِ .

وَكَانَ يَحْضُ طُلَّابُهُ عَلَى تَعْلَمِ الْقُرْآنِ ، وَرِعَايَتِهِ ، وَالاسْتِمْسَاكِ بِمَا جَاءَ فِيهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا يَتَقَوْلُهُ الْمُتَقَوِّلُونَ^(١) ...

فَيَقُولُ : تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ ...

فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ ، فَلَا تَزْعَبُوا عَنْهُ ...

وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الْإِسْلَامُ ...

وَلِيَّائُكُمْ وَهَذِهِ الْأَهْوَاءُ^(٢) ؛ فَإِنَّهَا تُوقِعُ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ .

وَلَا تَحِيدُوا عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ...

فَتَقُولُوا ذَلِكَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ^(٣) فَقَالَ :

لَقَدْ نَصَحَكُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ - وَاللَّهِ - وَصَدَقَكُمْ .

* * *

كَمَا كَانَ يَرُؤُهُمْ لَطَّلَابِ الْعِلْمِ الطَّرِيقَ الْأَمْثَلَ لِحِفْظِ الْقُرْآنِ ، فَيَقُولُ :

تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ خَمْسَ آيَاتٍ ؛ فَإِنَّهُ أَيْسَرُ عَلَى أَذْهَانِكُمْ ...

وَأَقْوَى عَلَى أَفْهَامِكُمْ ...

فَإِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَنْزِلُ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ خَمْسَ آيَاتٍ ، خَمْسَ آيَاتٍ .

* * *

(١) يتقوله المتقولون : يتدعه المبتدعون .

(٢) الأهواء : البدع وما تميل إليه الأفكار مما لا يوافق ما جاء في كتاب الله ، وحديث رسول الله ﷺ .

(٣) الحسن البصري : انظره ص ٩٥ .

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْعَالِيَةِ مُعَلِّماً فَحَسِبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُوجِّهاً أَيضاً ...

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَمْلَأُ عُقُولَ تُلَّابِيهِ بِالْمَعْرِفَةِ النَّافِعَةِ ...

وَيُعْذِّي أَفْعِدَتَهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ...

وَيَجْمَعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لَهُمْ :

إِنَّ اللَّهَ قَضَى عَلَى نَفْسِهِ : أَنْ مَنْ آمَنَ بِهِ هَدَاهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾^(١) .

وَأَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢) .^(٣)

وَأَنَّ مَنْ أَقْرَضَهُ^(٤) جَاوَزَهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً
كَثِيراً﴾^(٥) .

وَأَنَّ مَنْ دَعَاهُ أَجَابَهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ :

(١) سورة التَّغَابُنِ : آيَةُ ١١ .

(٢) حُسْبُهُ : مَعْطِيهِ وَكَافِيهِ .

(٣) سورة الطَّلَاقِ : آيَةُ ٣ .

(٤) أَقْرَضَهُ : تَصَدَّقَ عَلَى النَّاسِ طَمَعاً بِرِضَاهِ .

(٥) سورة الْبَقَرَةِ : آيَةُ ٢٤٥ .

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١).

* * *

وَكَانَ يَقُولُ لِتَلَامِيذِهِ :
اعْمَلُوا بِالطَّاعَةِ ، وَأَقْبِلُوا عَلَى الْمُطِيعِينَ لِبَطَاعَتِهِمْ ...
وَاجْتَنِبُوا الْمَعْصِيَةَ ، وَعَادُوا الْعَصَاةَ لِمَعْصِيَتِهِمْ ...
ثُمَّ كَلَّمُوا أَمْرَ الْعَصَاةِ إِلَى اللَّهِ ؛ فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ .
وَإِذَا سَمِعْتُمْ الرَّجُلَ يَزْفَعُ مِنْ شَأْنٍ نَفْسِهِ فَيَقُولُ :
إِنِّي أَحِبُّ فِي اللَّهِ ، وَأَكْرَهُ فِي اللَّهِ ...
وَأَفْضَلُ كَذَا مَرْضَاةَ لِلَّهِ ، وَأُغْرِضُ عَنْ كَذَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ...
فَلَا تَعْتَدُوا^(٢) بِهِ .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْعَالِيَةِ عَالِمًا عَامِلًا فَحَسِبُ ، وَلَا وَاِعْظًا مُرْشِدًا فَقَطْ .
وَإِنَّمَا كَانَ مُجَاهِدًا أَيْضًا ...
فَكَانَ يَقْضِي قَدْرًا مِنْ وَقْتِهِ فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ...
أَوْ مُرَابِطًا عَلَى تُغُورِ الْأَعْدَاءِ مَعَ الْمُرَابِطِينَ ...
وَلَقَدْ آثَرَ^(٣) أَنْ يُشْرِقَ فِي جِهَادِهِ وَأَنْ يُغْرِبَ ... فَحَارَبَ « الرُّومَ » فِي بِلَادِ
الشَّامِ ، كَمَا حَارَبَ « الْفُرْسَ » فِي بِلَادِ مَا « وَرَاءَ النَّهْرِ »^(٤) ...

(١) سورة البقرة : آية ١٨٦ .

(٢) فلا تعتدوا به : فلا تلتفتوا إلى ما يقول .
(٣) آثر : فضل ورغب .

(٤) بلاد ما وراء النهر : هي البلاد الواقعة وراء نهر جيحون ، وهي من أخصب بلاد الدنيا .

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ الْأَذَانَ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ .

* * *

وَلَمَّا نَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ... كَانَ لِأَبِي الْعَالِيَةِ مِنْهُ مَوْقِفٌ حَدَّثَنَا عَنْهُ فَقَالَ :

لَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ كُنْتُ مُمْتَلِئًا حَيَوِيَّةً وَنَشَاطًا ...

وَكَانَ الْقِتَالُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ فِي الْيَوْمِ الْقَائِظِ .

فَتَجَهَّزْتُ بِجِهَازٍ ثُمَّ أَتَيْتُهُمْ ؛ فَإِذَا بِي أَمَامَ صَفَيْنِ مَا يُدْرَى طَرَفَاهُمَا^(١) ...

إِذَا كَبَّرَ هُوَ لَا كَبَّرَ هُوَ لَا ...

وَإِذَا هَلَّلَ^(٢) هُوَ لَا هَلَّلَ هُوَ لَا .

فَرَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي وَقُلْتُ :

أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَعَدُّهُ كَافِرًا وَأَحْمِلُ عَلَيْهِ ؟ ...

وَأَيُّهُمَا أَعَدُّهُ مُؤْمِنًا وَأُجَاهِدُ مَعَهُ ؟ .

ثُمَّ تَرَكْتُهُمَا وَانْصَرَفْتُ ...

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ أَبُو الْعَالِيَةِ طَوَالَ حَيَاتِهِ أَشْوَانَ^(٣) أَسِفًا لِأَنَّهُ لَمْ يَحْظَ بِإِلْقَاءِ

الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَكَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يُعَوِّضَ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّقَرُّبِ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ

تَوَثَّقَتْ صَلَاتُهُمْ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَكَانَ يُؤَثِّرُهُمْ^(٤) ، وَيُحِبُّهُمْ ، وَكَانُوا يُؤَثِّرُونَهُ وَيُفَضِّلُونَهُ .

(١) ما يُدْرَى طرفاهما : كناية عن بعدهما ، وشدة طولهما . (٣) أَشْوَانَ : حزيناً .

(٢) هَلَّلَ : قَالَ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . (٤) يُؤَثِّرُهُمْ : يفضلهم على نفسه .

وَمِنْ آيَاتِ ذَلِكَ أَنَّ أَنَسًا^(١) - خَادِمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَهْدَى لَهُ تُفَاحَةً
كَانَتْ فِي يَدِهِ .

فَأَخَذَهَا مِنْهُ ، وَجَعَلَ يَقْبُلُهَا وَيَقُولُ :
تُفَاحَةُ مَسْنَتِهَا يَدٌ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ ...
تُفَاحَةُ مَسْنَتِهَا يَدٌ حَضَيْتْ بِمَسِّ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ...

* * *

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ دَخَلَ ذَاتَ مَرَّةٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ
يَتَوَلَّى إِمَارَةَ « البَصْرَةِ » مِنْ قِبَلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .
فَرَحَّبَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَجْمَلَ التَّزْحِيبِ ، وَرَفَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ،
وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ .

وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ طَائِفَةٌ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ ، فَتَغَامَزُوا^(٢) بِهِ ، وَتَهَاَمَسُوا
بَيْنَهُمْ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :
أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ رَفَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْعَبْدَ عَلَى سَرِيرِهِ !؟ .
وَقَدْ أَدْرَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا يَتَغَامَزُونَ بِهِ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ :
إِنَّ الْعِلْمَ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ، وَيَزِفُّعُ قَدْرَ أَهْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُجْلِسُ
الْمَمَالِيكَ عَلَى الْأَسِرَّةِ .

* * *

(١) أنس بن مالك : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٢) فتغامزوا : جعل بعضهم يغمز لبعض بعينه .

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ عَزَمَ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَأَعَدَّ لِلْأَمْرِ
عُدَّتَهُ ، وَحَزَمَ أَمْرَهُ عَلَى الْمُضِيِّ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ .

فَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ الصُّبْحُ ، فُوجِيَ بِآلَامٍ مُبَرِّحَةٍ ^(١) فِي إِحْدَى قَدَمَيْهِ .
ثُمَّ مَا زَالَ الْأَلَمُ يَشْتَدُّ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ .

فَلَمَّا عَادَهُ الطَّبِيبُ قَالَ لَهُ : إِنَّهُ مُصَابٌ بِالْأَكْلَةِ .
قَالَ : وَمَا الْأَكْلَةُ ؟ .

قَالَ : ذَاءٌ يَأْكُلُ الْعُضْوَ الَّذِي يَحِلُّ بِهِ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى مَا فَوْقَهُ حَتَّى يَأْتِيَ
عَلَى الْجَسَدِ كُلِّهِ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى بَثْرِ سَاقِهِ ...
فَأَذِنَ لَهُ عَلَى كُرْوِهِ مِنْهُ .

* * *

أَخْضَرَ الطَّبِيبُ مَبَاضِعَهُ ^(٢) لِيَشُقَّ اللَّحْمُ ...
وَمَنَاشِيرُهُ لِيَنْشِرَ الْعَظْمُ ...

ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتُرِيدُ أَنْ نَسْقِيكَ جُرْعَةً مِنْ مُخَدِّرٍ ^(٣) لِكَيْ لَا تَشْعُرَ بِآلَامِ الشَّقِّ
وَالْبَثْرِ ؟ .

فَقَالَ : بَلْ هُنَاكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ .
فَقَالَ الطَّبِيبُ : وَمَا هُوَ ؟ .

فَقَالَ : أَحْضِرُوا لِي قَارِئًا يُتَقَنُّ كِتَابَ اللَّهِ ، وَاجْعَلُوهُ يَقْرَأُ عَلَيَّ مَا تَيَسَّرَ مِنْ
آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ .

(١) مبرحة : شديدة الوجع .

(٢) المباضع : جمع مبضع ، وهو الآلة التي يشق بها الجلد .

(٣) المخدر : ما يجعل العضو يتخدر .

فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي قَدْ احْمَرَّ وَجْهِي ، وَاتَّسَعَتْ حَدَفَتَايَ ، وَثَبَّتَ نَظْرِي فِي
السَّمَاءِ ...

فَافْعَلُوا بِي مَا شِئْتُمْ ...

فَنَقِّدُوا أَمْرَهُ ، وَبَتِّرُوا عَظْمَهُ ...

فَلَمَّا أَفَاقَ ، قَالَ لَهُ الطَّيِّبُ : كَأَنَّكَ لَمْ تَشْعُرْ بِالْأَمِّ الشَّقِّ وَالْبِتْرِ .

فَقَالَ : لَقَدْ شَغَلَنِي بَرْدُ^(١) حُبِّ اللَّهِ ...

وَحَلَاوَةُ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَنْ حَرَارَةِ الْمَنَاشِيرِ .

ثُمَّ أَخَذَ رِجْلَهُ بِيَدِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ :

إِذَا لَقِيتُ رَبِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسَأَلَنِي : هَلْ مَسَيْتُ بِكَ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى

مُحَرَّمٍ ؟ ...

أَوْ مَسَسْتُ بِكَ غَيْرَ مُبَاحٍ ؟ ... لَأَقُولَنَّ : لَا .

وَأَنَا صَادِقٌ فِيمَا أَقُولُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ بَلَغَ مِنْ ثِقَلِ أَبِي الْعَالِيَةِ ، وَتَرْقُبِهِ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَاسْتِعْدَادِهِ لِلِقَاءِ رَبِّهِ ؛
أَنَّهُ أَعَدَّ لِنَفْسِهِ كَفَنًا .

وَأَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ كَفَنَهُ كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةً ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى مَكَانِهِ ...

وَلَقَدْ أَوْصَى سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً ؛ وَهُوَ صَحِيحٌ سَلِيمٌ ...

(١) برد حب الله : هناية حب الله عز وجل .

وَكَانَ يُحَدِّدُ لِكُلِّ وَصِيَّةٍ أَجْلاً ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهَا نَظَرَ فِيهَا .
فَإِمَّا أَنْ يُعَدِّلَهَا ...
وَإِمَّا أَنْ يُبَدِّلَهَا ...
وَإِمَّا أَنْ يُمَضِّيَهَا ...
وَفِي شَهْرِ شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثِ وَتَسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ...
مَضَى أَبُو الْعَالِيَةِ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ ؛ طَاهِرَ الذَّلِيلِ ...
نَقِيَّ النَّفْسِ ...
وَإِثْقاً بِرَحْمَةِ رَبِّهِ ...
مُتَشَوِّقاً إِلَى لِقَاءِ نَبِيِّهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار رُفِيعِ بْنِ مِهْرَانَ المكنى بأبي الْعَالِيَةِ انظر :

- ١ - سير أعلام النبلاء للذهبي : ٢٠٧/٤ وما بعدها .
- ٢ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١١٢/٧ .
- ٣ - حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني : ٢١٧/٢ - ٢٢٤ .
- ٤ - تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٨٤/٣ .
- ٥ - المعارف لابن قتيبة : ٤٥٤ .
- ٦ - الإصابة في تمييز الصحابة : ٥٢٨/١ الترجمة ٢٧٤٠ .
- ٧ - التهذيب لابن عساكر .
- ٨ - تذكرة الحفاظ للذهبي : ٥٨/١ .

الأخنف بن قيس يسور بن تميم

« إِنَّ الْأَخْنَفَ بْنَ قَيْسٍ بَلَغَ مِنَ الشَّرَفِ وَالشُّوْذِ
مَا لَا تَنْفَعُهُ الْوَلَايَةُ وَلَا يَضُرُّهُ الْعَزْلُ »

[زِيَادُ ابْنِ أَبِيهِ]

كَانَتْ « دِمَشْقُ » تَضْحَكُ لِلرَّبِيعِ الطَّلَقِ مُحْتَالَةً بِخَمَائِلِهَا ^(١) النَّضِرَةِ ،
مَرْهُوَّةٌ بِرِيَاضِهَا الْعَطِرَةِ .

وَكَانَ قَصْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ » قَدْ أَخَذَ أَهْبَتَهُ
لِاسْتِقْبَالِ الْوَافِدِينَ عَلَيْهِ .

وَمَا إِنْ أُذِنَ لِأَوَّلِ قَادِمٍ عَلَى الْخَلِيفَةِ ؛ حَتَّى بَادَرَتْ أُخْتُهُ « أُمُّ الْحَكَمِ بِنْتُ
أَبِي سُفْيَانَ » فَأَخَذَتْ مَكَانَهَا وَرَاءَ السُّنْبُرِ ؛ لِتَسْتَمِعَ إِلَى مَا يُرْوَى فِي مَجْلِسِ
الْخِلَافَةِ مِنْ أَحَادِيثِ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَلِتَتَمَلَّى مِمَّا يَنْثُرُهُ ^(٢) جُلَسَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَوَادِرِ الْأَخْبَارِ ، وَرَوَائِعِ
الْأَشْعَارِ ، وَبَالِغِ الْحِكْمَةِ .

فَقَدْ كَانَتْ سَيِّدَةً رَاجِحَةَ الْعَقْلِ ، عَالِيَةً الْهِمَّةِ ، تَصْبُو ^(٣) إِلَى شَرِيفِ
الْمَطَالِبِ .

وَكَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ أَخَاهَا يَأْذُنُ لِلنَّاسِ بِالْدُّخُولِ عَلَيْهِ حَسَبَ مَرَاتِبِهِمْ .

(١) الحمائل : جمع خميلة ، وهي الحديقة الملتفة الأشجار .

(٢) ينثره : يلقيه .

(٣) تصبو : تتطلع .

فَيَقْدُمُ صَحَابَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ ، ثُمَّ يَلِيهِمْ
كِبَارُ النَّابِعِينَ ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ ، وَذَوُو الْأَحْسَابِ (١) .

* * *

لَكِنَّ أُمَّ الْحَكَمِ وَجَدَتْ أَخَاهَا يَسْتَقْبِلُ زَائِرَهُ الْأَوَّلَ اسْتِقْبَالاً يَشُوْبُهُ شَيْءٌ
مِنَ الْفُتُورِ (٢) ، وَسَمِعَتْهُ يَقُولُ لَهُ :

وَاللَّهِ يَا أَعْخَفُ مَا تَمَثَّلْتُ (٣) يَوْمَ « صِفَيْنَ » (٤) مَرَّةً ، وَتَذَكَّرْتُ انْحِيَارَكَ
عَنَّا ، وَوُقُوفَكَ إِلَى جَانِبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَّا كَانَتْ حَزَارَةً فِي قَلْبِي إِلَى أَنْ
أَمُوتَ .

فَبَادَرَهُ الرَّجُلُ قَائِلًا :

وَاللَّهِ يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ الْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضْنَاكَ بِهَا مَا تَزَالُ بَيْنَ جَوَانِحِنَا ...

وَإِنَّ السُّيُوفَ الَّتِي قَاتَلْنَاكَ بِهَا مَا فَتِنَتْ (٥) فِي أَيْدِينَا ...

وَإِنْ تَذُنْ مِنَ الْحَرْبِ فِتْرًا ؛ نَذُنْ مِنْهَا شِبْرًا ...

وَإِنْ تَمْشِ إِلَيْهَا مَشْيًا ؛ نَمْضِ إِلَيْهَا هَرْوَلَةً .

وَوَاللَّهِ مَا حَمَلْنَا إِلَيْكَ رَغْبَةً فِي عَطَائِكَ ، أَوْ رَهْبَةً مِنْ جَفَائِكَ (٦) ...

وَإِنَّمَا جِئْنَاكَ لِرَأْبِ (٧) الصَّدْعِ ، وَلَمْ الشُّمْلِ ، وَجَمْعِ كَلِمَةِ

الْمُسْلِمِينَ ...

ثُمَّ اسْتَدَارَ وَخَرَجَ مِنْ حَيْثُ أَتَى .

(١) الأحساب : جمع حسب ، وهو شرف الأصل .

(٢) الفتور : قلة الاهتمام .

(٣) تمثلت : تصورت

(٤) يوم صفين : هو اليوم الذي انتصر فيه عَلِيُّ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، وصفين : موضع قريب من شاطئ الفرات الأيمن .

(٥) ما فتئت : ما زالت . (٦) جفائك : خصومتك . (٧) لرأب الصدع : لإصلاح ذات البين .

فَلَمْ تَمْلِكْ أُمْ الْحَكَمَ إِلَّا أَنْ تُرِيحَ طَرْفَ السُّتْرِ ؛ لِتَرَى هَذَا الَّذِي يَرُدُّ إِلَى
الْخَلِيفَةِ الْحَجَرِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ^(١)، وَيَكِيلُ لَهُ الصَّاعَ صَاعَيْنِ^(٢) ...

فَرَأَتْ رَجُلًا قَصِيرَ الْقَامَةِ، ضَعِيلَ الْجِسْمِ، أَصْلَعَ الرَّأْسِ، مُتْرَاكِبَ
الْأَسْنَانِ، مَائِلَ الذَّقَنِ، مُنْخَسِفَ الْعَيْنَيْنِ^(٣)، أَخْنَفَ الرَّجُلَيْنِ^(٤)، لَيْسَ فِي إِنْسَانٍ
عَيْبٌ إِلَّا وَلَهُ مِنْهُ نَصِيبٌ .

فَالْتَفَتَتْ إِلَى أَخِيهَا وَقَالَتْ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ الْخَلِيفَةُ وَيَتَوَعَّدُهُ فِي عَقْرِ^(٥)
بَيْتِهِ !؟ .

فَتَنَهَّدَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ :

هَذَا الَّذِي إِذَا غَضِبَ ، غَضِبَ لَهُ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » لَا يَذُرُونَ فِيمَ
غَضِبَ ...

إِنَّهُ « الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ » سَيِّدُ بَنِي « تَمِيمٍ » ، وَأَحَدُ أَفْدَاذِ الْعَرَبِ وَأَبْطَالِهِمْ
الْفَاتِحِينَ ...

فَتَعَالَوْا نَسْتَعْرِضُ قِصَّةَ حَيَاةِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ أَوَّلِهَا .

* * *

فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ ، وُلِدَ « لَقَيْسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ السَّعْدِيُّ » مَوْلُودٌ
دَعَاهُ « الضَّحَّاكُ » .

غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَبِثُوا أَنَّ لَقَبُوهُ بِالْأَخْنَفِ لِأَعْوَجَاجٍ فِي رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ غَلَبَ
الْلَقَبُ عَلَى الْإِسْمِ .

(١) يرد الحجر من حيث جاء : يقابل الشر بالشر .

(٢) يكيل له الصاع صاعين : يربي عليه ويزيد .

(٣) منخسف العينين : غائر العينين .

(٤) أخنف الرجلين : معوج الرجلين إلى الداخل .

(٥) في عقر بيته : في وسط داره .

وَلَمْ يَكُنْ قَيْسٌ وَالِدُ الْأَخْنَفِ فِي الذُّوَابَةِ^(١) مِنْ قَوْمِهِ ، وَلَا مِنْ حَوَاشِيهِمْ^(٢) ؛ وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ .

وَكَانَتْ وَلَادَةُ الْأَخْنَفِ فِي مَنَازِلِ قَوْمِهِ عَرَبِيٍّ « الْيَمَامَةِ » مِنْ أَرَاضِي « نَجْدٍ » .

وَقَدْ نَشَأَ الْفَتَى يَتِيمًا ، حَيْثُ قُتِلَ أَبُوهُ وَهُوَ طِفْلٌ لَمْ يَدْرُجْ^(٣) بَعْدُ .

ثُمَّ غَمَرَتْ أَنْوَارُ الْإِسْلَامِ قَلْبَهُ وَهُوَ غُلَامٌ لَمْ يَطُرْ^(٤) شَارِبُهُ .

فَقَدْ بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قُبَيْلَ وَقَاتِهِ بِسَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ دَاعِيَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى رَهْطِ^(٥) الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

فَاجْتَمَعَ الدَّاعِيَةُ إِلَى وَجْهِهِ الْقَوْمِ وَأَخَذَ يَحْضِيهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ... فَسَكَتَ الْقَوْمُ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ ، فَبَادَرَهُمُ الْأَخْنَفُ - وَكَانَ حَاضِرًا - وَقَالَ :

يَا قَوْمُ مَا لِي أَرَاكُمْ مُتَرَدِّدِينَ تُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَتُؤَخَّرُونَ رِجْلًا ؟ ! ...

وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْوَافِدَ عَلَيْكُمْ لَوَافِدٌ خَيْرٌ ...

وَإِنَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ مَلَائِمِهَا^(٦) ...

وَوَاللَّهِ مَا سَمِعْنَا مِنْهُ إِلَّا حُسْنًا ...

فَاجِئُوا دَاعِيَ الْهُدَى ، تَفُوزُوا بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَمَا لَبِثُوا أَنْ أَسْلَمُوا ، وَأَسْلَمَ مَعَهُمُ الْفَتَى .

(١) فِي الذُّوَابَةِ مِنْ قَوْمِهِ : فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْ عَشِيرَتِهِ .

(٢) مِنْ حَوَاشِيهِمْ : مِنْ صِغَارِهِمْ .

(٣) لَمْ يَدْرُجْ : لَمْ يَطْلُعْ شَارِبُهُ .

(٤) يَطُرُ : يَطْلُعُ شَارِبُهُ .

(٥) رَهْطُ الرَّجُلِ : قَوْمُهُ وَجَمَاعَتُهُ .

(٦) مَلَائِمِهَا : مَا لَا يَجُوزُ مِنْهَا .

(٣) لَمْ يَدْرُجْ : لَمْ يَمِشْ .

ثُمَّ وَقَدْ كَبَّرَ الْقَوْمُ عَلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

غَيْرَ أَنَّ الْأَخْنَفَ لَمْ يَفِدْ مَعَهُمْ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ ...

فَحَرَّمَ مِنْ شَرَفِ الصُّحْبَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ مِنْ رِضَى الرَّسُولِ
الْكَرِيمِ ﷺ عَنْهُ ... وَدُعَائِهِ لَهُ ...

* * *

حَدَّثَ الْأَخْنَفُ قَالَ :

بَيْنَمَا أَنَا أَطُوفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ فِي زَمَنِ «عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
إِذْ لَقِيتُنِي رَجُلٌ أَعْرِفُهُ ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ :
أَلَا أُبَشِّرُكَ ؟ .

قُلْتُ : بَلَى ...

قَالَ : أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى قَوْمِكَ
لِأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَجَعَلْتُ أَدْعُوهُمْ ، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الدُّخُولَ فِي دِينِ
اللَّهِ ، فَقُلْتَ أَنْتَ يَوْمَئِذٍ مَا قُلْتَ ؟ .

قُلْتُ : بَلَى .

قَالَ : فَإِنِّي رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمَقَالَتِكَ ،
فَقَالَ : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَخْنَفِ) .

فَكَانَ الْأَخْنَفُ يَقُولُ : مَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِي أَرْجَى ^(١) لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ
دَعْوَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

(١) أَرْجَى : أعظم رجاء وأكثر أملاً .

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولَ الْكَرِيمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَطَلَعَ « مُسَيِّلِمَةُ
الْكَذَّابُ » عَلَى النَّاسِ بِإِفْكِهِ ^(١) ، وَازْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِهِ مَنِ ارْتَدَّ ؛ مَضَى إِلَيْهِ
الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَعَ عَمِّهِ « الْمُتَشَمِّسِ » لِيُلْقِيَاهُ ، وَيَسْمَعَا مِنْهُ .
وَكَانَ الْأَخْنَفُ يَوْمَئِذٍ فِي بَوَاكِيرِ ^(٢) شَبَابِهِ ، فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ
« الْمُتَشَمِّسُ » لِابْنِ أَخِيهِ :

كَيْفَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَا أَخْنَفُ ؟ .

فَقَالَ : رَأَيْتُهُ مُبْطِلًا يَفْتَرِي ^(٣) الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسِ .
فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ مُمَارِحًا :

أَلَا تَحْشَى عَلَى نَفْسِكَ إِنْ أَخْبَرْتُهُ بِتَكْذِيبِكَ إِيَّاهُ ؟ !
فَقَالَ الْأَخْنَفُ :

عِنْدَ ذَلِكَ أُحَالِفُكَ ^(٤) عِنْدَهُ ، فَهَلْ تَحْلِفُ أَنَّكَ لَمْ تُكَذِّبْهُ كَمَا كَذَّبْتُهُ ؟ .
وَتَصَاحَكَ الْفَتَى وَعَمُّهُ وَتَبَيَّنَا عَلَى إِسْلَامِهِمَا .

* * *

وَلَا غَرَابَةَ إِذَا أَخَذَكَ الْعَجَبُ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِكَ الدَّهْشَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ
الْحَازِمَةِ الْحَاسِمَةِ الَّتِي يَقْفُهَا الْأَخْنَفُ فِي عَظَائِمِ الْأُمُورِ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ
سِنِّهِ .

لَكِنَّ عَجَبَكَ سَيَنْقَضِي ، وَدَهْشَتَكَ سَتَزُولُ ؛ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ فَتَى بَنِي
« تَمِيمٍ » كَانَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الدَّهْرِ فِي جِدَّةِ ^(٥) الْحَاظِرِ ، وَتَوْقُدِ الذِّكَاةِ ،
وَصِدْقِ النَّظَرَةِ ، وَصَفَاءِ الْفِطْرَةِ .

(١) بإفكه : بكذبه .

(٢) بواكير شبابه : أوائل شبابه .

(٤) أحوالُك : أطلب منك أن تحلف .

(٥) جدَّة الحَاطِر : نفاذ الذهن وحِدْته .

(٣) يفتري يخلق الكذب .

وَأَنَّهُ كَانَ مِنْذُ نُعُومَةٍ^(١) أَظْفَارِهِ يُجَالِسُ مَشِيخَةَ قَوْمِهِ ، وَيَعُشَى^(٢) أَنْدِيَتَهُمْ ، وَيَشْهَدُ مُؤْتَمَرَاتِهِمْ ، وَيَسْتَلِمُذُ عَلَى أَيْدِي حُكَمَائِهِمْ ، وَحُلَمَائِهِمْ .
حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

كُنَّا نَخْتَلِفُ^(٣) إِلَى مَجَالِسِ « قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيِّ »^(٤) لِنَتَعَلَّمَ مِنْهُ الْحِلْمَ كَمَا نَخْتَلِفُ إِلَى مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ لِنَتَلَقَّى مِنْهُمْ الْعِلْمَ .
فَقِيلَ لَهُ : وَمَا الَّذِي بَلَغَ مِنْ حِلْمِهِ ؟ .

فَقَالَ : جِئْتُهُ مَرَّةً فَرَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِفَنَاءٍ^(٥) يَبْتِيهِ ، مُحْتَبِيًا^(٦) بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ ،
يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ... فَسَلَّمْتُ وَجَلَسْتُ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى سَمِعْنَا ضَجَّةً ، فَنَظَرْنَا ... فَإِذَا بِهِ قَدْ أَتَى لَهُ بِشَابٍ
مَكْتُوفٍ ، وَآخَرَ مَقْتُولٍ ، وَقِيلَ لَهُ :

هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَدْ قَتَلَ ابْنَكَ فَلَانًا ...

فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُوتُهُ ، وَلَا قَطَعَ كَلَامُهُ .

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ وَقَالَ :

يَا ابْنَ أَخِي قَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ فَقَطَعْتَ رَحِمَكَ بِيَدِكَ ...

وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ...

(١) نُعُومَةٌ أَظْفَارُهُ : طفولته وصغر سنه .

(٢) يَعُشَى أَنْدِيَتَهُمْ : يحضر مجتمعاتهم .

(٣) نَخْتَلِفُ : نتردد .

(٤) قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيُّ : أحد أمراء العرب وعقلائهم ، ساد قومه في الجاهلية وحرم على نفسه الخمر ، وفد

على الرسول ﷺ وأسلم على يديه .

(٥) فَنَاءٌ بَيْتُهُ : بساحة منزله .

(٦) مُحْتَبِيًا : جامعاً بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها كما كان يجلس السادة من العرب .

ثُمَّ قَالَ لِابْنِ لَهُ آخَرَ :

قُمْ يَا بُنَيَّ فَحُلَّ كِتَافَ^(١) ابْنِ عَمِّكَ ... وَوَارِ أَخَاكَ .

ثُمَّ سَقَ^(٢) إِلَى أُمِّهِ مِائَةَ نَاقَةٍ دِيَّةَ ابْنَيْهَا ؛ فَإِنَّهَا غَرِيبَةٌ .

* * *

وَلَقَدْ أُتِيحَ لِلْأَخْتَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنْ يَتَلَمَّذَ عَلَى أَيْدِي جِلَّةِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ،
وَفِي قِمَتِهِمُ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فَشَهِدَ مَجَالِسَهُ ، وَسَمِعَ مَوَاعِظَهُ ، وَوَعَى أَقْصِيَّتَهُ^(٣) وَأَحْكَامَهُ ؛ فَكَانَ مِنْ
أَلَمَعَ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ أَنْجَبَتْهُمْ الْمَدْرَسَةُ الْعُمَرِيَّةُ ، وَأَعَمَّقَتْهُمْ تَأَثُّراً بِمُعَلِّمِهَا
الْعَبْقَرِيِّ الْقَدْ .

وَلَقَدْ قِيلَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ : بِمِ أُوْتِيَتْ مَا أُوتِيَتْ مِنَ الْوَقَارِ^(٤) وَالْحِكْمَةِ ؟ .

فَقَالَ : بِكَلِمَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَيْثُ قَالَ :

مَنْ مَرَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ^(٥) ...

وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ...

وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ^(٦) ...

وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ...

وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ...

وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ ...

* * *

(١) الكتاف : حبل تشد به اليدان إلى خلف الكتفين . (٤) الوقار : الحلم والرزانة .

(٢) سَقَ : أعطى . (٥) اسْتُخِفَّ بِهِ : استهان الناس به .

(٣) الأقضية : جمع قضاء ، وهو الحكم . (٦) سَقَطُهُ : خطؤه .

وَقَدْ تَسَنَّمَ^(١) الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ قَوْمَهُ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ
أَعْلَاهُمْ حَسَباً ...

وَلَا أَجْلَهُمْ أُمًّا وَأَبَاً ...

وَلَكُمْ سَأَلُهُ السَّائِلُونَ عَنْ سِرِّ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ :

مَنْ الَّذِي يُسَوِّدُهُ^(٢) قَوْمُهُ يَا أَبَا بَحْرٍ ؟ .

فَقَالَ : مَنْ كَانَ فِيهِ أَرْبَعُ خِصَالٍ سَادَ قَوْمُهُ غَيْرَ مُدَافِعٍ^(٣) .

فَقِيلَ لَهُ : وَمَا هَذِهِ الْخِصَالُ ؟ .

فَقَالَ : مَنْ كَانَ لَهُ دَيْنٌ يَحْجُزُهُ^(٤) ...

وَحَسَبٌ^(٥) يَصُونُهُ ...

وَعَقْلٌ يُرْشِدُهُ ...

وَحَيَاءٌ يَمْنَعُهُ ...

* * *

وَالْأَخْنَفُ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدُ حُلَمَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ ضُرِبَ بِحِلْمِهِمُ الْمَثَلُ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ « عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ » أَغْرَى^(٦) رَجُلًا بِسَبِّهِ سَبًّا
مُقْدِعًا^(٧) يُشِيرُ الْحَقَائِظَ .

لَكِنَّ الْأَخْنَفَ ظَلَّ صَامِتاً مُطْرِقاً ... فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُ ،
وَلَا يَأْتِيهِ لَهُ ؛ أَخَذَ إِبْهَامَهُ فِي فَمِهِ ، وَجَعَلَ يَعْضُهُ وَهُوَ يَقُولُ :

(١) تَسَنَّمَ : غَلَا وَرَئَسَ .

(٢) يُسَوِّدُهُ قَوْمُهُ : يَجْعَلُونَهُ سَوْدَاً عَلَيْهِمْ .

(٥) الْحَسَبُ : الشَّرَفُ .

(٦) أَغْرَى : حَضَّ .

(٣) غَيْرَ مُدَافِعٍ : لَا يَدَافِعُهُ أَحَدٌ عَنِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بَلَغَهَا .

(٧) مُقْدِعًا : مَفْحَشًا .

(٤) يَحْجُزُهُ : يَمْنَعُهُ .

وَأَسْوَآتَاهُ^(١)، وَاللَّهِ مَا مَنَعَهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي^(٢) عَلَيْهِ .

* * *

وَاتَّفَقَ أَنْ كَانَ الْأُحْنَفُ يَمْشِي فِي حَوَاشِي^(٣) « الْبَصْرَةِ » خَالِيًا بِنَفْسِهِ ،
فَتَعَرَّضَ لَهُ رَجُلٌ ، جَعَلَ يَسْتُثْمُهُ ، وَيَعِيبُهُ ، وَيُسْمِعُهُ قَوَارِصَ^(٤) الْكَلَامِ ، وَهُوَ
سَاكِتٌ مَاضٍ فِي طَرِيقِهِ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَا مِنَ النَّاسِ ؛ التَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ :
يَا بَنَ أَخِي إِنْ كَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ كَلَامِكَ فَضْلَةٌ^(٥) فَقُلْهَا الْآنَ ...
فَإِنَّ قَوْمِي إِذَا سَمِعُوا مَا تَقُولُ أَصَابَكَ مِنْهُمْ أذى .

* * *

وَكَانَ الْأُحْنَفُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَبَادًا ، صَوَامًا ، قَوَامًا ، زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِي
النَّاسِ .

وَكَانَ إِذَا جَنَّ^(٦) عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَسْرَجَ^(٧) مِصْبَاحَهُ ، وَوَضَعَهُ قَرِيبًا مِنْهُ ،
وَوَقَفَ فِي مِحْرَابِهِ يُصَلِّي .

وَهُوَ يَتَمَلَّمُ تَمَلُّمَ السَّقِيمِ^(٨) ، وَيَتَكِي بُكَاءَ الثَّائِلِ^(٩) ؛ إِشْفَاقًا مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ ...

وَحَشْيَةً مِنْ غَضَبِهِ ...

وَكَانَ كُلَّمَا اسْتَشَعَرَ ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِهِ ، أَوْ لَاحَ^(١٠) لَهُ عَيْبٌ مِنْ عُيُوبِهِ ، قَرَّبَ
إِضْبَعَهُ مِنَ الْمِصْبَاحِ وَقَالَ :

-
- | | |
|---|---------------------------------|
| (١) وأسوأ تأته : واحزنه . | (٦) جَنَّ : أطبق . |
| (٢) هواني عليه : ذلي وحقارتي عنده . | (٧) أَسْرَجَ : أوقد . |
| (٣) حواشي البصرة : أطراف البصرة وما حولها . | (٨) السَّقِيم : المريض العليل . |
| (٤) قوارص الكلام : الكلام المؤلم . | (٩) الثَّائِل : الفاقد ابنه . |
| (٥) فَضْلَةٌ : بقية وزيادة . | (١٠) لَاحَ : ظَهَرَ وبدا . |

حَسَّ (١) يَا أَحْنَفُ ...

مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا؟ .

وَيَحَكَ يَا أَحْنَفُ إِذَا كُنْتَ لَا تُطِيقُ الْيَوْمَ لَهَبَ الْمِصْبَاحِ ، وَلَا تَصْبِرُ عَلَى
حَرِّهِ ؛ فَكَيْفَ تُطِيقُ غَدًا لَهَبَ جَهَنَّمَ ، وَتَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ ؟ ...

اللَّهُمَّ إِنْ تَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ أَهْلٌ لِدَاكَ ...

وَإِنْ تُعَذِّبْنِي فَأَنَا أَهْلٌ لِدَاكَ ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ وَأَرْضَاهُ .

فَقَدْ كَانَ رَائِعَةً مِنْ رَوَائِعِ الزَّمَانِ ...

وَضَرْباً فَرِيداً مِنَ النَّاسِ ...

(١) حَسَّ : تَوَجَّعُ وَتَأَلَّمَ .

الأحنفُ بن قيسٍ يتألمذ على يدي الفاروق

« إِنَّ هَذَا الْغَلَامَ وَاللَّهِ هُوَ السَّيِّدُ وَإِنَّهُ سَيِّدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

نَحْنُ الْآنَ فِي أَوَائِلِ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ .
وَهَا هُمْ أَوْلَاءِ الْأَنْجَادِ ^(١) الْأَمْجَادُ رَهْطُ ^(٢) « الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ » مِنْ بَنِي
« تَمِيمٍ » ، يَمْتَنُّونَ صَهَوَاتِ الْخَيُْولِ الصَّافِنَاتِ ^(٣) ...
وَيَتَقَلَّدُونَ السُّيُوفَ الرَّقَاقَ الْمُزَهَّقَاتِ ^(٤) ...
وَيَزْحَلُونَ عَنْ مَنَازِلِهِمْ فِي « الْأَحْسَاءِ » وَ« نَجْدٍ » ، مُيَمِّينَ ^(٥) وَجُوهَهُمْ
شَطْرَ « الْبَصْرَةِ » .

يُرِيدُونَ الْإِنْضِمَامَ إِلَى جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحْتَشِدِينَ هُنَاكَ تَحْتَ قِيَادَةِ
« عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ » ^(٦) لِقِتَالِ الْفُرْسِ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...
وَطَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ .
وَكَانَ مَعَهُمْ فَتَاهُمْ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ .

* * *

(١) الْأَنْجَادُ : جمع نجد ، وهو الشجاع الذي يفعل ما يعجز عنه غيره .

(٢) رَهْطُ الرَّجُلِ : قومه .

(٣) الصَّافِنَاتُ : جمع مفردة صافن ، وهو الذي يقف على أقدام ثلاث ويرفع القدم الرابعة .

(٤) الْمُزَهَّقَاتُ : السيوف المرققة المحددة .

(٥) مُيَمِّينَ : قاصدين .

(٦) عتبة بن غزوان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ تَلَقَّى عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ كِتَاباً مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ يَأْمُرُهُ فِيهِ بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ عَشْرَةً مِنْ صُلَحَاءِ عَسْكَرِهِ ، وَأَحْسَنِيهِمْ بَلَاءً فِي
الْقِتَالِ لِيَقِفَ مِنْهُمْ عَلَى أَحْوَالِ الْجَيْشِ ، وَلِيَتَمَلَّى ^(١) مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنْ رَأْيٍ
وَمَشُورَةٍ .

فَصَدَعَ عُثْبَةُ بِالْأَمْرِ ^(٢) ، وَجَهَّزَ عَشْرَةً مِنْ صَفْوَةِ رِجَالِهِ .
وَجَعَلَ بَيْنَهُمُ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ .
وَوَجَّهَهُمْ إِلَى « الْمَدِينَةِ » .

* * *

مِثْلَ رِجَالِ الْوَفْدِ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ وَأَذْنَى مَجَالِسَهُمْ ،
ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ حَوَائِجِهِمْ وَحَوَائِجِ عَامَّةِ النَّاسِ .
فَنَهَضُوا إِلَيْهِ تَبَاعاً وَقَالُوا :
أَمَّا عَامَّةُ النَّاسِ فَأَنْتَ وَلِيُّهُمْ ، وَصَاحِبُ شُئُونِهِمْ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَتَنَكَّلْ عَنِ
خَاصَّةِ أَنْفُسِنَا .

ثُمَّ طَلَبَ كُلٌّ مِنْهُمْ حَاجَتَهُ الَّتِي تَغْنِيهِ .
وَكَانَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ آخِرَ رِجَالِ الْوَفْدِ كَلَاماً ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَصْغَرَهُمْ
سِنّاً .

فَحَمِدَ اللَّهُ وَائْتَنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَلُّوا فِي « مِصْرَ » قَدْ نَزَلُوا فِي
الْخُضْرَةِ وَالنُّضْرَةِ ^(٣) وَالْخَضْبِ مِنْ مَنَازِلِ « الْفَرَاعِنَةِ » .

(١) يتملئ : يتشبع ويمتلئ . (٢) صدع بالأمر : بيّنه ، واستجاب له . (٣) النضرة : المخضرة المورقة .

وَإِنَّ الَّذِينَ حَلُّوا فِي دِيَارِ « الشَّامِ » قَدْ نَزَلُوا فِي الرَّغْدِ^(١)، وَالشَّامِ،
وَالرِّيَاضِ مِنْ مَنَازِلِ « الْقِيَاصِرَةِ » .

وَإِنَّ الَّذِينَ حَلُّوا فِي دِيَارِ « الْفُرْسِ » قَدْ نَزَلُوا عَلَى ضِفَافِ الْأَنْهَارِ الْعَذْبَةِ،
وَالجَنَانِ الْوَارِفَةِ مِنْ مَنَازِلِ « الْأَكَاسِرَةِ » .

لَكِنَّ قَوْمَنَا الَّذِينَ حَلُّوا فِي « الْبَصْرَةِ » قَدْ نَزَلُوا فِي أَرْضِ هَشَّاشَةٍ نَشَّاشَةٍ^(٢)
لَا يَجِفُّ ثَرَابُهَا، وَلَا يَنْبُثُ مَرْعَاهَا ...

أَحَدُ طَرَفَيْهَا بَحْرٌ أُجَاجٌ^(٣)، وَطَرَفُهَا الْآخَرُ فَلَاةٌ قَفْزٌ .

فَازِلٌ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - ضُرُّهُمْ، وَأَنْعِشَ حَيَاتَهُمْ، وَمُرُّ وَالْيَكِ عَلَى
« الْبَصْرَةِ » أَنْ يَحْفَرَ لَهُمْ نَهْرًا يَسْتَعْدُّونَ مِنْهُ الْمَاءَ وَيَسْقُونَ الْأَنْعَامَ وَالزَّرْعَ ...

فَتَحْسُنَ حَالَهُمْ، وَيَصْلُحَ عِيَالُهُمْ، وَتَرْخُصَ أَسْعَارُهُمْ ...

وَيَسْتَعِينُوا بِذَلِكَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ فِي إِعْجَابٍ، وَقَالَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ :

هَلَّا فَعَلْتُمْ فَعْلَ هَذَا ...

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَسَيِّدٌ ...

ثُمَّ قَدَّمَ لَهُمْ جَوَائِزَهُمْ، وَقَدَّمَ لِلْأَخْنَفِ جَائِزَتَهُ فَقَالَ :

وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَطَعْنَا إِلَيْكَ الْفَلَوَاتِ، وَلَا ضَرَبْنَا لِلْقَائِكَ أَكْبَادَ^(٤)

الْإِبِلِ فِي الْبُكُورِ وَالْعَشِيَّاتِ لِنَبِيلِ الْجَوَائِزِ ...

وَمَا لِي مِنْ حَاجَةٍ لَدَيْكَ إِلَّا حَاجَةٌ قَوْمِي الَّتِي ذَكَرْتُ ...

(١) الرغد : طيب العيش ووفرة الخصب .

(٢) هَشَّاشَةٌ نَشَّاشَةٌ : الهَشَّاشَةُ : اللبنة المسترخية، والنَشَّاشَةُ : المالحَة التي لا تنبت .

(٣) الْأَجَاجُ : المُرُّ مِنْ شِدَّةِ مَلُوحَتِهِ .

(٤) أَكْبَادُ الْإِبِلِ : أَجْوَافُ النُّوقِ .

فَإِنْ تَقْضِيهَا لَهُمْ تَكُنْ قَدْ كَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ ...

فَارْزَادَ عُمَرُ إِعْجَاباً بِهِ وَقَالَ : « هَذَا الْغُلَامُ سَيِّدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ » .

وَلَمَّا انْقَضَ الْمَجْلِسُ ، وَهَمَّ رِجَالُ الْوَفْدِ بِالْانْصِرَافِ إِلَى رَوَاحِلِهِمْ^(١)
لِيَبْتَئُوا عِنْدَهَا ، أَجَالَ عُمَرُ بَصْرَهُ عَلَى حَقَائِبِهِمْ ؛ فَرَأَى طَرْفَ ثَوْبٍ خَارِجاً مِنْ
إِحْدَاهَا ، فَقَامَ فَلَمَسَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ :

لِمَنْ هَذَا ؟ .

فَقَالَ الْأَخْنَفُ : لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهُ اسْتَعْلَاهُ^(٢) .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : بِكُمْ اشْتَرَيْتُهُ ؟ .

فَقَالَ الْأَخْنَفُ بِثَمَانِيَةِ دَرَاهِمٍ .

وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَذَبَ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا غَيْرَ تِلْكَ الْكَذْبَةِ .

ذَلِكَ لِأَنَّهُ اشْتَرَاهُ بِاثْنِي عَشَرَ دِرْهَمًا .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ فِي رَفَقٍ وَقَالَ :

هَلَا اكْتَفَيْتَ بِوَاحِدٍ ، وَوَضَعْتَ فَضْلَهُ^(٣) مَالِكَ فِي مَوْضِعٍ تُعِينُ بِهِ

مُسْلِمًا ؟ .

ثُمَّ قَالَ :

خُذُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يُصْلِحُ شَأْنَكُمْ^(٤) ...

(١) رَوَاحِلُهُم : الرَوَاحِلُ جمع راحلة ، وهي التي يُرْحَلُ عليها .

(٢) اسْتَعْلَاهُ : اعتقد أنه غالي الثمن .

(٣) فَضْلُهُ مَالِك : بقية مَالِك .

(٤) يَصْلِحُ شَأْنَكُمْ : ينفي بحاجتكم ويقيم حياتكم .

وَضَعُوا الْفُضُولَ^(١) فِي مَوَاضِعِهَا ؛ تُرِيحُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَرْبِحُوا ...
فَاطَّرَقَ الْأُخْنَفُ حَيَاءً مِنْهُ ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا .

* * *

أَذِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ بِالْعُودَةِ إِلَى « الْبَصْرَةِ » غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَحْ
لِلْأُخْنَفِ بِالْبِرَاحِ^(٢) مَعَهُمْ ، وَاسْتَبَقَاهُ عِنْدَهُ حَوْلًا كَامِلًا .

فَلَقَدْ أَدْرَكَ عُمَرُ بِثَاقِبٍ نَظَرِهِ مَا تَوَافَرَ لِلْفَتَى التَّمِيمِيِّ مِنْ حِدَّةِ الذِّكَاةِ ...
وَنَصَاعَةِ الْبَيَانِ ...

وَسُمُو النَّفْسِ ...

وَعُلُوُّ الْهَمَّةِ ...

وَعَنَى الْمَوَاهِبِ ...

فَأَرَادَ أَنْ يُثْقِيَهُ قَرِيبًا مِنْهُ لِيَصْنَعَهُ^(٣) عَلَى عَيْنَيْهِ .

وَلِيَلْقَى كِبَارَ الصَّحَابَةِ ؛ فَيَهْتَدِيَ بِهِدْيِهِمْ ...

وَيَتَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ ...

ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَخْتَبِرَهُ عَنْ كَثْبِ^(٤) ، وَأَنْ يَنْقُذَ إِلَى دَخِيلَةِ نَفْسِهِ قَبْلَ
أَنْ يُؤَلِّقَهُ بَعْضَ شُؤُونِ الْمُسْلِمِينَ .

ذَلِكَ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ يَخْشَى مِنَ الْأَذْكِيَاءِ الْمَقَاوِلِ^(٥) الْفُصَحَاءِ أَشَدَّ
الْخَشْيَةِ .

(١) الفضول : الزوائد .

(٢) البراح : المغادرة والذهاب .

(٣) يصنعه على عينه : يتعهده ويوجهه ويريه .

(٤) عن كثب : عن قرب .

(٥) المقاتل : البلغاء الفصحاء الذين يتقنون الكلام .

فَهُمْ إِذَا صَلَّحُوا مَلَأُوا الدُّنْيَا خَيْرًا ...
وَإِذَا فَسَدُوا كَانَ ذِكَاؤُهُمْ وَبَالًا عَلَى النَّاسِ .
وَلَمَّا انْتَهَى الْحَوْلُ ، قَالَ عُمَرُ لِلْأَخْنَفِ :
يَا أَخْنَفُ ، إِنِّي قَدْ بَلَوْتُكَ ^(١) وَاخْتَبَرْتُكَ فَلَمْ أَرِ إِلَّا خَيْرًا .
وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَانِيَتَكَ حَسَنَةً ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُكَ مِثْلَ
عَلَانِيَتِكَ .

ثُمَّ وَجَّهَهُ لِحَرْبِ « الْفُرْسِ » ، وَكَتَبَ لِقَائِدِهِ ، « أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ » :
أَمَّا بَعْدُ ، فَأَذِنَ ^(٢) الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مِنْكَ ، وَشَاوِرُهُ ، وَاسْمَعِ مِنْهُ .

* * *

انْضَوَى ^(٣) الْأَخْنَفُ تَحْتَ أَلْوِيَةِ ^(٤) الْمُسْلِمِينَ الْمَشْرِقَةِ الْمُعَرَّبَةِ فِي بِلَادِ
« فَارِسَ » .

وَأَبْدَى مِنْ ضُرُوبِ الْبُطُولَاتِ مَا جَعَلَ سَهْمَهُ يَغْلُو ، وَنَجْمَهُ يَتَأَلَّقُ .
وَأَبْلَى ^(٥) هُوَ وَقَوْمُهُ بَنُو « تَمِيمٍ » فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ أَكْرَمَ الْبَلَاءِ ، وَبَذَلُوا
أَسْحَى الْبَذْلِ .

حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مَدِينَةَ « تُسْتَرَ » دُرَّةَ النَّجَاحِ الْكِسْرَوِيَّ ، وَأَوْقَعَ فِي
أَسْرِهِمْ « الْهُزْمَزَانُ » .

* * *

كَانَ « الْهُزْمَزَانُ » مِنْ أَشَدِّ قُوَادِ « الْفُرْسِ » بَأْسًا ، وَأَقْوَى أَمْرَائِهِمْ
شَكِيمَةً ^(٦) ، وَأَمْضَاهُمْ عَزِيمَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ مَكِيدَةً فِي الْحُرُوبِ .

(١) بلوتك : جرّبتك . (٣) انضوى : انضم . (٥) أبلّى : أظهر قوته وكشف عن بأسه .
(٢) أذن : قرب . (٤) ألوية المسلمين : رايات المسلمين . (٦) الشكيمة : الأنفة .

وَلَقَدْ أَلْجَأَتْهُ انْتِصَارَاتُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُصَالَحَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ
كَانَ يَغْدِرُ بِهِمْ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى النَّصْرِ .
فَلَمَّا أَطْبَقُوا^(١) عَلَيْهِ فِي « تُسْتَر » تَحَصَّنَ مِنْهُمْ فِي بُرْجٍ مِنْ أَبْرَاجِهَا
الْمُمْنَعَةِ وَقَالَ لَهُمْ :

إِنَّ مَعِيَ مِائَةَ سَهْمٍ .
وَوَاللَّهِ مَا تَصِلُونَ إِلَيَّ مَا دَامَ فِي يَدَيَّ شَيْءٌ مِنْهَا ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَامٍ
لَا تُخْطِئُ لَهُ رَمِيَّةٌ ...

فَمَا جَدَوِي^(٢) أَسْرِكُمْ إِثَّايَ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ مِائَةً مِنْكُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ .
فَقَالُوا : وَمَاذَا تُرِيدُ ؟ .

فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ خَلِيفَتِكُمْ عُمَرَ ، وَلِيَفْعَلَ بِي مَا يَشَاءُ .
فَقَالُوا : لَكَ ذَلِكَ .

فَرَمَى بِقَوْسِهِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُسْتَسْلِمًا ، فَشَدُّوا وَثَاقَهُ^(٣) ،
وَأَرْسَلَ إِلَى « الْمَدِينَةِ » مَعَ وَفْدٍ مِنْ أَهْبَالِ الْفَتْحِ .
وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ « أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ »^(٤) خَادِمُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ ، وَالْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ تَلْمِيزُ الْمَدْرَسَةِ الْعُمَرِيَّةِ .

* * *

مَضَى الْوَفْدُ يَحُثُّ الْخُطَلَى « بِالْهُزْمَانِ » نَحْوَ الْمَدِينَةِ ؛ لِيُبَشِّرَ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَتْحِ .

(١) أطبقوا عليه : أحاطوا به .

(٢) ما جدوى : ما نفع .

(٣) الوثاق : القيد والحبل .

(٤) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

وَيَحْمِلَ إِلَى يَتِّ مَالِ الْمُسْلِمِينَ خُمُسَ الْعَنَائِمِ ، وَلَيْسَلَمْ نَاكِثٌ (١)
الْعُهُودِ خَوَّانَ الذَّمِّ إِلَى الْخَلِيفَةِ ؛ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ .

فَلَمَّا بَلَّغُوا حَوَاشِي (٢) الْمَدِينَةِ ، أَعَدُّوا « الْهُزْمَزَانَ » لِيَعْرِضُوهُ أَمَامَ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَيْئَتِهِ .

فَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ الْمَنْسُوجَةَ مِنْ ثَمِينِ الدِّيَنَاجِ (٣) الْمَوْشَاةَ بِخُيُوطِ الذَّهَبِ .
وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجَهُ الْمُرَصَّعَ بِالذَّرِّ وَالْجَوْهَرِ ، وَقَلَّدُوهُ صَوْلَجَانَهُ (٤)
الْمَصْنُوعَ مِنَ الْإِبْرِيزِ ، الْمَكَلَّلَ بِالْيَتَوَاقِيَتِ وَاللَّالِي .

فَمَا إِنْ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ أَرْضَ « يَثْرِبَ » حَتَّى تَجَمَّعَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ شَيْبًا
وَشَبَّانًا ...

وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى أَسِيرِهِمْ ، وَيَعْجَبُونَ مِنْ هَيْئَتِهِ وَرِيزِهِ أَشَدَّ الْعَجَبِ .

* * *

تَوَجَّهَ الْوَفْدُ « بِالْهُزْمَزَانِ » إِلَى دَارِ عُمَرَ فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَسَأَلُوا عَنْهُ ...

فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّهُ مَضَى إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَسْتَقْبِلَ وَفْدًا قَدِمَ عَلَيْهِ .

فَانْطَلَقُوا إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَمْ يَرَوْهُ هُنَاكَ .

وَكَانُوا كُلَّمَا طَالَ بِهِمُ الْبَحْثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ تَكَاثَرَتِ النَّاسُ عَلَيْهِمْ ، وَاشْتَدَّ
رَحَامُهُمْ .

وَفِيمَا هُمْ فِي حَيْرَتِهِمْ هَذِهِ ؛ رَأَاهُمْ صَبِيَّةٌ صِغَارٌ يَلْعَبُونَ ، فَقَالُوا لَهُمْ :

مَا شَأْنُكُمْ ؟ ! ...

(١) الناكث : الراجع عمًا عاهد عليه .

(٢) حواشي المدينة : أطراف المدينة ومدخلها .

(٤) الصَوْلَجَان : العصا المعقوفة الرأس ، ومنها
صَوْلَجَانُ الْمَلِكِ .

(٣) الدِّيَنَاج : الثوب الذي سداه ولحمته من الحرير .

نَرَاكُمْ ذَاهِبِينَ آيِبِينَ ، لَعَلَّكُمْ تُرِيدُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
فَقَالُوا :

نَعَمْ نُرِيدُهُ .

فَقَالُوا : إِنَّهُ نَائِمٌ فِي مَيْمَنَةِ الْمَسْجِدِ ، مُتَوَسِّدٌ بُرْنُسَهُ^(١) .

وَكَانَ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ خَرَجَ لِلِقَاءِ وَفْدٍ مِنْ أَهْلِ « الْكُوفَةِ » فِي
بُرْنُسٍ لَهُ ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ الْوَفْدُ خَلَعَ الْبُرْنُسَ ، وَوَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ ، وَأَسْلَمَ جَفْنَيْهِ
إِلَى الْكَرَى^(٢) .

فَانْطَلَقَ الْوَفْدُ « بِالْهُزْمَرَانِ » إِلَى مَيْمَنَةِ الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا رَأَوْا الْخَلِيفَةَ نَائِمًا
جَلَسُوا دُونَهُ^(٣) ...

وَأَجْلَسُوا أَسِيرَهُمْ مَعَهُمْ ...

* * *

لَمْ يَكُنْ « الْهُزْمَرَانُ » يَفْقَهُ شَيْئًا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ .

وَمَا كَانَ يَخْطُرُ بِيَالِهِ أَنَّ هَذَا النَّائِمَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ .

حَقًّا إِنَّهُ كَانَ قَدْ سَمِعَ عَنْ تَقَشُّفِ^(٤) عُمَرَ وَزُهْدِهِ فِي زُخُوفِ الدُّنْيَا
وَزِينَتِهَا .

لَكِنَّهُ مَا كَانَ يَتَخَيَّلُ - مُبْجَرَدَ تَخَيُّلٍ - أَنَّ يَنَامَ قَاهِرُ « الرُّومِ » ، وَكَاسِرُ
« الْأَكَاسِرَةِ » فِي طَرَفِ الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ غِطَاءٍ ...

(٣) دُونَهُ : قَرِيبًا مِنْهُ .

(١) الْبُرْنُسُ : رِداءٌ يَكُونُ غِطَاءَ الرَّأْسِ جِزْءًا مِنْهُ .

(٤) التَّقَشُّفُ : ضَيْقُ الْعَيْشِ ، وَهُوَ ضِدُّ التَّنَعُّمِ .

(٢) الْكَرَى : النِّعَاسُ .

وَلَا وَكَاءٍ^(١)...

وَلَا حَرْسٍ...

وَلَا حُجَّابٍ...

وَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ يَجْلِسُونَ صَامِتِينَ ؛ ظَنَّهُمْ يَتَأَهَّبُونَ لِلصَّلَاةِ .

وَيَتَرَقَّبُونَ قُدُومَ الْخَلِيفَةِ .

لَكِنَّ الْأَخْنَفَ بْنَ قَيْسٍ جَعَلَ يُشِيرُ إِلَى النَّاسِ أَنْ يُمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ،
وَيَكْمُفُوا عَنِ الْجَلْبَةِ لِكَيْ لَا يُوقِظُوا الْخَلِيفَةَ .

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ مِنْ صُحْبَتِهِ لَهُ أَنَّهُ قَلَّمَا يَغْتَمِضُ لَهُ جَفْنٌ فِي لَيْلٍ .

فَهُوَ إِمَّا قَائِمٌ فِي مَحْرَابِهِ يَعْبُدُ اللَّهَ ...

أَوْ مُتَخَفٌ فِي ثِيَابِهِ يَجُوبُ^(٢) أَحْيَاءَ الْمَدِينَةِ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَ الرِّعِيَّةِ ...

أَوْ عَاشٍ^(٣) يَحْرُسُ بَيْتَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الطَّرَاقِ .

فَأَثَارَتْ إِشَارَاتُ الْأَخْنَفِ لِلنَّاسِ انْتِبَاهَ « الْهُزْمَزَانِ » ، فَالْتَفَتَ إِلَى « الْمُغِيرَةِ
ابْنِ شُعْبَةَ »^(٤) - وَكَانَ يَعْرِفُ الْفَارِسِيَّةَ - وَقَالَ :

مَنْ هَذَا النَّائِمُ !!؟ .

فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ :

إِنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ ...

(١) الرِّكَاءُ : مَا يُتَّكَأُ عَلَيْهِ وَيُسْتَنْدُ عَلَيْهِ .

(٢) يَجُوبُ : يَقْطَعُ وَيَتَجَوَّلُ .

(٣) الْعَاشُ : الْحَارِسُ فِي اللَّيْلِ .

(٤) الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : تُوُفِيَ سَنَةَ ٥٠ هـ - ٦٧٠ م . صَحَابِي ثَقَفِي مِنْ دَهَاةِ الْعَرَبِ وَوَلَاتَهُمْ ، وَلَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَعَزَلَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ ، ثُمَّ وَلَاهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ الْبَصْرَةَ ، وَمَاتَ بِهَا .

فَفَغَرَ^(١) «الهُزْمَرَانُ» فَمَهُ دَهْشَةً وَقَالَ : عُمَرُ !!؟ .

أَيْنَ حَرَسُهُ وَحُجَابُهُ !!؟ .

فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ : لَيْسَ لَهُ حَارِسٌ وَلَا حَاجِبٌ .

فَقَالَ «الهُزْمَرَانُ» : يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا .

فَقَالَ الْمُغِيرَةُ : بَلْ يَفْعَلُ فِعْلَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ...

ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ ، وَارْتَفَعَتِ الْجَلْبَةُ .

فَاسْتَيْقَظَ عُمَرُ ، وَاسْتَوَى جَالِسًا ، وَنَظَرَ إِلَى النَّاسِ فِي دَهْشَةٍ ... فَرَأَى

الْأَمِيرَ الْفَارِسِيَّ ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجُهُ الْمُتَوَهَّجُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ ...

وَفِي يَدِهِ صَوْلَجَانُهُ الَّذِي يَخِطِفُ بَرِيقُهُ الْأَبْصَارَ .

فَحَدَّقَ فِيهِ وَقَالَ : «الهُزْمَرَانُ» ؟ .

فَقَالَ لَهُ الْأَخْنَفُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَتَأَمَّلَ عُمَرُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ ، وَاللَّائِي ، وَالْيَوَاقِيتِ ، وَالْحَرِيرِ .

ثُمَّ أَشَاحَ^(٢) بَوَجهِهِ عَنْهُ وَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ...

وَأَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الدُّنْيَا ...

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذَلَّ هَذَا وَأَشْيَاعَهُ لِلْإِسْلَامِ .

ثُمَّ قَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ تَمَسَّكُوا بِهَذَا الدِّينِ ...

وَاهْتَدُوا بِهَذَا نَبِيِّكُمْ الْكَرِيمِ ...

(٢) أَشَاحَ بوجهِهِ : أَمَالَ وَجْهَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ .

(١) فَغَرَ فَمَهُ : فَتَحَ فَاهُ بِدَهْشَةٍ .

وَلَا تُبْطِرُنَّكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَرَارَةٌ^(١)...

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ بَشَّرَهُ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بِالْفَتْحِ...

وَأَخْبَرَهُ بِمَا أَقَاءَ^(٢) اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَنَائِمِ وَقَالَ لَهُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ « الْهُزْمَزَانَ » قَدْ اسْتَأْسَرَ^(٣) لَنَا ، وَطَلَبَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى حُكْمِكَ فِيهِ ، فَكَلَّمَهُ إِذَا بَشِئَتْ .

فَقَالَ : لَا أَكَلِّمُهُ حَتَّى تَخْلَعُوا مَا عَلَيْهِ مِنْ مَظَاهِيرِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ^(٤) .

فَخَلَعُوا عَنْهُ حِلْيَتَهُ وَتَاجَهُ ، وَأَخَذُوا مِنْهُ صَوْلَجَانَهُ ، وَالْبَشُوهُ ثَوْباً صَفِيْقاً^(٥) يَسْتُرُ جَسَدَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ التَّقَتِ إِلَيْهِ عُمَرُ وَقَالَ :

هَيْه يَا « هُزْمَزَانُ » ، كَيْفَ وَجَدْتَ وَبَالَ^(٦) الْعَدْرِ ، وَعَاقِبَةَ أَمْرِ اللَّهِ ؟ !

فَأَطْرَقَ « الْهُزْمَزَانُ » فِي ذِلَّةٍ ثُمَّ قَالَ :

يَا عُمَرُ ، لَقَدْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ ؛ وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَنَا وَلَا مَعَكُمْ ، فَعَلَبْنَاكُمْ ...

فَلَمَّا أَسْلَمْتُمْ وَصَارَ اللَّهُ مَعَكُمْ غَلَبْتُمُونَا ...

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَقَدْ غَلَبْتُمُونَا لِهَذَا الَّذِي ذَكَرْتَ ، وَلَأَمْرٍ آخَرَ هُوَ اجْتِمَاعُكُمْ وَتَفَرُّقُنَا ...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ بِشِدَّةٍ وَقَالَ :

(١) غَرَارَةٌ : خَدَاعَةٌ .

(٢) أَقَاءَ : أَعْطَى وَمَنَحَ .

(٣) اسْتَأْسَرَ : اسْتَسْلَمَ لَنَا .

(٤) الْأَشْرُ وَالْبَطْرُ : بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

(٥) صَفِيْقاً : كَثِيفَ النَّسْجِ .

(٦) الْوَبَالَ : الْعَاقِبَةُ .

مَا عَذْرُكَ فِي انْتِقَاضِكَ^(١) الْمَرَّةَ تَلَوَ الْمَرَّةَ يَا «هُزْمَرَانُ» !؟ .

فَقَالَ «الهُزْمَرَانُ» : أَخَافُ أَنْ تَقْتُلَنِي .

فَقَالَ عُمَرُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تُخَيِّرَنِي .

فَلَمَّا سَمِعَ «الهُزْمَرَانُ» ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ هَدَأَ رَوْعَهُ^(٢) بَعْضَ الشَّيْءِ .

وَقَالَ : إِنِّي عَطْشَانٌ ؛ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يَشْقُوهُ ...

فَأَتَيْتِي لَهُ بِمَاءٍ فِي قَدَحٍ غَلِيظٍ ، فَتَأَمَّلَهُ وَقَالَ :

لَوْ مِتُّ عَطْشًا لَمْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَشْرَبَ فِي مِثْلِ هَذَا الْإِنَاءِ ...

فَأَمَرَ عُمَرُ فَأَتَيْتِي لَهُ بِمَاءٍ فِي إِنَاءٍ يَوْضَاهُ ...

فَلَمَّا أَخَذَهُ فِي يَدِهِ جَعَلَتْ يَدُهُ تَرْتَجِفُ .

فَقَالَ : لَهُ عُمَرُ : مَا بِكَ ؟ .

فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُقْتَلَ وَأَنَا أَشْرَبُ هَذِهِ الْجُرْعَةَ مِنَ الْمَاءِ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : « لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرَبَهَا » .

فَمَا كَانَ مِنْ «الهُزْمَرَانِ» إِلَّا أَنْ كَفَأَ^(٣) الْإِنَاءَ ، وَسَفَخَ^(٤) الْمَاءَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَحْضِرُوا لَهُ مَاءً غَيْرَهُ ، وَلَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِ الْقَتْلَ وَالْعَطَشَ .

فَقَالَ «الهُزْمَرَانُ» : لَا حَاجَةَ لِي بِالْمَاءِ ...

وَلِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَأْمِنَ^(٥) بِهِ عَلَى نَفْسِي مِنَ الْقَتْلِ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : إِنِّي فَأْتِلُكَ .

(١) انتقاضك : خيانتك لعهدك .

(٢) رَوْعُهُ : خوفه .

(٣) كَفَأَ : أَوْع .

(٤) سَفَخَ الْمَاءَ : أَرَاهُ .

(٥) أَسْتَأْمِنُ بِهِ : أُنَالِ الْأَمَانَ بِوَسْاطَتِهِ .

فَقَالَ « الْهُزْمَزَانُ » : لَقَدْ أَمَّنْتَنِي .

فَقَالَ عُمَرُ : كَذَبْتَ .

فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : صَدَقَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فَقَدْ أَمَّنْتَهُ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَيْحَكَ ^(١) يَا أَنَسُ ؛ أَأَوَّمْنُ قَاتِلَ أَخِيكَ « الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ » ،
وَ« مَجْزَأَةَ بْنِ ثَوْرٍ » ^(٢) ؟ ! ...

هَيْهَاتَ ...

فَقَالَ أَنَسُ : لَقَدْ قُلْتَ لَهُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تُخْبِرَنِي ، وَقُلْتَ لَهُ :
لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرَبَ الْمَاءَ .

وَأَيَّدَ الْأَخْنَفُ قَوْلَ أَنَسٍ ، وَأَقَرَّ الْحَاضِرُونَ بِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَمَّنَ
« الْهُزْمَزَانُ » .

فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى « الْهُزْمَزَانِ » مُغْضَبًا وَقَالَ :

لَقَدْ خَدَعْتَنِي ^(٣) ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَنْخَدِعُ إِلَّا لِمُسْلِمٍ .

فَأَسْلَمَ « الْهُزْمَزَانُ » ، وَفَرَضَ لَهُ عُمَرُ الْفَيْنَ .

* * *

لَقَدْ كَانَ يُقْلِقُ بَالُ عُمَرَ كَثْرَةُ نَقْضِ « الْفُرْسِ » لِعُهُودِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَأَنْقِلَابُهُمْ عَلَيْهِمْ .

فَجَمَعَ رِجَالَ الْوَفْدِ الَّذِي قَدِمَ مَعَ « الْهُزْمَزَانِ » وَقَالَ لَهُمْ :

(١) ويح : كلمة تستعمل للتعجب .

(٢) البراء بن مالك ، وَمَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ : من كبار مجاهدي الصحابة ، انظرهما في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) خدعتني : أظهرت لي خلاف ما تخفيه .

أَيُّوْذِي الْمُسْلِمُونَ أَهْلَ الذِّمَّةِ ، وَيُسَيِّئُونَ مُعَامَلَتَهُمْ ؛ فَيَنْتَقِضُوا عَلَيْهِمْ ؟ .
فَقَالَ رِجَالُ الْوَفْدِ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَسَاءَ لَهُمْ
مُعَامَلَةً .

أَوْ خَفَرَ^(١) لَهُمْ ذِمَّةً ...

أَوْ عَشَّهُمْ فِي عَقْدٍ ...

فَقَالَ عُمَرُ : فَمَا لَهُمْ يَنْقَلِبُونَ عَلَيْكُمْ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُمُ الْفُرْصَةُ عَلَى الرَّغْمِ
مِمَّا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنْ عُقُودٍ ؟ .

فَأَجَابَ الْوَفْدُ بِكَلَامٍ لَمْ يُفْنِعْ عُمَرَ ، وَلَمْ يَسْتَرْخِ لَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ :

أَنَا أُخْبِرُكَ بِمَا سَأَلْتَ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فَقَالَ : إِنَّكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ نَهَيْتَنَا عَنِ الْاِنْسِيَا حِ فِي بِلَادِ
« الْفُرْسِ » .

وَأَمَرْتَنَا بِالْاِقْتِصَارِ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا مِنْ أَرَاضِيهِمْ وَمُدُنِهِمْ .

وَإِنَّ « الْفُرْسَ » مَا دَامَ لَهُمْ مَلِكٌ حَيٌّ ، وَمُلْكٌ قَائِمٌ ... فَسَيَقَاتِلُونَنَا الْكَرَّةَ
تِلْوَ الْكَرَّةِ ؛ لِاسْتِرْجَاعِ مَا فِي أَيْدِينَا مِنْ قَوْمِهِمْ وَدِيَارِهِمْ .

وَسَيَنْضَمُّ إِلَيْهِمْ مَنْ عَاهَدَنَا كُلَّمَا دَعَاهُ الدَّاعِي ، وَلَا حْتَ لَهُ فُرْصَةُ النَّصْرِ .

وَإِنَّهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لَا يَجْتَمِعُ مَلِكَانِ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ .

(١) خفر ذمتهم : نقض عهدهم .

فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ .

فَلَوْ أَذِنَتْ لَنَا بِالْاِنْسِيَا ح^(١) فِي بِلَادِهِمْ حَتَّى نَقْضِيَ عَلَى مَلِكِهِمْ ، وَنُزِيلَ مُلْكِهِمْ ؛ لَأَنْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ ، وَسَكَنَ جَأْشُهُمْ^(٢) ، وَاسْتَتَبَّ لَنَا الْأَمْرُ .
فَأَطْرَقَ عُمْرُ لَحْظَةٍ ثُمَّ قَالَ :

لَقَدْ صَدَّقَنِي الْأُخْنَفُ ، وَكَشَفَ لِي مَا غَابَ عَنِّي مِنْ شَأْنِ الْقَوْمِ .

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ كَانَ لِمَوْقِفِ الْأُخْنَفِ هَذَا مَا بَعْدَهُ ...

وَكَانَ مِنْ أَثَرِ هَذَا الرَّأْيِ أَنْ عَيَّرَ مَجْرَى التَّارِيخِ (*) ...

(١) الانْسِيَا ح : الانطلاق .

(٢) سَكَنَ جَأْشُهُمْ : هدأت حركتهم .

(*) للاستزادة من أخبار الْأُخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ انظر :

١ - طبقات ابن سعد : ٩٣/٧ .

٢ - طبقات خليفة بن خياط : ٩٣/٧ .

٣ - المعارف لابن قتيبة : ٤٢٣ .

٤ - أخبار أصبهان : ٢٢٤/١ .

٥ - تهذيب ابن عساكر : ١٠/٧ .

٦ - البداية والنهاية : ٣٢٦/٨ .

٧ - تاريخ الإسلام للذهبي : ١٢٩/٣ .

٨ - أُنشدُ الغابة : ٥٥/١ .

٩ - شذرات الذهب : ٧٨/١ .

١٠ - النجوم الزاهرة : ١٨٤/١ .

١١ - العبر : ٨٠/١ .

١٢ - الإصابة : ١٠٠/١ أو الترجمة (٤٢٩) .

أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ لِمَحَاتٍ رَائِعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ

« لَمْ أَرِ أَغْفَلَ وَلَا أَفْضَلَ وَلَا أَوْزَعَ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ »

[يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ]

كَانَ حَسَنَ الْوَجْهِ ، وَسِيمَ ^(١) الطَّلَعَةِ ، عَذْبَ الْمَنْطِقِ ، حُلُوَ الْحَدِيثِ .
لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ ^(٢) ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الَّذِي تَنْبُو عَنْهُ الْعُيُونُ ^(٣) .
وَهُوَ إِلَى ذَلِكَ لَبَّاسُ أُنَيْقِ الثِّيَابِ ، بَهِيَّ الطَّلَعَةِ ، كَثِيرُ التَّعْطُرِ ؛ إِذَا طَلَعَ عَلَى
النَّاسِ عَرَفُوهُ مِنْ طِيبِهِ قَبْلَ أَنْ يَرَوْهُ .

ذَلِكُمْ هُوَ « النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ » الْمُكَنَّى بِأَبِي حَنِيفَةَ .
أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ أَكْمَامَ ^(٤) الْفَقْهِ ، وَاسْتَخْرَجَ أَرْوَاعَ مَا فِيهَا مِنْ طُيُوبِ .

* * *

أَذْرَكَ أَبُو حَنِيفَةَ طَرَفًا مِنْ آخِرِ عَصْرِ بَنِي « أُمَيَّة » ، وَآخَرَ مِنْ أَوَّلِ عَصْرِ بَنِي
« الْعَبَّاسِ » .

وَعَاشَ فِي زَمَنِ أَغْدَقَ فِيهِ الْخُلَفَاءُ وَالْوُلَاةُ عَلَى أَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ إِعْدَاقًا
حَتَّى صَارَ رِزْقُهُمْ يَأْتِيهِمْ رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .
يَبْدَأُ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَكْرَمَ عِلْمَهُ وَنَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَحَزَمَ أَمْرَهُ عَلَى أَنْ يَأْكُلَ
مِنْ كَسْبِ يَمِينِهِ ...

(١) وسيم الطلعة : بهي المنظر .

(٢) الطويل البائن : الشديد الطول .

(٣) تَنْبُو عَنْهُ الْعُيُونُ : تُعْرَضُ عَنْهُ الْأَنْظَارُ ، وَلَا تَرْتَاحُ لِرُؤْيَتِهِ .

(٤) فَتَقَ أَكْمَامَ الْفَقْهِ : أَخْصَبَ الْفَقْهَ وَكَشَفَ عَنْ رَوَائِعِهِ .

وَأَنْ تَكُونَ يَدُهُ هِيَ الْعُلْيَا دَائِمًا ...

* * *

دَعَاهُ « الْمَنْصُورُ » ذَاتَ مَرَّةٍ إِلَى زِيَارَتِهِ ، فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ بَالِغَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِكْرَامِهِ وَالتَّزْحِيْبِ بِهِ ، وَأَذْنَى^(١) مَجْلِسُهُ مِنْهُ ، وَجَعَلَ يُسَائِلُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شُؤْنِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا .

فَلَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ ؛ دَفَعَ إِلَيْهِ بِكَيْسٍ فِيهِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ - عَلَى مَا كَانَ مَعْرُوفًا مِنْ إِمْسَاكِ^(٢) الْمَنْصُورِ - فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنِّي غَرِيبٌ فِي « بَغْدَادَ » ...

وَلَيْسَ لِهَذَا الْمَالِ مَوْضِعٌ عِنْدِي ، وَإِنِّي لَأُخْشَى عَلَيْهِ ...

فَأَحْفَظُهُ لِي فِي بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى إِذَا احْتَجَّتْهُ طَلَبْتُهُ مِنْكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَنْصُورُ إِلَى رَغْبَتِهِ .

غَيْرَ أَنَّ الْحَيَاةَ لَمْ تَطُلْ بَعْدَئِذٍ بِأَبِي حَنِيفَةَ .

فَلَمَّا وُفِّاهُ الْأَجَلَ ؛ وَجَدَتْ فِي بَيْتِهِ وَدَائِعُ لِلنَّاسِ تَزِيدُ عَلَى أَضْعَافِ هَذَا

الْمَبْلَغِ ، فَلَمَّا سَمِعَ « الْمَنْصُورُ » بِذَلِكَ قَالَ :

يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا حَنِيفَةَ ، فَقَدْ خَدَعْنَا ، وَأَنْتَى أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنَّا ، وَتَلَطَّفَ فِي

رَدِّنَا .

وَلَا عَزْوُ^(٣) فَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يُوقِنُ أَنَّهُ مَا أَكَلَ امْرُؤٌ لُقْمَةً أَزْكَى وَلَا أَعَزَّ

مِنْ لُقْمَةٍ يَتَأَلَّهَا مِنْ كَسْبِ يَدِهِ .

(١) أَدْنَى : قَرِيبٌ .

(٢) الْإِمْسَاكُ : ضِدُّ الْجُودِ .

(٣) لَا عَزْوُ : لَا عَجَبٌ .

لِذَلِكَ نَجِدُهُ يُخَصِّصُ شَطْرًا مِنْ وَقْتِهِ لِلتَّجَارَةِ .

فَقَدْ جَعَلَ يَتَجَرَّ بِالْحَزْرِ^(١) وَأَثْوَابِهِ ، وَكَانَتْ تِجَارَتُهُ ذَاهِبَةً آيَةً بَيْنَ مُدُنِ
« الْعِرَاقِ » .

وَكَانَ لَهُ مَتَجَرٌّ مَعْرُوفٌ يَقْصِدُهُ النَّاسُ ؛ فَيَجِدُونَ فِيهِ الصَّدَقَ فِي
الْمُعَامَلَةِ ، وَالْأَمَانَةَ فِي الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ...

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ فِيهِ الذَّوْقَ الرَّفِيعَ أَيْضًا .
وَلَقَدْ كَانَتْ تِجَارَتُهُ تُدِيرُ عَلَيْهِ خَيْرًا وَفَيْرًا ، وَتَحْبُوهُ^(٢) - مِنْ فَضْلِ اللَّهِ -
مَالًا كَثِيرًا .

فَكَانَ يَأْخُذُ الْمَالَ مِنْ جِلِّهِ ، وَيَضَعُهُ فِي مَحَلِّهِ .
فَلَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كُلَّمَا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ ؛ أَحْصَى أَرْبَاحَهُ مِنْ تِجَارَتِهِ ،
وَاسْتَبَقَى مِنْهَا مَا يَكْفِيهِ لِنَفَقَتِهِ ، ثُمَّ يَشْتَرِي بِالْبَاقِي حَوَائِجَ الْقُرَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ ،
وَالْفُقَهَاءِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَأَقْوَاتَهُمْ وَكِسْوَتَهُمْ ...
وَيُخَصِّصُ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَبْلَغًا مِنَ النَّقْدِ الْعَيْنِ ، وَيَدْفَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَيْهِمْ
وَيَقُولُ :

هَذِهِ أَرْبَاحُ بَضَائِعِكُمْ أَجْرَاهَا^(٣) اللَّهُ لَكُمْ عَلَى يَدَيَّ ...

وَاللَّهُ مَا أَعْطَيْتُكُمْ مِنْ مَالِي شَيْئًا .

وَلِنَّمَا هُوَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ فِيكُمْ ...

فَمَا فِي رِزْقِ اللَّهِ حَوْلٌ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ .

* * *

(١) الْحَزْرُ : مَا تُسَجُّ مِنْ صُوفٍ وَحَرِيرٍ . (٢) تَحْبُوهُ : تَعْطِيهِ وَتَهْبِيهِ . (٣) أَجْرَاهَا : حَقَّقَهَا وَأَفَاضَهَا .

وَلَقَدْ شَرَّقْتَ أَحْبَارَ جُودِ أَبِي حَنِيفَةَ وَسَمَاحَتِهِ وَغَرَبْتَ ، وَخَاصَّةً مَعَ
جُلَسَائِهِ وَأَصْحَابِهِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ جُلَسَائِهِ جَاءَ إِلَى مُتَجَرِّهِ يَوْمًا وَقَالَ :

إِنِّي بِحَاجَةٍ إِلَى ثَوْبٍ خَزَّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ : مَا لَوْنُهُ ؟ .

فَقَالَ : كَذَا وَكَذَا .

فَقَالَ : اصْبِرْ حَتَّى يَقَعَ لِي فَأُخَذَهُ لَكَ .

فَمَا إِنَّ دَارَتِ الْجُمُعَةُ^(١) حَتَّى وَقَعَ لَهُ الثَّوْبُ الْمَطْلُوبُ .

فَمَرَّ بِهِ صَاحِبُهُ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ :

قَدْ وَقَعْتُ لِي حَاجَتُكَ ... وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الثَّوْبَ ، فَأَعْجَبَهُ وَقَالَ :

كَمْ أَدْفَعُ لِعِلَامِكَ ثَمَنُهُ ؟ .

فَقَالَ : دِرْهَمًا^(٢) .

فَقَالَ الرَّجُلُ فِي اسْتِعْرَابٍ : دِرْهَمًا وَاحِدًا ؟ ! .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : نَعَمْ .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : مَا كُنْتُ أَظُنُّكَ تَهْزَأُ^(٣) بِي يَا أَبَا حَنِيفَةَ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : مَا هَزَيْتُ بِكَ ...

وَأِنَّمَا اسْتَرَيْتُ هَذَا الثَّوْبَ وَآخَرَ مَعَهُ يَعْشِرِينَ دِينَارًا ذَهَبًا ، وَدِرْهَمٍ مِنْ

الْفِضَّةِ ...

(١) دارت الجمعة : انقضى الأسبوع .

(٢) درهماً : الدرهم من الفضة ، والدینار من الذهب .

(٣) تهزأ بي : تشخر مني .

وَقَدْ بَعْتُ أَحَدَ الثَّوْبَيْنِ بِعِشْرِينَ دِينَاراً ذَهَباً، وَبَقِيَ عَلَيَّ هَذَا يَدْرَهُمْ
وَاحِدٌ .

وَمَا كُنْتُ لِأَرْبَحَ عَلَى جَلِيسِي .

* * *

وَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ تَطْلُبُ ثَوْبَ خَزٍّ ...

فَأَخْرَجَ لَهَا الثَّوْبَ الْمَطْلُوبَ ، فَقَالَتْ لَهُ :

إِنِّي امْرَأَةٌ عَجُوزٌ ...

وَلَا عِلْمَ لِي بِالْأَثْمَانِ ...

وَأَنَّهَا الْأَمَانَةُ ...

فَبِعْنِي الثَّوْبَ بِمَا قَامَ عَلَيْكَ^(١)، وَأَضِفْ إِلَيْهِ قَلِيلاً مِنَ الرِّبْحِ ؛ فَإِنِّي
ضَعِيفَةٌ .

فَقَالَ لَهَا : إِنِّي اشْتَرَيْتُ ثَوْبَيْنِ اثْنَيْنِ فِي صَفْقَةٍ^(٢) وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ إِنِّي بَعْتُ
أَحَدَهُمَا بِرَأْسِ الْمَالِ إِلَّا أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ ؛ فَخُذِيهِ بِهَا ، وَلَا أُرِيدُ مِنْكَ رِبْحاً .

* * *

وَقَدْ رَأَى ذَاتَ يَوْمٍ ثِيَاباً رَثَةً عَلَى أَحَدِ جُلَسَائِهِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّاسُ ، وَلَمْ
يَبْقَ فِي الْمَجْلِسِ إِلَّا هُوَ وَالرَّجُلُ قَالَ لَهُ :

ارْفَعْ هَذَا الْمُصَلَّى وَخُذْ مَا تَحْتَهُ .

فَرَفَعَ الرَّجُلُ الْمُصَلَّى ؛ فَإِذَا تَحْتَهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ : خُذْهَا وَأَصْلِحْ بِهَا مِنْ شَأْنِكَ^(٣) .

(١) بما قام عليك : بالثمن الذي اشتريته به .

(٢) صَفْقَةٌ وَاحِدَةٌ : عَقْدٌ وَاحِدٌ .

(٣) شَأْنُكَ : حَالُكَ ومظهرُكَ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنِّي مُوسِرٌ^(١)، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا .
فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ :

إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ فَأَيْنَ آثَارُ نِعْمَتِهِ !؟ ...
أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ :
(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ) ...
فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُصْلِحَ مِنْ شَأْنِكَ حَتَّى لَا تَعْمَ^(٢) صَدِيقَكَ .

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ جُودِ « أَبِي حَنِيفَةَ » وَبِرِّهِ بِالنَّاسِ ؛ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى عِيَالِهِ
نَفَقَةً تَصَدَّقَ بِمِثْلِهَا عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُحْتَاجِينَ .
وَإِذَا اكْتَسَى ثَوْبًا جَدِيدًا كَسَى الْمَسَاكِينَ بِقَدْرِ ثَمَنِهِ .
وَكَانَ إِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَرَفَ مِنْهُ ضِعْفَ مَا يَأْكُلُهُ عَادَةً ، وَدَفَعَ بِهِ
إِلَى الْفُقَرَاءِ .

* * *

وَمِمَّا يُزَوَّى عَنْهُ أَنَّهُ قَطَعَ عَهْدًا عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَحْلِفَ بِاللَّهِ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ
إِلَّا تَصَدَّقَ بِدِرْهَمٍ فَضَّةٍ .
ثُمَّ تَدَرَّجَ فِي الْأَمْرِ ، فَجَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا إِنْ حَلَفَ بِاللَّهِ لَيَتَصَدَّقَنَّ
بِدِينَارٍ مِنْ ذَهَبٍ ...
فَكَانَ إِذَا حَلَفَ صَادِقًا تَصَدَّقَ بِدِينَارٍ .

* * *

(٢) نغم : تحزن .

(١) موسر : غني .

وَلَقَدْ كَانَ « حَفْصُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ » شَرِيكاً لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي بَعْضِ تِجَارَتِهِ
فَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يُجَهِّزُ لَهُ أَمْتِعَةَ الْخَزْ وَيَبْعَثُ بِهَا مَعَهُ إِلَى بَعْضِ مُدُنِ « الْعِرَاقِ » .
فَجَهَّزَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ مَتَاعاً كَثِيراً ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي ثَوْبٍ كَذَا وَكَذَا عُيُوباً ،
وَقَالَ لَهُ :

إِذَا هَمَمْتَ بِبَيْعِهَا فَبَيِّنْ لِلْمُشْتَرِي مَا فِيهَا مِنْ عَيْبٍ ...
فَبَاعَ « حَفْصُ » الْمَتَاعَ كُلَّهُ ، وَنَسِيَ أَنْ يُعْلِمَ الْمُشْتَرِينَ بِمَا فِي الْأَثْوَابِ
الْمَعْيِبَةِ مِنْ عُيُوبٍ .

وَلَقَدْ أَجْهَدَ^(١) نَفْسَهُ فِي تَذْكِيرِ الرِّجَالِ الَّذِينَ بَاعَهُمُ الثِّيَابَ الْمَعْيِبَةَ ؛ فَلَمْ
يُفْلِحْ^(٢) ...

فَلَمَّا عَلِمَ أَبُو حَنِيفَةَ بِالْأَمْرِ ، وَلَمْ يَتِمَّكَ مِنْ مَعْرِفَةِ الَّذِينَ وَقَعَ عَلَيْهِمُ
الْعَيْبُ^(٣) لَمْ يَسْتَقِرَّ قَرَارُهُ ، وَلَمْ تَطِبْ نَفْسُهُ حَتَّى تَصَدَّقَ بِأَثْمَانِ الْمَتَاعِ كُلِّهَا .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ طَيِّبَ الْمُعَاشَرَةِ ، حُلُوَ الْمُؤَانَسَةِ
يَسْعَدُ بِهِ جَلِيسُهُ ... وَلَا يَشْقَى^(٤) بِهِ مَنْ غَابَ عَنْهُ ، وَلَوْ كَانَ عَدُوًّا لَهُ .
حَدَّثَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ :

سَمِعْتُ « عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ »^(٥) يَقُولُ لِشَفِيَّانَ الثَّوْرِيِّ^(٦) :
يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا أَبْعَدَ أَبَا حَنِيفَةَ عَنِ الْغِيْبَةِ !! ...

(١) أجهد نفسه : عثى نفسه وأتعبها .

(٢) لم يفلح : لم ينجح ولم يصل إلى شيء .

(٣) الغبن : الخديعة في البيع والشراء .

(٤) يشقى به : ضد يسعد به ، أي يتعبه ويتعسه .

(٥) عبد الله بن المبارك : أحد أعلام المسلمين ، وواحد من تابعي التابعين تاجر فذ ، ومجاهد معروف .

(٦) شفيان الثوري : أحد أئمة المحدثين ، لم يكن في زمنه من هو أعلم منه بالحلال والحرام .

فَإِنِّي مَا سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ عَدُوًّا لَهُ بِسُوءٍ قَطُّ .

فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ :

إِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَعْقَلَ مِنْ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى حَسَنَاتِهِ مَا يَذْهَبُ بِهَا .

* * *

وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ كَلِيفاً^(١) بِاِقْتِنَاصِ^(٢) وَدِّ النَّاسِ ، حَرِيصاً عَلَى اسْتِدَامَةِ
صَدَاقَتِهِمْ ...

فَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِهِ الرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ ؛ فَقَعَدَ فِي مَجْلِسِهِ مِنْ غَيْرِ
قَصْدٍ وَلَا مُجَالَسَةٍ^(٣) ...

فَإِذَا قَامَ سَأَلَ عَنْهُ ، فَإِنْ كَانَتْ بِهِ فَاقَةٌ^(٤) وَصَلَهُ ...

وَإِنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ عَادَهُ ...

وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ فَصَاها ...

حَتَّى يَجِرَّهُ إِلَى مُوَاصَلَتِهِ جَرًّا ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ كُفَّه ، وَفَوْقَ ذَلِكَ كُفَّه صَوَامَ نَهَارٍ ...
قَوَامَ لَيْلٍ ...

حَدِيثاً^(٥) لِلْقُرْآنِ ...

مُسْتَعْفِراً فِي الْأَسْحَارِ ...

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ تَوَعُّلِهِ^(٦) فِي الْعِبَادَةِ ، وَانْدِفَاعِهِ فِيهَا ... أَنَّهُ أَقْبَلَ ذَاتَ
يَوْمٍ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ فَسَمِعَهُمْ يَقُولُونَ :

(١) كَلِيفاً : مَوْلَعاً . (٢) اِقْتِنَاصُ : الرِّغْبَةُ فِي الْقُعُودِ . (٣) اَلْمُجَالَسَةُ : اَلرِّغْبَةُ فِي الْقُعُودِ . (٤) الْفَاقَةُ : الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ . (٥) اَلْخَدِينُ : الصَّدِيقُ الْمَوْلَعُ بِصَدِيقِهِ . (٦) تَوَعُّلُهُ : تَعَمُّقُهُ وَاسْتِكْثَارُهُ .

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَرَوْنَهُ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ .

فَمَا إِنْ لَمْ تَسْمَعْ كَلِمَتَهُمْ هَذِهِ مَسْمَعُهُ حَتَّى قَالَ :

إِنِّي عِنْدَ النَّاسِ عَلَى خِلَافٍ مَا أَنَا عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ ...

وَاللَّهِ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنِّي مُنْذُ السَّاعَةِ بِمَا لَا أَفْعَلُ ...

وَلَنْ أَتَوَسَّدَ^(١) فِرَاشاً بَعْدَ الْيَوْمِ فِي لَيْلٍ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ .

ثُمَّ ذَابَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ ، فَكَانَ إِذَا أَرَخَى الظَّلَامَ

سُدُولَهُ^(٢) عَلَى الْكَوْنِ ، وَأُسْلِمَتْ^(٣) الْجُنُوبُ إِلَى الْمَضَاجِعِ ...

قَامَ فَلَيْسَ أَحْسَنَ نِيَابِهِ ، وَسَرَّحَ لِحَيْتَهُ ، وَتَطَيَّبَ ، وَتَزَيَّنَ ...

ثُمَّ يَصِفُّ فِي مِحْرَابِهِ ، وَيَقْطَعُ لَيْلَهُ قَانِئاً^(٤) ، أَوْ مُنْحَنِياً^(٥) بِصُلْبِهِ عَلَى

أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ، أَوْ رَافِعاً يَدَيْهِ بِالضَّرَاعَةِ .

فَلَرُبَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ ...

وَلَرُبَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ ...

فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَهُوَ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ .

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾^(٦) .

وَهُوَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ بُكَاءً يُقَطِّعُ نِيَاطَ^(٧) الْقُلُوبِ .

(١) أتوسد : أضع وسادة تحت رأسي .

(٢) سُدُولُهُ : أستار ظلمته .

(٣) أُسْلِمَتْ الْجُنُوبُ إِلَى الْمَضَاجِعِ : غرقت في نومها .

(٤) قَانِئاً : قائماً بطاعة الله .

(٥) منحنيّاً بصلبه : مكباً .

(٦) سورة القمر : آية ٤٦ .

(٧) نياط القلوب : عروق الأفئدة .

وَيَنْشُجُ^(١) نَشِيجاً مَبْحُوحاً يُفْطِرُ^(٢) الْأَفْئِدَةَ .

* * *

وَلَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى الْفَجْرَ بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ ؛ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِينَ عَاماً ...
مَا تَرَكَ ذَلِكَ خِلَالَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً .

وَأَنَّهُ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تُؤْفِي فِيهِ سَبْعَةَ آلَافٍ مَرَّةً .
وَكَانَ إِذَا قَرَأَ سُورَةَ الزَّلْزَلَةِ أَقْشَعَرَ جِلْدُهُ ...
وَوَجَلَ^(٣) فُؤَادُهُ ...

وَأَخَذَ لِحْيَتَهُ بِيَدِهِ وَطَفِقَ يَقُولُ :
يَا مَنْ يَجْزِي بِمِثْقَالِ^(٤) ذَرَّةٍ خَيْرٍ خَيْراً ...
وَيَا مَنْ يَجْزِي بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ شَرٍّ شَرّاً ...
أَجْرَ عَبْدِكَ التُّعْمَانَ مِنَ النَّارِ ...
وَبَاعِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُقْرَبُهُ مِنْهَا ...
وَأَدْخِلْهُ فِي وَاسِعِ رَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

(١) ينشج : يغمص بالبكاء .

(٢) يُفْطِرُ : يمزق .

(٣) وَجَلَ فؤاده : استشعر الخوف .

(٤) مِثْقَالُ ذَرَّةٍ : وَزْنُ ذَرَّةٍ ، وَالذَّرَّةُ : جزء متناهٍ في الصغر .

أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ وَمَضَاهُ قُوَّةٌ مِنْ عَمَقَتَيْهِ وَزَكَاةٍ

« كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ شَدِيدَ الذَّبِّ عَنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ ...
طَوِيلَ الصَّنْتِ ، دَائِمَ الْفِكْرِ »

[الإمامُ أَبُو يُوسُفَ]

دَخَلَ « أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ » عَلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ وَعِنْدَهُ ثَلَاثَةٌ^(١) مِنْ أَصْحَابِهِ ؛
فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ التَفَتَ مَالِكٌ إِلَى جُلَسَائِهِ ، وَقَالَ :
أَتَذَرُونَّ مَنْ هَذَا ؟ .

فَقَالُوا : لَا .

فَقَالَ : هَذَا « النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ » .

هَذَا الَّذِي لَوْ قَالَ عَنْ هَذِهِ السَّارِيَةِ^(٢) : « إِنَّهَا ذَهَبٌ » لَاحْتَجَّ لِمَا قَالَ ،
وَلَخَرَجَتْ كَذَلِكَ .

* * *

لَمْ يَكُنِ الْإِمَامُ مَالِكٌ مُبَالِغاً فِيمَا وَصَفَ بِهِ أَبَا حَنِيفَةَ مِنْ قُوَّةِ الْحُجَّةِ ،
وَسُرْعَةِ الْبَدِیْهِةِ ، وَتَوَقُّدِ الذَّهْنِ ، وَحِدَّةِ الْخَاطِرِ .

فَقَدْ طَفَحَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ بِأَخْبَارِ مَوَاقِفِهِ مَعَ خُصُومِهِ فِي الرَّأْيِ ،
وَمُنَاوِرَتِهِ فِي الْعَقِيدَةِ ...

وَكُلُّهَا شَوَاهِدٌ عَلَى صِحَّةِ مَا نَعْتُهُ بِهِ الْإِمَامُ مَالِكٌ مِنْ أَنَّهُ لَوْ زَعَمَ لَكَ أَنَّ

(١) الثَّلَاةُ : الْجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ .

(٢) السَّارِيَةُ : الْأُسْطُوَانَةُ ، وَسَارِيَةُ الْمَسْجِدِ عَمُودٌ يَنْصَبُ فِيهِ .

التُّرَابَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ذَهَبٌ لَمَّا وَسِعَكَ إِلَّا أَنْ تُدْعِنَ لِحُجَّتِهِ ، وَأَنْ تُسَلِّمَ
لِدَعْوَاهُ .

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ يُتَاضَلُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيُجَادِلُ مِنْ أَجْلِهِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ « الْكُوفَةِ » أَضَلَّهُ اللَّهُ .

وَكَانَ ذَا قَدْرٍ فِي عُيُونِ بَعْضِ النَّاسِ ، وَصَاحِبَ كَلِمَةٍ مَسْمُوعَةٍ لَدَيْهِمْ .

وَكَانَ الرَّجُلُ يَزْعُمُ لِلنَّاسِ فِيمَا يَزْعُمُهُ لَهُمْ أَنَّ « عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ » ^(١) كَانَ
يَهُودِيًّا فِي أَصْلِهِ ...

وَأَنَّهُ ظَلَّ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَيْضًا ...

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو حَنِيفَةَ مَقَالَتَهُ هَذِهِ مَضَى إِلَيْهِ وَقَالَ :

لَقَدْ جِئْتُكَ خَاطِبًا ابْتَنَّاكَ فَلَانَةَ لِأَحَدِ أَصْحَابِي .

فَقَالَ : أَهْلًا بِكَ وَمَرْحَبًا ...

إِنَّ مِثْلَكَ لَا تُرَدُّ لَهُ حَاجَةٌ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ...

وَلَكِنْ مَنِ الْخَاطِبُ ؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ مُوسُومٌ ^(٢) يَبْنِي قَوْمَهُ بِالشَّرَفِ وَالْغِنَى ...

سَخِيٌّ الْيَدِ ، مَبْسُوطٌ ^(٣) الْكَفِّ ...

حَافِظٌ لِكِتَابِ اللَّهِ جَلٌّ وَعَزٌّ ...

(١) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٢) موسوم : موصوف .

(٣) مبسوط الكف : كريم شديد الكرم .

يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ ...
 كَثِيرُ الْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى ...
 فَقَالَ الرَّجُلُ : بَخٍ بَخٍ^(١) ... حَسْبُكَ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ...
 إِنَّ بَعْضَ مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ صِفَاتِ الْخَاطِبِ يَجْعَلُهُ ، كُفْتًا لِبْنَتِ أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : غَيْرَ أَنَّ فِيهِ خَصْلَةً لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهَا .
 قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ !

قَالَ : إِنَّهُ يَهُودِيٌّ .

فَانْتَفَضَ الرَّجُلُ وَقَالَ : يَهُودِيٌّ ؟ ! ...

أَتُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَزُوجَ ابْنَتِي مِنْ يَهُودِيٍّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ؟ ! ...

وَاللَّهِ لَا أَزُوجُهَا مِنْهُ ، وَلَوْ جَمَعَ خِصَالُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ...
 فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ :

تَأْتِي أَنْ تُزَوِّجَ ابْنَتَكَ مِنْ يَهُودِيٍّ ، وَتُنْكِرَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ...

ثُمَّ تَزْعُمُ لِلنَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ زَوَّجَ ابْنَتَيْهِ كِلْتَاهُمَا مِنْ يَهُودِيٍّ !! .

فَعَزَّتِ الرَّجُلَ رِعْدَةٌ^(٢) وَقَالَ :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِ سُوءٍ قُلْتُهُ ...

وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ فِرْيَةٍ افْتَرَيْتُهَا^(٣) .

* * *

(١) بَخٍ بَخٍ : كلمة تستعمل للرضى والإعجاب .

(٢) عرته رعدة : ارتعد جسده .

(٣) فرية افتريتها : كلمة باطل قلتها .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّ أَحَدَ الْخَوَارِجِ (١) وَهُوَ «الضَّحَّاكُ الشَّارِي» جَاءَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَالَ :
 تُبُّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ .
 فَقَالَ : مِمَّ أَتُوبُ ؟ !

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : مِنْ قَوْلِكَ بِجَوَازِ التَّحْكِيمِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ : أَلَا تَقْبَلُ أَنْ تُنَازِرَنِي فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟ .

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : بَلَى .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : فَإِنْ اخْتَلَفْنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا نَتَنَازَرُ فِيهِ ؛ فَمَنْ يَحْكُمُ بَيْنَنَا ؟ .

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : حَكْمُ مَنْ تَشَاءُ .

فَالْتَفَتَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ الْخَارِجِيِّ كَانَ مَعَهُ وَقَالَ :

احْكُمْ بَيْنَنَا فِيمَا نَخْتَلِفُ فِيهِ ...

ثُمَّ قَالَ لِلْخَارِجِيِّ : أَنَا رَضِيتُ بِصَاحِبِكَ فَهَلْ تَرْضَى بِهِ أَنْتَ ؟ .

فَسَرَّ الْخَارِجِيُّ وَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : وَيْحَكَ أَتَجَوِّزُ التَّحْكِيمَ فِيمَا يَشْجُرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ (٢) ،

وَتُنْكِرُهُ عَلَى اثْنَيْنِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ !

فَبُهِتَ الْخَارِجِيُّ ، وَلَمْ يُجِزْ جَوَاباً (٣) ...

* * *

(١) الخوارج : هم الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما .

(٢) يشجر بيني وبينك : يقع بيننا من خلاف . (٣) لم يجز جواباً : سكت ، ولم يجب بشيء .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّ « جَهَنَّمَ بَنَ صَفْوَانَ » رَأَسَ الْفِرْقَةَ « الْجَهَنَّمِيَّةِ » الضَّالَّةِ
الْمُبْتَدِعَةِ ، وَزَارِعَ الشَّرِّ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ جَاءَ مَرَّةً أَبَا حَنِيفَةَ وَقَالَ :

لَقَدْ أَتَيْتُكَ لِأُكَلِّمَكَ فِي أَشْيَاءَ هَيَّأْتَهَا لَكَ ...

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : الْكَلَامُ مَعَكَ عَارِ ...

وَالْحَوْضُ فِيمَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ نَارٌ تَلْظِي^(١) .

فَقَالَ جَهَنَّمَ : كَيْفَ حَكَمْتَ عَلَيَّ بِمَا حَكَمْتَ ، وَأَنْتَ لَمْ تَلْقَنِي مِنْ قَبْلُ ،
وَلَمْ تَسْمَعْ كَلَامِي ؟ ! .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَقَدْ بَلَّغْتَنِي عَنْكَ أَقَاوِيلُ لَا تَصْدُرُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ
الْقِبْلَةِ^(٢) .

فَقَالَ « جَهَنَّمَ » : أَتَحْكُمُ عَلَيَّ بِالْغَيْبِ ؟ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَقَدْ شُهِرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَاسْتَفَاضَ^(٣) ...

وَعَرَفَتْهُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ ؛ فَجَاَزَ لِي أَنْ أُثْبِتَهُ عَلَيْكَ بِمَا تَوَاتَرَ عَنْكَ .

فَقَالَ « جَهَنَّمَ » : أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ إِلَّا عَنِ الْإِيمَانِ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : أَوْ لَمْ تَعْرِفِ الْإِيمَانَ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ حَتَّى تَسْأَلَنِي
عَنْهُ ؟ ! .

فَقَالَ « جَهَنَّمَ » : بَلَى ، وَلَكِنِّي شَكَّكْتُ فِي نَوْعِ مِنْهُ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : الشُّكُّ فِي الْإِيمَانِ كُفْرٌ .

(١) تَلْظَى : تَلْتَهَبُ وَتَقْدَفُ بِالشَّرَرِ .

(٢) أَهْلُ الْقِبْلَةِ : الْمُسْلِمُونَ ، وَقَدْ سَمُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ الْقِبْلَةَ فِي صَلَوَاتِهِمْ .

(٣) اسْتَفَاضَ : شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ وَذَاعَ .

فَقَالَ « جَهَنَّمُ » : لَا يَجِلُّ لَكَ أَنْ تَصِمَنِي بِالْكُفْرِ إِلَّا إِذَا سَمِعْتَ مِنِّي مَا يُكْفِّرُ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ .

فَقَالَ « جَهَنَّمُ » : أَخْبِرْنِي عَنْ رَجُلٍ عَرَفَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا نِدَّ (١) ...

وَعَرَفَهُ بِصِفَاتِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...

ثُمَّ مَاتَ وَلَمْ يُعْلِنِ الْإِيمَانَ بِلِسَانِهِ .

أَفَيَمُوتُ مُؤْمِنًا أَمْ كَافِرًا ؟ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَمُوتُ كَافِرًا ، وَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ؛ إِذَا لَمْ يُصْرِّحْ بِلِسَانِهِ عَمَّا عَرَفَهُ بِجَنَانِهِ (٢) مَا لَمْ يَمْنَعَهُ مِنَ التَّصْرِيحِ بِاللِّسَانِ مَانِعٌ .

فَقَالَ « جَهَنَّمُ » : كَيْفَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا وَقَدْ عَرَفَ اللَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ؟ ! .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَتَجْعَلُهُ حُجَّةً كَلَّمْتُكَ بِهِ ...

وَإِنْ كُنْتَ لَا تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَلَا تَرَاهُ حُجَّةً كَلَّمْتُكَ بِمَا نُكَلِّمُ بِهِ مَنْ خَالَفَ

الْإِسْلَامَ .

قَالَ « جَهَنَّمُ » : بَلْ أَوْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَأَجْعَلُهُ حُجَّةً .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ الْإِيمَانَ بِجَارِحَتَيْنِ (٣) اثْنَتَيْنِ :

بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ لَا بِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ...

وَكِتَابُ اللَّهِ وَحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَافِحَانِ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ :

(١) النَّدُّ : التَّحْدِثُ وَالشَّيْبَةُ .

(٢) بِجَنَانِهِ : بِقَلْبِهِ .

(٣) بِجَارِحَتَيْنِ : بِعَضْوَيْنِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ *

فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ،
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ .

فَهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ بِجَنَائِهِمْ ، وَنَطَقُوا بِهِ بِلِسَانِهِمْ ؛ فَأَدْخَلَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ﴿٢﴾ .

فَأَمَرَهُمْ بِالْقَوْلِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا) (٣) ...

فَلَمْ يَجْعَلِ الْفَلَاحَ بِالْمَعْرِفَةِ وَحْدَهَا ، وَإِنَّمَا ضَمَّ إِلَيْهَا الْقَوْلَ .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ...

فَلَمْ يَقُلْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ .

وَلَوْ كَانَ الْقَوْلُ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَيُكْتَفَى بِالْمَعْرِفَةِ مِنْ دُونِهِ لَكَانَ إِبْلِيسُ
مُؤْمِنًا ...

(١) سورة المائدة : من الآية ٨٣ - ٨٥ .

(٣) تفلحوا : تظفروا برضى الله عز وجل ، وتفوزوا بالجنة .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٣٦ .

لَآئَهُ عَارِفٌ بِرَبِّهِ ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ ، وَهُوَ
الَّذِي يَبْعَثُهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَعْوَاهُ^(١) .

قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهِ :

﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾^(٢) .

وَقَالَ : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ^(٣) إِلَى يَوْمٍ يُعْتَدُونَ ﴾^(٤) .

وَقَالَ : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ^(٥) ﴾^(٦) .

وَلَوْ كَانَ مَا تَزَعُمُهُ صَاحِبًا لَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْكَفَّارِ مُؤْمِنِينَ بِمَعْرِفَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ
مَعَ انْكَارِهِمْ لَهُ بِلِسَانِهِمْ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَحَدُوا ^(٧) بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا ^(٨) أَنْفُسُهُمْ ﴾^(٩) .

فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مُؤْمِنِينَ بِاسْتَيْقَانِهِمْ وَإِنَّمَا عَدُّهُمْ كَافِرِينَ لِجُحُودِ أَلْسِنَتِهِمْ .

وَمَضَى أَبُو حَنِيفَةَ يَتَدَفَّقُ عَلَى هَذَا النَّسْقِ تَارَةً بِالْقُرْآنِ وَأُخْرَى بِالْحَدِيثِ
حَتَّى بَدَأَ الْاِنْبِهَارُ وَالْخِذْلَانُ^(١٠) عَلَى وَجْهِ « جَهْمٍ » ...

وَأَنْسَلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ أَبِي حَنِيفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي شَيْئًا كُنْتُ نَاسِيَهُ ، وَسَأُوجِعُ إِلَيْكَ .

ثُمَّ مَضَى إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ .

* * *

(١) أَعْوَاهُ : أَضْلَاهُ .

(٢) الأعراف : آية ١٢ .

(٣) أنظرني : أمهلني وأخرني .

(٤) سورة الحجر : آية ٣٦ .

(٥) المستقيم : السوي الذي لا عوج فيه .

(٦) سورة الأعراف : آية ١٦ .

(٧) جحدوا : كذبوا وكفروا .

(٨) استيقنتها : علمتها وتحققت منها .

(٩) سورة النمل : آية ١٤ .

(١٠) الخذلان : الضعف وفقدان النصير .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ لَقِيَ طَائِفَةً مِنَ الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ
وُجُودَ الْخَالِقِ جَلٍّ وَعَزَّ، فَقَالَ لَهُمْ :

مَا تَقُولُونَ فِي سَفِينَةِ مَسْحُونَةٍ^(١) بِالْإِنْقَالِ ، مَمْلُوءَةٍ بِالْأُمُتَةِ
وَالْأَحْمَالِ ...

قَدْ أَحَاطَتْ بِهَا فِي لُجَّةِ^(٢) الْبَحْرِ أَمْوَاجٌ مُتَلَاطِمَةٌ ، وَعَصَفَتْ بِهَا رِيَاخٌ
عَاتِيَّةٌ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَجْرِي هَادِيَةً فِي طَرِيقِهَا الْمَرْسُومَةِ ، وَتَمْضِي مُطْمَئِنَّةً إِلَى
غَايَتِهَا الْمَعْلُومَةِ ؛ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَابٍ وَلَا خَلَلٍ وَلَا انْجِرَافٍ ، وَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِهَا
مَلَّاخٌ يُحْكِمُ^(٣) سَيْرَهَا ، أَوْ مُوجَّةٌ يُنْظِمُ خَطْوَهَا ...

أَفَيْصَحَ ذَلِكَ فِي الْفِكْرِ !؟ .

فَقَالُوا : لَا ، إِنَّ هَذَا شَيْءٌ لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَلَا يُحِيزُهُ الْوَهْمُ ، أَتَيْهَا الشَّيْخُ ...

فَقَالَ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ !! .

تُنْكِرُونَ أَنَّ تَجْرِي سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ جُزْئاً مُحْكَمًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا
رُبَانٌ يَتَعَهَّدُهَا ...

وَتُفَرِّقُونَ قِيَامَ هَذَا الْكَوْنِ بِبَحَارِهِ الزَّاخِرَةِ ، وَأَفْلَاكِهِ السَّائِرَةِ ، وَطَيْرِهِ
السَّابِحِ ، وَحَيَوَانِهِ السَّارِحِ مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ يُحْكِمُ صَنْعَتَهُ ، وَمُدَبِّرٍ يُحْسِنُ
تَدْبِيرَهُ !؟ .

تَبَّأُ^(٤) لَكُمْ وَلِمَا تَأْفِكُونَ^(٥) ...

* * *

(١) مسحونة : مملوءة .

(٢) اللُّجَّةُ : أعمق مكان في البحر وأوسع .

(٤) تَبَّأُ : هلاكاً وخساراً .

(٥) تَأْفِكُونَ : تكذبون .

(٣) يُحْكِمُ : ينظم ويحدّد .

وَبَعْدَ ، فَقَدْ قَطَعَ أَبُو حَنِيفَةَ رِحْلَةَ الْحَيَاةِ كُلَّهَا ؛ يُنَافِحُ عَنْ دِينِ اللَّهِ بِمَا
وَهَبَهُ الْخَالِقُ مِنْ حُجَّةٍ بِالْعَةِ ...

وَيُجَادِلُ عَنْ شَرْعِهِ بِمَا حَبَاهُ اللَّهُ مِنْ مَنْطِقٍ فَذُّ .

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ ؛ وَجَدُوا فِي وَصِيَّتِهِ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَهْلِهِ أَنْ يَدْفِنُوهُ فِي أَرْضِ
طَبِيبَةٍ ، وَأَنْ يُجَنَّبُوهُ كُلَّ مَكَانٍ فِيهِ شُبْهَةٌ غَضَبٍ ^(١) .

فَلَمَّا بَلَغَتْ وَصِيَّتُهُ « الْمَنْصُورَ » قَالَ :

مَنْ يَعْذِرُنَا ^(٢) مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ حَيًّا وَمَيِّتًا ؟ .

* * *

وَلَقَدْ أَوْصَى أَبُو حَنِيفَةَ بِأَنْ يَتَوَلَّى غَسْلُهُ « الْحَسَنُ بْنُ عَمَّارَةَ » ، فَلَمَّا غَسَلَهُ
قَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ، وَعَفَّرَ لَكَ جَزَاءَ مَا قَدَّمْتَ .

فَإِنَّكَ لَمْ تُفْطِرْ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ...

وَلَمْ تَتَوَسَّدْ بِاللَّيْلِ يَمِينَكَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...

وَلَقَدْ أَتَعَبْتَ الْفُقَهَاءَ مِنْ بَعْدِكَ ... (*) .

(١) شبهة غصب : شك في أنه أخذ غصباً .

(٢) من يعذرنا : من يرفع عنا اللوم والعتاب .

(*) للاستزادة من أخبار أبي حنيفة الثَّقَمَانِ انظر .

٦ - العبر : ٣١٤ / ١ .

١ - البداية والنهاية : ١٠٧ / ١٠ .

٧ - تاريخ بغداد : ٣٢٣ / ١٣ - ٣٢٤ .

٢ - وفيات الأعيان : ٤١٥ / ٥ - ٤٢٣ .

٨ - تاريخ البخاري : ٨١ / ٨ .

٣ - النجوم الزاهرة : ١٢ / ٢ .

٩ - الجرح والتعديل : ٤٤٩ / ٨ - ٤٥٠ .

٤ - شذرات الذهب : ٢٢٧ / ١ - ٢٢٩ .

١٠ - ميزان الاعتدال : ٢٦٥ / ٤ .

٥ - مرآة الجنان : ٣٠٩ / ١ .

فهرس ألبائي للتابعين

(أ)

- أبو حازم الأعرج = سلمة بن دينار ٣٧٨ ، ٣٦٨
 أبو حنيفة الثقفان ٤٩٤ ، ٤٨٤
 أبو العالية = رفيع بن مهران ١٩٧
 أبو مسلم الحولاني ٣٥٤
 الأختف بن قيس ٤٦٨ ، ٤٥٧
 أضحة بن أبجر = النجاشي
 إلياس بن معاوية الخزني ٦٥

(ح)

- الحسن البصري ٩٥
 حسن بن يسار = الحسن البصري

(ذ)

- ذكوان بن كيسان = طاووس بن كيسان

(ر)

- الربيع بن خثيم ٥٢
 ربيعة بن أبي عبد الرحمن = ربيعة الرأي
 ربيعة الرأي ١٤٤ ، ١٣٥
 رجاء بن حيوة ١٥٥
 رفيع بن مهران ٤٤٣

(ز)

- زئير العابد ٣٣٧

(س)

- سالم بن عبد الله بن عمر ٣٧٨ ، ٣٦٨
 سعيد بن جبير ٢١٠
 سعيد بن المسيب ١٩٧
 سلمة بن دينار ١٨٥

(ش)

- شريح بن الحارث الكندي = شريح القاضي
 شريح القاضي ١١١
 الشقي = عامر بن شراحيل

(ص)

- صلة بن أسيمة العدوي ٣١٤

(ض)

- الصحاك بن قيس السعدي = الأختف بن قيس

(ط)

- طاووس بن كيسان ٢٨٩ ، ٢٨١

(ع)

- عامر بن شراحيل ١٧٢
 عامر بن عبد الله التميمي ٢٢
 عبد الرحمن العافقي ٤٠٥ ، ٣٨٩
 عبد الله بن ثوب = أبو مسلم الحولاني

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ ١٢٤
 مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ = مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ
 مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ ٢٤٠، ٢٢٩

(ن)

النَّجَاشِيُّ ٤٢١
 النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ بْنِ الْمُرُزْبَازِ = أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ

عُرْوَةُ بْنُ الزُّرَيْعِرِ ٣٨
 عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ٩
 عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ = زَيْنُ الْعَابِدِينَ
 عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ٨٠، ٢٥٥، ٣٢٦

(ق)

الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ٣٠٠

(م)

مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ ٢٦٥

محتوى الكتاب

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٩.....	١ عطاءُ بن أبي رباح
٢٢.....	٢ عامرُ بن عبد الله التميمي
٣٨.....	٣ عروةُ بن الزبير
٥٢.....	٤ الربيعُ بن خثيم
٦٥.....	٥ إياسُ بن معاوية المزي
٨٠.....	٦ عمرُ بن عبد العزيز « وابنه عبد الملك »
٩٥.....	٧ الحسنُ البصري
١١١.....	٨ سُريحُ القاضي
١٢٤.....	٩ مُحَمَّدُ بن سيرين
١٣٥.....	١٠ ربيعةُ الرأي (أ)
١٤٤.....	١١ ربيعةُ الرأي (ب)
١٥٥.....	١٢ رجاءُ بن حيوة
١٧٢.....	١٣ عامرُ بن شراحيل
١٨٥.....	١٤ سلمةُ بن دينار
١٩٧.....	١٥ سعيدُ بن المسيب
٢١٠.....	١٦ سعيدُ بن جبير
٢٢٩.....	١٧ مُحَمَّدُ بن واسع الأزدي « شيخُ الزاهدين في عصره »
٢٤٠.....	١٨ مُحَمَّدُ بن واسع الأزدي « عابدُ البصرة وزينُ الفقهاء »

- ١٩ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ «لَمَحَاتُ رَائِعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ» ٢٥٥
- ٢٠ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ٢٦٥
- ٢١ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ «حِكَايَتُهُ مَعَ الْوَالِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ» ٢٨١
- ٢٢ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ «الْوَاعِظُ الْمُرْسِدُ» ٢٨٩
- ٢٣ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ٣٠٠
- ٢٤ صِلَّةُ بْنُ أَشِيَمِ الْعَدَوِيِّ ٣١٤
- ٢٥ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ «وَقَفَاتُ ثَلَاثَ مَعَهُ» ٣٢٦
- ٢٦ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ٣٣٧
- ٢٧ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ ٣٥٤
- ٢٨ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ «حَفِيدُ الْفَارُوقِ» ٣٦٨
- ٢٩ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ «الْعَالِمُ الْعَامِلُ» ٣٧٨
- ٣٠ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ «أَمِيرُ الْأَنْدَلُسِ» ٣٨٩
- ٣١ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ «بَطْلُ مَعْرَكَةِ بِلَاطِ الشُّهَدَاءِ» ٤٠٥
- ٣٢ النَّجَاشِيُّ ٤٢١
- ٣٣ رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ ٤٤٣
- ٣٤ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ «يَسُودُ بَنِي تَمِيمٍ» ٤٥٧
- ٣٥ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ «يَتَنَلَّمُ عَلَى يَدَيِ الْفَارُوقِ» ٤٦٨
- ٣٦ أَبُو حَنِيفَةَ الثُّعْمَانُ «لَمَحَاتُ رَائِعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ» ٤٨٤
- ٣٧ أَبُو حَنِيفَةَ الثُّعْمَانُ «وَمَضَاتُ فِدَّةٍ مِنْ عِبْقَرِيَّتِهِ وَذَكَائِهِ» ٤٩٤
- ٥٠٥ فهرس ألفبائي للتابعين ٥٠٥